Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدكتور علي الوردي

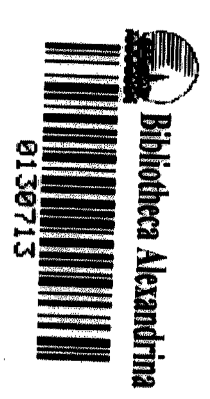
استاذ متمرس

بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الثاني

من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٧٢







الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الثاني

من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٧٢

مطبعة الارشاد ـ بغداد
١٩٧١



المقدمة

ان هذا الجزء الذي بين يدي القارىء يختلف عن الجزء الذي سبقه من ناحيتين : أولاهما ان الجزء الأول كاد يستوعب أحداث ثلاثة قرون ، أما هذا الجزء فلا يستوعب سوى أحداث نصف قرن تقريباً ، وذلك من بداية ولاية علي رضا باشا عام ١٨٣١م الى نهاية ولاية مدحت باشا عام ١٨٧٢م • ويرجع السبب في هذا الى قلة المراجع المتوفرة لدينا عن الاحداث البعيدة وكثرتها عن الأحداث القريبة • ومن الممكن القول بوجه عام انه كلما كان العهد أقرب الينا كانت المراجع فيه أوفر • وسيرى القارىء في بعض الاجزاء القادمة أن الواحد منها قد يقتصر على أحداث سنوات قليلة كما هو الحال في الجزء الخاص بالحرب العالمية الاولى أو الجزء الخاص بثورة العشرين •

والناحية الثانية هي أن الجزء الاول اهتم كثيراً بأحداث ايران لما كان لها من علاقة وثيقة بأحداث العراق ، أما الجزء الحالي فقد أهتم بأحداث مصر والشام اكثر من اهتمامه بأحداث ايران ، وهذا أمر له دلالته اذ أن المجتمع العراقي أخذ منذ القرن التاسع عشر يتحوّل في اتجاهاته الاجتماعية والفكرية من الشرق الى الغرب ، أو بعبارة اخرى من الوعي الطائفي الى الوعي القومي •

كان العراق في القرون الثلاثة التي سبقت القرن التاسع عشر لا يعرف عما يحدث في مصر والشام الا قليلاً • انه كان مشغولاً بالصراع الهائل الذي نشب بين الدولة العثمانية والصفوية وما نتج عنه من منازعات ومذابح طائفية • وعندما حل القرن التاسع عشر أخذت رياح التمدين والتجديد تأتي من جهة الغرب عن طريق مصر والشام ، وقد وقع العراق تحت تأثيرها شيئاً فشيئاً • ومعنى هذا ان العراق بدأ يشهد ظاهرة اجتماعية لا عهد له بها من قبل ، فبعدما كان الصراع الطائفي هو الذي يشغل

الأذهان فيه ظهرت بوادر صراع من نوع جديد هو الصراع بين القديم والجديد •

الواقع أن الدولة العثمانية كانت تعاني من الصراع بين القديم والجديد منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ولكن الذي هزها هزاً عنيفاً وجعلها تتجه نحو الجديد هو فتح نابليون لمصر في نهاية ذلك القرن وما أعقبه من ظهور محمد علي باشا وفتح ابنه ابراهيم باشا لبلاد الشام ، فقد أدركت الدولة العثمانية اذ ذاك أن من الضروري لها أن تتطور وأن تسير في طريق الحضارة الحديثة والا فهي محكوم عليها بالفناء حتماً • وصارت الدولة منذ ذلك الحين تحاول تجديد أجهزتها وتصليح فيها بمقدار جهدها • وقد وصل أثر هذا التجديد الى العراق ببطء ، ولكنه وصل على أي حال وأخذ العراق يتحسس به شيئاً فشيئاً ، وبذا أصبح العراق ميدانا للصراع بين التراث الاجتماعي الذي كان سائداً فيه قديماً وما جاء به الزمن من تيار حضاري حديث •

من معالم التراث القديم :

أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب الى أن التراث الاجتماعي الذي كان سائداً في العراق يتميز بأمرين هما التعصب الطائفي والمد البدوي ، وذكرنا أن هذين الأمرين هما في الحقيقة وجهان لشيء واحد ، فالطائفية ليست ديناً انما هي نوع من الانتماء القبلي الى مذهب أو شخص معين ، والفرد الطائفي حين يتعصب لمذهبه لا يهتم بما في المذهب من مبادىء خلقية أو روحية ، فذلك أمر خارج عن نطاق تفكيره ، وكل ما يهتم به هو ما يوحي به التعصب من ولاء لجماعته وعداء لغيرهم • انه بعبارة أخرى ينظر الى طائفته كما ينظر البدوي الى قبيلته •

كان العراقيون بالرغم من اختلاف المذهب الذي يدينون به ظاهراً لا يختلفون في التراث الاجتماعي المسيطر عليهم ، أي في العادات والقيم

والمفاهيم التي توجه سلوكهم في الحياة ، فهم جميعاً كانوا يسيرون على المبدأ البدوي القائل : « أنصر اخاك ظالماً أو مظلوماً »[1] ، وكانت قيمة الرجل في نظرهم تقاس بمقدار ما يبدي من نخوة وسخاء في عشيرته من جهة وما يبدي من شجاعة واقدام في غزو الآخرين من الجهة الأخرى •

وتتضح هذه القيم في سلوك أهل الريف الى حد كبير • يقال ان المرأة في الريف كانت تختزي من زوجها اذا لم يكن « رجل ليل » يقطع الطرق ويسطو على البيوت ، وكثيراً ما كان الرجل الريفي يقوم بالغزو ارضاءاً لزوجته واكتساباً لاعجابها[2] •

ويروى عن فرحان شيخ شمر أنه نزل ذات يوم في قرية المشاهدة الواقعة في شمال بغداد فرأى رجالها ضخام الاجسام فسألهم : هل تغزون ؟ ولما ذكروا أنهم لا قدرة لهم على الغزو قال : « اغزوا من هم أطكع منكم »[3] ، وكان يقصد من ذلك أنهم اذا كانوا ضعفاء لا يقدرون على الغزو فليغزوا من هم أضعف منهم •

ويحدثنا السائح بكنغهام عن الوضع الاجتماعي في العراق ، وكان قد زاره في عام ١٨١٦م ، فيقول ان بعض الريفيين فيه كانوا يرون أفضل ما ينبغي أن يفعلوه حين لا يجدون عملاً يشتغلون به هو أن يمتطوا خيولهم ويذهبوا لقطع الطريق ، وهم يظلون يتجولون يرقبون القوافل المارة والمسافرين فاذا وجدوا من يقدرون عليه هجموا عليه ونهبوه ،

---

(١) يظن بعض الناس خطأً أن هذا حديث نبوي ، والواقع أنه مبدأ بدوي قديم وقد حوّله النبي الى مبدأ اسلامي حين قال : اذا كان اخوك ظالماً فاردعه عن ظلمه ففي ذلك نصره • ولكن هذا المفهوم الاسلامي لم يدرك البدو مغزاه بل ظلوا على دأبهم القديم ينصرون ابن قبيلتهم في الحق والباطل على السواء •

(٢) عباس العزاوي (عشائر العراق) بغداد ١٩٣٩ ـ ج١ ص٣٤٩ •

(٣) عبدالجبار الراوي (البادية) بغداد ١٩٤٩ ـ ص٢٤١ •

والا تحولوا عنه الى هدف آخر . وقد وقع هـــذا فعلاً على القافلة التي كان بكنغهام مســـافراً معها بالقرب من بلدة قزلرباط التي تســمى الآن بـ « السعدية » ، فقد اقترب منها ثلاثة فرسان يحملون الرماح بغية نهبها ، فخرج اليهم بكنغهام وكان في زي رجل عربي مع رجلين من القافلة وكانا ايرانيين ، ويقول بكنغهام يصف المقابلة بين الفريقين : « كنا ثلاثة ، اثنان من الفرس ممن يحملون بنادق تشعل بثقاب الكبريت ، وأنا نفسي ، وقد كنت أحمل رمحاً من النوع الذي كان أولئك الاعراب يحملونه ، وقد أسرعنا بخيولنا لملاقاتهم ، واذ أطلقنا طلقة في الهواء حين اقتربنا منهم فقد أمرناهم بأن يتوقفوا عن السير . اقترب كل واحد منا من الآخر بحذر ، في الوقت الذي لا تزال فيه القافلة وراءنا على بعد نصف ميل ، وقد ركز كل واحد منا أبصاره على واحد منهم بكل ما تتطلبه المعركة الحقيقية من ريبة وتيقظ ، ورفع كل واحد أسلحته استعداداً للضرب ، وضبط فرسه الدائبة المريبة من تحته بشدة ، وبدوا وكأنهم يستخفون بتمهلنا بسبب نفاذ صبرهم من التطلع الى الغنيمة . وأخيراً وبعد بضع كلمات خشنة تبادلنـا التحية المألوفة (الســـلام عليكم) فأخفضنا أسلحتنا الى جنوبنا ، ورفـع خصومنا ألثمتهم عن وجوههم ... ثم أعطونا اشارة الاذعان والامان ، وعلى هذه الشاكلة انتهى ذلك الأمر ... »[1] .

ان هذه القيم الاجتماعية لم يقتصر وجودها على ســـكان الريف وحدهم بل كانت موجودة أيضاً بين أهل المدن وان كانت فيهم أقل وضوحاً وهي قد تتخذ صوراً شتى حسب اختلاف الأحوال . فالملاحظ أن أطفال المدن اذ يلعبون في الأزقة ينشأ لديهم الميل نحو النهب والغلبة واحترام القوة وبذا ينمو في أذهانهم مفهوم « السبع » و « المخنث » ، فالسبع منهم هو القادر أن يغلب غيره أو يختطف منه شيئاً أو يخدعه ، أما المخنث فهو

---

(١) جمس بكنغهام (رحلتي الى العراق) ترجمة سليم طه التكريتي - بغداد ١٩٦٩ - ج٢ ص١٧٧ .

الذي يكون مغلوباً أو منهوباً أو مخدوعاً ، وهو لذلك يكون ذا منزلة واطئة جداً في نظرهم يستغلونه ويهينونه أو يلوطون به .

والأطفال حين يكبرون تظل تلك القيم كامنة في أعماق نفوسهم ، وهي تظهر تارة وتختفي تارة أخرى حسبما تتيحه لهم الظروف . ومن هنا كان « الاشقياء » ينالون الاعجاب بين أهل المدن بمقدار ما تزداد مقدرتهم في السطو على البيوت وفرض الأتاوة على التجار ومصاولة جنود الحكومة . وقد يحاول بعض وجهاء المدن أن يتشبهوا بالاشقياء أحياناً فيسطوا على البيوت لا من أجل السرقة بل من أجل التحدي والتفاخر .

وقد يفاخر الرجل من أهل المدن بأنه قادر أن يأكل حقوق الآخرين من غير أن يقدر أحد على أكل شيء من حقوقه ، وربما كان هذا هو الدافع اللاشعوري الذي يدفع الكثير من أهل المدن الى المماطلة في أداء الديون أو التهرب منها أو انكارها ، وكأنهم يعدون ذلك نوعاً من الغلبة ودليلاً على « الشطارة » . ومما يلفت النظر أن الرجل منهم اذ يأكل الديون الصغيرة نراه يبذل المال الوفير على الولائم أو المجالس أو المواكب . فهو بخيل من ناحية وكريم من ناحية أخرى ، انما هو في كلتا الحالتين يريد من حيث لا يشعر أن يتشبه بالرجل البدوي الذي هو كما رأينا : « نهاب وهاب » .

وكانت عادة المغالبة شائعة في الأسواق على نطاق واسع . فالبائع ينظر الى الزبون كمثل ما ينظر البدوي الى من يريد أن ينهبه أو يغزوه لكنه يختلف عن البدوي بأنه يحاول التستر والمراوغة بينما البدوي مكشوف السريرة ينهب علانية ويعتبر المراوغة ضعفاً وجبناً .

ان البائع الحضري قد يكون في حياته العامة شهماً مضيافاً ولكنه عند البيع والشراء يتحول الى شخصية أخرى هي شخصية جده البدوي بعد أن يجري تحويراً عليها يلائم حياة السوق . ولا تزال بقايا من ذلك سائدة بين الكثير من أصحاب الدكاكين وذوي الحرف والعمال وغيرهم .

فانت حين توصي على صنع حذاء مثلاً ، ثم تغفل عنه ، تجد الصانع قد غشك أو غبنك على وجه من الوجوه ، أما اذا أردت أن تبني داراً وتغفل عنه فالغش قد يحيط بك من كل الوجوه . وقد سألت أحدهم ذات يوم عن ذلك بعد أن بيّنت له محاسن الأمانة والنصح وكيف أنهما من أسباب النجاح في التجارة ، فأجابني متهكماً اذ قال ما معناه : انه لو اتبع طريق النصح والأمانة في أعماله لأكله الناس الذين اعتادوا على استغلال الانسان الطيب واللعب عليه ، وكان هذا جواباً مقنعاً !

بين الحكومة والشعب :

لا حاجة بنا الى القول ان هذه القيم الاجتماعية لو أتيح لها الانطلاق من غير رادع حكومي يردعها لانتهت الى انتشار الفوضى في البلاد وأكل الناس بعضهم بعضا ، فهي قيم تلائم حياة البداوة في الصحراء ولكنها لا تلائم الحضارة ، ولهذا وجدنا العراق في القرون التي سيطر المد البدوي عليه فيها يسير نحو الخراب تدريجاً .

بلغ الخراب في العراق أسفل دركاته في القرن الثامن عشر ، حتى بلغ عدد سكانه نصف المليون أو أكثر منه قليلاً ، وتضاءلت مدنه كما انحطت الزراعة فيه ، بينما انتعشت فيه القبائل المترحلة ، وانتقل زمام الحكم فعلياً من يد الحكومة الى ايدي رؤساء الاتحادات القبلية[1] .

لاشك ان الحكومة كانت سبباً في ذلك الخراب الذي وصل اليه العراق حينذاك ، اذ هي كانت متفسخة ومريضة الى أبعد الحدود كما هو معروف ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نبرىء جانب الشعب منه ، ومن الممكن القول ان الشعب والحكومة كانا اذ ذاك بمثابة عاملين متفاعلين كل منهما سبب للآخر ونتيجة له في آن واحد ، فضعف الحكومة يؤدي بطبعته الى ازدياد تمسك الشعب بقيمه البدوية ، كما أن تمسك الشعب بقيمه البدوية

---

(١) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ـ الفصل الثالث .

يؤدي بدوره الى زيادة الضعف في الحكومة •

وهنا يجب أن نذكر ان التجديد الذي ظهر في القرن التاسع عشر بدأ من جانب الحكومة أولاً ، وذلك عندما حاول الولاة فرض السيطرة الحكومية على السكان ولا سيما العشائريين منهم ، وكان هذا ايذانا باستفحال الصراع بين الشعب والحكومة •

سنرى في الفصول القادمة كيف أن بعض الولاة اتبعوا سياسة الشدة وأكثروا من سفك الدماء في سبيل فرض السيطرة الحكومية على السكان ، وهذا أمر قد لا نستسيغه من وجهة النظر المثالية اذ لابد لنا من أن نقف الى جانب الشعب ندافع عنه ونشجب سياسة الشدة التي اتخذها الولاة تجاهه ، غير أننا من الوجهة الأخرى نلاحظ أن تلك الشدة كانت ضرورية لاضعاف الروح العشائرية والقيم البدوية في الشعب ، ولولاها لبقي الشعب يأكل بعضه بعضاً حتى يومنا هذا •

كان فقهاء المسلمين قديماً يرون أن الحكومة الجائرة خير من الفوضى التي تنتج من عدم وجود الحكومة ، وهذا في الواقع رأي يصدق على المجتمع العراقي في تلك الآونة الى حد غير قليل ، فقد كانت الحكومة فيه في القرون السابقة كأنها من الناحية الاجتماعية غير موجودة اذ هي تركت الناس يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون ما داموا يدفعون الضريبة المفروضة عليهم ، وقد أدى ذلك الى حالة الفوضى الشاملة والخراب العام التي أشرنا اليها آنفاً •

من أهم الأمور التي دار حولها الصراع بين الحكومة والشعب في القرن التاسع عشر هو نظام التجنيد الاجباري ، فقد حاول الوالي عمر باشا في عام ١٨٥٨م أن يفرض التجنيد على السكان وكان ذلك أمراً جديداً عليهم لا عهد لهم به من قبل فاعترضوا عليه ونقموا منه كثيراً ، وقام بعضهم بما يشبه الثورة عليه ، مما جعل الشاعر المعروف السيد حيدر الحلي ينظم قصيدة يستغيث فيها بالامام الغائب ويتوسل اليه أن يظهر لينقذ الأمة من

تلك الغمة .

يقول سليمان فائق في التعليق على تلك الحادثة وكان معاصراً لها اذ كان قائمقاماً في قضاء خراسان : « ومع أن الأهلين وأفراد العشائر على جانب عظيم من حب الوطن فان الانخراط في سلك الجندية كان عندهم أصعب من الموت ... »[1] . ولست أدرى ماذا يقصد سليمان فائق من كلمته هذه ، فهو يقول ان العراقيين كانوا يحبون الوطن مع العلم أنهم في ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون ما هو الوطن فكيف تراهم يحبون ما لا يعرفون ؟!

ان التفسير الاجتماعي لتلك الحادثة هو أن العراقيين كانوا بحكم نزعتهم البدوية ينظرون الى الحكومة كأنها عدوة لهم تريد الاضرار بهم ولا تريد الخير ، ولما فرضت الحكومة عليهم نظام التجنيد أخذوا يتهربون منه على منوال ما يتهربون من الضريبة أو السخرة أو أي شيء آخر تريده الحكومة منهم .

كان الفرد العراقي مستعداً أن يتحمل أعظم المشاق في سبيل العصبية التي ينتمي اليها ، سواء أكانت قبلية أو محلية أو بلدية أو طائفية ، وهو قد يرمي بنفسه الى الموت عند نشوب معركة بينها وبين أعدائها ، ولكنه عندما تطلب منه الحكومة شيئاً من ذلك لا يستجيب لها وكثيراً ما يحاول النكاية بها بدلاً من التعاون معها .

نظرة مستقبلية :

ان النزعة البدوية التي تغلغلت في المجتمع العراقي خلال مئات السنين لا يمكن أن تزول عنه سريعاً ، انها تتضاءل في قوتها بمقدار ما تنمو قوة الحكومة ازاءها ، غير أنها تظل في أكثر الاحيان كامنة في أعماق

---

(١) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص١٦٧ .

النفوس تترقب الفرصة السانحة لكي تخرج من مكمنها فتعود الى العيث من جديد •

أوضح مثل على ذلك ما حدث في بعض المدن العراقية اثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد حصلت اذ ذاك فترة خليت فيها تلك المدن من أية سلطة حكومية اذ انسحب الجيش العثماني منها قبل أن يدخلها الجيش البريطاني ، وعند هذا انثال الناس على دوائر الحكومة ، وبعض الدور والدكاكين ، ينهبونها ويبعثرون أوراقها وينتزعون أبوابها وشبابيكها وقد يولعون فيها النار •

لا ننكر أن هذا الذي حدث في العراق قد يحدث مثله في أي بلد آخر حين تمر به فترة يخلو فيها من السلطة الحكومية ، غير أن الذي حدث في العراق يختلف عما يحدث في غيره من حيث الطابع البدوي الذي يتميز به ، فالنهابون في العراق يوجهون معظم هجومهم على دوائر الحكومة قبل غيرها ، وكأنهم يريدون الانتقام منها ، وقد يشترك في النهب أشخاص محترمون اذ هم لا يختلفون في ذلك عن المبتذلين والصعاليك وهذا يدل على طابع القيم الاجتماعية السائدة فيهم •

وقد حدث مثل هذا أيضاً خلال الحرب الثانية وبعدها ، مما سنأتي الى ذكره بتفصيل في بعض الاجزاء القادمة من هذا الكتاب ، ومن الممكن القول بوجه عام ان الصراع بين النزعة البدوية والسلطة الحكومية ما يزال قائماً في العراق انما هو سائر في سبيل التضاؤل شيئاً فشيئاً ، ولابد أن يزول عنه في يوم قريب أو بعيد • ان كل سبب يؤدي الى تدعيم السلطة الحكومية بين السكان هو بطبيعته عامل فعال في تقليص النزعة البدوية فيهم •

الفصل الأول

من تاريخ الدولة العثمانية

أحداث مصر والشام

يحسن بنا قبل الشروع بدراسة أحداث العراق أن ندرس شيئاً من تاريخ الدولة العثمانية الذي كان له ارتباط مباشر أو غير مباشر بتلك الاحداث ، وقد خصصت لهذا الموضوع فصلين : أولهما فيما يخص أحداث مصر والشام ، والثاني فيما يخص الصراع بين القديم والجديد •

احتلال الفرنسيين مصر :

الواقع أن فتح القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨م كان من أهم الاحداث التي وقعت للدولة العثمانية في العصر الحديث وهزتها هزاً عنيفاً •

يقول المؤرخ الموصلي ياسين العمري : ان السلطان سليم الثالث لم يعلم بما جرى في مصر الا بعد شهرين ، فلما بلغه الخبر جعل يبكي على الاسلام وأحضر الوزير الاعظم عزت محمد باشا فشتمه ونفاه ، وعزل شيخ الاسلام ، واستدعى يوسف باشا فقلده الوزارة العظمى ، وخرج هذا من اسطنبول بمائة وعشرين ألف فارس(١) •

وكان السلطان قد أعلن الجهاد الديني فاستجاب الكثيرون له في الحجاز والشام وشمال أفريقيا • ففي الحجاز ضج الناس واجتمعوا في الحرم وخطب فيهم رجل من الأشراف يسمى الكيلاني يحضهم على الجهاد

---

(١) ياسين العمري (غرائب الأثر) الموصل ١٩٤٠ ــ ص٤٨ ــ ٤٩ •

فتطوع معه نحو ستمائة من المجاهدين وركبوا البحر نحو الصعيد وهم مصممون على الموت ، فانضم اليهم بعض أهل الصعيد ، وبعض الاتراك والمغاربة ، وأبدوا بسالة في محاربة الفرنسيين • وجاء من درنه في طرابلس رجل لقب نفسه بالمهدي ، وانضم اليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادي وغيرهم ، وسار بهم الى دمنهور فأباد حاميتها الفرنسية[1] •

أما في العراق فكان صدى الحادث ضعيفاً وذلك لبعد المسافة بين البلدين من جهة ، ولانشغال العراقيين بالخطر الوهابي الذي كان يومذاك في عنفوانه من الجهة الأخرى ، فلم يتطوع منهم لمحاربة الفرنسيين سوى رجل كردي اسمه پير رجب بن حسن الزيباري العقراوي ، وكان قد رأى في المنام رسول الله يأمره بالجهاد ويبشره بأنه اذا وصل الى مصر فستُفتح بعد حصار ثلاثة أيام • وذهب الرجل مع عشرين مقاتلاً من الأكراد والتحق بالجيش العثماني فأكرمه يوسف باشا وكتب له فرماناً في أربعين آقجة من خراج الموصل[2] •

والطريف أن ياسين العمري حين يذكر نابليون بونابرت يسميه « برته بول » ويصفه بأنه مقدم الكفار وقائدهم الى الضلال ويقول في شأن اتفاق الدول الغربية ضده ما نصه : « اتفق مع السلطان سليم قرال الانكروس وقرال النمسا وغيرهم على محاربة الفرنسيين وأرسلوا العساكر في المراكب مع مراكب المسقوف وقطعوا الطرق على الفرنسيين وملكوا منهم اثنى عشر مركباً كلها ذخائر وأسلحة وبارود ورصاص ••• »[3] •

ولم ينس ياسين العمري تنبؤات الشيخ محيالدين بن عربي حول هذا الحادث كما هي عادته في الأحداث الأخرى ، فهو ينقل عن كتاب « الشجرة النعمانية » لابن عربي قوله : « ووراءات الاسماء الشريفة تشير

---

(١) عبدالعزيز الشناوي (عمر مكرم) القاهرة ١٩٦٧ ــ ص٤٩ــ٥٠ •

(٢) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٥٨ •

(٣) المصدر السابق ــ ص٥١ •

برموزها الى سفك الدماء وظهور الفساد وخراب البلاد وهي بداية خراب الدنيا ... ويجلس يوسف على سرير يوسف » . ويقول ان في هذا اشارة الى الوزير الأعظم يوسف باشا حين استعاد مصر وجلس على سرير يوسف عليه السلام[1] .

استمر احتلال الفرنسيين لمصر زهاء ثلاث سنوات ، وكان على الرغم من قصر مدته ذا أثر بالغ في المجتمع المصري ، ومن الممكن مقارنته من حيث تأثيره الاجتماعي بالاحتلال البريطاني للعراق اثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد كان الاحتلال الفرنسي سبباً لظهور تغير اجتماعي سريع في مصر وكان بداية لانتقالها من حياة العصور الوسطى الى حياة العصر الحديث .

يقول الدكتور عبدالعزيز الشناوي في هذا الصدد : « تعتبر هذه المحاولة أول غزو عسكري أوربي مسيحي في التاريخ الحديث لبلد عربي اسلامي من بلاد الدولة العثمانية . ولكن هذا الغزو سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا على دول وامارات اسلامية في أواسط آسيا وجزر الهند الشرقية والهند ، غير أن هذه السيطرة المبكرة لم تمس قلب العروبة كما فعلت حملة الجنرال نابليون على مصر »[2] .

ظهور محمد علي :

عندما انسحب الفرنسيون من مصر في عام ١٨٠١م سادت في القاهرة فترة من الفوضى والتنازع على الحكم دامت أربع سنوات ، وفي خلال تلك الفترة بدأت بالظهور شخصية رجل قدّر له أن يكون من أعظم الرجال الذين حركوا التاريخ العربي في العصر الحديث ـ هو محمد علي باشا الملقب بـ « الكبير » .

---

(١) المصدر السابق ـ ص٥٧ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي (المصدر السابق) ص٣٤ .

كان محمد علي من أصـــل ألباني وقد ولد في بلـدة « قوله » في مقدونيا عام ١٧٦٩م ـ وهو نفس العام الذي ولد فيه نابليون ـ وعندما بلغ الرابعة من عمره مات أبواه معاً فعاش يتيماً يعاني الذل والحرمان ، واشتغل بالجندية في أيام شبابه كما اشتغل بالتجارة[١] • وفي عام ١٨٠١م حين وصلت قوات عثمانية الى أبى قير في مصـــر لمحاربة نابليون كان محمد علي من جملة الضباط الصـغار فيها وكاد يغـــرق في البحر اثناء المعركة[٢] ، ولو أنه مات آنذاك لربما سار التاريخ في مصر والبلاد العربية سيرة أخرى غير السيرة التي عرفناها ! •

تسلم محمد علي ولاية مصر في عام ١٨٠٥م واستمر يحكم مصـــر طيلة ثلاثة وأربعين عاماً • والمعروف عنه أنه كان في حكمه جائراً ماكراً شديد القسوة ولكنه كان في الوقت نفسه بانياً من الطراز الأول ، فهـــو الذي اسس مصر الحديثة وجعلها من الناحية الحضارية والثقافية أرقى البلاد العثمانية جميعاً • يقول عنه المؤرخ الألماني بروكلمان : « انه عـلى الرغم من أخطائه وأنانيته يعود اليه الفضل في فتح مصر لتأثيرات الحضارة الأوربية »[٣] •

والغريب في هـــذا الرجل أنه كان أمياً ولم يتعلم القراءة الا في الاربعين من عمره ، غير أنه كان مولعاً بالكتب تُقرأ عليه ، فقد تُرجمت له وقُرأت عليه بعض الكتب عن نابليون ، كما استنســخت له مقدمة ابن خلدون عن مخطوطات مغربية قديمة ثم ترجمت الى اللغة التركية لكي

---

(١) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق) بيروت بدون تاريخ ـ ج١ ص١٩ ـ ٢٢ •

(٢) ج• كرســتوفر هيرولد (بونابرت في مصـــر) ترجمة فؤاد اندراوس ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص٤٣٦ •

(3) Carl Brochelmann (History of The Islamic Peoples) New York 1947—P. 350.

يفهمها ، وكان وزيره أرتين يترجم له عن الايطالية مؤلفات مكيافلي بمعدل عشر صفحات في اليوم الواحد . يقول أرتين : « أما في اليوم الرابع فاستوقفني قائلاً : لقد قرأت كل ما أعطيتني اياه من مكيافالي ، فلم أعثر على شيء جديد يذكر في صفحاتك العشر الأولى الا أنني كنت آمل أن تتحسن الحال . لكن الصفحات العشر الأخرى لم تكن أفضل . أما الأخيرة فلست سوى مجرد عموميات . اني أرى بوضوح أنه ليس لدى مكيافالي ما يمكنني أن أتعلمه منه . فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف ... فلا داعي للاستمرار في ترجمته »[١] .

اعتمد محمد علي في الشؤون الادارية على الاوربيين والاتراك والشراكسة والالبانيين والاكراد، وكان رأيه في المصريين أنهم لا يصلحون الا لحمل الاثقال وسوق الحمير . يقول الدكتور حسين فوزي النجار : « ولا نغمط الرجل حقه ، فقد أقام بناء دولة حديثة ، وحمل المصريين كرها على القيام بالدور العظيم في هذا البناء دون أن يعدهم له أو يقوم بأقل جهد في تقويم روح الشعب لادراك آماله ومراميه ، وحكم البلاد حكماً شرقياً مستبداً باسلوب العثماني الماكر الطموح الحاذق في تدبير المؤامرات، الراغب في التوسع والسلطان، فعاش بمعزل عن سواد الناس بعد أن أبعدهم عن تفكيره ، ولم يسع الى اشراكهم في مسؤولية العمل العظيم الذي يقوم به ، بل لعله كان يراهم دون ذلك ، وما عليهم الا أن يمدوه بحاجته من المال والعمال دون أن يكون لهم رأي فيما يعمل ، وكأن مصر لم تكن غير مزرعة يستثمرها لحسابه على أحدث الأساليب وليس منها عائد الا له وحده ، وللزارع الكفاف أو ما يقيم الأود فحسب ... »[٢] .

---

(١) البرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة) ترجمة كريم عزقول — بيروت ١٩٦٨ — ص٧٢ — ٧٣ .

(٢) حسين فوزي النجار (رفاعة الطهطاوي) القاهرة بدون تاريخ — ص٢٤ — ٢٥ .

يرى بعض الباحثين الاجتماعيين أن محمد علي انما تمكن من بناء الدولة لانه لم يشرك رعاياه في مسئولية الحكم ، ولو كان قد أشركهم فعلاً لعجز عن القيام بما قام به . ففي رأي هؤلاء الباحثين أن جماهير الناس في مثل تلك المرحلة الاجتماعية التي ظهر فيها محمد علي ليس في وسعهم أن يفهموا الأمور على حقيقتها وربما أثرت فيهم الاشاعات والاساطير والأوهام فجعلتهم يندفعون بحماس نحو ما يضرهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون !

كان من أوائل الأمور التي أهتم بهـا محمد علي هو « تحديث » الجيش المصري أي تحويله الى النظام الحديث في التدريب والتسليح . يجب أن لا ننسى ان الجنود في مصر يومذاك كانوا يسيرون على نمط ما اعتادوا عليه وتوارثوه من الأسلاف فلم يكونوا يعرفون الخطوط أو المربعات أو غيرها من النظم العسكرية الحديثة ، بل كانوا عبارة عن « وجاقات » ـ أي فرق ـ ولكل فرقة منهم قائد ، فاذا نزلوا الى ساحة القتال ركب كل واحد منهم فرسه واستل سيفه أو بندقيته أو رمحه وهجم على ما يتراءى له[1] . وكان محمد علي قد شاهد الجنود الفرنسيين وأعجب بنظامهم وهو النظام الذي وضعه نابليون ودوخ به العالم ، فعزم محمد علي أن يبني جيشه على أساسه .

وفي عام ١٨١٩م جاء الى مصر ضابط فرنسي قدير يدعى الكولونيل سيف ، وكان من رجال نابليون ثم أخرج من الجندية بعد سقوطه ، فعهد اليه محمد علي بتدريب جنوده على النظام الحديث[2] ، وقد أخلص

(١) جرجي زيدان (المصدر السابق) ج١ ص٢٣٥ .

(٢) عندما دخل هذا الضابط في خدمة محمد علي أعلن اسلامه وصار يدعى (سليمان باشا الفرنساوي) ، وهو أحد أجداد الملك فاروق من أمه ، وقد أطلق اسمه على شارع مهم من شوارع القاهرة هو الشارع الذي يعرف الان باسم « طلعت حرب » ، وكان له تمثال فيه .

هــذا الرجل في خدمة محمد علي وجعل جيشــه من أكفأ الجيوش في الشرق وربما أكفأها على الاطلاق .

محاربة الوهابيين :

كان السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش العثماني منذ عـام ١٨٠٨م يرسل الكتاب تلو الكتاب الى محمد علي باشا طالباً منه محاربـة الوهابيين وانقاذ الحجاز من أيديهم . والظاهر أن محمد علي كان في قرارة نفسه راغباً في اداء هذه المهمة التي كلفه بها السلطان اذ كان يعتقد أن العناية الآلهية قد سخرته لقتال الوهابيين الذين هم في نظره ونظر السلطان خارجين عن الاسلام[١] .

جهز محمد علي حملة قوية بقيادة ابنه الاكبر طوسون باشا ، وفي عام ١٨١١م عبرت الحملة البحر الأحمر الى ميناء ينبع ثم احتلت المدينـة ومكة . وكان الوهابيون ينسحبون من أمامها حتى اذا حل صيف ١٨١٢م كروا عليها وهزموها هزيمة منكرة مما اضطر محمد علي باشا أن يذهب بنفسه الى الحجاز للاشراف على قيادة الحملة .

يروي المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي في تعليل تلك الهزيمـة عن أحد قواد الحملة أنه قال : « كيف كنا نطمع في النصر وأكثر عسكرنا على غير ملة الاسلام وفيهم من لا يدين بدين ، وكان معنا صناديق الخمر ، ولا تسمع في خيامنا أذانا ، ولا تقام بها صلاة ، ولا تخطر ببالهم شـعائر الدين ، مع أن القوم كانوا اذا حل وقت الصلاة أذن المؤذنون وانتظمـوا صفوفاً خلف امام واحد في خشوع وخضوع ، كل ذلك وجنودنا يعجبون من فعلهم هذا لأنهم لم يسمعوا به »[٢] .

---

(١) بيير كربتيس (ابراهيم باشا) ترجمة محمد بدران ــ القاهرة ١٩٣٧ ــ ص٢٠ .

(٢) ابراهيم جلال بك (من يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ ــ ص ١٥٨ .

عاد محمد علي الى مصر عندما بلغه فرار نابليون من منفاه في جزيرة « البا » ، فقد ظن أن نابليون سيعود الى غزو مصر مرة ثانية • وفي عام ١٨١٦م أرسل محمد علي ابنه الثاني ابراهيم باشا الى الحجاز لقيادة الحملة بدلاً من طوسون باشا الذي كان قد مات من جراء حمى أصابته •

كان ابراهيم باشا عندما تولى قيادة الحملة ضد الوهابيين في السابعة والعشرين من عمره ، ومن طريف ما يروى عنه أنه حين وصل الى المدينة قبل بدء القتال وقف عند قبر النبي وأخذ يتوسل به متضرعاً أن يساعده على قتال الوهابيين « العصاة » وقد تملكه الحماس الديني آنذاك فأقسم أن يعتق جميع عبيده السود والبيض معاً ، وأن لا يذوق الخمر بعد الآن • ويقال انه عند عودته الى المعسكر أمر بأن ترمى كل زجاجات النبيذ الموجودة في مخازن الميرة الى النار[١] •

استطاع ابراهيم باشا أن يهزم الوهابيين وأن يطاردهم في صحرا نجد حتى وصل الى عاصمتهم « الدرعية » • وبعد أن حاصر « الدرعية » بضعة أشهر تمكن من احتلالها في ايلول عام ١٨١٨م ، ثم أسر أميرهم عبدالله بن سعود ، فكان انتصاره عليهم حاسماً •

يمكن القول ان هذا الانتصار الذي ناله ابراهيم باشا كان أول حدث من نوعه في تاريخ الصحراء العربية ، اذ لم يكن قبل ذلك في مقدور أي جيش حضري أن يتغلغل في تلك الصحراء فاتحاً وأن يهزم فيها جموع البدو المتمرسين على القتال فيها والعارفين لمسالكها •

يعزو المؤرخ العراقي ابن سند البصري هذا الانتصار الى المدافع والآلات الحربية الجديدة التي كان الجيش المصري يستعملها في القتال ، فهذه الاسلحة تحتاج كما يقول ابن سند الى علوم وصناعات وهندسة يجهلها البدو ، وهو يصور لنا كيف استولى الرعب على البدو حين

---

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص٢٩ •

سمعوا أصوات المدافع لأول مرة في حياتهم وهي تدوي بين الجبال ، فقد كان لها هدير مخيف لم يعهدوا له مثيلاً من قبل[1] .

ولما وصلت أنباء انتصار الجيش المصري الى البلاد العثمانية عم الفرح فيها ، لا سيما في العراق ، وجرى الاحتفال بالنصر في كل مكان . وكذلك فرحت ايران وأرسل الشاه فتح علي سيفاً مرصعاً ثميناً الى ابراهيم باشا ، كما أرسل اليه ابن سند البصري من العراق قصيدة يمدحه فيها ويحرضه على ذبح الوهابيين كلهم فلا يستثني منهم أحداً حتى الاطفال على اعتبار أنهم لابد أن يكونوا خبيثين ما دام آباءهم كانوا كذلك[2] .

وقد وصف التاجر يوسف بن ديمتري المقدسي بلهجته العامية ما جرى في البصرة من احتفال في تلك المناسبة فقال ما نصه : « وفي ٢٥ ب — أي رجب — نهار الجمعة وصل للبصرة بيرقدار أسعد باشا ومعه صورة فرمان الدولة العلية ودخل في هلاي وتلى الفرمان باسم محمد سعيد باشا والي بغداد وبصرة وشهرزور وبعده بيورلدي من سعادته بتقرير المتسلمية لسليمان بك . وبعده قروا فرمان من الدولة بخصوص انتصار محمد علي باشا والي مصر على الوهابي وبعده بيورلدي بهذا الخصوص وأنه يصير دعا للسلطان محمود خان وصار شنك في الصراي . ومن البلدة والمراكب رموا أطواب وسليمان (بك) أمر على الشنك سبعة أيام الصبح والعصر ... »[3] .

مؤتمر الدرعية :

أراد ابراهيم بعد انتصاره على الوهابيين أن يعقد في الدرعية مؤتمراً

---

(١) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود) اختصار أمين الحلواني — القاهرة ١٣٧١هـ — ص٨٧ ، ٩٦ .

(٢) ابراهيم الوائلي (الشعرالسياسي العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٦١ — ص١٣٣ .

(٣) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) بغداد ١٩٤٨ — ج١ ص٢٢ .

بين علمائهم وعلماء أهل السنة ، وهو مؤتمر يشبه من بعض الوجوه مؤتمر النجف الذي عقده نادر شاه في عام ١٧٤٣م لفض الخلاف بين الشيعة والسنيين ، غير أن مؤتمر النجف انتهى بالاتفاق بين علماء الفريقين[١] أما مؤتمر الدرعية فقد انتهى بذبح العلماء الوهابيين جميعاً .

استدعى ابراهيم باشا اليه علماء الوهابيين وكان عددهم خمسمائة ، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلاً : انه يريد أن يمحو أسباب الخلاف المستحكم بين عقائدهم وعقائد السنة ، وانه أحضر معه من القاهرة جماعة من العلماء السنيين ويود أن يجمع بينهم ليبحثوا الأمر أمامه ويتجادلوا فيه .

انعقد الاجتماع في جامع الدرعية واستمر ثلاثة أيام متوالية ، وكان ابراهيم باشا جالساً يصغي الى الجدال الذي دار بين الفريقين من غير أن يبدي أية ايماءة تدل على تحيّزه لهذا الفريق أو ذاك . وظل يشرف على نظام المؤتمر بصمت فلم يقاطع متكلماً ولم يرفع صوته على أحد ، فلقد كان وجوده كافياً لأن تسري بين المتجادلين روح الحرية والأدب[٢] .

وفي اليوم الرابع أقفل ابراهيم باشا باب الجدل بسؤال وجهه الى كبير العلماء الوهابيين اذ قال له : « هل تؤمن بأن الله واحد وأن الدين الصحيح واحد هو دينكم ؟ » . فلما أجاب العالم الوهابي بكلمة « نعم » رد عليه ابراهيم باشا بلهجته القاهرية قائلا : « ما رأيك في الجنة أيها الخنزير وما عرضها ؟ » ، وكان ابراهيم باشا يقصد من سؤاله هذا أن يشير الى ما جاء في القرآن من أن الجنة عرضها السموات والأرض ، ولم يستطع العالم الوهابي أن يعترض على ذلك طبعاً ، وعند هذا قال ابراهيم باشا : « اذا كان عرضها السموات والارض كما تقول ، واذا وسعتك أنت

---

(١) انظر تفاصيل مؤتمر النجف في الجزء الاول من هذا الكتاب ـ الفصل الخامس .

(٢) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص٤٠ .

وأمثالك رحمة الله فدخلتم الجنة ، ألا تكفي شجرة واحـدة من اشجارها لأن تظلّلكم جميعـاً ؟ فلمن اذن بقية الدار ؟ أسْـألك الجواب » • فسكت العالم الوهابي وأصحابه ولم يستطيعوا التقدم بأي جواب • فلما تبين لابراهيم باشا أنه قطع حجتهم أمر جنوده بقطع رقابهم جميعاً • ولم تنقض سوى دقائق معدودة حتى كان الجميع في عداد الموتى ودفنت جثثهم في ساحة الجامع[1] •

حرب اليونان :

لم تكد الدولة العثمانية تستريح من مشـكلة الوهابيين حتى ظهرت لديها مشكلة أخرى هي مشكلة اليونان • ففي أوائل نيسان من عام ١٨٢١م بدأت بوادر ثورة في اليونان تطالب بالاستقلال ، وهي الثورة التي عرفت في التاريخ العثماني باسم « حرب المورة » •

يقول المؤرخ العراقي ابن سند البصري عن ثورة اليونان ما نصه : « ودخلت سنة ١٢٤٠ وفيها عصت بلاد المورة على الدولة العلية ••• وقتلوا أكثر المسلمين الذين كانوا في تلك البلاد متولدين ومتوطنين منذ قرون طويلة ، وكان المسلمون هم أهل الأراضي والأملاك والمزارع ، وكـان نصارى المورة بصفة خدامين عندهم ، فلا زال أمر النصارى يتقوى بواسطة الكنائس ورؤسائها لما يجتمعون في أعيادهم ومواسمهم وينصحون أمتهـم بالاستقلال ، وشرعوا في تعليم أولادهم الحروب والرمي بالرصـاص ، وأتقنوا أسباب الشجاعة بأنواعها سراً ، وتعلموا الصنائع التي يتولد منهـا الغنى ، وأرسلوا أولادهم الى بلاد أوربا لتعليم الصنائع ، والمسلمون في غاية الغفلة والبلاهة يتركون تربية أولادهم للنساء أو للمخاصي المعبـر عنهم بالأغوات، فلذلك ينشأ الأولاد وعقولهم مثل عقول تلكم المخاصي »[2]•

---

(١) المصدر السابق ــ ص٤٠ ــ ٤١ •

(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١٥٤ ــ ١٥٥ •

عندما بدأت الثورة في اليونان هبت الشعوب الاوربية كلهما تعمل على تأييدها واعتبرتها كأنها المثل الاعلى للثورة ضد الظلم والاحتلال الاجنبي والاستبداد الغاشم ، وتشكلت في مختلف البلدان الأوربية جمعيات سميت بـ « جمعيات محبي اليونان » وأخذت تجمع المال من أجل الثوار وترسل اليهم المتطوعين والأسلحة والذخائر ، وذهب الشاعر البريطاني المعروف اللورد بيرون يحارب في صفوفهم حتى قتل أخيراً في احدى المعارك ، كما ذهب اليهم من امريكا ابن واشنطن ، ونظم فيكتور هوغو الأديب الفرنسي المشهور قصائد حماسية تدعو الشبان الى الانضمام الى الثورة ، فاستجاب لها الكثيرون منهم[١] . يقول المؤرخ البريطاني فيشر : عندما وصل نبأ مقتل اللورد بيرون الى بريطانيا انتشر الحماس الرومانطيقي فيهـا لتأييد الثورة اليونانية انتشاراً واسعاً في الشوارع والحانات ، واعتبر بيرون شهيد الحرية اليونانية ، وصار اسم اليونان كأنه تعويذة سحرية[٢] .

أما في البلاد العثمانية فكان الناس ينظرون الى الثورة من وجهة نظر مناقضة لتلك التي كانت في أوربا ، فقد صارت « حرب المورة » في نظرهم كأنها مؤامرة من قبل الأوربيين للقضاء على الاسلام ، فأعلن الجهاد في كل مكان ، وانطلق الخطباء في المساجد يدعون المسلمين للدفاع عن دينهم ، وأخذ الشعراء ينظمون القصائد الحماسية في سبيل ذلك . خذ العـراق مثلاً فهو على الرغم من بعده عن اليونان تأثر بما جرى فيها فأعلن فيـه النفير العام وأهيب بالمسلمين جميعا ـ الشيعة وأهل السنة على السواء ـ أن ينهضوا لمكافحة عدو الله والاسلام وأن يقدم كل فرد منهم ما يستطيعه[٣] .

---

(١) محمد فريد بك (تاريخ الدولة العلية العثمانية) القـاهرة ١٩١٢ ـ ص٢٠٩ .

(2) H.A.L. Fisher (A Histary of Europe) London 1944 — P. 879.

(٣) عبدالعزيز نوار (داود باشا) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص٢٤٤ .

وانبرى الشعراء ينظمون القصائد في ذلك[١] .

دامت الثورة بضع سنوات أريقت فيها دماء كثيرة ، ففي بداية الثورة كان الثوار اليونانيون قد هجموا على الاتراك الساكنين بينهم فذبحوهم عن بكرة أبيهم بما فيهم النساء والاطفال وحين وصل خبر هـذه المذابح الى اسطنبول والمدن التركية الأخرى هبالاتراك لينتقموا لاخوانهم من اليونانيين الساكنين في بلادهم ، ووقعت من جراء ذلك مذابح في اسطنول وأزمير وسلانيك وقبرص لا تقل بشاعة عن تلك التي وقعت في بلاد اليونان[٢] . يقول المؤرخ الأمريكي شفيل : ان هذه المذابح دلت عـلى أن الاتراك واليونانيين جميعاً متوحشون وأن القتال بينهم كان قتال افناء[٣] .

ويروى المؤرخ الشامي محمد كرد علي : أن الدولة العثمانية أرادت أن تقتل الطائفة الارثودكسية في الشـام انتقاماً لما فعل أبناء مذهبهم في اليونان ، فأمرت والي دمشق بأن يقتلهم ولكن الوالي كان عاقلاً عـلى ما يظهر فأحال القضية على مجلس دعا اليه الاعيان وأرباب الشأن ، وكان جواب هؤلاء : « ليس عندنا مفسدون من النصارى ، وجميعهم ذميـون وعاملون بشروط الذمة لا تجوز أذيتهم ، والرسول أوصانا بالذميين ، ونحن لا نقـدر أن نتحمل تبعة قتلهـم » . ثم كتبوا محضـراً بذلك ، ونجا النصارى[٤] .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الصحف الأوربية كانت تتجاهل أخبار المذابح الفضيعة التي قام بها المسيحيون في اليونان ضد المسلمين بينما

---

(١) ابراهيم الوائلي (المصدر السابق) ص٢٠٧ .

(2) Eversley (The Turkish Empire) London 1922 — P. 262.

(3) Ferdinand Schevill (The History of The Balkan Peninsula) New York 1922 — P. 333.

(٤) محمد كرد علي (دمشق) القاهرة بدون تاريخ — ص٤٥ .

هي كانت تبالغ بحنق شديد في وصف المذابح الانتقامية التي قام بها المسلمون[1] • والواقع ان هذا أمر لا غرابة فيه اذ هو منسجم مع طبيعة العقل البشري ، وقد فعلت الصحف العثمانية من جانبها مثلما فعلت الصحف الأوربية ، ولهذا كانت أخبار المذابح تروى في أوربا بعكس ما كان يروى في البلاد العثمانية • ان هذا يمثل لنا نموذجاً واقعياً لما يحدث دائماً بين البشر من تعاكس في وجهة النظر حول القضية الواحدة حيث يجزم كل فريق منهم أن الحق معه وحده •

وفي عام ١٨٢٤م ، عندما شعر السلطان محمود بعجز جيوشه عن قمع الثورة أرسل الى محمد علي باشا والي مصر يطلب منه المعاونة • وفي ١٦ تموز من عام ١٨٢٤م تحرك أسطول مصري من ميناء الاسكندرية وهو يحمل سبعة عشر ألف جندي بقيادة ابراهيم باشا متوجها نحو اليونان ، وقد استطاعت القوات المصرية والعثمانية أن تنزل بالثوار اليونانيين هزائم فادحة • وفي حزيران من عام ١٨٢٧م دخلت تلك القوات مدينة أثينا بعد حصار طويل واحتلت قلعتها المشهورة « أكربول » •

وفي الوقت التي كانت فيه الثورة اليونانية على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، حدث حادث في خليج نافارينو حوّل الهزيمة من جانب الثوار الى الجانب الآخر • ففي ٢٠ تشرين الأول ظهرت سفن روسية وفرنسية وبريطانية ، وعلى حين غرة انطلقت القنابل منها نحو السفن المصرية ، وفي خلال ساعات معدودة تحطم نصف الاسطول المصري ، واضطر ابراهيم الى الانسحاب بالباقي منه نحو مصر مدحوراً •

اعتذرت بريطانيا للسلطان محمود بأن واقعة نافارينو كانت غير مناسبة ، أو غير مقصودة ، وكان الأحرى أن يقال عن الاعتذار نفسه انه غير مناسب فان واقعة نافارينو انتهت بانتصار الثورة اليونانية وبنيل اليونان

(1) William Yale (The Near East) Ann Arbor 1958— P. 35.

استقلالها . يقول المؤرخ شفيل : « ان مدافع نافارينو كانت بمثابة تحية من أوربا أطلقت احتفاءاً بمولد دولة مسيحية جديدة »[١] .

محمد علي يعلن العصيان :

أخذ محمد علي باشا يطالب السلطان محمود بولاية الشام[٢] مكافأة له على خدماته التي قدمها للدولة في حرب الوهابيين واليونانيين ، ولكن السلطان رفض طلبه أو ماطل فيه مما أثار حنق محمد علي وجعله يعمد الى أخذ ولاية الشام بالقوة بدلاً من أخذها بالرضا والتفاهم .

كان محمد علي باشا واثقا من أن جيشه المدرب تدريباً حديثاً قادر على مغالبة جيش السلطان وكسره ، فأعد حملة قوية ـ برية وبحرية ـ لفتح بلاد الشام بقيادة ابنه ابراهيم باشا . وقد استطاعت الحملة في بداية أمرها أن تستولي على غزة ويافا والقدس من غير مقاومة .

كانت العقبة الكبرى التي وقفت في وجه الحملة المصرية هي قلعة عكا تلك القلعة التي صمدت في وجه نابليون وأعجزته . بدأ ابراهيم باشا بحصار القلعة وأخذ يمطرها بوابل من القنابل ، قيل انه ألقى عليها في يوم واحد ثلاثة آلاف قنبلة وعشرة آلاف كرة من الحديد ، ولا تزال بعض كرات الحديد باقية في عكا يستعملها الاهالي لرص الطرقات[٣] .

صمدت عكا للحصار ما يزيد على ستة أشهر ، أي أنها صمدت لحصار ابراهيم باشا أكثر من ثلاثة أضعاف الزمن الذي صمدت فيه لحصار نابليون ، وكان ابراهيم باشا يخشى أن يعجز عن فتحها ثم يعود

---

(1) Ferdinand Schevill (op. cit.) P. 338.

(٢) حين نذكر اسم « الشام » في هذا الكتاب نقصد به سوريا الطبيعية التي تشمل اليوم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، فقد كانت هذه البلاد في العهد العثماني تعتبر كأنها قطر واحد .

(٣) داود بركات (البطل الفاتح ابراهيم) القاهرة بدون تاريخ ـ ص ١٠ .

الى مصر خائبا كما فعل نابليون قبله • يقـول المؤرخ كربتيس : كان الاسبوع يمر تلو الاسبوع وقلعة عكا مستعصية على الجيش المصـري وهو لا يستطيع أن ينال منها منالاً ، فقلقت الأفكار في الاسكندرية ومصـر ، وقلقت أفكار الشعب المصري حتى أن محمد علي أصدر أوامر مشـددة تحرم اذاعة أنباء الحرب في مصر ، وفي أواخر شهر أذار من عام ١٨٣٢م قطعت رقاب أربعة رجال من سكان القاهرة وعلقت على جثة اثنين منهـم ورقة كتب عليها : « هذا جزاء الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » ، وفي السابع من شهر نيسان عرضت على الجمهور جثتان أخريان كتب عليهما : « هذا هو العقاب الذي يحل بمن يتقـّولون السوء عن الحكومـة خفيـة »[1] •

وفي فجر ٢٧ أيار قام الجيش بهجوم على عكا من ثلاثة جهات ، واستمر الهجوم متصلاً حتى الظهر ، فاستطاع الجيش أن يحتل أحـد خانات البلدة ، ولم يجد الوالي عبدالله باشا مناصا من التسليم بعد أن هلك من جنوده تسعة أعشارهم أو أكثر • وعندما جيء بهذا الوالي الى ابراهيم باشا قال له : « لا تعاملني يا باشا معاملة الحريم فان دفاعي يبرهن على الضد، وكل أخطائي أني اعتمدت على الباب العالي الذي لا يزيد شرفه في نظري على شرف المومس ، ولو أني عرفت ذلك لاتخذت الحيطة ولما كنت اليوم ملقياً بين يديك » • فطيـّب ابراهيم باشا خاطره وأرسله مكرماً الى أبيه محمد علي ، وقد احترمه هذا بدوره ثم أطلق سراحه وأعاد اليه جميع الكنوز التي كان يملكها[2] •

وحين وصل البريد الى مصر بنبأ سقوط عكا صدرت الأوامر باطلاق المدافع في جميع المـدن والبنادر ثلاث دفعات يومياً لمـدة ثلاثة أيام اعلاناً

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص ١٥٨ ــ ١٥٩ •
(٢) داود بركات (المصدر السابق) ص١٧ ، ٢٦ •

للفرح العام ، وصدر العفو عن المسجونين والمنفيين ما عدا القاتل وقاطع الطريق • ومن الجدير بالذكر أن حكومة مصر احتفلت في عام ١٩٣٢م بمناسبة مرور مائة عام على فتح عكا ، وجرى الاحتفال في ميدان الاوبرا قرب تمثال ابراهيم باشا حضره الملك فؤاد ، ونشرت جريدة الاهرام في حينه اقتراحاً باطلاق اسم ابراهيم باشا على الميدان وعلى الشارع الذي يمر به ، وقد أخذت الحكومة بهذا الاقتراح •

السلاح الديني :

في الوقت الذي كانت فيه عكا ما تزال صامدة للحصار أمر السلطان محمود بعقد مجلس الشرع للنظر في عصيان محمد علي والحكم عليه بما تقتضيه أوامر الشريعة • واجتمع المجلس في ٢٣ نيسان وهو مؤلف من امام جامع أيا صوفيا ، وامام جامع السلطان أحمد ، وثلاثة من المفتين ، وأربعة عشر من قضاة العسكر ، واثني عشر من قضاة المحاكم ، وتسعة من ائمة السراي والمدارس الشاهانية • وكان السؤال الأول الذي وجه اليهم هو : « ما الذي جاء به الشرع الحنيف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ؟ » فكان جوابهم عليه : « قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة » •

ثم وُجّه اليهم السؤال الثاني وهو : « ما الذي جاء به الشرع الشريف في عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذي أحسن اليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراكدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدراً وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا عمل بسنة سيد المرسلين ؟ » • فكان جوابهم : « يجرّد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين ثم يحل به القصاص ويلقى لوحوش البرية أو الى طيور الفلا ، وهذا جزاؤه في الدنيا ، وفي الآخرة الخزي

والنار الآكلة » • وكان السؤال الثالث والأخير اليهم هو : « هل يكون الخليفة مسؤولاً أم ذلك المارق أمام الله والناس ؟ » • فكان جوابهم : « لا جناح على الخليفة ولا تثريب فانه قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف » •

وبناءاً على ذلك أصدر المشايخ حكماً هذا نصه : « حيث ثبت خروج محمد علي وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما بشق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وبذلك قضى الشرع الشريف أولا تجريد محمد علي وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما مع سائر من شاركهما في هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان » • وقد أرسل هذا الحكم الى محمد علي مع قومندان احدى السفن البريطانية ، فلما وصل اليه استهتر به وتهكم عليه وقال في محضر من قناصل الدول : « هل يسمح السلطان لنفسه أن يحاربني باسم الدين وأنا أحق منه بمهبط الدين والوحي لأني أنقذت الحرمين الشريفين وأعدت للدين سلطانه ، وأنا الآن أحكم مكة المكرمة والمدينة المنورة » •

واجتمع علماء الأزهر فوضعوا رداً شرعياً على الحكم الذي أصدره مشايخ اسطنبول • وأذيع الرد في جميع الأقطار • والظاهر أن بعض القناصل تحدثوا الى محمد علي في موضوع الحكم الشرعي وهل يجوز لعلماء الأزهر الرد عليه ، فكان جواب محمد علي : أن علماء الازهر أحفظ للدين وأعرف بأحكام القرآن الكريم من جميع علماء الاسلام ، ثم قال محمد علي : « أنا لم أطلب منهم شيئاً ولكن ما فعلوه انما هم فعلوه دفاعاً عن حرمة الدين من أن تنتهك »(١) •

ان هذه المبارزة بالأحكام الشرعية بين السلطان ومحمد علي تذكرنا بما كان يقع في تاريخ الاسلام على توالي العصور من مجادلات ومنازعات

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٦ ـ ٣٥ •

« كلامية » ، إذ كان كل فريق من المسلمين يأخذ من الشريعة الأدلة التي ينتفع بها في حرب خصومه ويتجاهل ما سواها .

فتح بلاد الشام :

كان سقوط عكا ايذاناً ببدأ الزحف الخاطف الذي قام به الجيش المصري في بلاد الشام حيث أخذت المدن الشامية تسقط في يده تباعاً ، ثم اجتاز الجيش جبال طوروس ووصل بزحفه الى مسافة غير بعيدة عن اسطنبول حتى خيّل للسلطان محمود من شدة فزعه أنه على وشك أن يسمع هدير المدافع المصرية من الجانب الآخر من مضيق البوسفور . وكان ذلك كله قد حدث خلال أشهر معدودة مما أثار فزعاً هائلاً في عواصم الدول الأوربية الكبرى اذ حسبوا أن اسطنبول ستسقط قريباً وأن تراث « الرجل المريض » سيقع في يد محمد علي بدلاً من الوقوع في أيديهم كما كانوا يتوقعون .

ومما زاد في فزع الدول الأوربية أن السلطان محمود كان في لحظة من لحظات الفزع قد استنجد بروسيا من غير أن يستشير وزراءه ، فأرسلت روسيا ثماني بوارج من اسطولها الى البوسفور ووقفت البوارج حيال اسطنبول بحجة الدفاع عن السلطان وعن دولته التي كانت على وشك الانهيار(١) .

كان ابراهيم باشا يريد مواصلة الزحف واحتلال اسطنبول لكي يضع الدول الأوربية أمام الأمر الواقع ، أما أبوه محمد علي فكان يريد وقف الزحف والتروي . يبدو أن ابراهيم كان ينظر في الامر نظرة الرجل العسكري الذي لا يهمه سوى النصر ولا يبالي بالعواقب ، أي أنه كان يسير على مبدأ « اعمل أولاً ثم فكر » ، اما محمد علي فكان ذا نظرة سياسية حيث يسير على المبدأ القائل بان التفكير يجب أن يسبق العمل .

---

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص١٨٧ ـ ١٩٠ .

وأخذ محمد علي يرسل الى ابنه ابراهيم المرة بعد المرة يأمره بالتوقف ، فكان ابراهيم يطيع أباه على مضض اذ كان موقناً أن اسطنبول أصبحت في متناول يده وهو قادر على اقتطافها متى شاء .

وبعد مفاوضات ومناورات دبلوماسية بذل فيها سفراء الدول الأوربية جهوداً كبيرة تم الصلح بين الفريقين في آخر نيسان من عام ١٨٣٣م ، وهو الصلح المعروف باسم كوتاهية المدينة التركية التي وصل اليها زحف الجيش المصري ، وكان أهم بنود الصلح هو أن يتولى محمد علي حكم الشام علاوة على مصر بشرط أن لا تكون ولاية الشام وراثية في عقبه .

طبيعة العهد الجديد :

دام الحكم المصري في بلاد الشام زهاء عشر سنوات ، وقد جرت فيها أثناء ذلك أحداث ذات أهمية اجتماعية غير قليلة بالنسبة لأهل الشام وبالنسبة لبعض البلاد المجاورة أيضاً .

كان ابراهيم باشا طيلة مدة حكمه يحاول التحبّب الى الناس ويتظاهر أمامهم بمظهر المنقذ المحرر الذي يريد أن يقيم حكماً وطنياً ذا شعار عربي ، فهو قد أطلق على جيشه اسم « الجيش العربي » ولقب نفسه « سر عسكر الجيش العربي » ، وكان يوقع رسائله وأوامره بهذا اللقب[1] . وحين كان يتحدث الى الناس كان يعتبر نفسه عربياً ويود أن يعتبره الناس كذلك ، وصرّح ذات مرة قائلاً : « لقد جئت الى مصر صبياً فلوّنت مصر دمي وصيّرتني عربياً » ، وكان يعلن أهدافه في العمل على انهاض العرب ويبذل جهده في نشر تلك الاهداف بين أهل الشام ، وكثيراً ما كان في بياناته العسكرية يأتي بألفاظ تثير الحماسة وتذكّر الناس بعصور المجد والفخار في التاريخ العربي ، ويحاول أن يقنع السكان

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص٩ ، ١٩ .

بأن فجر عهد جديد قد أشرق عليهم[1] •

وكان عند دخوله الى دمشق قد اختار عشرين من أعيانها للمشاركة في حكم الولاية ، وأصدر بلاغاً قدّمه بهذه العبارة : « يجب على الراعي أن يعنى بأمر رعيته ••• » ، ثم أرسل المنادين في الطرقات ينادون أن العدل سيشمل الناس جميعاً لا فرق بين دين ودين • وكتب أحد الاجانب الذين شهدوا الحالة يومذاك يقول : ان الجنود كانوا يدفعون للأهالي ثمن ما يأخذونه منهم وهذا أمر قلما وجده الناس في جيش أوربي ويندر أن يوجد في جيش اسلامي • ولم يغفل ابراهيم باشا عن الضرب على ايدي الذين كانوا يتحكمون في الناس سابقاً ويغتصبون أموالهم • وعندما قدم اليه سكان الناصرة عريضة يشكون فيها من قسوة حاكمهم أمر الحاكم بأن يقدم حسابه فلما ثبت أنه ابتزّ منهم ستة آلاف قرش فوق ما يجب عليهم أداؤه أصدر عليه فوراً حكما بالسجن مع الاشغال الشاقة اثنى عشر شهراً[2] • ويحكى أن رجلاً جبلياً اعترض طريق ابراهيم باشا وأخذ يشكو لـــه ظلامته ، فلما ضاق صدر الباشا قال له : « يا عزيزي لقد طالعت اليـــوم مائتي عريضة وأود أن أرتاح قليلاً فثق بأن عريضتك ستكون موضـــع عنايتي »[3] •

الواقع أن أهل الشام استقبلوا العهد الجديد في بدايته بالفرح واعلان الغبطة ، وكانوا يقابلون ابراهيم باشا اينما ذهب بالحفاوة وهتافات الترحيب، ولكننا يجب أن لا ننسى أن هذه حالة موقتة لا يمكن أن تدوم طويلا • ان الفرحة التي يقابل الناس بها عهداً جديداً لابد أن يعقبها رد فعل مضاد لها على وجه من الوجوه •

---

(١) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ترجمة ناصرالدين الأســد [illegible]ان عباس ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص٩١ •

(٢) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص١٦٤ ، ٢٠٧ •

(٣) داود بركات (المصدر السابق) ص١٤٤ ــ ١٤٥ •

من طبيعة الناس بوجه عام أنهم اذ يفرحون بعهد جديد يتخيلون أنه سيعالج جميع مشاكلهم التي كانوا يتذمرون منها في العهد السابق ، ويشبع كل حاجاتهم ، ولكنهم سرعان ما يشعرون بخيبة الأمل ، فليس في وسع أي نظام بشري مهما كان عظيماً أن يلبي رغبات جميع الناس ، وان هو استجاب لرغبة البعض منهم أدى ذلك الى حرمان آخرين وقد قيل قديماً : « رضا الناس غاية لا تنال » .

لم يمض على الحكم المصري سوى مدة قصيرة حتى بدأت بوادر النقمة والتذمر بالظهور بين الناس ، وحين انسحب ابراهيم باشا من بلاد الشام في عام ١٨٤٠م كان معظم الناس فيها يلعنونه ويعلنون فرحهم بذهابه . ان العوامل التي ساعدت على ظهور تلك النقمة كثيرة ، نذكر فيما يلي أهمها :

أولاً : ان أشد ما يكرهه الناس من الحكومة عموماً هو الضريبة ، وعندما يفرح الناس بالعهد الجديد يحسبون أن الضرائب ستزول عنهم أو تخف على الاقل . ومن الجدير بالذكر أن حصيلة الضرائب أثناء الحكم المصري في الشام ارتفعت الى نحو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في العهد السابق[1] . يقول مخائيل مشاقة وهو من الشاميين الذين تعاونوا مع الحكم المصري : ان زيادة الضرائب كانت ثمناً للعدالة والحرية والمدنية التي أدخلها الحكم المصري الى البلاد وهو ثمن زهيد غير أن الناس أبوا أن يدفعوه ، وفضلوا العودة الى عهد الذل والهمجية على بذل دريهمات في سبيل استقلالهم والتخلص من مضطهديهم[2] .

ثانياً : فرض ابراهيم باشا التجنيد الاجباري على أهل الشام على

---

(1) Philip Hitti (Lebanon In History) London 1957 — P. 423.

(٢) مخائيل مشاقة (مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) القاهرة ١٩٠٨م ـ ص١١٢ .

نحو ما فعل أبوه في مصر ، وكان يظن أن الشاميين سيخضعون له كما خضع المصريون من قبل[1] ولكنه أخطأ الظن لما بين الشعبين من اختلاف اجتماعي كبير . ومما زاد في الأمر سوءاً أن ابراهيم باشا قرر نزع السلاح من السكان تمهيداً لفرض التعبئة العسكرية العامة فلم يطق الناس صبراً على ذلك لأنهم في مجتمع يرى الوسيلة الأولى لحماية الفرد وأمنه هي بندقيته[2] . ويحدثنا السائح البريطاني وليم تومسون الذي كان في بيروت عند فرض التجنيد على السكان فقال : انهم أخذوا يلتجئون الى القناصل الأوربية والأجانب طلباً للحماية ، ومنهم من فر الى الكهوف ، ورمى عدة رجال بأنفسهم الى البحر قرب صخرة « الروشة » ثم صاروا يتسلقون الصخرة بينما كان الجنود المصريون يطاردونهم[3] .

ثالثاً : من طبيعة كل عهد جديد أن يظهر له خصوم – منذ يومه الأول – وهم اولئك الذين كانوا في العهد السابق من أولى الجاه والنفوذ أو كانت لهم مصالح قائمة فيه ، فهم لابد أن يتألموا ويتذمروا عند قيام العهد الجديد ، وقد يتخذون أية وسيلة تقع في أيديهم من أجل تشويه سمعته والنكاية به . يقول المؤرخ الشامي محمد كرد علي في وصف الادارة المصرية بدمشق : « وقد رأى الدماشقة ادارتها أحسن من الادارة التي عهدوها من العثمانيين ، وكان من أول أعمال المصريين ترتيب المجالس الملكية ، واقامة مجلس الشورى ، وترتيب المالية ووضع نظام للجباية ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، ومع هذا استثقل أرباب النفوذ والمشايخ ظل هذه الدولة وودوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وتفتك بالآمنين الأبرياء ... »[4] .

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص٢٢٨ .

(٢) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ص٩٢ .

(3) Philip Hitti (op. cit.) P. 424.

(٤) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤٠ – ٤١ .

رابعاً : ان الفتاوي الشرعية التي أصدرها علماء اسطنبول في تكفير محمد علي كان لها شيء من التأثير على الناس ، وقد أضيف اليها ما أفتى به مفتي عينتاب اذ حكم على محمد علي بانه رافضي زنديق[1] ، وربما كان سبب هـذه التهمة الأخيرة هو أن محمد علي كـان يميل الى الطريقـة البكتاشية • وعلى أي حال فقد أخذ دعاة الدولة العثمانية وأعوانها يندسون بين الناس فينشرون تلك الفتاوى بينهم حيث يلصـقون تهمـة « الكفر » و « الزندقة » بالحكم المصـري • ومما ساعد عـلى رواج هـذه التهمة أن ابراهيم باشا اتبع سياسة المساواة بين المسلمين والمسيحيين على نحو ما سنذكره بعد قليل ، فعد الناس ذلك دليلاً على كفره •

خامساً : كانت بريطانيا لا تقل عن الدولة العثمانية عداءاً لمحمد علي ومحاربة للحكم المصري في الشام ، وكان اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يبغض محمد علي من صميم قلبه اذ يعتبره الخطر الذي يهدد طريق الهند[2] ، وقد كتب عنه في ٢١ أذار ١٨٣٣م رسالة قال فيها : « ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية • وقد يكون هذا الأمر في ذاته لا ضرر منه ، ولكنه يرمي الى تقطيع أوصال تركية وهو ما لا نرضى عنه أبداً • وفضـلاً عن ذلك فان أي ملك عربي ، مهما تبلغ قوته ، لن يكون أقدر من تركية على المحافظة على ما تحتله من طريق الهند »[3] • والواقع أن بريطانيا أرسلت عملاءها الى بلاد الشام للعمل على تقويض الحكم المصري فيها ، وكان أهمهم في ذلك رجل يدعى ريشارد وود وهو قد أُرسل من السفارة البريطانية في اسـطنبول الى بيروت في عـام ١٨٣٥م لكي يفسـد ما بـين الدروز

---

(١) بيير كربيتس (المصدر السابق) ص١٥٨ ، ٢٤٤ •

(٢) المصدر السابق ــ ص٢٢٥ •

(٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ص٩٣ •

والمصريين[1] .

الليدي ستانهوب :

لعل من المناسب هنا أن نذكر شيئاً عن أمرأة بريطانية كان لها دور لا يستهان به في اثارة الشاميين على الحكم المصري هي الليدي هسترستانهوب. وسيرة هذه المرأة لا تخلو من طرافة وشذوذ ، فهي من ذوات الحسب والنسب اذ كان خالها وليم بت السياسي البريطاني المعروف ، وجدها اللورد چاثام ، ولكنها سئمت الحياة في بريطانيا بعد موت خالها في عام ١٨١٠م ، وقيل انها أصيبت بخيبة في الحب ، فآثرت السفر الى الشرق الأوسط . وجاء بصحبتها شاب غني كان عاشقاً لها اسمه مشيل بروس ، فوصلت الى اسطنبول ثم انتقلت منها الى القاهرة واستقبلها محمد علي في ديوانه ، ومن ثم ذهبت الى بلاد الشام فزارت تدمر واستقبلها الاعراب هناك كأنها ملكة ، وكانت هي تسرف في العطاء وفي احاطة نفسها بمظاهر الأبهة والبذخ ، كأنها تريد أن تعيد الى الاذهان اسم زنوبيا ملكة تدمر[2] .

وفي عام ١٨١٣م – بعد أن تركها عاشقها بروس وعاد الى بريطانيا – استقرت في لبنان حيث شيّدت لنفسها قصراً يشبه القلعة فوق تل صغير على بعد ثمانية أميال من صيدا ، واتخذت زي النساء المحلي فلبست عمامة ومداساً برأس منعكف، وصارت تدخن النارجيلة وتحمل السوط والخنجر، وشرعت تدرس اللغة العربية وأولعت بعلم النجوم وعلم الكيمياء القديم ، وأحاطت نفسها بحرس من الألبانيين وحاشية من الزنوج وفرضت عليهم أن يسلكوا معها حسب قواعد التشريفات الملكية .

الواقع أنها استطاعت أن تكون ذات نفوذ وسلطة كبيرة جداً بين سكان

---

(1) Sarah Searight (The British In The Middle East) London 1969 — P. 92.

(2) Ibid, P. 156—7.

المناطق المجاورة ، ولا سيما الدروز منهم ، فكانوا يحترمونها ويطيعون أمرها الى درجة تبعث على الدهشة • وعندما فتح ابراهيم باشا بلاد الشام أدرك مالها من نفوذ وطلب منها أن تقف على الحياد ولكن الحيـــاد لم يكن من شيمتها فصارت من أشد الناس طعناً في الحكم المصري[١] • ولا ندرى هل كان ذلك بايعاز من الحكومة البريطانية أم بدافع ذاتي منبعث من شخصيتها ذات الأطوار الغريبة •

كان لستانهوب جواسيس يعملون في المدن الشامية الكبيرة ، وكانت مراسلاتها ومؤامراتها مع الشيوخ والباشوات متصلة ، وكان لها يد في اثارة الدروز على الحكم المصري[٢] ، ولم يسترح منها ابراهيم باشا الا بعد أن ماتت في عـام ١٨٣٩م ، فدفنت في مكانها ، وكان عمرها لا يتجاوز الثالثة والستين ، وقيل انها كانت عند موتها وحيدة مفلسة[٣] •

المشكلة الطائفية :

كانت المشكلة الطائفية من أهم المشاكل التي واجهها الحكم المصري في بلاد الشام • ولكي نفهم طبيعة هذه المشكلة يجدر بنا دراسة الوضع الذي كان سائداً في تلك البلاد قبل مجيء الحكم المصري •

الواقع أن الوضع الطائفي كان في العهد العثماني قد اتخذ طابعـــاً معيناً يستمد جذوره من الفقه الاسلامي الذي يعتبر المسلم أرفع درجة من الذمي • يقول ساطع الحصري : ان الحكومة العثمانية كانت تعامل رعاياها المسلمين معاملة خاصة تختلف عن معاملة غير المسلمين ، فهي كانت تعتبرهم كأنهم أهل الدولة وتعتبر غيرهم كأنهم غرباء عنها[٤] •

---

(١) بيير كربتييس (المصدر السابق) ص٢١٨ •

(2) Philip Hitti (op. cit.) P. 424.

(3) Sarah Searight (op. cit.) P. 158.

(٤) ساطع الحصري (محاضرات في نشوء الفكرة القومية) بيروت ١٩٥٦ — ص١٧٧ — ١٧٨ •

ولم يكن هذا التمييز الديني مقتصراً على المعاملات الرسمية فقط ، بل كان يشمل كذلك معاملات الناس بعضهم لبعض . يحدثنا مخائيل مشاقة حديثاً طويلاً عما كان يجرى في بلاد الشام من اضطهاد للمسيحين نقتطف منه ما يلي :

« كان المسيحي عرضة للاهانة والذل أينما مرّ وحل ، وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى ألف الذل كما ألف مُذّله اذلاله . فكان النصراني حيثما مر وتوجه يُنعت بالكافر ويُشتم صليبه ويحتقر وتقلب عمامته ويصفع ويرفس الى غير ذلك من الاهانة . وكان اذا مر في حي المسلمين لحقه صبيان الأزقة قائلين له (نصراني كلب عواني .. رقّوله بالصرامي . قالت أمه فينه ضربة تقلع عينه) . وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له : اشمل ، يريد بذلك أن يسير عن يساره فيفعل صاغراً ... وكان كثيراً ما يسخره أصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم ، أو يستعملون اهانته لاذهاب مللهم وتفريج كربهم فيناديه بعضهم تعال يا معلم فيذهب اليه ويصفعه ويكلفه أن يذهب بحاجته أو يلبسه حذاءه أو يشتغل عنه شغلاً ما ، واذا كان مازحاً يهمس في اذنه شتماً أو اهانة ، أو يأخذ عمته ويصفعه على أم رأسه ويرمى العمة الى جاره وهذا الى الذي يليه وهلم جرا ... وكان قانون الحكومة اذ ذاك يكره المسيحي أن يحمل على كتفه كيساً يسمونه كيس الحاجة وليس له أن يخرج من بيته بدونه والمقصود من هذا الكيس أن يضع به من الأغراض وحوايج المسلمين ما يسخره هؤلاء بحمله من بقول وخضار وغيرها ... »[1] .

ان هذا وصف قد لا يخلو من مبالغة وتزويق ، فقائله مسيحي وهو لابد أن ينظر الى الأمور من زاويته الخاصة ، ولكننا مع ذلك نشعر بأن في قوله شيئاً من الحقيقة قليلاً أو كثيراً ، فنحن نعرف طبيعة البشر حين يسيطر

(١) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص٢٦ ــ ٢٧ .

عليهم الجهل والتعصب ، وكثيراً كون الانسان ذئباً لأخيه الانسان كما لا يخفى !

وعلى أي حال فان ابراهيم باشا عندما تم لـه فتح بلاد الشام اتخذ سياسة المساواة بين المسلمين وغيرهم كما أشرنا اليه من قبل ، فأجاز لهم ما كان ممنوعاً عليهم كلبس العمامة البيضاء والحذاء الأحمر أو ركـوب الخيل ، وأعلن للناس أن اليهود والنصارى ليسوا أحط مقاماً من المسلمين حتى ينزل أحدهم عن دابته اذا قابل في الطريق أي شخص مسلم[١] ، ثم عيّن الكثير من المسيحيين في المناصب المهمة ، وصار المسيحيون في دمشـق يُخرجون مواكبهم الدينية من غير أن يعترضهم أحد ، وحين ارتد ثلاثة من المسلمين واعتنقوا المذهب الماروني غض ابراهيم باشا نظره عنهم ولم يفعل بهم شيئاً[٢] .

وسمح ابراهيم باشا للارساليات التبشيرية بتأسيس مراكز ثابتة لهم في بلاد الشام وأعطاها حرية كاملـة للعمل ، فادى ذلك الى قيام أشـهر مؤسستين ثقافيتين أجنبيتين في لبنان هما الارسالية الامريكية والارسـالية اليسوعية[٣] اللتان لا تزالان قائمتين .

ان سياسة المساواة هذه التي سار عليها ابراهيم باشا جعلت المسيحيين يرضون عنه والمسلمين يغضبون ، ولكن المسيحيين لم يستمروا على رضائهم عنه مدة طويلة ، فان عوامل النقمة التي أسلفنا ذكرها سرعان ما أخذت تؤثر فيهم أيضاً ، وانتهى الأمر به أخيراً الى أنه عند انسـحابه من البلاد كان مغضوباً عليه من اكثر السكان لا فرق في ذلك بين المسلمين منهم والمسيحيين .

تتابع الثورات :

أولى الثورات التي قامت في وجه الحكم المصري ظهرت في فلسطين في

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص١٤١ .

(2) Philip Hitti (op. cit.) P. 423.

(٣) أنيس صائغ (لبنان الطائفي) بيروت ١٩٥٥ ـ ص١٠٠ .

عام ١٨٣٣م ، وكان أشد المحرضين عليها هم آل أبى غوش في القدس ويافا اذ كانوا من الناقمين على ابراهيم باشا المتذمرين من حكمه .

كانت أسرة أبي غوش في العهد السابق تفرض الأتاوة على أديرة الرهبان وعلى حجاج المسلمين وكل من يمر بمنطقتها من أصحاب المواشي ، وقد منعها ابراهيم باشا من ذلك وسجن كبيرها ، فنقمت الأسرة عليه من جراء ذلك ، كما نقمت عليه قبيلة عنزة لما كان بينها وبين أسرة آبي غوش من مصاهرة[١] .

وانضمت الى هذه الاسرة في النقمة على ابراهيم باشا أسر أخرى كأسرة طوقان وأسرة الجزار في نابلس ، فقد كان رجال تلك الأسر هم الحكام في العهد السابق فأسقطهم ابراهيم باشا وأحل محلهم أسرة آل عبدالهادي[٢] . وفي ذات يوم من عام ١٨٣٣م صعد شاب الى مأذنة الجامع الكبير في نابلس وأخذ يصيح بأعلى صوته قائلاً : « لقد درست معالم الاسلام ومُحي من الوجود ، ألا يجرى في عروقنا الدم التركي ، ليقم كل رجل يحب النبي الى سلاحه فيتقلده ، وليذهب لقتال هذا الرجل الذي لا ايمان له ، هذا الجاور - أي الكافر - ابراهيم باشا ، هذا السكير الذي يدمن شرب الخمر والنبيذ ، والذي يأكل لحم الخنزير وكل ما يخرجه البحر من أقذار كما يفعل المسيحيون ، والذي يسكن الأديرة مع القسس ، ويصلي معهم ولا يذهب الى المساجد قط »[٣] . وكان هذا النداء ايذانا ببدء الثورة في فلسطين ، وكانت ثورة عارمة خسر فيها ابراهيم باشا - على ما قيل - أربعة آلاف جندي[٤] ، ولابد أن تكون خسائر الثوار أكثر .

ولم يكد ابراهيم باشا ينتهي من هذه الثورة حتى نشبت في الشمال

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص١٢٥ ، ١٥٠ .
(٢) المصدر السابق - ص١٢٥ .
(٣) بيير كربيتس (المصدر السابق) ص٢٢٠ .
(٤) داود بركات (المصدر السابق) ص١٥٣ .

ثورة أخرى قام بها النصيرية حيث كمنوا للواء من الجيش المصري فهزموه وفتكوا بنصف رجاله ، ثم هاجموا بلدة اللاذقية فنهبوا أملاك الحكومة والمسيحيين ، ولم تخمد هذه الثورة الا بعد معارك طاحنة أحترق فيها الكثير من القرى[1] .

وفي عام ١٨٣٦م قام الدروز بثورة شعواء أوسع نطاقاً مما سبق وأوخم عاقبة ، وكان سببها المباشر هو أن شريف باشا والي دمشق أرسل الى شيخ مشايخ الدروز يحيى حمدان يستدعيه اليه ، ولما حضر الشيخ طلب منه الوالي مائة وسبعين شاباً للجندية ، فاعتذر الشيخ عن ذلك قائلاً بان شبان الدروز يدافعون عن بلادهم تجاه غزوات البدو ولا يمكن الاستغناء عنهم ، ويقال ان الشيخ أظهر حدة في كلامه مما جعل الوالي يغضب عليه فيمسكه من لحيته أو يصفعه على وجهه . فكظم الشيخ غيظه وتظاهر بالطاعة وخرج وهو يضمر الثورة .

وقد استمرت الثورة زهاء عشرة أشهر كانت فيها خسائر الفريقين هائلة ، وقدّر القناصل خسارة ابراهيم باشا فيها بعشرة آلاف رجل ، وكان الدروز قد أبدوا من الشجاعة وحسن التدريب ما أعجب به كبار القواد[2].

مقتل الراهب الكبوشي :

في عام ١٨٣٨م حدثت حادثة غريبة في دمشق هزت الرأي العام واتخذها الخصوم حجة يشنّعون بها على الحكم المصري ، وخلاصة الحادثة أن راهباً من الطائفة الكبوشية يدعى الأب توما كان قد ذهب الى حارة اليهود في الخامس من شباط بغية تلقيح أحدهم ضد الجدري غير أنه لم يرجع الى بيته ، فاتّهم اليهود بقتله وألقت الحكومة القبض على عدد منهم ووضعتهم تحت العذاب لكي يعترفوا على القاتل .

---

(١) المصدر السابق ــ ص١٢٧ ــ ١٢٨ .
(٢) المصدر السابق ــ ص١٢٩ ، ١٥١ ــ ١٥٣ .

يتهم اليهود منذ زمن قديم بأن لديهم تقاليد دينية تدعوهم الى اصطياد شخص مسيحي بمناسبة عيد الفصح حيث يستنزفون دمه ليعجنوا به الفطير الذي يأكلونه في ذلك العيد ، وقد تنوقلت هذه التهمة عن اليهود طيلة القرون الوسطى ، وشاعت حولهم حكايات غريبة من قبيل خطف الأطفال أو الرهبان من أجل استنزاف دمائهم ، وكثيراً ما أدت تلك الاشاعات الى موجات من الاضطهاد تحل باليهود في البلاد الأوربية بين حين وآخر •

وقد جرى مثل هذا في دمشق على اثر اختفاء الراهب الكبوشي ، حيث هاج الناس وماجوا وسار جمهور منهم نحو سراي الحكومة يطلبون منها التحقيق عن الجناة والتشديد في عقابهم • واتخذت القضية طابعاً دولياً ، فقد اهتم بها القنصل الفرنسي باعتباره حامي النصارى في بلاد الشام ، كما اهتم بها القنصل النمساوي لأن أحد المتهمين كان من رعايا دولته •

جرى التحقيق الشديد مع المتهمين ، فمات اثنان منهم أثناء التحقيق ، واعترف أحدهم ويدعى الحاخام موسى أبو العافية بأنهم انما قتلوا الراهب من أجل استنزاف دمه ثم طرحوا جثته بعدئذٍ في أحد المجاري القريبة • وقد أعلن أبو العافية اسلامه ليقي نفسه من نقمة قومه عليه وصار اسمه « محمد أفندي » • ثم عثر على الجثة بعدئذٍ فقام بالفحص عليها مخائيل مشاقة لانه كان يتعاطى مهنة التطبيب •

صدر الحكم أخيراً ، فنال عشرة من المتهمين عقوبة الاعدام ، وحصل على العفو أربعة منهم لأنهم أقروا بالحقيقة وكان أحدهم محمد أفندي أبو العافية[١] • ولكن حكم الاعدام لم ينفذ ، وأطلق سراح المحكوم عليهم بأمر من محمد علي باشا • وقيل ان أحد اليهود البريطانيين وصل الى دمشق واشترى حرية المتهمين من الباشا بستين الف كيس[٢]

---

(١) أبو صادق (التفليم المقدس) بغداد ١٩٦٧ ــ ص٢٠ •

(٢) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص١٢١ ــ ١٢٢ •

موقعة نزيب :

ان صلح كوتاهية الذي عقد في عام ١٨٣٣م بين محمد علي باشا والسلطان محمود كان بمثابة هدنة موقتة وما كان صلحاً حقيقياً ، فلم يكن من الهين على السلطان محمود أن يرى أحد رعاياه يهزم جيوشه ويذله ويرضخه لمشيئته ، ولهذا اشتد عزم السلطان محمود على أن يقوي جيشه لكي يجعله كفؤاً للجيش المصري وقادراً على غلبته ، فاستدعى من المانيا ضباطاً قديرين من أمثال فون ملباخ وفيشر وفون ونك والبارون فون مولتكه ليدربوا جيشه على أحدث الأساليب •

وفي عام ١٨٣٩م ظن السلطان أن جيشه قد أصبح قوياً بحيث يستطيع أن يقف تجاه الجيش المصري ويهزمه ، أضف الى ذلك أنه كان يتوقع من أهل الشام أنهم سيثورون على الجيش المصري أثناء نشوب المعركة وينقضون عليه من ورائه ، وبذا تحل به الهزيمة الكبرى •

وقعت المعركة الحاسمة بين الجيشين في موضع قريب من قرية « نزيب »(١) ، وهي قرية تقع الى الشمال من حلب على الحدود بين سوريا وتركيا • ومما يلفت النظر أن كلا من الجيشين كان فيه ضابط أوربي قدير يضع الخطط له ، فقد كان القائد الالماني فون مولتكه في قيادة الجيش العثماني بينما كان سليمان باشا الفرنساوي في قيادة الجيش المصري •

كان الجيش العثماني قد اتخذ له موقعاً حصيناً وفق خطة متقنة وضعها فون مولتكه ، ولم يكن في مقدور الجيش المصري أن يقتحم ذلك الموقع ما لم يعتمد على خطة تحتوي على مجازفة كبيرة • ويقال ان الخطة التي وضعها سليمان باشا لهذا الغرض كانت عبارة عن مزيج من العبقرية والجنون • فهي خطة يمكن أن توصف بأنها « وميض من العبقرية » في

---

(١) اخطأ بعض المؤرخين العرب حيث أطلقوا على المعركة اسم « نصيبين » بدلاً من « نزيب » مع العلم أن بلدة نصيبين تقع قرب الموصل وهي بعيدة جداً عن موقع المعركة •

حالة نجاحها ، وبأنها « أوهام من عقل مخبول » في حالة اخفاقها[١] .

يبدو أن الخطة كانت تعتمد على الجانب النفسي من الطبيعة البشرية بدلاً من الاعتماد على القواعد العسكرية المعروفة ، فهي تقوم على أساس انتقال الجيش المصري من مواقعه وتعريض جناحه للخطر بخلاف ما تقتضيه قواعد الحرب ، وهذا لابد أن يحدث ذهولاً في القيادة العثمانية فلا تستطيع أن تتبيّن كنه الخطة الاّ بعد مرور فترة من الزمن وهي فترة كافية لكي يقوم الجيش المصري بالمناورة المناسبة له .

كان ابراهيم باشا واثقاً من سلامة تقدير صاحبه سليمان باشا ، فأسرع الى الموافقة على خطته وسار عليها بحذافيرها من غير تردد . والغريب ان فون مولتكه في الجانب الآخر عندما أدرك حقيقة الموقف وأراد تغيير خطته لكي يواجه بها مناورة الجيش المصري وقف القائد العثماني حافظ باشا في وجهه ومنعه من ذلك . وقد احتدم الجدال بين الرجلين من جراء ذلك ، إذ كان حافظ باشا يريد ادارة المعركة حسب أسلوبه القديم بينما كان مولتكه يريد أن يديرها حسب أحدث الأساليب . واشتد الغضب بالقائد الالماني اثناء الجدال بحيث هدّد بتقديم استقالته ، غير أن حافظ باشا قال له يلومه : « ان الجندي لا يستقيل قبيل المعركة » مما جعله يسحب استقالته[٢] .

كانت المعركة قد بدأت في صباح ٢٤ حزيران ١٨٣٩م ، ولم تمض عليها سوى ساعات ثلاث حتى كان الجيش العثماني قد انهار تماماً وشاعت فيه الفوضى . يقول المؤرخ بروكلمان : ان تلك المعركة شهدت أموراً لم تشهدها أية معركة أخرى في التاريخ اذ اختلط فيها الغالب والمغلوب وصاروا يركضون جميعاً في اتجاه واحد[٣] .

---

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص٢٣٨ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٢٣٩ .

(3) Carl Brochelmann (op. cit.) P. 359.

الانحدار بعد القمة :

مات السلطان محمود قبيل سماعه بنبأ هزيمة « نزيب » ، ثم جاءت بعد ذلك ثالثة الاثافي وهي خيانة أمير البحر التركي أحمد باشا فقد خرج هذا بسفنه حالما سمع بخبر الهزيمة وتوجه بها الى الاسكندرية حيث سلمها الى الحكومة المصرية ، وكان ذلك قمة الانتصار لمحمد علي باشا وأخطر ساعة في تاريخ الدولة العثمانية •

لم يهنأ محمد علي باشا بهذا النصر طويلاً ، فقد أخذت القوى المعادية تسعى في ثلمه والانتقاص منه • ففي ٨ حزيران من عام ١٨٤٠م – أي بعد مرور سنة واحدة على معركة « نزيب » – اجتمع عدد كبير من مشايخ الدروز والمسيحيين والسنيين والشيعة في قرية انطلياس التي تقع على البحر الى الشمال من بيروت ، فعقدوا مؤتمراً في ضريح القديس الياس ، وهو ضريح تقدسه معظم الطوائف في لبنان ولا يقسمون به كذبا ، وتحالف الجميع هنالك على التعاون والتضامن في سبيل القيام بثورة عامة ضد الحكم المصري ، وتعهدوا على « أن يقاتلوا من أجل الاستقلال أو يموتوا دونه » ، واختاروا فرنسيس الخازن رئيساً لهم(١) •

ونشبت الثورة فعلاً ، فكانت ثورة واسعة النطاق اشترك فيها المسيحيون مع الدروز ، والشيعة مع السنيين ، وكانت تلك أول مرة يشترك فيها هؤلاء جميعاً في حركة موحدة ، وحاول ابراهيم باشا التفريق بينهم دون جدوى(٢) •

وانتهزت بريطانيا الفرصة فأرسلت بعض سفنها الحربية الى بيروت تصحبها سفن نمساوية وعثمانية ، وأخذت السفن تقصف بيروت وأنزلت الجنود في جونيه القريبة منها • ونالت عكا أثناء ذلك كارثة جديدة لا تقل

---

(1) Philip Hitti (op. cit.) P. 424—425.

(٢) انيس صايغ (المصدر السابق) ص١٠٢ – ١٠٣ •

فظاعة عن كوارثها السابقة ، فقد أخذت السفن البريطانية تقصفها بالقنابل ، وأصابت احدى القنابل مخازن الذخيرة فيها فانفجرت تلك المخازن انفجاراً وهيباً ارتجت له الأرض وسمع دويه في أقصى البلاد وهلك به ألف وخمسمائة جندي . وكانت تلك ثالثة كارثة حلت بعكا منذ بداية القرن : أولاها كانت بحصار نابليون ، والثانية بحصار ابراهيم باشا ، وها هي الآن تحل بها الثالثة . وقال أحد الشعراء يصف حالة عكا ويذمها :

قالوا بأن جهنماً تحت الثرى ... مالي أراها فوق عكة تضرم

لو لم تكن دار الشقاوة عكة ... ما أمطرتها بالشرار جهنم[1]

اضطر محمد علي تحت ضغط الدول الأوربية أن يأمر ابنه ابراهيم بالانسحاب من بلاد الشام . وفي منتصف كانون الأول من عام ١٨٤٠م بدأت القوات المصرية بالانسحاب ، وقد لقيت تلك القوات الأهوال أثناء انسحابها ، ولم يصل ابراهيم باشا بما بقى منها الى مصر الا بشق الأنفس[2] .

ونستطيع أن نقول أن زوال الحكم المصري من بلاد الشام كان ايذانا بعودة الفوضى اليها . كتب القنصل البريطاني بدمشق في تقرير له يقول : « لم يكد المصريون يُطردون ويتقلص ظل سطوتهم ـ وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد ـ حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة ، وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومُنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة بالتدريج ، حتى أمكن القول أنه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والأملاك ، وكل شيء يدعو الى عودة الفوضى الى هذه الديار »[3] .

وأخذ التوتر الطائفي تظهر معالمه هنا وهناك، وعاد بعض عوام المسلمين

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص١٩٩ .

(٢) محمد فريد بك (المصدر السابق) ص٢٤٦ .

(٣) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤١ ـ ٤٢ .

الى عادتهم القديمة في اضطهاد المسيحيين وصاروا ينتقمون منهم[1] .
ولوحظ أن المسيحيين في دمشق صاروا يتركون العمائم البيضاء خوفاً من تحرش المسلمين بهم ورجعوا الى عمائمهم السوداء[2] .

وأصبحت كل طائفة من الطوائف الشامية تستظل بحماية احدى الدول الكبرى وتوثق ارتباطها بها ، فكان السنيون يستظلون بحماية الدولة العثمانية بطبيعة الحال ولا يريدون غيرها ، كما كان الدروز يستظلون بحماية بريطانيا ، والارثدوكس يستظلون بحماية روسيا . أما المارونيون فكانت علاقتهم قد توطدت بفرنسا منذ القرن الثالث عشر الميلادي ثم ازدادت توطداً بمرور الزمن حتى صاروا أخيراً يعتبرون فرنسا حليفتهم الطبيعية ويطلقون عليها لقب « الأم الحنون » .

مذابح الستين :

يمكن القول على أي حال ان أبشع فترة في تاريخ بلاد الشام هي تلك التي أعقبت الحكم المصري وامتدت زهاء عشرين عاماً ، وهي التي سميت بـ « عهد الفتن » إذ حدثت فيها ثلاث مذابح طائفية فظيعة : كانت الأولى في عام ١٨٤١م ، والثانية في عام ١٨٤٥م ، والثالثة في عام ١٨٦٠م .

تعد مذابح الستين ، وهي التي وقعت في عام ١٨٦٠م ، من أفظع المذابح الطائفية في تاريخ الدولة العثمانية ، ولا يزال الكثيرون من أهل الشام يذكرونها بألم ممض ، وكانت السبب الاول في هجرة الشاميين الى الامريكتين وأفريقيا وغيرها من أنحاء العالم .

بدأت مذابح الستين في لبنان في شهر نيسان ، وفي خلال أسابيع قليلة كان أكثر من ستين قرية مسيحية في منطقتي الشوف والمتن قد تحولت الى رماد ، وفي حاصبيا كانت التعليمات تقضي بأن لا يبقى أي ذكر مسيحي بين

---

(١) أنيس صايغ (المصدر السابق) ص١١١ ـ ١١٢ .
(٢) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص١٣٧ ـ ١٣٨ .

السابعة والسبعين حياً ، واتسع نطاق الكارثة حتى وصل الى زحلة فلم يسلم فيها بيت من الحريق الا نادرا ، واستمرت الكارثة ثلاثة أشهر سقط فيها من القتلى اثنا عشر الفاً وقدرت الخسائر في الممتلكات بأربعة ملايين باون[١] .

وفي تموز انتقلت الشرارة الى دمشق ، وهناك اتخذت الكارثة وجهاً آخر ، حيث سيطر الغوغاء على المدينة وصاروا يقتلون ويدمرون بلذة عارمة لا تقف عند حد كما هو شأن الغوغاء في كل زمان ومكان . يقول المؤرخ الشامي محمد كرد علي في وصف المذبحة ما نصه : « وأهم ما وقع في هذا القرن حادثة النصارى المعروفة بحادثة الستين سنة ١٨٦٠م وخلاصتها قيام رعاع المسلمين والدروز على نصارى دمشق وقتلهم ونهبهم والقاء النار خمسة أيام في حيهم حتى خرب كله ... جرى هذا كله في مدينة التسامح واللطف ، فسوّد الأشقياء سمعة دمشق بعد أن عاش المواطنون قرونا في صفاء وولاء . وكانت لبعض الدول الغربية يد في اثارة النصارى من جهة واثارة الدروز من أخرى . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الدولة ـ يقصد الدولة العثمانية ـ هي التي دفعت الرعاع أو غضت النظر عنهم فارتكبوا ما ارتكبوا ... »[٢] .

والجدير بالذكر أن الأمير عبدالقادر الجزائري أبدى أثناء المذبحة من المروءة والشهامة أمراً عظيماً ، فقد استطاع هو ورجاله أن ينقذ ما يزيد على ألف شخص من النصارى[٣] ، وظل طيلة ثمانية أيام بلياليها متقلداً بندقيته لا يذوق النوم الا لماماً حذراً من هجوم الغوغاء على النصارى الذين كان يحميهم في داره والدور المجاورة لها . وقد جاء اليه الغوغاء ذات مرة يهددونه ويطلبون منه تسليم من عنده من النصارى كأنهم متعطشون

---

(1) Philip Hitti (op. cit.) P. 437—438.

(٢) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤٢ ـ ٤٣ .

(3) Philip Hitti (op. cit.) P. 439.

للدماء ، فلم يضعف تجاه الغوغاء وأبدى استعداده لقتالهم فانصرفوا عنه[1] .

وحاول كثير من وجهاء دمشق أن يحذوا حذو الأمير الجزائري كأسعد أفندي حمزة ،والشيخ سليم العطار ، وصـــالح أغا الشوربجي ، وسعيد أغا النوري ، وعمر أغا العابد . ولكن البعض منهم خارت قواه تجاه بطش الغوغاء فسلّم من في حوزته من النصارى اليهم ، فذبحهم الغوغاء ذبح النعـاج .

عزمت الدول الاوربية على التدخل ، وأرسلت فرنسا قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف جندي الى بيروت . وعند هذا أدركت الدولة العثمانية خطورة الموقف فأسرعت بأرسال وزير الخارجية فؤاد باشا ، وكان من دهاة الرجال ، فوصل الى بيروت قبل وصول القوة الفرنسية اليها .

وحين وصل فؤاد باشا الى دمشق أمر بالقاء القبض على من اتهموا في التحريض على المذبحة أو المشاركة فيها ، وأمر كذلك بتفتيش البيوت بحثاً عن الأموال المنهوبة ، فاستولى الرعب على الناس وصاروا يطرحون ما عندهم في الطرقات والشوارع حتى امتلأت بها . واستفاد اليهود من تلك الفرصة حيث صاروا يشترون الأشياء الثمينة بأسعار تافهة لأنهم لم يكونوا من المشتبه بهـــم .

وبعد التحقيق صـــدر الأمر باعدام مائة وأحد عشـــر جندياً رمياً بالرصاص ، وبشنق ست وخمسين رجلاً من الأهالي وكان بعضهم من الأسر الكبيرة ، وحكم على آخرين بالنفي والاشغال الشاقة ، وكان من بين المنفيين طاهر أفندي مفتي الحنفية وعمـر أفندي مفتي الشـــافعية وأحمد عجلاني نقيب الاشراف والشيخ عبدالله الحلبي رئيس العلماء[2] . وانتهت الملحمة باعدام أحمد باشا الذي كان والياً في دمشق أثناء المذبحة ويقال انه كان منفذاً للاوامر التي وردت اليه من اسطنبول فخافت الدولة من شيوع

---

(١) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص١٧٧ ، ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ـ ص١٨٩ .

الخبر فقتلته[١] •

مصر بعد محمد علي :

في عام ١٨٤٤م بلغ محمد علي باشا الرابعة والسبعين من عمره ، وقد بدأت بوادر الخرف أو الاختلال العقلي تظهر عليه • وفي منتصف ١٨٤٨م اشتد المرض عليه فتولى ابنه ابراهيم باشا الحكم مكانه • غير أن ابراهيم باشا لم يستقر في الحكم طويلا اذ كان مصاباً بمرض في بدنه وقد مات من جراء ذلك في ١٠ تشرين الثاني من العام نفسه ، فتولى الحكم مكانه ابن اخيه عباس باشا • وفي ٢ آب من العام التالي مات محمد علي باشا •

كان عباس باشا ، فيما يقول عنه بروكلمان ، ذا تعصب ديني شديد ويمقت الثقافة الأوربية مقتاً عميقاً وقد برهنت فترة حكمه القصيرة على أنه كان مستبداً غير كفوء[٢] • وكان أهم عمل قام به عباس باشا هو انشاء سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة في عام ١٨٥٢م ، وكذلك مد خطوط التلغراف في مصر لتسهيل التجارة[٣] ، فكان ذلك بداية دخول المخترعات الحديثة في البلاد العثمانية •

مات عباس باشا في تموز من عام ١٨٥٤م ولم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره الا قليلاً ، والمظنون أنه مات مسموماً ، فتولى الحكم مكانه عمه سعيد باشا وكان هذا على النقيض من سلفه يميل الى الثقافة الاوربية ويحب العلم الحديث ويتكلم اللغة الفرنسية جيداً •

كان لسعيد باشا صديق حميم من الفرنسيين هو فرديناند دي لسبس ، وقد استطاع هذا الصديق أن يحصل منه على امتياز لفتح قناة تربط بين البحر الابيض والبحر الأسود ، هي القناة التي عرفت فيما بعد باسم « قناة

---

(١) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤٣ •

(2) Carl Brockelmann (op. cit.) P. 363 ‘ 369.

(٣) جرجي زيدان (المصدر السابق) ج١ ص٥٨ •

السويس » . والواقع أن حفر القناة لم يكن أمر سهلاً اذ كان يعتمد بالدرجة الأولى على الايدي العاملة ، ولم يكن للآلات نصيب كبير فيه كما هو الحال في ايامنا . واستغل دي‌لسبس صداقته مع سعيد باشا فلجأ الى « السخرة » من أجل الحصول على العمال ، فكان أبناء القرى يساقون الى العمل تحت ضرب القرباج أحيانا ، وقد يربطون بالحبال كقطعان العبيد في أفريقيا ، فمات منهم الألوف من جراء الأوبئة وشدة العطش والارهاق . واستمر العمل بهذه الصورة اثنى عشر عاماً !

كان دي‌لسبس كما وصفه أحد معاصريه يتميز بطاقة عقلية وبدنية لا تعرف الكلل ، وأجمع الذين كتبوا عنه على أنه « ساحر » لفرط ما لديه من قدرة خارقة على الاقناع والثقة بالنفس[1] . انه كان كغيره من الجبارين الذين غيروا وجه التاريخ لا يبالون بالآلام البشرية إذ لا يترددون عن التضحية بالكثير من الارواح في سبيل الهدف الذي يسعون اليه. لقد استخدم دي لسبس كل وسيلة وقعت في يده لانجاز مشروعه ، وقد نجح فيه أخيراً ، فنسي التاريخ اسماء الألوف الذي وقعوا صرعى أثناء حفر القناة ، وبقي دى لسبس خالداً . وهذا هو ديدن التاريخ مع جميع الفاتحين العظام .

مات سعيد باشا في عام ١٨٦٣م فتولى حكم مصر مكانه ابن اخيه اسماعيل باشا . وكان اسماعيل هذا قد تلقى دراسته الأولى في باريس فأعجب بالحضارة الأوربية ايما اعجاب ، وحين تولى الحكم أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا . والمعروف عنه أنه كان مولعاً بالاسراف والبذخ حتى أغرق مصر بالديون ، ولكنه كان من الجهة الأخرى شديد الشغف بالعمران والبناء . يقول المؤرخ المصري رفعت بك : « من الحقائق المقررة الآن أن ما أنجزه اسماعيل باشا في مصر خلال سنوات حكمه الستة عشر فاق

(١) مجلة المصور المصرية ـ العدد الخاص ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩م .

ما أنجزه أي ملك في أي قطر في العصور الحديثة ، فهو قد تفوق بما قام به في القاهرة والاسكندرية حتى على ما قام به لويس الرابع عشر في باريس • اذهب اينما شئت في القاهرة فلابد أن ينجذب نظرك نحو بناية فخمة أو حديقة أو تمثال أو شارع عريض أو نافورة ، أو حياً من الأحياء كان قد خططه ونفذه اسماعيل باشا »[1] •

ومما تميّز به اسماعيل باشا هو أنه حبب سكنى مصر الى الاجانب من الاوربيين والامريكيين ، فكان يساعدهم ويؤيد مشاريعهم ويشجعهم على توسيع تجارتهم ، فتقاطروا الى مصر أفواجاً[2] ، فأفادوا مصر واستفادوا منها كالخبازة الماهرة التي تأكل نصف ما تخبز على حد تعبير المثل الدارج •

وفي ١٧ تشرين الثاني من عام ١٨٦٩م جرى الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، فكان عدد المدعوين اليها ثمانية آلاف معظمهم من اوربا ملوكاً ووزراء وأدباء كبار ، وكانت نجمة الاحتفال أوجيني امبراطورة فرنسا الحسناء • وقد بذل اسماعيل باشا في مظاهر الضيافة والاحتفاء ما أذهل عقول المدعوين وذكّرهم بأساطير ألف ليلة وليلة ، وبلغ ما انفقه في ذلك مليونا وأربعمائة ألف جنيه • وقد شكى أحد الوزراء المصريين من هذا الاسراف لأحد الوزراء الأوربيين قائلاً : « انا نأكل أحجار الاهرام حجراً حجراً » ، فرد عليه الوزير الأوربي ضاحكاً : « لا تهتم يا صاحب السعادة ، سنقرضكم المال اللازم لتشتروا منا الاسمنت •• لاعادة بنائها ؟! » • وكانت هذه بداية مأساة الديون في مصر[3] •

كانت الخطوط البحرية التي تصل ما بين الشرق والغرب قبل افتتاح

(1) M.Rifaat bey (The Awakening of Modern Egypt) Bristol 1947 — P. 106.

(٢) جرجي زيدان (المصدر السابق) ج١ ص٦٧ •

(٣) مجلة المصور المصرية ـ العدد الخاص ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩م •

القناة تمر برأس الرجاء الصالح الذي يقع في جنوب افريقيا ، وعندما افتتحت القناة تحولت معظم تلك الخطوط اليها • ففي السنة الأولى من افتتاحها بلغ عدد السفن التي مرت بها ٤٨٦ سفينة ، ثم أخذ العدد يزداد سنة بعد أخرى • وفي عام ١٨٧٤م استطاعت شركة القناة أن تدفع للمساهمين أرباحاً قدرها عشرة ملايين فرنك[١] •

وقد استفادت مصر من هذا التحول في الخطوط البحرية استفادة عظمى ، فان مرور تلك الخطوط بها جعلها قريبة من الشرق والغرب معاً وصارت بذلك ملتقى حضارياً مهماً ، فازدهرت الطباعة والصحافة فيها كما ازدهر العمران • ولم يقتصر تأثير القناة على مصر وحدها بل شمل بلاد أخرى كثيرة ، وسنرى في الجزء القادم مبلغ تأثيرها في العراق •

---

(١) محمد عبدالرحمن برج (قناة السويس في ١٠٠ عام) ــ القاهرة ١٩٦٩م ــ ص٥٢ ــ ٥٤ •

الفصل الثاني

من تاريخ الدولة العثمانية

الصراع بين القديم والجديد

ان الصراع بين القديم والجديد ـ أو بعبارة أخرى بين المحافظين والمجددين ـ ظاهرة اجتماعية نلاحظها في كل زمان ومكان انما هي تختلف شدة وضعفاً حسب اختلاف الظروف • وقد بلغ هذا الصراع أشده في العصر الحديث ولا سيما في الشعوب النامية التي اتصلت بالحضارة الحديثة حيث ظهر فيها معجبون بتلك الحضارة يدعون اليها من جهة ، ومتزمتون يستنكرونها ويقاومونها من الجهة الأخرى •

من طبيعة السواد الاعظم من الناس في كل مجتمع أنهم يميلون الى المحافظة على تراثهم القديم الذي وجدوا عليه آباءهم فهم لا يحبون تبديله، واذا جاءهم ما يخالفه نهضوا جميعاً لمقاومته لا يفرقون بين النافع والضار منه ، فكل جديد هو مستنكر في نظرهم وليس للمنطق فيه مجال • وهذا أمر نلاحظه في كل الشعوب حتى تلك التي نعدها الآن « راقية » فهي عندما كانت من قبل منعزلة عن العالم جامدة على تقاليدها ثم جاءها الجديد من الخارج ، أو ابتكره أحد ابنائها ، هبت لمكافحته واعتبرته كفراً • ويجب أن لا ننسى أن هذه الشعوب بالرغم من « رقيها » الراهن لا تزال تحتوي بين أفرادها على محافظين يستنكرون الجديد ويقاومونه غير أنهم قليلون نسبياً وتأثيرهم ضعيف •

ان مقاومة الجديد في المجتمع يمكن تشبيهه بطبيعة « الرفض » الموجودة في البدن الحيّ اذ هي ترفض كل جسم غريب يدخل فيه سواء أكان قلبا مزروعاً ينفعه او جرثومة تضره ، وحين تضعف طبيعة « الرفض »

هذه في البدن ، فتقبل ما هو نافع كالقلب المزروع مثلاً ، تضعف في الوقت نفسه مقاومة البدن لجراثيم الامراض ، ولهذا نجد البدن قد استفاد من وجود القلب الجديد فيه غير أنه من الناحية الأخرى أصبح عرضة لتغلب الأمراض عليه •

يصح أن نقول اذن ان المجتمع اذ يقاوم الجديد انما يحاول أن يحافظ على كيانه ، فالمجتمع في حقيقة أمره ليس سوى مجموعة العادات الاجتماعية التي يتمسك بها أفراده ويتعصبون لها ، فاذا استهان الأفراد بهذه العادات وصاروا يتقبلون كل شيء جديد يأتي اليهم أدى ذلك الى تفكك كيانهم الاجتماعي عاجلا أو آجلاً • وبهذا يمكن اعتبار المحافظين الذين يغارون على تراثهم القديم بمثابة سدنة الكيان الاجتماعي ، فوجودهم له وظيفته وأهميته في الحياة الاجتماعية ، ولكننا يجب أن لا ننسى في الوقت نفسه أنهم من أسباب تجميد المجتمع أيضاً ، فهم اذا سيطروا على مجتمع ما منعوه من التطور وعرقلوا عليه سبيل التكيف للظروف المستجدة •

ان المجتمع البشري بوجه عام يهدده خطران : خطر الجمود من جهة وخطر التفكك من الجهة الاخرى • والمجتمع الأمثل هو الذي تتوازن فيه قوى المحافظة والتجديد فلا تطغى احداهما على الأخرى •

الصراع في الدولة العثمانية :

بدأ الصراع بين القديم والجديد في الدولة العثمانية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، فقد أراد السلطان مصطفى الثالث الذي تولى الحكم في عام ١٧٥٧م أن يستعين ببعض الخبراء الاوربيين لتدريب جيشه على الأساليب العسكرية الحديثة ، فهب الانكشاريون في وجهه يعارضونه وكان رأيهم : أن ولي الله الحاج بكتاش قد بارك الجيش الانكشاري عند تأسيسه ودعا له بالنصر الدائم ولهذا فان بركته ودعاءه يغنيهم عن كل تعليم[١] •

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) بيروت ١٩٦٠م ـ ص٧٧ •

واشتدت المعارضة في عهد السلطان سليم الثالث الذي تولى الحكم في عام ١٧٨٩م ، فقد حاول هذا السلطان ادخال النظام الحديث في الجيش فقام المفتي مع لفيف من العلماء وبعض رجال الدولة يعارضونه وقالوا ان النظام الجديد بدعة مخالفة للشرع ، وأوحوا الى الجنود أنهم سيلبسون الملابس الافرنجية والتزيي بزي النصارى مع ما في ذلك من مخالفة للقرآن الشريف والشرع المنيف • وفي ٢٧ أيار ١٨٠٧م ثار الجنود برئاسة رجل منهم اسمه « قباقجي أوغلي » فجاؤوا بقدور الانكشارية فصفوها في أحد الميادين علامة على العصيان ، وقُرأت عيهم أسماء الساسة الذين يؤيدون النظام الجديد فذهبوا اليهم في بيوتهم فقتلوهم وجاؤوا برؤوسهم الى الميدان حيث وضعوها أمام القدور • ثم أصدر المفتي فتوى شرعية مفادها أن كل سلطان يدخل نظم الافرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك • وبذا تم عزل السلطان سليم ونصب مكانه السلطان مصطفى الرابع[1] •

ولم تمض على نجاح حركة « قباقجي أوغلي » سوى سنة واحدة تقريباً حتى أخذ الخلاف يدب بين رجالها ، وانتهز الفرصة مصطفى باشا البيرقدار ، وكان من دعاة التجديد ، فزحف بقواته نحو اسطنبول واستطاع أن يعزل السلطان مصطفى الرابع وينصب مكانه السلطان محمود الثاني الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره •

وقد ذكرنا في الفصل السابق بعض الاحداث الهامة التي وقعت في عهد السلطان محمود الثاني كثورة اليونان وفتح الجيش المصري لبلاد الشام • والواقع أن السلطان محمود كان من أعظم دعاة التجديد والساعين فيه غير أن تلك الأحداث أشغلته فلم يتمكن من السير في التجديد الى الحد الذي كان يروم •

---

(١) محمد فريد بك (تاريخ الدولة العلية العثمانية) القاهرة ١٩١٢م ـ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ •

يقال ان السلطان محمود كان يحب التشبه ببطرس الاكبر قيصر روسيا المشهور ، فتجول في اوربا بغية اقتباس العادات والنظم التي تروق له منها • وكان من جملة محاولاته التجديدية أنه استبدل الطربوش الأحمر بالعمامة ، ولبس الملابس الافرنجية وأمر أن تكون هي الزي الرسمي في الجيش ودوائر الحكومة • واستطاع في عام ١٨٢٦م أن يقضي على الجيش الانكشاري الذي كان عقبة في سبيل التجديد ، كما استطاع في عام ١٨٣١م أن يقضى على المماليك في العراق[١] •

عهد التنظيمات :

في ١ تموز من عام ١٨٣٩م مات السلطان محمود الثاني ، وقد اختلف الأطباء في سبب موته ولكن المتفق عليه هو أن ادمانه الخمرة كان من العوامل التي ساعدت على التعجيل في موته • وقد تولى العرش من بعده ابنه عبدالمجيد الذي كان في السادسة عشر من عمره ، وكان هذا السلطان يختلف عن أبيه من حيث العزم وقوة الشخصية غير أنه كان يشبهه في ميله الى التجديد •

استدعى السلطان عبدالمجيد رشيد باشا الذي كان سفيراً للدولة العثمانية في لندن ليتولى الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة ، وكان رشيد باشا هذا من المتحمسين للتجديد ومن المعجبين بالحضارة الاوربية ، وكان يسوءه أن يسمع الأوربيين يصفون الدولة العثمانية بـ « الرجل المريض » ويود أن يزيل هذه الوصمة عن الدولة عن طريق اقتباس النظم الحديثة[٢] •

أول عمل اهتم به رشيد باشا عند توليه الصدارة هو اقناع السلطان باصدار منشور لاصلاح الدولة ، هو المنشور التي عرف في التاريخ العثماني

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب ـ الفصل العاشر •

(٢) صديق الدملوجي (مدحت باشا) بغداد ١٩٥٣م ـ ص١٧ •

بـ « منشور الكلخانة » • وقد صدر هذا المنشور في ٣ تشرين الثاني عام ١٨٣٩م حيث تلي في قصر « الكلخانة » على مشهد من الأعيان والسفراء وكبار رجال الدولة •

ان المحور الذي يدور حوله منشور الكلخانة هو تأمين سلامة النفس والعرض والمال لجميع رعايا الدولة • يقول ساطع الحصري : ان تقرير مثل هذه الحقوق في منشور جديد قد يبدو غريباً ولكن ذلك كان هاماً بالنسبة الى الاحوال السائدة في البلاد العثمانية آنئذ ، فان اعدام الاشخاص من غير محاكمة ولا سؤال كان من الأمور المألوفة ، وكثيراً ما كان يعقب الاعدام مصادرة الأموال ، وكثيراً ما كان يعدمون بعض الأغنياء لأمور تافهة بغية مصادرة أموالهم وأما أعراض الناس فلم تسلم من تعرضات رجال الأمن وأوباش الجنود ، ولهذا فان منشور الكلخانة أراد أن يعطى حداً لهذه الأحوال ويؤمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم[١] •

عُدّ منشور الكلخانة نصراً لرشيد باشا ، وقد أثنت عليه الصحف الأوربية مما بعث في قلبه الرضا والغبطة ، ولكن السفير الروسي أعلن استخفافه بالمنشور ونعته بـ « الحركة المسرحية »[٢] أي أنه عبارة عن أقوال مجردة أريد بها التظاهر أمام الناس •

الواقع أن المبادىء المثالية التي تضمنها منشور الكلخانة كان من الصعب تحقيقها في تلك الظروف الاجتماعية التي كان الناس يعيشون فيها ، غير أنها على الرغم من ذلك كانت ايذاناً ببدء عهد جديد في تاريخ الدولة العثمانية عرف بـ « عهد التنظيمات » ، وقد استمر هذا العهد زهاء نصف قرن جرى فيه الكثير من الاصلاحات في نظام الجيش والادارة ، وفتحت فيه المدارس الحديثة ، وأدخلت المخترعات الأوربية ، كما انتشر فيه

---

(١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٨٧ — ٨٨ •

(2) Carl Brochelmann (History of The Islamic Peples) New York 1947 — P. 361.

استعمال الزي الجديد بين الموظفين[1] ، وهو الزي الذي بدأ به السلطان محمود ويتألف من الملابس الافرنجية والطربوش الأحمر •

يقول ساطع الحصري : « ان عهد التنظيمات صار بداية عهد تقدم ونهوض في الدولة العثمانية ، ليس من وجهة الشؤون الحكومية فحسب ، بل من وجهة الأمور الأدبية والثقافية أيضاً • ومع هذا ، ظل رجال الدين يتدخلون في شؤون الدولة ، ويعرقلون التقدم في مختلف الميادين • مثلاً ظلوا يزعمون للناس بأن التصوير حرام بوجه عام ، ويحولون بذلك دون طبع الكتب المصورة ولا سيما الكتب المدرسية المصورة »[2] •

السرستراتفورد كاننغ :

في عام ١٨٤٢م عُيّن السرستراتفورد كاننغ سفيراً لبريطانيا في اسطنبول ، وظل في عمله هذا ستة عشر عاماً كان يسعى خلالها نحو تجديد الدولة العثمانية بكل جهده •

أهم ما كان يشغل بال كاننغ ويوجه جهوده هو حالة التفسخ العام التي كانت سائدة في أرجاء الدولة العثمانية ، فهو كان يخشى أن تنهار الدولة من جراء هذا التفسخ فتنحدر روسيا نحو البحر الابيض المتوسط وتهدد بذلك طريق الهند • لقد كان لكاننغ هدفان : أحدهما مقاومة كل حركة تقوم بها روسيا لتوهين الدولة العثمانية وابتلاعها ، والثاني تشجيع حركة التجديد في الدولة العثمانية ودفعها في طريق المدنية الحديثة[3] • ويجب أن لا ننسى أن كاننغ لم يكن يسعى لتجديد الدولة حباً بها بل كان قصده من ذلك تقوية الدولة لكي تقف حاجزاً تجاه روسيا من أجل حماية طريق

---

(١) البرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة) ترجمة كريم عزقول — بيروت ١٩٦٨ — ص٦٤ — ٦٥ •

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٩٣ •

(3) G.J.S. Eversley (The Turkish Empire) London 1922 — P. 293.

الهند[١] .

عندما وصل كاننغ الى اسطنبول في عام ١٨٤٢م ليبدأ عمله في السفارة كان السلطان قد وقع تحت تأثير المحافظين فعزل رشيد باشا من منصب الصدارة وجعل في مكانه رجلاً عرف بالارتشاء وفساد الذمة هو رضا باشا . فأخذ كاننغ يسعى بكل جهده نحو اعادة رشيد باشا الى منصب الصدارة ، وقد استطاع بعد جهود كبيرة أن ينال مبتغاه[٢] .

لم يكن كاننغ سفيراً عادياً يخضع لتعاليم حكومته في كل صغيرة وكبيرة كما يفعل سفراء الدول في أيامنا هذه . ان وسائل المواصلات في تلك الأيام لم تكن كما هي في أيامنا تتم بسرعة البرق، ولهذا كان كاننغ كثيراً ما يتحمل المسؤولية ويتبع السياسة التي يرتأيها من غير أن يرجع بالمشورة الى لندن ، وربما كان في بعض الأحيان هو الذي يملي سياسته على لندن[٣] .

كان أهل اسطنبول يلقبون كاننغ « بيوك ايلچي » ــ أي السفير الكبير ــ باعتباره أكبر السفراء في اسطنبول وأوسعهم نفوذاً ، وكان بعض النصارى يسمونه « سلطان السلاطين » لما عرف عنه من سيطرة على السلطان عبدالمجيد . وكان كاننغ لا يتردد من التدخل في شؤون الدولة العليا من أجل الهدف الذي يسعى اليه ، وكثيرا ما كان يعامل الوزراء بكبرياء وعجرفة فاذا وجد منهم تلكؤاً في اجابة مطاليبه أسرع لمقابلة السلطان وطالما أثّر عليه وأرضخه لمشيئته[٤] .

حرب القرم :

تعتبر حرب القرم من أهم الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في

---

(1) Sarah Searight (The British In The Middle East) London 1969 — P. 85.

(2) G.J.S. Eversley (op. cit.) P. 244.

(3) Ibid, P. 292.

(4) Ibid, P. 287—294.

القرن التاسع عشر ، وقد اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا الى جانب الدولة العثمانية ، وهي انما سميت بهذا الاسم لحدوث أهم معاركها في شبه جزيرة القرم التي تقع في شمال البحر الأسود •

كان السبب المباشر للحرب هو ما وقع من خصام عنيف في مدينة القدس بين رهبان الكاثوليك والارثدوكس ، فانتهز قيصر روسيا الفرصة وقدم انذاراً الى الحكومة العثمانية يطلب منها أن تعترف به اعترافاً رسمياً بأنه حامي جميع الرعايا الارثدوكس في البلاد العثمانية ، وأسرع السفير البريطاني كاننغ يحرض المسؤولين العثمانيين على رفض الانذار ، ومن هنا أخذت الأزمة تشتد شيئاً فشيئاً •

وفي أثناء ذلك ، بينما كانت الازمة في عنفوان اشتدادها ، جرت مقابلة بين قيصر روسيا وسفير بريطانيا في بطرسبرغ السرهاملتون سيمور ، فدار الحديث بينهما حول مصير « الرجل المريض » ـ أي مصير الدولة العثمانية ـ فاقترح القيصر اجراء « عملية » عاجلة لها لتجنب خطر الانهيار المفاجيء وما يصحبه من فوضى قد تعم أوربا بأسرها ، وأبدى القيصر استعداده أن يقوم هو بالعملية وأن يقدم مصر وجزيرة كريت الى بريطانيا تعويضاً لها ، فرد عليه السفير البريطاني قائلاً : « ان جلالتكم تتحدثون عن رجل مريض ، فاعذرني يا صاحب الجلالة اذا أنا لفتّ نظركم الى أن واجب القوي حماية الضعيف والمعتل ، وليس الاجهاز عليه ! »[1] •

نشبت الحرب في شهر تموز من عام ١٨٥٣م ، واستمرت ثلاث سنوات ، وكانت في البداية محصورة بين روسيا والدولة العثمانية ، ثم اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا في أذار من عام ١٨٥٤م • وكان لها ثلاث جبهات : جبهة الدانوب في الغرب ، وجبهة قفقاسيا في الشرق ، وأما الجبهة الثالثة فكانت في شبه جزيرة القرم •

---

(١) آلما وتلن (عبدالحميد ظل الله على الارض) ترجمة راسم رشدي ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ص٣٤ •

يقول المؤرخ الامريكي وليم ييل في وصف حرب القرم : انها كانت من أكثر الحروب التي نشبت بين الدول الاوربية « غباءاً وعدم فائدة »[١]. فقد كانت الخسائر فيها بالأرواح والممتلكات هائلة ، وكان أفظع ما جرى فيها حصار قلعة سيباستبول وهو الحصار الذي قامت به الجيوش البريطانية والفرنسية ضد الحامية الروسية ودام سنة كاملة . ولم يكن الجنود البريطانيون والفرنسيون متعودين على برد روسيا فانتشرت بينهم الامراض والعاهات . ولم تستسلم الحامية الروسية الا بعد أن أمست سيباستبول يباباً[٢] . وقد انتهت الحرب أخيراً بانتصار الدولة العثمانية وحليفتاها بريطانيا وفرنسا ولكنه كان انتصاراً باهظ الثمن الى أبعد الحدود ، وصرخ الكثير من البريطانيين والفرنسيين ندماً : « ماذا جنينا من هذه الحرب ؟! » .

جهاد الكفار :

كانت حرب القرم كغيرها من الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية تعتبر في نظر المسلمين جهاداً ، فهي حرب بين المسلمين الذين تمثلهم الدولة العثمانية من جهة ، والكفار الذين تمثلهم روسيا من الجهة الأخرى . ولكن حرب القرم تميزت بدخول بريطانيا وفرنسا فيها الى جانب الدولة العثمانية ومعنى هذا أن الكفار انقسموا الى فريقين : فريق مع الدولة العثمانية وفريق عليها .

يبدو ان اكثر المسلمين لم يلتفتوا الى هذه النقطة من حرب القرم ولم يعيروها بالاً ، فقد كان معيار الجهاد في نظرهم هو ما يقول به السلطان باعتباره ولي أمر المسلمين ، ولا أهمية بعدئذ لدخول بعض الكفار في

(1) William Yale (The Near East) Ann Arbar 1958 — P. 73.

(2) Ferdinand Schevill (The History of The Balkan Peninsula) New York 1922 — P. 360.

الحرب الى جانب الدولة • وقد حدث مثل هذا في الحرب العالمية الأولى عندما أعلن السلطان محمد رشاد الجهاد على الكفار مع وجود الألمان الى جانب الدولة العثمانية يحاربون معها •

ألّف أبو الثناء الآلوسي الذي كان يومذاك يعد من أعلم علماء العراق كتابا بمناسبة تلك الحرب عنوانه « سُفرة الزاد لسَفرة الجهاد » قال في مقدمته :« فلما رأيت من الناس على الجهاد فرط التهالك ، وحققت أن قد سعوا اليه من أقصى الممالك ، تاقت نفسي ، واشتاقت الانسلاك في سلك أبناء جنسي ، وثارت غيرتي الهاشمية ، وحمت حميتي الاسلامية ••• ونوديت أن من الجهاد أن تؤلف فيه رسالة ، تذكر فيها فضله ومآله ، وتعظ فيها مسلمي البشر ، وتستنهض القاعدين غير أولى الضرر » • وقد تطرق الآلوسي في هذا الكتاب الى تحالف الدولة العثمانية مع بريطانيا وفرنسا في الحرب فقال بجواز ذلك شرعاً ، وكان رأيه أن المسلم يجوز له أن يستعين بالكافر في الجهاد بشرط أن يكون الكافر المستعان به مخالفاً في العقيدة الدينية للكافر المستعان عليه[1] • ولست أدري من أين استمد الآلوسي هذه الفتوى ؟ انها على أي حال فتوى ملائمة لتلك الظروف !

ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة أن شاعر العراق المعروف عبدالباقي العمري نظم قصيدة أرخ بها عام فتح سيباستبول وأشاد بالدول الثلاث لتعاونها في الحرب ، ونراه يقول في التمهيد للقصيدة : « ان هذا تاريخ تام ، يناغي المريخ في علو المقام ، لتسخير مدينة سيواستبول القوية الاستحكام ، الواقع على أيدى الدول الفخام ، المتحدة اتحاد الأرواح بالأجسام ، المؤتلفة ائتلاف العقود في النظام ، المتفقة اتفاقاً لا يعرف افتراقاً ما دامت الليالي والأيام ، لا برحوا في حالتي النقض والابرام ، متمسكين بالعهود الوثيقة بالعروة الوثقى التي لا تقبل الانفصام ، ولا زالوا على ما هم

---

(١) محسن عبدالحميد (الآلوسي مفسراً) بغداد ١٩٦٩ ـ ص١١٧ ـ ١١٨ •

عليه من التحابب الى قيام الساعة وساعة القيام » • والقصيدة تحتوى على ستة عشر بيتاً نقتبس منها هذه الابيات :

أقول للدول المنصـور عسـكرها ... لا زال عسـكرها بالله منصـورا

لما اتفقتم على صـدق المحبة في ... ما بينكم واتحدتم صرتم سـورا

أضحى القرال وأمسى لاقرار لـه ... والقلب منـه بنار الغيظ مسـجورا

طرداً وعكساً تركتم فلك فكرتـه ... في يم غـم بعيـد الغـور وابـورا

غادرتم البر بحـراً يستفيض دمـاً ... والبحر براً عـلى الاشـلاء معبورا

سيواستبول التـي أعيت معاقلهـا ... سخرتم حصنها أرخت تسخيرا[1]

الاحتفال بالتحالف :

من الأمور التي تلفت النظر أثناء حرب القرم ما فعله القنصل الفرنسي في الموصل للاحتفال بالتحالف بين دولته والدولة العثمانية • ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن منطقة الموصل هي من المناطق التي يعيش فيها المسيحيون والمسلمون معاً حيث يسكنون في قرى متقاربة ومتداخلة ، وكثيراً ما كانت الفتن والمعارك الطائفية تنشب بينهم لأسباب واهية كما هي عادة المتجاورين من ذوي العقائد المختلفة • وعندما وقعت حرب القرم خشي المسؤولون أن تنشب فتن من هذا النوع في تلك المنطقة • يقول الكاتب الفرنسي بير دي فوصيل عن منطقة الموصل ما نصه : « كانت كل حرب تنشب بين تركيـا وبين احدى الدول الغربية تثير الكراهية والبغضاء ضد الطوائف التي تتمتع بحمايتنا • وهكذا كانت الحالة حتى أثناء حرب القرم • فقد أراد المسلمون كراهية لروسيا أن يقوموا بمجازر ضد المسيحيين يدفعهم الى ذلك جهلهم الذي يتخبطون في ديجوره بحيث لم يعلموا أن فرنسا وانكلترا قد أعلنتا الحرب على روسيا بغية نجدة السلطان وقد أراد قنصلنا في الموصل مسيو

---

(١) عبدالباقي العمـري (الترياق الفاروقـي) النجف ١٩٦٤ — ص ٣٨٠ — ٣٨١ •

بلاس تبديد هـذا الوهم بتظاهرة مشـهودة لتنقشع الشكوك من عيون السكان ... » ثم نقل فوصيل نص الرسالة التي أرسلها القنصل الفرنسي الى حكومته في باريس في هذا الموضوع ، وهي كما يلي :

« منذ أن ورد البريد الأخير حاملاً أنباء المطالع السعيدة للحرب ، وحال أن أعلمتنا هذه الأخبار بدخول الأساطيل الفرنسية والانكليزية الى البسفور ، دعوت الوالي وأعضاء حاشيته الى مأدبة كبرى كما دعوت معه ضباط الحامية وبطريركي الكلدان والسريان والمحميين الفرنسيين وقنصل انكلترا . وقد حرصت على أن يكون مجلس أعضاء حاشيته حول نفس المائدة التي تضم رؤساء الطوائف الكاثوليكية . وهذا المشهد هو أول مشهد من هذا القبيل يعاينه هذا القطر وانتظرت من هذا الموقف أفضل النتائج .. ولدى انفضاض عقد المدعوين أطلقت نيراناً اصطناعية مكونة من قطع ترتفع الى أعلى درجة ممكنة من الارتفاع فأحدثت هذه الصواريخ كثيراً مـن الفراقع ، وكل ذلك لئلا يبقى أحد في الموصل على جهل بما كان يحدث .. انني من أولئك الذين يمقتون مقتاً كبيراً كل تظاهرة عقيمة لا تستهدف الا احداث الضجيج والعجيج دون أن تؤدي الى نتيجة ولكنني أرجوكم أن تأخذوا بنظر الاعتبار أنني هنا منعزل منقطع تماماً ومحاصر من قبل سـكان يتكلمون كل اللغات في موطن بلبلة الألسنة . كما أن هؤلاء الأقوام يضمون في صفوفهم كافة الطوائف المتعادية الجاهلة بحيث يصعب على الولاة كثيراً كبح جماحهم وكفكفة غلوائهم والحد من نقمتهم على كل ما هو مسيحي بالاضافة الى كون هؤلاء السكان لا تؤثر فيهم الا المظاهر الخارجية المبهرجة. وقد انتفعت من الأخبار الأولى الحسنة الآتية من مسرح الحرب لانني أجهل الأخبار التي سيجلبها لنا البريد القادم وعما اذا كانت الانتصارات ستدوم ، وفي حالة وصول الاندحارات لا سمح الله فان الحفلـة التي أقمتها أمس ستهدىء ثائرة السكان . وأؤمل على كل حال أن أخفف من وقع ما يحتمل أن يقع من كوارث وأن أدع هذه الأيام تمضي بسلام . ولا شك أن كل

هذا سيحمل الينا الطمأنينة خلال شهر على الأقل • لذا شعرت حينئذ بضرورة القيام بتظاهرة أخرى من نوع آخر فانني أسألك السماح بالموافقة على تحقيقها حتى ولو أدت الى تضحية بعض النفقات ••• »[١] •

من نتاج حرب القرم :

تعتبر حرب القرم في رأي بعض المؤرخين نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ شعوبها[٢] ، وكذلك تعتبر عاملاً مساعداً في التغير الاجتماعي والسياسي الكبير الذي حدث في المجتمع العثماني منذ منتصف القرن التاسع عشر[٣] •

أهم مظهر للتغير الاجتماعي الذي أنتجته حرب القرم كان من نصيب العاصمة اسطنبول ، فقد فتحت تلك الحرب أبواب اسطنبول للحضارة الاوربية ، وأخذ الأتراك ينظرون الى البريطانيين والفرنسيين نظرتهم الى حلفاء ينصرونهم ضد عدوتهم التقليدية روسيا • وصار البريطانيون والفرنسيون من جانبهم يتغلغلون في البلاد العثمانية لادخال الحضارة فيها من جهة ، ولجني الارباح التجارية من الجهة الأخرى •

تقول المؤرخة الألمانية الدكتورة وتلن : ان الدولة العثمانية برهنت على أنها حاجز ذو قيمة ضد الخطر الروسي فشددت أوربا على ضرورة الاصلاح الداخلي فيها اذ أن كل تقوية لجسد « الرجل المريض » كانت تزيد من مقدرته على حماية طريق الهند واغلاق الدردنيل في وجه السفن الروسية ، وقد أخذ الانكليز والفرنسيون يمدون الدولة العثمانية بالقروض ويرسلون البعثات الاقتصادية والعسكرية الى المقاطعات العثمانية الشاسعة ،

---

(١) نقلاً عن جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٣ أذار عام ١٩٦٦ ـ ترجمة الدكتور أكرم فاضل •

(2) Sarah Searight (op. cit.) P. 89—90.

(3) G.J.S. Eversley (op. cit.) P. 312.

ويؤسسون المدارس وينشئون السكك الحديدية وخطوط التلغراف ، وهم اذ كانوا يفعلون ذلك لم يكونوا يفكرون في أمر محاربة روسيا فقط بل كانت لهم مقاصد تجارية أيضاً ، وكانت أولى نتائج هذه الخطة تبشر بالنجاح فأصبحت الأنسجة القطنية الانكليزية تغطي أجساد الفلاحين الاتراك، واستخدمت المحاريث الانكليزية لشق الأراضي التركية ، وصارت سمعة الانكليز من حيث تفوقهم في مجال القوة والذكاء والصناعة شائعة في أنحاء تركيا كلها • أما المدارس الحديثة فكان الغرض منها تثقيف النشأ الصغير واعداده لشراء البضاعة الأوربية الجديدة[1] •

وتضيف الدكتورة وتلن الى ذلك قائلة : « ••• آلا ان الاتراك وهم محاربون بالفطرة كانوا يحتقرون الاشتغال بالتجارة والصناعة ، فسمحوا لتجارتهم بأن تقع في أيدي جماعة من الأوربيين ليسوا على كل حال من النوع الممتاز • فقد نزح الى تركيا مقامرون وأفاقون من كل نوع وأنشأوا هناك مشاريع خيالية لم يكن أحد ليجرؤ على تكذيبها في ذلك العصر المملوء بالغرائب • فأنشئت شركات لشراء أراض وهمية كي تقام عليها المباني والبنوك ومكاتب التلغراف وخطوط السكك الحديدية ـ مشاريع خيالية ولكنها في الظاهر ذات مستقبل مضمون يفوق على كل حال ماضي أصحاب هذه المشاريع • وهاجر الى تركيا كذلك كثير من لاجيء البولونيين الذين لم يتقنوا شيئاً في حياتهم سوى خياطة الثياب وترقيع الأحذية ، ولكنهم اقتحموا في تركيا الأوساط الهندسية العالية ، وادعوا الخبرة بفن المعمار • وكانت تجارة الحصول على الامتيازات اللازمة لكل مشروع جديد في حد ذاتها عملاً مربحاً ، ومجرد الاشاعة عن معرفة أحد موظفي الباب العالي كافية لاطعام عائلة ، وأصبحت صيحة (اغن نفسك) ـ شعار الملك لويس فيليب ـ تتجاوب فوق البوسفور ، ولكن على نحو مفرط يتناسب مع طبيعة

---

(١) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٣٦ ـ ٣٧ •

الشرق • وهكذا أخذت تركيا تدفع غالياً ثمن أكاليل الغار الجديدة • فكان انتصارها في الواقع انهزاماً أمام حلفائها الغربيين • وكان سير الأمور يوحي بأن أوربا ستتمكن من شراء تركيا بأسرها • فقد خضعت هذه الدولة القديمة المحاربة لأمضى الأسلحة وأدهاها : سلاح الذهب ! »[1] •

زار وليم رسل مراسل جريدة التايمس اللندنية اسطنبول في عام ١٨٦٩م ، وكان قد زارها أثناء حرب القرم ، فقال يصف التغير الهائل الذي حدث فيها : « ان مصابيح الغاز انتشرت في الشوارع الرئيسة ، وكذلك الماء الوفير ، أما العمامة القديمة الضخمة فقد أبدلت بالطربوش ، والرجل المريض ظهر للعيان وكأنه نزع عنه كل علامات المرض العضال الذي قيل ان اصابته منه كانت شديدة »[2] •

خط همايون :

كان السفير البريطاني كاننغ يسعى جاهداً لتحقيق مبدأ المساواة بين المسيحيين والمسلمين في دوائر الدولة العثمانية وقوانينها ، وكان يحادث رشيد باشا من أجل ذلك مرة بعد مرة اذ يقول له : « ان دولتنا تسعى الى الدفاع عن الدولة العثمانية ضد روسيا بكل ما لديها من قوة ، الا انها تلاحظ أن عندكم بعض الأحوال التي تفسح مجالاً واسعاً للتحريكات الروسية ، ولا تترك لنا مجالاً للدفاع عنكم • مثلاً انكم لا تقبلون شهادة الذمي على المسلم ، مع أنكم تحكمون بلاداً كثيرة جميع سكانها مسيحيون • فالمتغلبة من المسلمين يتعدون على هؤلاء ، من غير أن يخافوا العقاب ، بسبب عدم وجود شهود مسلمين غير أتباعهم المأجورين ، وبسبب عدم الالتفات الى شهادة غير المسلمين ، مهما كان عددهم ••• »[3] •

(١) المصدر السابق ـ ص٣٧ ـ ٣٨ •

(2) Sarah Searight (op. cit.) P. 88.

(٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٩١ •

وكان من نتائج الحاح السفير البريطاني في هذا الموضوع أن جمع رشيد باشا مجلس العلماء وهو المجلس الذي يضم كبار رجال الدين من المسلمين وعرض عليهم ما قال السفير له ثم وجه اليهم هذا السؤال : « ألا يمكن قبول شهادة غير المسلمين ، على الأقل في المحلات التي لا يوجد فيها سكان مسلمون ؟ » فكان جواب الحاضرين جميعاً : « لا مساغ شرعياً لذلك على الاطلاق » • وبعد المحاورة معهم تبين أن هناك حلاً للمشكلة هو أن يصدر السلطان أمراً بقبول شهادة غير المسلم ، وبذا يصبح الأمر « شرعياً » لانه صادر من « ولي الأمر »[1] •

ان هذا الحل الذي توصل اليه رشيد باشا مع رجال الدين ساعد على اصدار منشور سلطاني جديد يتضمن مبدأ المساواة بين رعايا الدولة جميعاً بغض النظر عن اختلاف معتقداتهم وأديانهم • وصدر هذا المنشور في ١٨ شباط ١٨٥٦م على أثر انتهاء حرب القرم، وأطلق عليه اسم « خط همايون » أو « منشور الاصلاحات الخيرية » •

أثار هذا المنشور امتعاض المتعصبين من المسلمين ، فهم كانوا يعدون المساواة بين المسيحيين والمسلمين أمراً مخالفاً للشريعة الاسلامية اذ ليس من الجائز شرعاً في نظرهم أن يكون الكافر والمؤمن على صعيد واحد أمام القانون ، وذهب البعض منهم الى الظن بأن « خط همايون » أريد به تحويل الدولة العثمانية الى المسيحية أو أنه ايذان بانتصار قريب للمسيحية على الاسلام حيث يتحقق به الامل الذي فشلت في تحقيقه الحروب الصليبية في القرون الغابرة •

يمكن القول على أي حال ان « خط همايون » كان سبباً في اثارة بعض الفتن الطائفية بين المسلمين والمسيحيين • وكانت أولى تلك الفتن ما جرى في مدينة جدة في موسم الحج من عام ١٨٥٨م ، وخلاصة الحادث أن جمهوراً من الحجاج هاجموا بعض النصارى في تلك المدينة وكان

---

(١) المصدر السابق ـ ص٩١ ـ ٩٢ •

يتزعمهم بعض المتعصبين من رجال الدين ، فقتلوا عدداً من النصارى كان منهم القنصل البريطاني وزوجة القنصل الفرنسي • وحين علم نامق باشا والي مكة بالخبر أسرع الى جدة فألقى القبض على المتهمين وحاكمهم ثم حكم على بعضهم بالاعدام ، غير أنه أجل تنفيذ الحكم عليهم حتى تأتي المصادقة من اسطنبول • والظاهر أن هذا التأجيل لم يرض بريطانيا وفرنسا ، فوصلت الى جدة سفينة حربية بريطانية وقدم ربانها الى نامق باشا انذاراً بتنفيذ حكم الاعدام خلال أربع وعشرين ساعة ، وعندما انتهت مدة الانذار سلطت السفينة مدافعها على مدينة جدة وظلت تمطرها بالقنابل عشرين ساعة ، ولم يتوقف القصف الا على أثر وصول اسماعيل باشا من اسطنبول ، اذ هو أسرع الى تنفيذ حكم الاعدام فأنقذ جدة من القصف[١] •

السلطان عبدالعزيز :

شاء القدر أن يختفي من مسرح السياسة العثمانية في خلال سنوات ثلاث الرجال الثلاثة الذين كان يسعون نحو تجديد الدولة، ففي عام١٨٥٨م مات رشيد باشا كما اعتزل فيها كانتغ الخدمة لكبر سنه ، وفي عام ١٨٦١م مات السلطان عبدالمجيد فخلفه على العرش أخوه عبدالعزيز وكان هذا على النقيض من سلفه محافظاً لا يحب التجديد •

يذهب أكثر المؤرخين الى القول بان السلطان عبدالعزيز كان مسرفاً متلافاً ويحب النساء حباً جماً حتى قيل ان عدد النساء في حريمه بلغ التسعمائة وهو رقم لم يصل اليه أحد من أسلافه[٢] ، وقيل كذلك ان عدد الخصيان عنده بلغ الثلاثة آلاف[٣] ، وقد بنى لنفسه قصراً لم تعهد له اسطنبول مثيلاً على كثرة ما كان فيها من قصور باذخة[٤] ، وذكروا أن

---

(١) محمد فريد بك (المصدر السابق) ص٢٨٤ •

(٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٥٧ •

(3) William Yale (op. cit.) P. 77.

(٤) قدري قلعجي (مدحت باشا) بيروت ١٩٥١ ــ ص١٩ ــ ٢٠ •

قصره كان يحتوى على ثلاثمائة طباخ وأربعمائة سائس وأربعمائة بحار للزوارق وأربعمائة موسيقي ومائة وخمسين حوذي ، وكان في اسطبله ستمائة جواد ، وقد بلغت نفقة جيبه الخاص مليونين ونصف ليرة في السنة ، وكان ينفق من هذا المبلغ نصف مليون ليرة على الصور والجواهر لأنه كان شديد الولع بها ، وينفق ستة عشر ألف ليرة على السكّر والحلوى ، وكان لديه خدم اختصوا بالعناية بدخانه وملابسه والروائح العطرية في غرفة حمامه[1] .

ان هذه ربما كانت مبالغات اختلقها الرواة كما هي عادتهم في مثل هذه الأمور ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستشف منها قسطاً من الحقيقة علماً بان الرواة لم يذكروا عن غيره من سلاطين آل عثمان مثلما ذكروا عنه ، فلابد أن يكون قد تميز عنهم بافراطه في التبذير وحب النساء .

وهناك ناحية أخرى ربما كانت عاملاً مساعداً في تشويه سمعة السلطان عبدالعزيز وزيادة التقولات فيه ، فالمعروف عنه انه كان يمقت الحضارة الغربية وكل ما هو أوربي ، وكان لا يتورع عن التصريح برأيه هذا علانية مما اضطر وزراءه أن يلفتوا نظره غير مرة بقولهم : « مولاي ، ان الواحد يشعر بذلك بلا شك ، ولكن لا يقوله ! »[2] . أضف الى ذلك أنه ابتعد في سياسته عن بريطانيا وفرنسا وأخذ يتقرب الى روسيا ، واستطاع السفير الروسي ايغناتيف أن يكون ذا نفوذ عليه يشبه نفوذ السفير البريطاني السابق على السلطان عبدالمجيد .

زيارته لاوربا :

في عام ١٨٦٧م دُعي السلطان عبدالعزيز لزيارة المعرض الدولي الذي أقيم في باريس ، وكانت الدعوة قد وجهت اليه بتوقيع نابليون الثالث

---

(١) سليم سركيس (سر مملكة) القاهرة ١٨٩٧ — ج١ ص١١ .
(٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٤٤ .

امبراطور فرنسا في ذلك الحين وصـيغت بعبارات منمقـة مغرية غير أن عبدالعزيز اعتبرها اهانة له اذ لم يسبق لسلطان عثماني أن وطئت قدمـاه أرضاً ليست من أملاكه وكيف يراد منه أن يقف اليوم وهو ظل الله عـلى الأرض مع سواه من الملوك والامراء في أرض المعرض •

حاول الوزراء اقناع السلطان بقبول الدعوة دون جدوى ، وبعد أن يئسوا من اقناعه اتجهوا نحو شيخ الاسلام لايجاد حل شرعي للمشكلة ، وكان شيخ الاسلام عند حسن ظنهم حيث أفتى بأن كل شبر من الأرض تطأه قدما السلطان يصبح ملكا له غير أنه يملك الحق في منح تلك الأرض لمن يشاء ، ومعنى هذا أن السلطان يستطيع بناء على تلك الفتوى أن يزور بلاد أوربا كلها ثم يعيد « توزيعها » بعدئذ حسبما يراه مناسباً[1] • ويقال ان السلطان عند عودته من سفرته أعلن قائلاً : « انني ملكت كل أرض زرتها ولكنني أرى نفسي غير محتـاج اليها فوهبت فرنسـا لامبراطورها وانكلترا لملكتها »[2] •

يروى أن محاورة جرت بين السلطان عبدالعزيز وصدره الأعظم أمين عالي باشا حول رأيه في السفرة • وفيما يلي ننقل شيئاً من تلك المحاورة على شكل سؤال وجواب لأنها تصور عقلية السلطان والانطباع الذي حصـل لديه عن أوربا :

الصدر الاعظم : « أرجو جلالتكم أن تكون راضياً عما رأيت في هذه الرحلة ؟ » •

السلطان : « أنا راض مزيد الرضا ، بل أشكر الله تعـالى أنني غير أعمى البصيرة نظير ملوك أوربا » •

الصدر الاعظم : « وما الذي جذب نظر جلالتكم الشريف دون سواه في هذه الرحلة ؟ »

---

(١) المصدر السابق ـ ص٤٥ •

(٢) سليم سركيس (المصدر السابق) ص١٦ ـ ١٧ •

السلطان : « رأيت المدن الأوربية حسنة البناء ولكنها خالية من جمال مناظر الاستانة • وكل انسان هناك منهمك في حشـــد المال • والنســـاء معرضات في المراقص والاستقبالات تعرضاً يوجب الخجل ، متعلقات على أذرع رجال لا نسب يصلهم بهن ، وأزواجهن لا يبالون بعارهم ، وعـلى وجوه الراقصـــات ابتسامات لطيفـــة حلوة الا ان رفاقهن من الرجـال يمسكونهن ولا يشعرون باكثر مما يشعر به الخصيان ، وهذا يشير الى عظيم تأثير العادات السيئة » •

الصدر الاعظم : « أحسنت فيما تقول يا مولاي • ان المسلم المؤمن يستغرب التمدن الأوربي ولكن أولئك النساء يكون منهن زوجات أمينات وأمهات كريمات ولهن في الغالب معرفة الاساتذة وانما دفعهن الى ذلك اتباع العادة التي لا ضرر فيها » •

السلطان : « وهل تحسب هذا من قبيل التهذيب والتمدن والألوف من الناس يموتون جوعاً في لندن وحدها ، وتملأ بهم السجون حتى تفيض ، فهل انت واقف على احصاء ذلك ؟ ان جميع السجون ملآنة ! » •

الصدر الاعظم : « ذلك لان الجرائم تعاقب حالاً ، أما العدل فغير كامل عندنا ويسمح للمجرمين بالفرار والنجاة » •

السلطان : « انهم لا ينجون من عدل الله ! » •

الصدر الأعظم : « يظهر أن جلالتكم غير متأثر تأثراً حسناً » •

السلطان : « يسرني أنني ذهبت الى هناك انما اعترف أنني كنت أتوق حقيقة الى الرجوع الى تركيا ، فان مثل تلك الحركة المهولة حيث لكل ساعة ما يشغلها انما هي حياة صبيان المدارس لا حياة سلطان ، وهؤلاء الملوك يخدمون شعبهم ، أما نحن فاننا سادة » •

الصدر الاعظم : « واأســـفاه يا مولاي ان من حســـن حظك أن لا يسمعك أحد » •

السلطان : « ولماذا ؟! هلا أستطيع أن أبدي أفكاري ، لعلك تريد

مني أن أعيش معيشة أولئك الافرنج الذين يقضون وقتهم وينفقون مالهم علـى الفنون والتجارة والسياسـة ... لابد لي من الاعتراف أن أعظم ما أدهشني كان قبح منظر النساء الاوربيات المتجاوز الحد فجميعهن قبيحات الوجوه الا الامبراطورة أوجيني وامبراطورة النمسا ، وعندي أن الملك الراغب في التزوج يجب أن تفوق امرأته سائر النساء جمالاً ، والأمر على عكس ذلك في أوربا فانهـم عـلى ما أرى يختارون أبسـطهن منظراً في الحسن »[1] .

ظهور مدحت باشا :

في عهد السلطان عبدالعزيز بزغ نجم السياسي المشهور مدحت باشا الذي يعد أعظم من سـعى في تجديد الدولة العثمانية ودفعها في طريق الحضارة الأوربية . ويحسن بنا أن ندرس شيئاً من سيرة هذا الرجل اذ نجد فيها مثلاً صارخاً للصراع بين القديم والجديد .

كان هذا الرجل عصامياً صنع نفسه بنفسه ولم يعتمد على جاه عائلي أو قرابة من ذوي النفوذ والثروة . ولد في عام ١٨٢٢م وكان أبوه قاضياً شرعياً اسمه الحاج حافظ أشرف أفندي ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره انخرط في سلك الوظيفة الحكومية كاتباً بسيطاً ثم تنقل في مختلف البلدان العثمانية كدمشق وصيدا وقسطموني[2] ، وصار يرتفع في الوظائف درجة بعد أخرى وكان في كل وظيفة يتولاها يبدي من الهمة والكفاءة ما يلفت اليه الأنظار .

لا شك أن الحظ ساعد مدحت باشا مساعدة كبيرة ، فهو قد عاش في وقت كانت الدولة العثمانية تسعى نحو اصلاح شؤونها وكان يتولى أمرها الرجل الذي تحدثنا عنه رشيد باشا . فلو أن مدحت كان قد نشأ قبل هذا

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٨ ـ ٢٠ .
(٢) قدري قلعجي (المصدر السابق) ص١٠ .

الوقت لكانت همته في أداء وظيفته شؤماً عليه كما هو الحال في الحكومات المتفسخة التي يخفق فيها الموظف الصالح ويفلح الطالح •

في عام ١٨٥٢م أُرسل مدحت الى الشام للتحقيق في قضية اختلاس كان المتهم فيها من رجال الدولة الكبار • ولم يكن مدحت آنذاك سوى موظف صغير ولكنه قام بواجبه خير قيام ونجح فيه بحيث استطاع أن يثبت ادانة الرجل الكبير • وقد لفت نجاحه هذا انتباه رشيد باشا فاجتذبه اليه وجعله في زمرة حوارييه الذين يعتمد عليهم في اصلاح الدولة ، وبذا صار مدحت يتدرج في المناصب العالية •

وفي ١٨٥٨م أتيح لمدحت أن يتجول في عواصم أوربا ، فاستغرقت جولته ستة أشهر اطلع فيها على أحوال أوربا وعوامل تطورها • ذهب الى فينا وبروكسل وباريس ولندن ، وهناك رأى رأي العين ما كان يقرأ ويسمع عنه عن الحرية والمساواة والنظم الدستورية التي كان الأوربيون يتمتعون بها • وقد أعجب كل الاعجاب بالثورة الفرنسية وبمبادئها ، وكان من رأيه أن المرحلة التي اجتازها الشعب الفرنسي عند ثورته على الاستبداد هي نفسها المرحلة التاريخية التي تجتازها الشعوب العثمانية في زمانه[١] •

وفي عام ١٨٦٠م مُنح مدحت رتبة الوزارة وعُيّن والياً في بلاد الصرب وبلغاريا ، فقام هناك بأعمال عمرانية مهمة كانشاء الطرق وتأسيس المدارس والمستشفيات واصلاح نظام الري والزراعة ، وكانت هذه أموراً غير مألوفة في الاقطار العثمانية يومذاك ، وفي عام ١٨٦٩م نُقل مدحت الى العراق فأخذ يعمل فيه على منوال ما عمل في بلاد الصرب وبلغاريا – كما سنأتي اليه بتفصيل في فصل قادم •

وفي عام ١٨٧٢م توفي الصدر الاعظم أمين عالي باشا وكان هذا من دعاة التجديد ومن المؤيدين لمدحت باشا ، فحل محله في الصدارة محمود

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٩٣ •

نديم باشا ، واختلف مدحت باشا مع الصدر الجديد حول السياسة المالية والعمرانية التي سار عليها في العراق فاضطر الى الاستقالة من ولاية بغداد في ٢٣ أيار ١٨٧٢م وعاد الى اسطنبول •

وعند وصول مدحت باشا الى اسنطبول اشتد الصراع بينه وبين محمود نديم باشا ، وكان هذا رجلاً مرتشياً لا يبالي أن يبيع أسرار الدول في سبيل المال ، وكان ميالاً الى روسيا حتى قيل انه كان أداة طيعة بيد السفير الروسي ايغناتيف يتقاضى منه مرتباً معيناً ما عدا الهدايا[1] ، وكان هذا أمراً ينسجم مع ميول السلطان فاشتد التعاون بينهما ضد مدحت باشا •

أخذ مدحت باشا يدعو الى اقامة الدستور والنظام البرلماني ، فالتف حوله كثير من المتعلمين والمتذمرين ، وبذا صارت اسطنبول ساحة صراع بين دعاة الدستور ودعاة الاستبداد • يقول الدكتور أحمد أمين في ذلك ما نصه : « اذ ذاك ظهر الصراع بأجلى مظاهره ، وانجلى الغبار عن معسكرين متميزين بأعلامهما وجنودهما : هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء وطائفة كبيرة من الشباب ، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبدالعزيز وحوله الحاشية ومحمود باشا نديم رئيس الوزارة ، وهو يمد السلطان بكل ما يحتاج اليه من أموال الدولة ، ينفق منه أقله في المصلحة العامة وأكثره في شهواته ، ثم يؤيده كثير من المعممين من رجال الدين ، قد اشتريت ذممهم بما أغدق عليهم من أموال الأمة ، فهم يسمون كل حركة تدعو الى الاصلاح فتنة ، ويقولون : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم • وكان لكل معسكر أدباؤه وكتابه وشعراؤه ••• الدول الأوربية نفسها تدخل في هذا المعترك ؟ فانجلترا تعطف على مدحت ، لأنها بحكم نظامها تميل الى الديمقراطية والى الدستور ، ولان صلاح تركيا وهدوئها ما يعوق مطامع روسيا ؟ وروسيا تؤيد السلطان ومحمود نديم ، وسفيرها في تركيا (ايغناتيف) يثير الفتن والثورات حتى يحقق مطامع

---

(١) المصدر السابق ــ ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨ •

روسيا اذ ذاك »[1] •

استطاع مدحت باشا أن يحصل على قوة من الرأي العام تدعمه مما اضطر السلطان الى تكليفه بتولي الصدارة ، وعمد مدحت باشا على أثر تسلمه زمام الحكم الى تقديم محمود نديم باشا الى المحاكمة بتهمة اختلاس مائة ألف ليرةمن أموال الدولة ، وتمكن من ادانته ولكن محمود نديم أذاع في المحافل بأن المبلغ الذي أدين به انما أنفقه على القصر السلطاني ، وما لبث السلطان أن أصدر أمراً بالعفو عنه • ولذا قدّم مدحت باشا استقالته بعد أن بقي في الصدارة مدة لا تزيد على الخمسة والسبعين يوماً • وبعد فترة غير طويلة تمكن السلطان من اعادة محمود نديم باشا الى الصدارة من جديد •

خلع السلطان :

أخذت المشاكل تتوالى على السلطان عبدالعزيز وصدره محمود نديم باشا ، فقد تتابع شتاءان قاسيان على الأناضـــول مما جعل الفلاحين يبيعون أولادهم من الجوع ، وأخذ الكثيرون منهم يهاجرون الى السواحل فمـات منهم في الطريق عدد غفير • ثم نشبت ثورة في بلغاريا جرت فيها مذابح بين المسلمين والمسيحيين حسبما جرت العادة عليه ، فأرسل السلطان الى مواطن الثورة جنوداً بثياب مهلهلة وبطون خاويـة ، وأخذت الصحف الأوربية عـلى عادتها تطنب في ذكر الفضائع التي يقترفها المسلمون وتنسـى ما يقترفه المسيحيون مع العلم ان الفريقين كانا من طراز واحد من حيث التعصب الأعمى والقسوة •

وفي تلك الآونة بلغت القروض الأجنبية على الدولة العثمانية مائتـي مليون باون ، وكان ذلك مبلغاً هائلاً في معيار ذلك الزمان • وفي شهر آب من عام ١٨٧٥م أمر السلطان بتخفيض دفع الفوائد على القروض الى النصف

---

(١) أحمد أمين (زعماء الاصلاح في العصر الحديث) القاهرة ١٩٤٩ ـ ص ٣٧ ـ ٣٨ •

مما يعتبر دلالة على الافلاس ، ويقال ان السفير الروسي ايغناتيف هو الذي أوحى الى السلطان بذلك من أجل توسيع الفجوة بينه وبين الغرب • وقد أثار عمله هذا موجة شديدة من السخط في الغرب ، وأخذ عملاء الدول الاجنبية يعملون على اثارة الأحقاد الدفينة بين النصارى والمسلمين في البلاد العثمانية(١) •

وأخذ التذمر من نظام الحكم ينتشر بين الرعية شيئاً فشيئاً ، وكان مدحت باشا وأعوانه يزيدون في النار ضراماً • وفي ذات يوم تجمهر الطلبة في جامع محمد الفاتح ثم ساروا في مظاهرة صاخبة نحو الباب العالي وهم يهتفون بسقوط الصدر الاعظم محمود نديم باشا وشيخ الاسلام حسن فهمي أفندي، ولبثوا يحيطون بالقصر طيلة الليل حيث أعلنوا أنهم لا يتركون أماكنهم حتى تجاب مطاليبهم •

وفي صباح اليوم التالي أعلن السلطان أنه يلبي مطاليبهم للمرة الأولى والأخيرة ولكنه سيضطر الى انزال العقاب الصارم بهم اذا عادوا لمثلها • وصدرت الأوامر بعزل محمود نديم وحسن فهمي ، ثم تألفت وزارة جديدة يرأسها رشدي باشا فدخل فيها مدحت باشا وزير دولة ، كما أسندت مشيخة الاسلام الى رجل من المجددين هو حسن خيرالله أفندي •

كان واضحاً للناس منذ البداية أن السلطان لم يكن راضياً عن الوزارة الجديدة وأنها انما جاءت رغم أنفه ، وصارت الاشاعات تدور في اسطنبول عن احتمال خلع السلطان قريباً ، واستشعر السلطان بالخطر وعزم على تهريب ثروته وجواهره الى روسيا •

والواقع أن مدحت باشا وأعوانه كانوا يعملون في الخفاء لخلع السلطان • وقد اتصل مدحت باشا بالسفير البريطاني يطلب منه ايواءه مع أعوانه في بريطانيا فيما لو قدّر لحركته الفشل ، واستجاب السفير له وأصدر أمره الى السفن البريطانية الراسية قريباً بأن تتوجه نحو اسطنبول استعداداً

---

(١) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٥٩ •

للأمر • وقد انتقد بعض المؤرخين هذا العمل من مدحت باشا واعتبروه نوعاً من الخيانة الوطنية حيث قالوا : ان مدحت باشا كان عليه أن يفكر بالنتائج الوخيمة التي قد يتمخض عنها دخول الاسطول البريطاني في ذلك الظرف العصيب وما الفرق اذن بينه وبين محمود نديم باشا الذي كان مدحت باشا نفسه يتهمه بالتقرب من روسيا والسير في ركاب سياستها !؟[1] •

وجاءت الفرصة المناسبة لخلع السلطان في ٢٩ أيار ١٨٧٦م ، ففي ذلك اليوم كانت عربة سلطانية تسير في شوارع اسطنبول بسرعة جنونية وهي تحمل أكياساً من النقود الذهبية مقدارها مائة ألف ليرة ، وكان هذا المبلغ قد جبي من الناس لارساله الى الجنود الذين كانوا يقاتلون في بلغاريا بدون طعام وأحذية ، غير أنه بدلاً من ارساله الى اولئك الجنود أرسل الى والدة السلطان حيث سارت به العربة الى قصر الحريم ، وقد أثار هذا الحادث مراجل الغضب في الأحياء القريبة من الميناء وتخللت صيحات الشعب الهائج كلمات مثل « كفر » و « نهب » • وكان غضب الأهالي شديداً بحيث خشي الوزراء مغبة قيام ثورة جامحة في اسطنبول[2] •

وعند هذا أسرع مدحت باشا وأعوانه الى شيخ الاسلام الجديد حسن خيرالله أفندي واستحصلوا منه فتوى بخلع السلطان كان هذا نصها : « اذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام في الأمور السياسية وما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النفسية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد أخل بالأمور الدينية والدينوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضراً بها فهل يصح خلعه ؟ الجواب : يصح • كتبه الفقير حسن خيرالله عفى عنه »[3] •

وفي ليلة ٣١ أيار ، وكانت ليلة ذات مطر وريح شديد ، أيقظوا

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٦٠ — ٦١ •
(٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٥٩ — ٦٠ •
(٣) محمد فريد بك (المصدر السابق) ص٣٢٠ •

السلطان عبدالعزيز من نومه وأخبروه بأنه مخلوع ، فتمالك نفسه ونطق بكلمة « قسمة ! » . ثم نُقل محجوراً الى أحد القصور السلطانية ، وكان قد اختار من جواريه ثلاثمائة ليعشن معه كما اختارت له أمه أربعة من الخصيان السود ليشرفوا على شؤون الجواري

لم يمض على السلطان المخلوع سوى أربعة أيام حتى وُجد في غرفته مقتولاً ، وقد أسرع الوزراء فاستدعوا لجنة طبية للكشف عنه ، وتألفت اللجنة من تسعة عشر طبيباً كان منهم ستة أطباء من السفارات الاجنبية ، وقررت اللجنة أنه مات منتحراً بقطع أحد العروق من ذراعه الأيمن ولكن خصوم مدحت باشا أشاعوا أن السلطان المخلوع مات مقتولاً وان الوزراء هم الذين قتلوه ثم عمدوا الى رفع الشبهة عنهم باستدعاء اللجنة الطبية ونشر تقريرها في الصحف .

قمة الصراع :

يذهب بعض المؤرخين الى القول بأن خلع السلطان عبدالعزيز لم يكن في الواقع من جراء تبذيره أو استهتاره بأموال الدولة بل كان من جراء انحرافه عن بريطانيا وفرنسا واتجاهه نحو روسيا . ومن هؤلاء المؤرخين محمد فريد بك صاحب كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، فهو يقول في ذلك ما مضمونه : ان السلطان عبدالعزيز أدرك أن تحالف الدول الغربية مع الدول العثمانية في حرب القرم وما بعدها لم تكن نتيجته سوى اضعاف الدول العثمانية ، والتدخل في شؤونها ، وتشجيع المسيحيين من رعاياها على الانشقاق ، وبث روح الفتنة والفساد في بلادها تحت غطاء الحرية ونشر العلوم ، وقد عاد ذلك بالنفع على روسيا جارتها القوية وعدوتها القديمة ، ولهذا ارتأى السلطان عبدالعزيز أن الأولى والانجح لسياسة الدولة هو التباعد عن تلك الدول والتحالف مع روسيا، وقد أيّده على هذا الرأي الصدر الأعظم محمود نديم باشا ، والمتواتر أنهما كانا يسعيان لوضع معاهدة هجومية

دفاعية مع روسيا فلما سمعت الدول الأوربية بذلك أخذ عملاؤها وسفراؤها ـ الظاهرون والسريون ـ يبثون الوساوس في عقول السذج من أهل اسطنبول وينسبون الى السلطان التبذير والاسراف وعدم الكفاءة لادارة مهام الملك ، وما زال هؤلاء يوسوسون للناس ويلقون بذور الفساد حتى أقنعوا الوزراء بوجوب عزله ، وصادفت دسائسهم أذنا صاغية عند بعض العلماء الذين كانوا لا يميلون الى السلطان بسبب خروجه من مملكته وزيارته معرض باريس وحضوره المسارح التمثيلية والمراقص[1] •

مهما يكن الحال فقد حل محل السلطان عبدالعزيز على العرش ابن أخيه السلطان مراد ، وكان هذا فيما اشتهر عنه ميالاً الى الدستور ومعجباً بالحضارة الغربية ، وقد فرح مدحت باشا وأعوانه به غير أن فرحتهم لم تدم طويلاً إذ لم يلبث السلطان مراد أن أصيب بالجنون وأصبح غير قادر على القيام بواجبات الملك • واضطروا عندئذ الى خلعه والى الاتيان بأخيه عبدالحميد ليحل محله على العرش •

ليس هنا مجال الحديث عن السلطان عبدالحميد ، فهو موضوع طويل ولعله اهم موضوع في تاريخ الدولة العثمانية كله وسوف نتحدث عنه باسهاب في الجزء القادم من هذا الكتاب ، ويكفى هنا أن نقول ان الصراع بين القديم والجديد بلغ القمة في عهد هذا السلطان •

أخذ السلطان عبدالحميد يكافح الدستور ودعاته من جهة ، ويدعو الى الجامعة الاسلامية من الجهة الاخرى، وصار ينظر الى الدول الاوربية كلها بمقياس واحد لا فرق فيه بين روسيا أو بريطانيا حسب المبدأ القائل « الكفر ملة واحدة » ، فهي كلها في نظره تريد هدم الاسلام وابتلاع البلاد الاسلامية ، وما الدعوة الى الدستور أو التمدن أو غير ذلك من المبادىء الجديدة الا أحابيل جاءت بها أوربا لتمزيق صفوف المسلمين وخداعهم •

---

(١) المصدر السابق ـ ص٣١٩ ـ ٣٢٠ •

الفصل الثالث

ولاية علي رضا باشا

ان علي رضا باشا ـ ويسمى أيضاً علي باشا ـ هو أول الولاة الذي حكموا العراق بعد القضاء على المماليك في ١٨٣١م ، وتمثل ولايته بداية عهد جديد في العراق هو عهد العودة الى طاعة الدولة العثمانية بخلاف ما كان عليه الوضع في العهد السابق عندما كان العراق شبه مستقل عنها •

أول عمل قام به علي رضا باشا في بغداد هو تدبيره لمذبحة المماليك[1]، وهي مذبحة تلفت النظر لأنها جاءت عقب مذبحتين سابقتين : حدثت أولاهما في القاهرة عام ١٨١١م حيث قضى بها محمد علي باشا على المماليك في مصر ، والثانية حدثت في اسطنبول عام ١٨٢٦م حيث قضى بها السلطان محمود على الانكشاريين • والظاهر أن محمد علي باشا كان المبدع الأول لفكرة المذابح وقد استفاد منها استفادة كبيرة لانه تخلص نهائياً من خصوم له دأبوا على الكيد به ، وقد قلده فيها السلطان محمود للقضاء على الانكشاريين الذين كانوا يشاغبون دائماً في مقاومة كل تجديد للجيش أو اصلاح له ، وعندما نجح في التخلص منهم أوعز الى علي رضا باشا أن يقوم بمذبحة مماثلة في العراق للتخلص من المماليك وقام هذا بما أوعز به السلطان اليه •

وبعد أن تم القضاء على المماليك صدر الأمر باستصفاء أملاكهم وما حصلوا عليه طيلة مدة حكمهم الذي استمر ثمانين سنة تقريباً • وانتدبت الدولة رجلاً خبيراً بالشؤون المالية والحسابية اسمه عارف أفندي

(١) انظر تفاصيل المذبحة في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ الفصل العاشر •

الدفتري ، فوصل هـنا الى بغداد عـلى عجل ، وأخذ جلاوزة الوالـي يطـاردون أقارب المماليك ونساءهم ويعذبونهم لكـي يعترفوا بمواضـع ثرواتهم المخبوءة والذهب المدفون ، وكان أولئك الجلاوزة لا يترددون ان يضعوا سيقان النساء في « الفلقة » ويكووا أبدانهن بالسفافيد المحماة بالنار بغية قسرهن على البوح بالأسرار ، غير أن الحصيلة من ذلك لم تكن وافرة كما كانوا يتوقعون . وقد وضعت الحصيلة في المزاد ثم أرسلت المبـالغ الناتجة عنها الى « الجيب الهمايوني » في اسطنبول[١] .

شخصية علي رضا :

ان علي رضا باشا هو في الأصل من أهل طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، وينتمي الى قبيلة اللاظ ـ أو اللاز كما تلفظ في اللغة التركية ـ ولهذا اشتهر باسم « علي رضا اللاظ » . وقد وُصف هذا الوالي عند مجيئه الى العراق بأنه كان بديناً في الخمسين من عمره يضع الطربوش على رأسه ويبدو عليه الشيء الكثير من سحنة التتر ولكن بشكل مقبول[٢] .

ويقول المؤرخ لونكريك عنه ما نصه : « بقي علي رضا باشا رأسـاً للحكومة في بغداد وملحقاتها البصرة وكركوك مدة احدى عشرة سنة . وقد أبدى خلال اشتغاله في هذه المدة شيئاً من حرية الفكر . وكان كرمه مضرب الأمثال ، كما كانت سماحته مختفياً قسم كبير منها وراء اعتداله . وكان يتلائم مع دعاة التقدم من الاجانب ، لأنه كان خلواً من التعصـب والاندفاع بالكلية . يضاف الى ذلك أنه كان ذا أخلاق سامية ، وله رغبة في عمل الخير الحقيقي ، زيادة على ميوله الأدبية والعلمية . على أنه كان

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ـ ج٧ ص١٢ .

(٢) جيمس بيلي فريزر (رحلة فريزر) ترجمة جعفر الخياط ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص١٤٨ .

حاكماً فاشلاً حقاً ، فقد كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل أن يحرك قبيلة على أخرى • وكان كسله وسمنه المفرط يمنعانه عن اجهاد نفسه في العمل ، فأصبح بذلك مضطراً للخضوع الى أسوأ المشاورين • ولم يك قادراً على ضبط المدن ولا القبائل ، ولا قواته الخاصة غير النظامية •• »[1] •

كان علي رضا باشا قد أبقى زوجته في حلب ولم يأت بها الى العراق ، ولكنه لم يمض على وصوله الى بغداد سوى شهرين ، أو أقل من ذلك ، حتى زفت له زوجة ثانية وهي فتاة « كرجية » حسناء من بنات المماليك تدعى سلمى خاتون • ويعلق سليمان فائق على هذا الزواج فيقول ما معناه ان بقاء الوالي في بغداد بدون زوجة يعتبر في نظر الأهالي من الأمور غير المألوفة فأشار عليه بعضهم باختيار زوجة له من بنات المماليك لا سيما وأن زوجته التي تركها في حلب لم تنجب له ولداً ذكراً[2] •

لست أدرى الى أي حد يصح هذا التفسير الذي جاء به سليمان فائق ؟ أرجح الظن أن علي رضا باشا لم يكن يكترث لأقوال الناس بمقدار ما كان يكترث للذاته الخاصة ، ويبدو أنه كان مفتونا بالجمال « الكرجي » علماً بأن هذا الجمال كان يضرب به المثل في بغداد ، ولا يزال البغداديون حتى الآن اذا أرادوا وصف امرأة بالجمال المفرط قالوا عنها : « كأنها كرجية ! » •

الشائع عن علي رضا باشا أنه كان شديد الميل الى الخمرة وربما كان مدمنا عليها • قيل انه حين يعود مساءاً من حفلاته الداعرة في البساتين يكاد لا يقدر على المشي من شدة السكر ، ولعله بسلوكه هذا قد شجع الفساق

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر الخياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص٢٨٥ •

(٢) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ترجمة موسى كاظم نوزس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص١٨٢ •

على الاقتداء به فصارت رذيلة السكر في عهده عادة مألوفة مع العلم أنها كانت في عهد سلفه داود باشا من الأمور المعيبة التي يحاول اصحابها التكتم فيها[1] .

والمعروف عن علي رضا باشا أنه كان من أتباع الطريقة البكتاشية وهي طريقة صوفية تغالي في الأئمة الاثنى عشر غلواً شديداً . قيل انه كان اذا حل شهر محرم وهو الشهر الذي قتل فيه الامام الحسين اعتكف في قصره وترك الشهوات ، وكان له شاعر من أهل الكاظمية هو الشيخ صالح التميمي ، وقد نظم له هذا الشاعر قصيدة في رثاء الحسين فكان يقرأها له في شهر محرم[2] .

بغداد في عهده :

كانت بغداد في بداية حكم علي رضا باشا قد فقدت القسط الاكبر من عمرانها وسكانها نتيجة تعاون الطاعون والفيضان عليها على نحو ما ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد أعطانا السائح البريطاني فريزر الذي زار بغداد في ١٨٣٤م وصفاً مريعاً للوضع الذي كانت عليه آنذاك : فقد انخفض عدد سكانها الى الخمسين ألفاً بعد ما كان قبل ذلك مائة وخمسين ألفاً ، ومات بالطاعون معظم التجار والصناع وأرباب الحرف ، وفي بعض الصناعات التي اشتهرت بها بغداد لم يبق من أصحابها أحد فاذا سألت عنها في الأسواق قيل لك : « آه ، ان ذلك لا يمكن الحصول عليه الآن لان جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا »[3] .

أما أبنية بغداد فقد قضى على معظمها الفيضان كمثل ما فعل الطاعون بالبشر ، وتقدر المساحة التي هدم الفيضان أبنيتها في جانب الرصافة

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص٢٠٠ .
(٢) على الخاقاني (شعراء الحلة) النجف ١٩٥٢ — ج٣ ص١٥٢ .
(٣) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١١٢ .

بما يناهز الثلثين من مجموع المساحة العامة ، فأصبحت كلها خرائب مليئة بالماء ، ومن الغريب أن مساحة كبيرة من الأرض قد انخسفت بتأثير الماء المتراكم وضغطه فكونت تجاويف وأوجار عميقة في البساتين الواقعة في القسم الجنوبي من المدينة ما بين دجلة ومحلة باب الشيخ ، وأخذت حتى الابنية التي ظلت قائمة يظهر عليها الكثير من الشقوق المخطرة من جراء تأثير الماء على أسسها • وكان جانب الكرخ أكثر تهدماً وخراباً من جانب الرصافة اذ لا يمر الانسان هناك الا بين جدران متهدمة أو مائلة للانهدام ، وانقاض ما كان في يوم من الأيام كتلة كثيفة من المساكن • أما سور المدينة في كلا الجانبين فهو متهدم كذلك ومتداع تظهر فيه الثغرات الكبيرة التي دخل منها ماء الفيضان الى المدينة(١) •

وكان قصر داود باشا الفخم الذي بذل في عمرانه وتزيينه المال الكثير قد ناله الخراب أيضاً ، والمظنون أنه كان في محل « القشلة » الحالية مشرفاً على النهر ، فاضطر علي رضا باشا الى النزول في احدى الدور التي لم ينلها الخراب من دور المماليك ، ثم أمر باعادة بناء السور لقصر داود باشا بغية جعله ثكنة لجنوده(٢) •

وفي الوقت الذي كان فيه الخراب لا يزال سائداً في بغداد عاد وباء الطاعون اليها مرتين ، وقد حصد في المرة الأولى خمسة آلاف شخص، وفي الثانية سبعة آلاف • وكان الوباء الأخير قد وقع في أيار من عام ١٨٣٤م حيث انتقل الى العراق من كرمانشاه ، وكان القنصل البريطاني قد حذّر الوالي من سوء العاقبة قبل حلول الوباء ونصح بمنع مجيء القوافل الى بغداد غير أن الوالي لم يعمل بنصيحته ، وقيل انه كان يطمع بالأتاوي التي يقبضها من الزوار الايرانيين • وعندما ظهرت أولى بوادر الوباء أخذ

---

(١) المصدر السابق _ ص١٢٩ _ ١٣٠ •

(٢) المصدر السابق _ ص١٣٠ •

الكثير من سكان بغداد يهربون منها نحو القرى والبراري ، وكان اليهود من جملة الهاربين اذ خرجوا كلهم فنجوا[١] •

يمكن القول ان بغداد لم تشهد طيلة قرون عديدة كارثة مثل تلك الكارثة حيث تتابعت عليها ثلاثة طواعين في خلال ثلاث سنوات علاوة على الفيضان المدمر • وقد ظلت ذكرى هذه الطواعين عالقة في أذهان البغداديين حتى زمن متأخر ، فصاروا يؤرخون بها كما أرخ عرب الجاهلية بعام الفيل • وقد أدرك كاتب هذه السطور في صباه الناس وهم اذا أرادوا وصف أحد منهم بالهرم قالوا عنه انه « يفطن على الطواعين » ، والمظنون أنهم كانوا يقصدون بها الطواعين الثلاثة التي حدثت في بغداد بين عام ١٨٣١م وعام ١٨٣٤م •

جلاوزة الوالي :

في الوقت الذي كانت فيه بغداد على الوضع السيء الذي ذكرناه آنفاً كان للوالي جلاوزة يعاونونه في الحكم ويُعدّون من أشد الناس ظلماً ودناءة ، فكانوا يقسون على الناس في الجبايه ويغتصبون الاموال منهم ويؤذونهم في كل سبيل • وقد رأينا نموذجاً من مظالمهم في تعذيبهم لنساء المماليك من أجل استصفاء أموالهم •

اشتهر من هؤلاء الجلاوزة ثلاثة هم : علي أغا اليسرجي ، وعبدالقادر ابن زيادة الموصلي ، وعلي أفندي الذي اشتهر في بغداد باسم « الملا علي الخصي »• وقد ورد وصف لهؤلاء الثلاثة في كتاب مجهول المؤلف مكتوب بلغة قريبة من العامية ، والظاهر ان المؤلف عاصرهم وشهد أعمالهم فهو يروي في كتابه شيئاً من مظالمهم ، ويحسن بنا نقل بعض ما كتب في هذا الصدد لكي يطلع القاريء به على المرحلة الاجتماعية التي كان يعيش العراقيون فيها آنذاك •

---

(١) المصدر السابق ــ ص١١٣ •

قال المؤلف عن أحد اولئك الثلاثة وهو علي أغا اليسرچي : « كان لا يعرف سياسة الحكومة ، ولا يدرك شيئاً ، غير أنه يحبس المسلمين ويأخذ دراهمهم ، كما أنه كان مولعاً بالزنا، وتزوج امرأة فاحشة مجاهرة، وجعل يخلو نهاره معها ••• » •

ثم قال المؤلف عن الجلواز الثاني وهو عبدالقادر الموصلي الذي كان يتولى أمر الكمرك في بغداد : « ••• أتى مع الوزير علي باشا من حلب ، وكذلك فشا ظلمه في بغداد • ومن بعض ظلمه كان يتعاطى التجارة وهو وال على الكمرك ، وتأتيه المكاتيب من الشام وحلب وغيرها من شركائه وعماله ، ويخبرونه عن أجناس البضاعة وعن أسعارها ، فيرسل ما شاء ، واذا أراد تاجر من تجار بغداد أن يرسل من ذلك الجنس لم يدعه يرسل، بل يمنعه من ارساله ، وهذا دأبه الى أن وقف أمر التجار • وفي أيامه يأكل الناس أموال بعضهم بعضاً ويأتون اليه ويرشوه فيساعدهم على أكل أموال عباد الله • وهذا كان دأبه ، ولا يبالي من أحد ولا من علي باشا ، ولا من الحكيم العليم ••• كان بخيلاً أبخل من كلب بني زائدة ، خماراً لواطاً ، يفحش في كلامه وسائر أوقاته ، خال من الكمال ومآثر السياسة ••• من يرشوه برشوة وافرة يحكى مع الوزير ويأخذ له المنصب من امارة ومشيخة والتزام ميري وضمان وما أشبه ، ويصك له صكاً ••• وجرى على هذه الحالة احدى عشرة سنة الى أن أكل جميع ايراد بغداد ، وصار عنده كنوز ، وكثرت أمواله • وكان عنده أربعة غلمان يلوط بهم ، اثنان مماليكه ، واثنان من أولاد الناس • وكل سبت يطلع خارج البلد ويعمل وليمة ويشرب الخمر مجاهرة ، وجعلها وظيفة على جلسائه من التجار ، كل أسبوع على واحد ، وهو أيضاً يوم عليه ، حمله على ذلك البخل وحب المال ، ومنهم ما يودون يعملون الوليمة ولكن يعملونها مخافة منه • ومناقبه أيضاً شنيعة جداً ، حتى انه تجرأ على رجل من أهل بغداد ، أمر بقتله في مربط خيله ، بسبب أنه متعرض بأحد غلمانه ، قتله ظلماً ولم يخف من

أولياء المقتول ولا من الوزير علي باشا . وله اخوان جعل واحداً والياً على البصرة ، والآخر على الحلة ، ويجلبون الأموال اليه ، ومع هذه الصولة ما تصدق يوماً بمائة درهم ، ولا أجاز شاعراً ... » .

ويصب المؤلف معظم نقمتـه عـلى الجلواز الثالث ــ أي الملا علي الخصي ــ فهو يقول عنه : « ومبدأ أمره كان كاتباً في قرية الخالص .. رجل ذميم الخلقة ، وجهه وجه الخصي ، منهم من يدعى أنه خصي .. وله زوجة لم تلد منه ، ووجهه أمر مهول كوجه القرد بل اسوأ حالاً من القرد والخنزير . فالمذكور قدمه الوزير وجعله بمنزلة قائد الجيش ، وجعل بيده ميري العشائر ... وهؤلاء المسلمون مظلومون حيث سـابقاً كان يعطي الرجل خمسة عشر قرشاً والذي ضاعفها هذا الكلب ملا علي الخصي ... وهذا الكلب الخصي يغصب عياناً مجاهرة ، ويفتخر بفعله ، والوزير علي باشا مطلع بذلك ولم يعارضه ولا ينهاه ... فالخصي المذكور كان مقدماً عنده وكان يظهر الى خارج البلد وينهب سواد العراق وهم أعراب فلاحون ... يأخذ أغنامهم وجميع مالهم من الدواب ، ويبيعونهـا على جزارين بغداد غنمهم ، والبقر يرمونها على أهالي البساتين ويحسبونها عليهم ، الدابة التي تباع بمائة يأخذون منهم ثلثمائة ، وأمثال ذلك ، حتى اذا مات شيء من هذه الدواب يقطعون اذناها ويجرونها بثمن دابة حية قبل تسليمهم اياها . ولزيادة طغيانه يحبس الناس في بيته ويضربهم أشد ضرب ولا يطلقهم حتى يأخذ منهم مالاً ، لا يستطيعون أداءه ويبيعون أملاكهم وهم مسجونون عنده في بيته ... وأن أعجاماً تبعة ايران قطانين يبيعون القطن رمى عليهم جاموساً ويأخذ أضعافاً عن أثمانهن مضاعفة ، وعلى بياعين الحطب يرمي عليهم جاموساً ويأخذ كما يأخذ من المذكورين . والحيرة أن الاعاجم الذين ذكرناهم مساكنهم لا تدخل فيها الجمس وهم حائرون في بيعها ويدورون بها في الطرق ولا مأوى عندهم . ويدور في نفسه في الميدان فكلما رأى فرساً جيدة غصبها من مالكها قهراً ، وأخذ خيلاً من أصحابها

من شيوخ العرب وسائرهم بهذه الصورة ، والناس يخافون من سطوته وجوره • وكل هذه الفعال يعلم بها علي باشا الضال ، حتى أنه جاء الى الجسر يريد العبور فوجد امرأة مارة أمامه أيضاً تريد العبور فضربها بعصاة بيده كان يحملها برأسها ضربة شديدة فماتت من ساعتها ••• وهاشميون أدخلهم في قلم الميرى ، وأخذ منهم الخانة ، وجرت العادة الهاشميون ما يعطون ميري الخانة التي تؤخذ من غيرهم من العشائر ، وهذا الخبيث يأخذ أموال الرعية ويتصدق من بعضها على فقراء الناس • ووجوه أهل بغداد لا قدرة لهم عليه ، بل بعضهم يتأمل من اكرامه • فيا تعساً له من زمان ••• وجوه بغداد لم يكن أحد منهم يخاطب الوزير في هذا الخبيث مع أنه كان يوجد من أرباب العلم وأهل السادة ••• »[1] •

انتفاضة جميل زادة :

تُعتبر انتفاضة جميل زادة من أهم الأحداث التي حدثت في عهد علي رضا باشا ، وهي قد جرت في السنة الثانية من ولايته وكان المتزعم لها والمحرض عليها عبدالغني جميل زاده الذي كان يتولى يومذاك منصب الافتاء وهو جد أسرة آل جميل المعروفة الآن في بغداد •

كان السبب المباشر للحادثة هو أن احدى نساء المماليك وهي أرملة رضوان أغا ، وكانت سيدة علوية من أسرة نقيب مندلي ، قد التجأت الى عبدالغني تحتمي عنده من مطاردة الجلاوزة لها ، وأودعت لديه طلفها البالغ من العمر ست سنوات ، غير أن الجلاوزة لم يحترموا حماية المفتي لها فقبضوا عليها وعذبوها ، وقد أدّى تعذيبهم لها الى اكتشاف « مشارب » نحاسية مليئة بالذهب ، فغضب المفتي من ذلك واحتج لدى الوالي دون أن يجدى احتجاجه شيئاً •

لا نعرف تفاصيل ما حدث بعدئذ ، والمؤرخون ساكتون عن ذلك

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٤٩ ـ ٥٥ •

لسبب لا نعرفه ، وكل ما لدينا من معلومات في هذا الشأن هو أن مظاهرة خرجت في يوم ٢٨ أيار ١٨٣٢م من محلة قنبر علي وهي المحلة كان المفتي يسكن فيها فانضم اليها الكثيرون من أبناء المحلات الأخرى ، وتوجهت المظاهرة نحو السراي وهي تنوي الهجوم عليه كما يبدو • ثم وقعت معركة حامية بين المتظاهرين وحرس السراي سقط فيها عدد من القتلى ، وتقدمت المظاهرة نحو باب الحرم ، غير أن الوالي استطاع أن يلم شعثه ويعبيء جنوده ، فشتت شمل المتظاهرين ، ثم سلط مدافعه على محلة قنبر علي فأشعل فيها النار[1] • وقد نهبت دار المفتي ثم أحرقت ، فتلفت مكتبته الثمينة التي يقدر عدد كتبها بنحو سبعة آلاف[2] •

واستطاع المفتي أن يهرب الى جانب الكرخ حيث التجأ هو وابن عمه عبدالرزاق الى عشيرة عقيل الساكنة هناك ، وقد تمكنت العشيرة من تهريبه مع ابن عمه الى بلدة عانه ، فبقي فيها سنة واحدة ثم عاد الى بغداد • ويقال ان الوالي استدعى عبدالغني بعد أن هدأت الفتنة وعرض عليه المقاطعات الجسيمة فلم يقبل منه ذلك ، وظل غاضباً ثائراً طيلة حياته وعبر عن غضبه وثورته بقصائد شديدة اللهجة عربية الروح والاندفاع • وقد جاء في قصيدة له يصور فيها حالة العراقيين وموقفهم منه قوله :

أجول بطرفي في العراق فلا أرى ... من الناس الا مظهر البغض والشحنا
فخيرهم للأجنبي وقبحهم ... على بعضهم بعضاً يعدونه حسنا
طوينا عن الزوراء لادرّ درها ... بساطاً متى ينشر يعدونه طعنا
واني وان كنت ابنها ورضيعها ... فقد أنكرتنا لاسقاها الحيا مزنا[3]

---

(١) انظر مقالة جعفر الخياط في جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ٢٢ كانون الثاني عام ١٩٦٤ •

(٢) محمود شكري الآلوسي (المسك الأذفر) بغداد ١٩٣٠ — ص ١٢٨ •

(٣) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٦١ — ص١٦٨ — ١٧٠ •

وجهة نظر :

ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب رأياً للمؤرخ المصري الدكتور عبدالعزيز نوار حول ما قام به البغداديون عام ١٨٣١م من دفاع عن داود باشا ومحاربة للجيش السلطاني القادم ، فهو يرى أن البغداديين انما فعلوا ذلك بدافع وطني وقومي لأنهم كانوا يعتبرون داود باشا أجدر من الاتراك بحكم العراق وأن على السلطان أن يحترم مشيئة أهل البلاد في تعيين حاكمهم(١) .

وللدكتور نوار رأي آخر يشبه هذا الرأي فيما يخص انتفاضة جميل زادة ، اذ هو يعتقد أن تلك الانتفاضة كانت من وحي الفتح المصري لبلاد الشام ونتيجة التجاوب مع محتواه القومي . انه يقول في ذلك ما نصه :

« ... على أن الانتصارات المصرية في الشام (١٨٣١ – ١٨٣٢م) كانت أكبر دافع لعبدالغني في اعلان ثورته . ولدينا من الوثائق ما يكشف ، عن أن أهل بغداد كانوا على استعداد لفتح أبواب العراق بأسره لا أبواب بغداد فقط لاخوانهم عرب مصر . كان أهل بغداد في فرحة كبرى عندما علموا بأن الشام تحرر من حكم الولاة العثمانيين . ولم يكن عرب العراق يعرفون كثيراً عن محمد علي والي مصر ، وانما كانوا يعرفون الكثير عن مصر والمصريين وعن أصالة العروبة في مصر وعن تفوق الحضارة العربية بها ، فكانوا خلال نشوتهم بتلك الانتصارات المصرية يفخرون بجيش مصر العربي ويبدون دهشتهم بالفلاح المصري الذي ترك فأسه – التي عاش عليها فقط قروناً طويلة – الى المدفع والى الشراع والى الآلة والى الدراسات العالية . أدهشتهم رجولته في ميدان المعركة واتقانه للتشكيلات العسكرية بسرعة عجيبة . ان هذه النقلة ليست في الواقع نقلة فجائية ، وليست من عمل رجل واحد ، وانما هي تلبية لتطور عام كان يدفع بمصر نحو الدور

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب – بغداد ١٩٦٩ – ص٢٨٢ .

الذي يجب أن يلعبه في تحقيق الهدف الطبيعي الذي كانت تتجه اليه البلاد العربية ، وهو توحيد البلاد العربية تحت حكومة واحدة • هذه المشـاعر التي لم تكن واضحة من قبل وظهرت جلية عندما كسبت القوات المصرية انتصاراتها الأولى على أرض فلسطين سنة ١٨٣١م ••• فثورة عبدالغني جميل قررت أن ينفض أهل العراق أيديهم من الولاة العثمانيين ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وأن يكون لأهل العراق رأيهم في الوالي الذي يتولى أمرهـــم ، بل وأن يكون من بينهـم ، وأن يضـــعوا أيديهـــم في أيدي المصريين ••• »[1] •

يبدو لي أن الدكتور نوار تجنّب الموضوعية في رأيه هذا كما فعل في رأيه الأول ، ولعل الحماس قد دفعه الى أن يكون خطيباً بدلاً من أن يكون باحثاً • يجب أن لا ننسى أن أهل بغداد لم يكونوا في ذلك الزمن يتحسسون بمثل تلك الأحاسيس التي يريد الدكتور نوار أن ينسبها اليهم كمشاعر القومية والوحدة والعروبة وما أشبه ، فهذه لم تظهر في العراق بالصورة التي يصفها الدكتور نوار الا في عهد متأخر جداً •

غفل الدكتور نوار عن أمر كان الجدير به أن لا يغفل عنه هو أن انتفاضة جميل زادة حدثت قبل أن ينال الجيش المصري انتصاراته الكبرى في بلاد الشام ، فقد كان الجيش المصري آنذاك لا يزال يحاصر عكا وقد مضى على حصاره لها ستة أشهر دون أن ينال منها شيئاً حتى بدأ اليأس ينتشر بين المصريين وراجت الاشاعات المخذّلة بينهم على نحو ما ذكرناه في الفصل الاول • لا أنكر أن انتفاضة جميل زادة حدثت في اليوم التالي لليوم الذي سقطت فيه عكا بيد الجيش المصري وهو ٢٧ أيار ١٨٣٢م ، ولكن الذي يجب أن لا ننساه هو أن أهل بغداد لم تكن لديهم في تلك الايام

---

(١) عبدالعزيز نوار (ثورة ١٨٣٢ في العـراق) مجلـة الهلال ـ القاهرة ١ شباط ١٩٦١ ـ ص٢١ ـ ٢٣ •

وسائل مخابرات سلكية أو لاسلكية يستطيعون أن يطلعوا بها على أخبار العالم عند وقوعها كما هو الحال في أيامنا • ويرجح في ظني أن أكثر البغداديين الذين اشتركوا في مظاهرة قنبر علي لم يكونوا يعرفون شيئاً عن حصار عكا أو يهتمون به ، كل ما كانوا يعرفونه هو أن المفتي قد استنجد بالمغاوير من أبناء محلته ونخاهم لحماية « العلوية الشريفة » أرملة رضوان أغا ، فهبوا لنجدته كما هي عادتهم في مثل هذه الحالة •

حدثني حسين جميل المحامي ، وهو من أسرة عبدالغني جميل زادة ، نقلاً عن بعض الرسائل التي كتبها عبدالغني في بلدة عانة أثناء التجائه اليها بعد فشل ثورته أنه قال : « اني لم أثر على السلطان بل على مظالم الوالي التي حلت بالأهالي » • ان هذا القول ربما كتبه عبدالغني للدفاع عن نفسه تجاه السلطان الذي هو في نظر عبدالغني « ولي الأمر » والخليفة الذي تجب طاعته ، ولكنه على أي حال قول قد لا يخلو من الحقيقة قليلاً أو كثيراً •

الثمرة الناضجة :

قد يصح أن نقول ان انتفاضة جميل زادة حدثت قبل أوانها بفترة وجيزة ، فهي لو كانت تأخرت بضعة أسابيع لكان لها شأن يذكر ولربما كانت سبباً في تغيير مجرى التاريخ في العراق •

رأينا في الفصل الأول كيف انطلق الجيش المصري بعد سقوط عكا زاحفاً نحو الشمال بحيث اتم احتلال بلاد الشام كلها خلال مدة قصيرة ، ولابد أن نشير هنا الى أن ابراهيم باشا لم ينس وهو في زحمة انتصاراته أن يرسل دعاته وكتبه الى بعض عشائر العراق ومدنه يحرضهم على الانضمام الى حركته في العصيان على الدولة العثمانية ، وقد لقيت دعوته شيئاً من النجاح في شمال العراق •

ففي الموصل أعلن يحيى باشا الجليلي العصيان على الدولة ، وسانده

صفوق شيخ مشايخ شمر فانحدر نحو الجنوب وحاصر بغداد ثلاثة أشهر وأخذ يقطع الطرق وينهب القرى. وانتهز الفرصة محمد باشا أمير راندوز الذي اشتهر باسم « ميركور » ـ أي الأمير الأعور ـ فاستولى على أربيل وزاخو ودهوك وجزيرة ابن عمر ، واجتاح بعض القرى القريبة من الموصل ، فكانت أنباء انتصاراته تصل الى القيادة المصرية في الشام والقاهرة فتلقى فيها ترحيباً ، وقيل ان اتفاقاً حصل بينه وبين محمد علي باشا على استقلال كردستان تحت رئاسته .

ظن هؤلاء الثائرون الثلاثة ـ أي يحيى باشا ومحمد باشا والشيخ صفوق ـ أن جيوش مصر ستدق عن قريب أبواب العراق المتداعية وأن الحكم العثماني سينهار فيه ، فأخذ كل واحد منهم يسعى نحو توسيع نصيبه من الأسلاب قبل فوات الأوان . ولو أن جميل زادة كان قد قام بانتفاضته في ذلك الحين لأصاب نجحاً غير قليل .

يمكن القول بوجه عام أن العراق كان في صيف ١٨٣٢م أشبه بالثمرة الناضجة ، وكان في مقدور ابراهيم باشا أن يقتطفها بسهولة لو أراد ، ولكنه كان فيما يبدو غير راغب في ذلك اذ كان همه منصباً على فتح اسطنبول ، وتشير بعض القرائن الى أنه كان لا يميل الى فتح العراق ويعتبره من الأقطار التي تضر من يفتحها اكثر مما تنفعه ، فهو لا يريد حكم العراق حتى في حالة موافقة الدولة العثمانية على ذلك[1] .

عنزة تهدد بغداد :

حين تم عقد الصلح بين محمد علي باشا والدولة العثمانية في نيسان ١٨٣٣م بدأت الدولة تنتقم من الذين انتهزوا فرصة الحرب وأعلنوا تعاونهم مع المصريين ، وقد تمكنت الدولة من عزل يحيى باشا الجليلي في الموصل

---

(١) عبدالعزيز نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٣٠ .

ومن القاء القبض على الشيخ صفوق ونقله الى اسطنبول مخفوراً كما تمكنت من القضاء على محمد باشا أمير راوندوز •

ومرت على العراق بعد هذا فترة هادئة نسبياً خلا فيها من الفوضى وعيث العشائر الى حد ما ، ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً • ففي النصف الثاني من عام ١٨٣٤م أحاط ببغداد خطر جديد هو الخطر الآتي من عشيرة عنزة •

كانت عشيرة عنزة من أشد العشائر العراقية بداوة اذ هي جاءت من نجد منذ عهد قريب واشتبكت مع عشيرة شمر التي جاءت قبلها في نزاع عنيف أربك المجتمع العراقي زمانا طويلاً • وفي صيف ١٨٣٢م عندما كانت عشيرة شمر تهدد بغداد أرسل الوالي علي رضا باشا الى عشيرة عنزة يستعين بها على قتال شمر ، فجاءت عنزة على عجل وهي تطمع بمكافأة كبيرة أو غنائم وافرة ، ولكنها لم تحصل من ذلك على شيء لأن عشيرة شمر انسحبت من تلقاء نفسها دون حرب ، وبقيت عنزة بالقرب من بغداد تطالب الوالي بالمكافأة التي كان قد وعدها بها • وتوترت العلاقة بينه وبينها فهي تريد منه المكافأة وهو يرفض اعطاءها •

اضطر الوالي في هذه المرة أن يستعين بعشيرة شمر لقتال عشيرة عنزة ، وجاءت شمر تريد الانتقام من عدوتها التقليدية • وفي يوم ١٢ تشرين الثاني من عام ١٨٣٤م نشبت معركة طاحنة على مقربة من بغداد بين عشيرة عنزة من جانب ، وجيش الوالي مع عشيرة شمر من الجانب الآخر ، وقدّر عدد المقاتلين من عشيرة عنزة بخمس وثلاثين ألفاً ، وانتهت المعركة بانتصارهم ، غير أنهم تركوا جيش الوالي وأخذوا يطاردون أعداءهم الشمريين ، وكانت هوساتهم : « خل النظام واقتل الجربا »[1] ، ومعناها : اترك جنود الحكومة واقتل عشيرة شمر •

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١٣٣ ــ ١٣٤ •

وبعد انتهاء المعركة أصبحت المنطقة المحيطة ببغداد في حالة من الفوضى وفقدان الأمن لا تطاق ، فقد سيطرت عنزة على القرى والطرق ، وأخذ القرويون والرعاة وأهل البساتين يتركون أماكنهم ويلجأون الى داخل أسوار بغداد يحتمون بها ، فاكتضت بغداد بهم وامتلأت الطرقات والأزقة بحيث لا يستطيع الانسان أن يسير فيها الا بصعوبة .

كان السائح البريطاني فريزر يومذاك في بغداد ، وفي ٢٨ تشرين الثاني كتب الى زوجته رسالة يصف فيها وضع بغداد وما حولها فقال : ان بغداد لا تزال في حالة حصار فليس في وسع أحد أن يخرج وراء السور الى مسافة مهما كانت قريبة من غير أن يتعرض للسلب في أغلب الاحتمال ، وقد جعل رجال عنزة مركز تجمعهم في عقرقوف قرب الكاظمية ومد وا رواق سيطرتهم على الصحراء الواقعة بين دجلة والفرات كما استولوا على طريق الحلة بحيث لا يمكن لاي أحد أن يسافر في ذلك الاتجاه ، وانتهز اللصوص والاشقياء في بغداد الفرصة فأخذوا يخرجون للسلب باسم رجال عنزة ، وصار سير القوافل غير آمن الا اذا كان مع كل قافلة حرس قوي ، وعاد الكثيرون من المسافرين وقد سلبت حتى ملابسهم . والأدهى من ذلك أن السلب شمل رجال الوالي في مواضع قريبة من أبواب المدينة ، وكان من بينهم يوسف بك الذي يتولى وظيفة « باب العرب » أي ادارة شؤون العشائر . وقبل يومين سمع اطلاق النار من موضع قريب من الست زبيدة وتبين أن جماعة من عنزة هاجموا ذلك الموضع ونهبوا كل ما فيه من ابل وأغنام وغير ذلك[1] .

معركة داخل بغداد :

بينما كانت الفوضى لا تزال ضاربة أطنابها خارج اسوار بغداد ، بدأت معركة عنيفة داخل الاسوار بين جنود الوالي وعشيرة عقيل الساكنة

(١) المصدر السابق ـ ص١٧٢ ـ ١٧٣ .

في جانب الكرخ ، وقيل ان سبب المعركة هو أن الوالي كان حانقاً على تلك العشيرة ثم اشتد حنقه عليهم مؤخراً حين وصل الى علمه أنهم شاركوا في بعض أعمال النهب والسلب التي حدثت خارج الاسوار • فأرسل اليهم أمراً بمغادرة بغداد فوراً والا فهو سيضطر الى طردهم منها بالقوة ، ولما وصل الأمر اليهم حاولوا المفاوضة مع الوالي فلم ينفعهم ذلك شيئاً • وفي صباح ٤ كانون الاول ١٨٣٤م بدأت المعركة بين الفريقين ، فكانت معركة دموية طاحنة استمرت طيلة النهار •

بدأت المعركة حين أسرعت جماعة من عقيل فقطعت الجسر من جهة الكرخ ثم تجمعت في مقهى قريب من رأس الجسر وأخذت تطلق منه الرصاص على جانب الرصافة • فتقدم رهط من الجنود من الرصافة فعبروا القسم الباقي من الجسر واتخذوا لهم مواضع في داخل قواربه ثم صوبوا نيرانهم على المقهى ، ونصب جنود آخرون مدفعين على الشاطيء لقصف جانب الكرخ ومقاهيه الملأى بأفراد عقيل •

وفي الساعة الثانية بعد الظهر أرسل الوالي الى المقيم البريطاني يطلب منه أن يعيره يخته الكبير المصنوع في بريطانيا لكي يستخدمه في القتال ، فاستجاب المقيم البريطاني له وأعاره اليخت ، واستطاعت زمرة من الجنود أن يركبوا اليخت تحت وابل من الرصاص ، وتوجهوا به نحو بساتين الكرخ فنزلوا هنالك ، واستطاعت زمرة أخرى أن يعيدوا نصب الجسر وعبروا عليه •

وعند حلول الظلام انتهت المعركة بهزيمة عقيل وانتصار جنود الوالي ، غير أن شيئاً أبشع من المعركة بدأ حينذاك حيث انثال الجنود على جانب الكرخ يعيثون فيه كما يشتهون • فقد نهب الجنود الأسواق واشعلوا النار فيها ، ثم اتجهوا نحو المنازل فنهبوها كذلك وأخذوا ينتهكون حرمات النساء ويسيئون اليهن اساءة لا توصف ، وصار زعيق النساء يُسمع من

جانب الرصافة .

ومن الفضائع التي جرت في تلك الليلة المرعبة أن جندياً ألبانياً حاول اغتصاب امرأة فمانعته عن نفسها ممانعة شديدة مما أدى به وهو في سورة الشهوة والغضب الى أن يقتلها ، وقد نُقلت جثتها في اليوم التالي الى مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، فألقيت على عتبة المرقد ، فأمر نقيب الاشراف بأن تُدفن كما يدفن الشهداء . ويحكى أيضاً أن جندياً دخل أحد بيوت الكرخ للنهب فأزعجه صراخ طفل فيه فأسرع فألقاه في التنور ظناً منه أنه يلقيه في البئر ، ثم خرج يتباهى بفعلته أمام الناس ، ولما وصل الخبر الى أمه المسكينة أسرعت الى البيت وجاءت بمن ينزح لها البئر . وبينما هم يهمون بالخروج بعد أن يئسوا من العثور على الطفل سمعوا صوت صراخه في التنور[1] .

وفي اليوم التالي للمعركة ، أي في ٥ كانون الاول ١٨٣٤م ، كتب فريزر الى زوجته يصف لها ما شاهده بنفسه في بغداد من ذيول ما جرى بالأمس فقال انه كان في فترة الصباح والنهار كله يرى الناهبين وهم يمرون أمامه حاملين أسلابهم ، فكان أحدهم يسحب خروفاً وراءه ، وآخر يحمل شدة من الدجاج المربوط الى بعضه ، وثالث يحمل الكثير من القدور والأواني والفراش أو السجاد ، ورابع يمسك بيده حزمة من لوازم النساء وملابسهن ، وخامس يسوق أمامه حمارين أو ثلاثة وهي محملة باكياس كبيرة تحتوى على خليط من كل شيء . وفي تلك الآونة جاء الى فريزر أحد الجنود يعرض عليه فرساً ويقول انه غنمها أثناء المعركة ، وقد تعجب الجندي حين وجد فريزر يمتنع من شراء الفرس .

والغريب أن جانب الرصافة امتلأ يومذاك بالمنهوبين علاوة على الناهبين ، فمنذ الساعات المبكرة من الصباح ازدحمت الأزقة باللاجئين

(١) المصدر السابق ــ ص١٨٧ ــ ١٨٨ .

القادمين من جانب الكرخ ، فكان الكثيرون منهم عراة أما الذين كانوا أسعد حظاً منهم فكانوا يحملون معهم ما استطاعوا حمله من لوازمهم ، وقد شاهد فريزر النساء يضربن بأيديهن ويولولن بينما كان الرجال عابسين مكتئبين أو يصخبون ويشتمون • وقد تُسمع أحيانا في زاوية من الزوايا امرأة تمزق الهواء بصراخها وعويلها حزناً على طفلها أو زوجها الذي غرق في النهر أثناء العبور بالقفف ، أو من أجل ضياع ممتلكاتها وأثاث بيتها الذي اختطفه الناهبون على مشهد منها • ومن أطرف ما ذكره فريزر في رسالته هو أن بعض حوادث النهب قد تقع بين الناس وهم في مثل تلك الحالة ، فقد ينقضّ رجل على خروف رجل آخر فيأخذه ويولي هارباً[1] • ان هذا يدل على القيم الاجتماعية ذات الجذور المتغلغلة في أعماق النفوس •

أبو الثناء الآلوسي :

كان أبو الثناء الآلوسي من أهم الشخصيات العراقية في عهد الوالي علي رضا باشا ، فقد تولى منصب الافتاء فيه وكانت له شخصية مؤثرة ظل تأثيرها باقياً في الكثير من الناس حتى عهد متأخر • والواقع ان سيرة هذا الرجل تصور لنا جانباً مهما من الوضع الفكري والديني الذي كان سائداً في العراق حينذاك •

وُلد الآلوسي في الكرخ في أواخر ١٨٠٢م ، وهو من أسرة علوية النسب وكان أبوه السيد عبدالله أفندي مدرساً في جامع أبي حنيفة • وقد نشأ الآلوسي نشأة دينية وظهر عليه النبوغ في سن مبكرة ، وحين بلغ العقد الثالث من عمره صار مدرساً في عدة مساجد كمسجد الحاج أمين الباچچي، ومسجد الملا عبدالفتاح ، ومسجد القمرية ، ومسجد السيدة نفيسة ، وجامع

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٨٥ ـ ١٨٨ •

مرجان ، حتى بلغت دروسه في اليوم أربع وعشرين درساً[1] ، ولهذا كثر حساده ومبغضوه كما هو شأن النابغ الذكي في محيط اجتماعي ضيق •

كان داود باشا يعطف على الآلوسي ويحميه ، وحين قام أهل بغداد في عام ١٨٣١م لتأييد داود باشا ضد الجيش السلطاني انضم الآلوسي اليهم، ولما انكسر أهل بغداد ودخل علي رضا باشا الى بغداد فاتحاً على رأس الجيش السلطاني خاف الآلوسي وذهب ملتجئاً الى محلة باب الشيخ فاختفى في سرداب فيها وظل فيه ثلاثة أيام لا يخرج منه ، ثم شفع له بعدئذ المفتي عبدالغني زادة فعفا الوالي عنه وعينه أميناً للفتوى ووجه اليه وظيفة التدريس في المدرسة القادرية ، ولكن الآلوسي لم يهنأ بوظيفته الجديدة طويلاً اذ سرعان ما حدثت الانتفاضة التي قام بها المفتي فاشترك الآلوسي فيها حيث ذهب الى جانب الكرخ يحرض الناس على تأييدها • ولما أخفقت تلك الانتفاضة اضطر الآلوسي الى الاختفاء للمرة الثانية ، وكانت هذه المرة أشد عليه من المرة الأولى حتى قيل ان علي رضا باشا كان يبحث عنه يريد قتلـــه[2] •

وقد جاءه الفرج في هذه المرة على يد بعض شيوخ الطريقة النقشبندية اذ تشفعوا له عند الوالي ، فقبل الوالي شفاعتهم فيه ، ولكن الآلوسي لم يهنأ بهذه الشفاعة فقد كان النقيب محمود أفندي الكيلاني يبغضه ويريد الكيد به ، ثم وشى به لدى الوالي فأمر الوالي بتحديد اقامته في محلة باب الشيخ لا يخرج منها • وظل الآلوسي مقيماً في باب الشيخ سنة ونصف سنة يتجرع الويل من عدوه النقيب •

---

(١) محســـن عبدالحميد (الآلوسي مفســـراً) بغـداد ١٩٦٩ — ص٤٢ — ٤٣ •

(٢) عبدالعزيز نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء محمود الآلوسي) المجلـة التاريخية المصـرية — المجلد الرابع عشـــر — القاهرة ١٩٦٨ — ص١٤٩ — ٥٢ •

جاءه الفرج أخيراً في احدى ليالي رمضان من عام ١٢٥٠هـ – الموافق لشهر كانون الثاني من عام ١٨٣٥م – ففي تلك الليلة جاء الوالي لزيارة جامع الشيخ عبدالقادر وجلس يستمع الى مجلس الوعظ فيه على عادة الولاة العثمانيين ، والظاهر أن الآلوسي انتهز تلك الفرصة فارتقى المنبر وأخذ يلقي خطبة نالت اعجاب الوالي كثيراً ، ويروى عن الوالي أنه قال حينئذ عن الآلوسي : ان هذا الرجل لو كان في اسطنبول لصار شيخ الاسلام[1] . وبعد انتهاء الخطبة أرسل الوالي اليه يطلب منه أن يأتي لمقابلته في اليوم الثاني من عيد الفطر .

ذهب الآلوسي لزيارة الوالي في اليوم المعين فنال لديه حظوة كبيرة ، وأعاد اليه الوالي جميع وظائفه التي أخذت منه ، وتوطدت الصداقة بينهما ، فكان يذهب لزيارة الوالي في الاسبوع مرتين ، وكان المخاطب الوحيد في مجلسه من بين العلماء والأعيان[2] .

كان محمد سعيد أفندي الطبقچلي هو المفتي في ذلك الحين ، وصادف ذات يوم أن كان هذا المفتي في مجلس الوالي وجاء ذكر أبي طالب عم النبي فقال عنه انه مات كافراً ، فاستاء الوالي من هذه الكلمة . وأراد الطبقچلي أن يبرهن على صحة قوله فجاء في اليوم التالي ومعه « زنبيل » مملوء بالكتب وهي كلها تؤيد قوله في كفر أبي طالب . وعند هذا اشتد غضب الوالي عليه وقال له موبخاً : « هل أنت خصم لعم الرسول ؟! » . ثم التفت الوالي نحو الآلوسي وكان حاضراً فسأله عن رأيه في الموضوع فكان جواب الآلوسي أن أبا طالب مات مسلماً ، ثم أخذ الآلوسي يعدد أقوال القائلين بهذا الرأي من باب التأييد له . فأمر الوالي بعزل الطبقچلي من منصب

---

(١) عباس العزاوي (ذكرى أبي الثناء الآلوسي) بغداد ١٩٥٨ – ص ٥١ .

(٢) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص٤٤ .

الافتاء وبتعيين الآلوسي مكانه[1] •

وانثالت الدنيا من بعد ذلك على الآلوسي ، فابتاع له داراً من أكبر دور بغداد تقع في محلة العاقولية من جانب الرصافة ملاصقة لجامع الشيخ عبدالله العاقولي[2] ، فكان له مجلس حافل فيها يرتاده العلماء والأدباء والكبراء ، وصار هذا المجلس سبباً في انتعاش الحركة العلمية والأدبية في عصره فكانت تعقد فيه ندوات المناقشة تحت رئاسة الآلوسي ويكون هو الحكم فيها[3] • ونظم الشعراء في مدحه القصائد كعبدالغفار الأخرس وعبدالباقي العمري وأحمد عزت العمري وعبدالحميد الاطرقجي وصالح التميمي وغيرهم[4] • وفي شهر أيار من السنة التالية أبعد الوالي عدوه النقيب محمود الكيلاني الى السليمانية[5] ومات هذا في المنفى ، فاستراح الآلوسي من مكايداته وخلا له الجو •

طاعة السلطان :

ان طاعة السلطان من المواضيع الفقهية التي ثار حولها الجدل بين الفرق الاسلامية منذ صدر الاسلام ، وقد أثير الجدل حوله من جديد على أثر اعلان محمد علي باشا العصيان على الدولة العثمانية كما أشرنا اليه في الفصل الاول حيث انقسم الفقهاء الى فريقين أحدهما يوجب طاعة السلطان والآخر لا يوجبها •

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ص٥١ ـ ٥٢ •

(٢) محمد بهجة الأثري (اعلام العراق) ـ القاهرة ١٣٤٥هـ ـ ص ٢٣ •

(٣) ابراهيم الدروبي (البغداديون ـ اخبارهم ومجالسهم) بغداد ١٩٥٨ ـ ص٢٧ •

(٤) محمد بهجة الأثري (المصدر السابق) ص٢٤ •

(٥) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ـ ج٧ ص٣١ •

كان العراق مباءة لهـذا النوع من الجدل في صدر الاسلام لتتابـع الثورات فيه ، وقد اشتد الجدل فيه عندما احتلت الجيوش المصـرية بلاد الشام حيث أخذت الدعاية المصرية تجد آذاناً صاغية في بعض انحاء العراق لا سيما في الشمال منه • والمظنون ان علي رضا باشا كان يبحث عن فقيه عراقي كبير ليكتب كتاباً يؤيد فيه جانب الدولة ويفنّد حجة الثائرين عليها•

يخيل لي أن علي رضا باشا حين أعلن اعجابه بالآلوسي بعد سماعه لخطبته كان كأنه اكتشف فيه الرجل المطلوب • والواقع أن الآلوسي كان عند حسن ظن الباشا ، فقد استجاب له بسرعة وانكب على تأليف كتاب عنوانه « التبيان في شرح البرهان في اطاعة السلطان » •

ان هذا الكتاب هو شرح لكتاب صغير كان قد ألفه سـابقاً الشيخ عبدالوهاب أفندي ياسين چي زادة • وقد افتتح الآلوسي شـرحه بتدبيج مدائح طويلة في السلطان وفي الوالي ثم أخذ بالبحث في شـرعية وجود الدولـة العثمانية ووجوب طاعة سلطانها عـلى جميع المسلمين ، فجـاء بالادلة على ذلك من الكتاب والسنة وشرحها شرحاً وافياً • ثم عقد فصلاً في قضية الامامة من وجهة نظر أهل السنة ووجهة نظر الشيعة ، فجادل الشـيعة جدلاً طويلاً وفنّد عقيدتهـم في قاعـدة اللطف وفي المهـدى المنتظر[1] •

ولـم يكتف أبو الثناء الآلوسي بذلك ، بل كتب بايعاز من الوالي رسالة الى شـريف مكة محمد بن عون يدعوه فيها الى التمسـك بالولاء للسلطان ويذم محمد علي باشـا على عصيانه ويصفه قائلاً : « محمد علي المصري المصرّ على ما يسيء ويزري ••• أراد حسب زعمه الفصل بين الشجر ولحائه ••• فقد ذهب كثير من الأئمة الاخيار الى أن قتال البغاة أفضل من جهاد الكفار »[2] •

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص١٠٩ ـ ١١١ •

(٢) عبدالعزيز نوار (مصر والعراق) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص١٥٣ •

وقـد ارتفعت منزلة الألوســي لدى الدولة من جراء ذلك ارتفاعـاً عظيماً ، فمنحه السلطان رتبة « تدريس الاستانة » وهي رتبة فخرية ، كما أجازه الوالي بتولية أوقاف مرجان وهي أوقاف تدر خيراً كثيراً •

لمـاذا ؟

ان الموقف الذي وقفـه أبو الثناء الآلوســي في تأييد السلطان ضـد الثائرين عليه لا يخلو من غرابة • فالآلوسي شارك سابقاً في ثورتين عـلى على السلطان : احداهما مع داود باشـا في عام ١٨٣١م ، والثانية مـع عبدالغني جميل زادة في السنة التالية • فما هو السبب الذي جعل الآلوسي يغير موقفه بهذه السرعة ؟!

يرى الدكتور يوســف عزالدين في تفسير ذلك أن موقف الآلوسي في تأييد السلطان انما كان من قبيل التقية والمجاراة ، وقد وصف الدكتور عزالدين الوضع الفكري الذي كان سائداً في العراق آنذاك بقوله : « لذلك كان اصحاب الآراء يضطرون للمحاورة والتقية ومجاراة الولاة الذين لا يرعون الا ولاذمـة وبذلك يأمنون عـلى أنفسهم من بطشهم حتى أن أبا الثناء الآلوســي لم يجد ما يدفع عنه غائلـة الاضطهاد واعادة حقوقـه المهضومة الا بتأليف كتاب كان يعتقد في قرارة نفسه ببطلانه الا وهو شرح (البرهان في اطاعة السلطان) ذلك الكتاب الذي أجازه عليه علي رضا باشا والي بغداد بتوليته أوقاف مدرسة جامع مرجان ولم يكتف الباشا بذلك بل جلب له رتبة (تدريس الاستانة) من الاستانة ونصبه مفتياً للحنفية »(١) •

ان هذا القول الذي جاء به الدكتور عزالدين لم يوافق عليـه أحد الذين كتبوا في سيرة الآلوسي وهو محسن عبدالحميد فرد عليه مدافعاً عن

(١) يوسف عزالدين (الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٥٨ ـ ص٤٩ ـ ٥٠ •

الآلوسي اذ قال في ذلك ما مضمونه : ان الآلوسي لم يكن بالرجل الذي يبيع دينه بدنياه فهو لم يؤلف كتابه في أيام اضطهاده آملاً أن تعاد له حقوقه المهضومة بل ألّفه بعد اعادة حقوقه وتعيينه مفتياً ، وهو انما فعل ذلك عن عقيدة راسخة لان الواجب الديني في ذلك العصر المفعم بالأخطار والمؤامرات على الاسلام كان يفرض ذلك عليه وعلى أمثاله ، أضف الى ذلك أن الصراع الطائفي دفع علماء السنة في العراق ـ ومنهم الآلوسي ـ أن يبذلوا المستحيل في سبيل مناصرة الدولة العثمانية السنية الحنفية[1] .

مهما يكن الحال فان الآلوسي قد أدى خدمة كبيرة للدولة العثمانية في تلك الفترة الحرجة التي كثر الثوار عليها فيها من مختلف الجهات . يقول الدكتور عبدالعزيز نوار : « لقد قدّر علي رضا قيمة ابي الثناء الآلوسي في خدمة مصالح السلطان العثماني في تلك الظروف الحرجة التي تحتاج الى رجل علم يستطيع أن يثبّت قلوب الناس على الولاء للسلطان . وقر رأي علي رضا على أن يستغل علم وذكاء أبي الثناء الآلوسي في تنفيذ أهدافه في العراق وخارج العراق ، وخاصة في مقاومة تيار التوسع المصري . ولا شك أن تكليف علي رضا لأبي الثناء الألوسي بشرح (البرهان في طاعة السلطان) في تلك الظروف كان جزءاً من مخطط عام وضعه علي رضا لجعل العراق قاعدة فكرية وعسكرية تعمل ضد التوسع المصري في المشرق العربي »[2] .

بين الرفض والتسنن :

أشرنا من قبل الى أن الوالي علي رضا باشا كان بكتاشي العقيدة يغالي في حب الأئمة الاثني عشر ، والظاهر ان الشعراء اكتشفوا هذه النزعة فيه فصاروا ينظمون القصائد في مدح أهل البيت وذم أعدائهم بشكل صريح

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص١١٢ ـ ١١٣ .

(٢) عبدالعزيز نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء الآلوسي) المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع عشر ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص١٥٢ ـ ١٥٣ .

غير مألوف سابقاً ، وكان أشدهم في ذلك هو الشاعر الموصلي المعروف عبدالباقي العمري •

نظم عبدالباقي العمري ديوانا خاصاً بمدح أهل البيت سماه « الباقيات الصالحات » ، وحين نقرأ هذا الديوان نكاد نشعر أن العمري انما نظمه تقرباً من الوالي واكتساباً لرضاه ، فالقصائد التي فيه تتضمن نزعة شيعية واضحة وقد اشتهر بعضها في أوساط الشيعة شهرة واسعة حتى صار « المداحون » يتلونها في الطرقات و « الروضخونية » يقرأونها في مجالس التعزية •

افتتح العمري ديوانه هذا بقصيدة طويلة تحتوي على ١٥٨ بيتاً وفيها الشيء الكثير من مدح أهل البيت وذم بني أمية • ننقل فيما يلي أبياتاً نموذجية منها :

جعلت حبي وموالاتي لهم ... وعرض مدحي لنجاتي سببا
سفن النجا معاقل للالتجا ... تلوح شرّعاً وتبدو هضبا
جربتهم لقمع كل معضل ... من سقم قد أعجز المطببّا
فقل لمن أعيا الطبيب داؤه ... خلّ الطبيب واسأل المجربا
يزيد غيظي كلما ذكرتهم ... فألعن الذي لها قد شعبا
الى يزيد دون ابليس اذا ... ما سُئل اللعن انتمى وانتسبا
نقطع في تكفيره ان صح ما ... قد قال للغراب لما نعبا
واحربا يا آل حرب منكمو ... يا آل حرب منكمو واحربا
لكم ومنكم وعليكم وبكم ... ما لو شرحناه فضحنا الكتبا[1]

وعندما أهدى السلطان محمود الثاني قطعة من ستر قبر النبي الى مرقد الامام موسى بن جعفر في الكاظمية ، نظم العمري قصيدة لامية في مدح الامام لا تخلو من غلو[2] • فأوعز علي رضا باشا الى السيد كاظم

(١) عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقي) النجف ١٩٦٤ ـ ص٩١ ـ ٩٦ •

(٢) المصدر السابق ـ ص ١١٣ ـ ١١٤ •

الرشتي رئيس الشيخين في كربلا بأن يشرح القصيدة ، فألّف هذا كتابا في ذلك حيث قال : « وقد أودعت في هذا الشرح من غرائب الأمور ، وعجائب الرسوم ، ما لا يجمعها كتاب ، ولا يحويها سؤال ولا جواب ، وانما هي من اشارة السنة والكتاب . وكتبته بأمر الوزير الأعظم ، والدستور المعظم ، جامع الرئاستين ، علي رضا باشا والي بغداد دار السلام ، صينت عن حوادث الأيام »[1] .

والملاحظ أن العمري اذ كان ينظم القصائد بهذه الروح الشيعية كان من الجانب الآخر يهاجم الشيعة ويسميهم بالاسم الذي ينبزهم به الخصوم وهو « الرافضة » . فعندما غزا علي رضا باشا المحمرة في عام ١٨٣٧م وهزم القبائل الشيعية الساكنة حولها نظم العمري قصيدة طويلة وردت فيها الأبيات التالية :

فتحنا بحمد الله حصن المحمرة	فأضحت بتسخير الآله مدمرة
بسيف علي ذي الفقار الذي لنا	لقد أخلصت صقلاً يد الله جوهره
سقى الرفض ساقي الحوض كأس منية	غداة وردنا بالمسرات كوثره
فواعجبا من شيعة كيف تدّعي	ولاء علي وهي عنه منفره
وأمست (بنو النصار) والرفض دينها	على ما دهاها من عليّ مفكره
وطار بسر (الباز) صيت عقابنا	لهم فغدت شيراز منهم مطيره[2]

نرى العمري في هذه الابيات ينبز الشيعة بالرفض ويعلن أن سرّ « الباز » أي الشيخ عبدالقادر الكيلاني قد طيّر شيراز . ان هذا يدل على ان الوالي علي رضا باشا كان بالرغم من عقيدته البكتاشية لا يميل الى الشيعة أو هو على الأقل لم يكن يتظاهر بالميل اليهم . والملاحظ بالاضافة الى ذلك أن أبا الثناء الآلوسي كان في عهده قد كتب عدة رسائل في الرد على الشيعة

(١) كاظم الرشتي (دليل المتحيرين) كربلا ١٣٦٤هـ ــ ص ١٣٤ .
(٢) عبدالباقي العمري (المصدر السابق) ص٢٣٤ ــ ٢٣٧ .

ونقض بعض عقائدهم لا سيما طعنهم في الصحابة •

نستطيع أن نستنتج من ذلك على أي حال أن علي رضا باشا كان يميل الى الشيعة من جهة وينحرف عنهم من الجهة الأخرى ، فهو لكونه بكتاشي العقيدة يشترك مع الشيعة في حب أهل البيت ، وهو لكونه والياً عثمانياً يختلف عنهم في حبه للصحابة أو في عدم طعنه فيهم على الأقل •

يرجح في ظني أن أكثر البكتاشيين كانوا مثل علي رضا باشا في هذا الاتجاه ، وقد قابلت بعضهم وناقشتهم فوجدتهم على شدة غلوهم في أهل البيت لا يطعنون في الصحابة ولا سيما في الخلفاء الثلاثة • فهم يعتبرون أنفسهم من أهل السنة والجماعة ويصفون الشيعة بأنهم « رافضة » ، وكان معيار الرفض عندهم هو سب الصحابة • والظاهر أن هذا المعيار هو الذي كان سائداً في البلاد العثمانية آنذاك ، فالذي لا يسب الصحابة يعد سنياً والذي يسبهم يعد رافضياً ، وكان هذا هو السبب الذي جعل في مقدور البكتاشيين أن يتولوا المناصب العالية والوزارات في الدولة العثمانية كعلي رضا باشا والكثيرين من أمثاله •

ان مبدأ « التولّي » و « التبرّي » موجود عند البكتاشيين كما هو موجود عند الشيعة ، ولكن البكتاشيين يُخرجون الصحابة والخلفاء الثلاثة من نطاق « التبري » و يشملون به بني أمية • ولهذا كان عبدالباقي العمري يكثر من ذم بني أمية في قصائده ، وكذلك فعل أبو الثناء الآلوسي في تفسيره حيث جعل الأسرة الأموية هي الشجرة الملعونة في القرآن •

الطقوس الشيعية :

ان الطقوس الشيعية المعروفة من حيث اقامة مجالس التعزية واخراج المواكب الحسينية وما أشبه كان قد أسسها الصفويون في ايران منذ القرن السادس عشر وانتشرت هناك دون أن تأتي الى العراق ، فقد كان الولاة العثمانيون يمنعونها من الدخول الى العراق واستمروا على ذلك اكثر من

قرنين حتى جاء علي رضا باشا فكان هذا أول الولاة الذين سمحوا بها .

كان الولاة قبل علي رضا باشا يعتبرون تلك الطقوس من جملة أساليب الدعاية التي كانت حكومة ايران تحاول بها التغلغل في العراق ، ولهذا كانوا يتشددون في منعها عندما تكون هناك حرب بين الحكومتين . والمعروف عن داود باشا أنه كان اكثر من غيره تضييقاً عليها حتى قيل ان شيعة بغداد في زمانه كانوا يقيمون مجالس التعزية في السراديب ويجعلون امرأة تدير الرحى في صحن الدار لكي لايسمع المارة في الشارع صوت من في المجلس.

ان أول رجل استطاع أن يقيم مجلس تعزية في العراق كان من أهل النجف اسمه الشيخ نصار بن سعد العبسي[1] ، والظاهر أنه اغتنم فرصة الصلح الذي عقد في عام ١٨٢١م بين داود باشا وحكومة ايران والذي توسط فيه الشيخ موسى كاشف الغطاء ، فأخذ يقيم مجلس التعزية في داره ، واقتدى به بعض سراة النجف تدريجاً . أما في بغداد فقد ظل أمر المنع سارياً طيلة عهد داود باشا .

وفي عام ١٨٣١م عندما سمع شيعة بغداد بقدوم علي رضا باشا على رأس جيش كبير لمحاربة داود باشا شد الرحال اليه سبعة من وجهائهم ، فالتقوا به في الموصل وشكوا اليه حالهم وكيف أنهم يقيمون مجالس التعزية في السراديب ، فطيّب علي رضا باشا خاطرهم ووعدهم بأنه عندما يفتح بغداد سيجعلهم يقيمون مجالس التعزية فوق السطوح بدلاً من تحت الأرض ، وانه هو نفسه سيحضر تلك المجالس .

وقد أنجز علي رضا باشا وعده بعد فتحه بغداد ، فلما حل شهر محرم في السنة التالية ، وكان ذلك في ٢١ أيار من عام ١٨٣٢م ، أقامت احدى الاسر الشيعية مجلساً للتعزية في دارها ، وقد حضره الوالي فعلاً[2] فكان

---

(١) علي الخاقاني (شعراء الغري) النجف ١٩٥٤ ـ ج١٢ ص٣٢٤ .

(٢) حدثني بذلك المؤرخ عبدالرزاق الحسني .

ذلك تشجيعاً لغيرها للاقتداء بها • ومنذ ذلك الحين أخذت مجالس التعزية تنمو وتنتشر في كل مكان ، وكان من أسباب انتشارها أنها أصبحت رمزاً للوجاهة في المجتمع فصار كل رجل يملك شيئاً من الثروة ميالاً أن يقيم مجلساً في داره لكي يرفع به منزلته الاجتماعية •

وفي الوقت الذي أخذت فيه مجالس التعزية بالانتشار ظهرت مواكب اللطم ، وكان أول موكب منها أخرجه الشيخ باقر بن الشيخ اسد الله في الكاظمية ، ثم انتشرت المواكب من بعد ذلك في أنحاء العراق • وقد أصبحت هذه المواكب كمجالس التعزية رمزاً للوجاهة مما ساعد على انتشارها ، فالرجل الذي يترأس موكباً أو يمشي أمامه أو ينوح فيه يشعر بشيء من الشموخ والأبهة من جراء ما يحيط به من جماهير تنظر اليه ، وتزداد الأبهة لديه أضعافاً عندما تكون النساء في صفوف المتفرجين فان صراخهن يجعل الرجل المشارك في الموكب يشعر كأنه فاتح يقود جيشاً عظيماً • ولولا ذلك لماتت المواكب منذ زمان بعيد !

جرى الولاة من بعد علي رضا باشا على سنته ، فكانوا يتساهلون في أمر انتشار الطقوس الشيعية ، ما عدا مدحت باشا فهو قد حاول منعها ولكنه لم يوفق ، ويقال انه سأل اسطنبول في أمرها فكان الجواب : « دعهم يفعلون ما يشاؤون ما داموا لا يؤذون سوى أنفسهم » •

يبدو أن السبب الذي جعل الحكومة العثمانية تتساهل تجاه تلك الطقوس بعدما كانت تتشدد في منعها هو أنها صارت تخشى من الدعاية التي كان محمد علي باشا يبثها في أوساط الشيعة آنذاك ، فقد كانت الرسائل تأتي منه تباعاً فتصل الى بغداد والبصرة وكربلا والنجف وبعض العشائر العراقية • ومعنى هذا أن الحكومة العثمانية لم تعد تحذر من الدعاية الايرانية بمقدار ما تحذر من الدعاية المصرية • وعندما زال الخطر المصري فيما بعد كان الخطر الايراني قد تضاءل وكاد يزول وذلك بعدما استتب الصلح بين الدولة العثمانية والايرانية وتعينت الحدود بينهما بشكل دائم كما سنأتي اليه في الفصل القادم •

الفصل الرابع

ولاية نجيب باشا

في نيسان من عام ١٨٤٢م نقل علي رضا باشا الى الشام وحل محله في ولاية بغداد محمد نجيب باشا ، وكان هذا والياً على الشام فوصل الى بغداد في شهر ايلول من العام نفسه •

إن نجيب باشا من اسرة اسطنبولية ذات مقام رفيع ، وأجمع المؤرخون على أنه كان صارماً شديد القسوة ، والظاهر أن الدولة قد أرسلته لكي تباشر به عهد « التنظيمات » في هذا البلد المليء بالروح العشائرية وارتباك الأمن •

وقد أعطانا المؤرخ لونكريك صورة غير حسنة عن نجيب باشا حيث قال : انه كان ذا ذكاء وشجاعة وحيوية خارقة غير أن عصبيته القومية انقلبت الى بغض رهيب للاجانب ، ولكي يحصل على المال من أجل استعماله الشخصي في الغالب اتخذ طرقاً للجباية مخربة وخالية من بعد النظر ، وكانت غطرسته تغيظ القبائل مع أن قواته لم تكن قادرة على تهدئة ما ينتج عنها من قلاقل ، ولم يكن عنفه حائلاً دون أخذ الرشوة كما أن تعقله لم يكن حائلاً دون تعصبه الذميم[١] •

مع القنصل الفرنسي :

عند وصول نجيب باشا الى بغداد كان يتولى القنصلية الفرنسية فيها رجل أرستقراطي من أولي الألقاب هو البارون دي فيمار ، وكان هذا

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص٢٨٦ •

القنصل ذا اعتزاز شديد بنفسه وبلاده يريد أن يرفع مكانته في نظر الناس عن طريق المظاهر والرسميات • وقد كانت بينه وبين القنصل البريطاني منافسة شديدة ، فكان كل واحد منهما يحاول اجتذاب علماء بغداد وأعيانها اليه بغية تدعيم نفوذ بلاده في العراق • ويجب أن لا ننسى في هذه المناسبة ان فرنسا وبريطانيا كانتا في ذلك الحين على اختلاف في السياسة تجاه الدولة العثمانية فقد ساندت فرنسا محمد علي باشا في عصيانه على الدولة العثمانية بينما ساندت بريطانيا الدولة عليه •

كان القنصل البريطاني ببغداد اكثر قدرة على العطاء وتوفير المظاهر الباذخة لنفسه من زميله الفرنسي ، فكانت له سفينة حربية تقف في دجلة أمام دار القنصلية كما كان له حرس من جنود الهنود ، وكان ينفق بسخاء على رؤساء القبائل • أما القنصل الفرنسي فكان لا يقدر على ذلك وقد اشتكى ذات مرة الى حكومته يقول ان الموضوع من الأموال تحت تصرف زميله البريطاني يساوي الأموال الموضوعة تحت تصرف السفير الفرنسي في اسطنبول[١] •

تشير القرائن الى أن نجيب باشا كان ميالاً الى القنصل البريطاني ، ولهذا نجده عند وصوله الى بغداد يقوم بزيارته قبل كل أحد ، وقد امتعض القنصل الفرنسي من ذلك كل الامتعاض اذ هو يعتبر نفسه أحق بتلك الزيارة من القنصل البريطاني ، فارسل الى السفارة الفرنسية في اسطنبول يشكو اليها من الوالي نجيب باشا واستطاعت السفارة هناك أن تحمل الباب العالي على توجيه رسالة طافحة بالتوبيخ والتقريع الى نجيب باشا ، غير أن نجيب باشا لم يعر تلك الرسالة أي وزن[٢] •

---

(١) پير دي فوصيل (الحياة في العراق منذ قرن) ترجمة اكرم فاضل ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ص٢٠ •

(٢) المصدر السابق ـ ص١٠٤ •

وبعد مرور أيام قليلة على ذلك وقعت حادثة في أحد أسواق بغداد كان من شأنها زيادة التوتر بين الوالي والقنصل الفرنسي • ففي ٦ تشرين الأول من تلك السنة حل شهر رمضان ، وكان من عادة أهل بغداد أن يحتفلوا بهذا الشهر المقدس ليلاً فتمتلىء الأسواق بالأضواء ، وتعرض فيها أنواع خاصة من الحلوى ، وتزدحم المقاهي والدواوين بروادها • وفي احدى الليالي من ذلك الشهر خرجت أربعة نسوة أوربيات للتفرج على الأسواق وكنّ يلبسن البرقع والعباءة على الطريقة المحلية وبرفقتهن ولد صغير وخادم عراقي من المسيحيين • ولم تكد هؤلاء النسوة يخرجن من أحد الاسواق حتى فوجئن بأفراد من الشرطة يحيطون بهن ثم يضعون القيود في أيديهن ويسوقونهن الى مدير الشرطة •

كان زوج احدى النسوة يتمتع بحماية القنصل الفرنسي ، فذهب الى مدير الشرطة محتجاً ، وقد اعتذر اليه مدير الشرطة اذ ادعى أنه كان يحسب النسوة مسلمات وهو انما اشتبه في أمرهن لأنهن كن في رفقة رجل مسيحي فألقى القبض عليهن من غير روية • ولم يقبل الرجل عذر مدير الشرطة وذهب الى القنصل الفرنسي يرفع شكواه وكان الوقت قريباً من منتصف الليل • فأرسل القنصل ترجمانه الى دار الوالي طالباً منه أن تأخذ العدالة مجراها في هذه القضية • وقد أبدى الوالي بعض الاعتراضات غير أن ترجمان القنصل فنّدها جميعاً مما اضطر الوالي أن يرسل مدير الشرطة الى القنصل لكي يقرر القنصل عقوبته بنفسه •

أخذ مدير الشرطة يطلب من القنصل الصفح والمغفرة ، فعفى القنصل عنه ولكنه أراد ان لا تمر القضية من غير عقوبة لأفراد الشرطة الذين أهانوا السيدات فطلب أن توضع القيود في أيديهم على مشهد من الناس ثم يسجنوا في زنزانة ، وطلب كذلك أن يؤتى بهم في الصباح التالي فيضربوا ضرباً مبرحاً أمام مركز الشرطة وبحضور الترجمان[١] •

---

(١) المصدر السابق ـ ص١١٩ ـ ١٢٠ •

ظلت العلاقات متوترة بين الوالي والقنصل الفرنسي حتى صيف ١٨٤٤م ، ويبدو أن الوالي أراد حينئذ أن يصالح القنصل ويترضاه فأرسل اليه يخيّره بين أمرين : اما أن يزور القنصلية زيارة رسمية أو يكتب له رسالة اعتذار ، فوافق القنصل على الامر الثاني ، ولكن هذا الصلح لم يدم طويلاً ، فعند حلول عيد الفطر من عام ١٢٦١هـ ـ وقد وافق اليوم الثالث من تشرين الأول عام ١٨٤٥م ـ تهيأ القنصل الفرنسي لزيارة الوالي بغية تهنئته بالعيد حسبما جرت العادة عليه غير أنه وجد القنصل البريطاني قد سبقه الى ذلك وكأنه كان حاضراً عند باب السراي في وقت فتحها صباحاً • وهذا في رأي القنصل الفرنسي خرق للقواعد الدبلوماسية ولابد أنه تم بالتواطؤ مع الوالي نكاية بفرنسا واهانة لكرامتها • وعمد القنصل الفرنسي الى رد الاهانة بمثلها فأرسل مستشار القنصلية ليقوم بمراسيم التهنئة بدلاً عنه مما أدى الى غضب الوالي وهيجانه •••

أرسل الوالي الى القنصل الفرنسي ينسب اليه أنه لا يرفع علم القنصلية عند مرور زورقه في نهر دجلة أمام دار القنصلية • فكتب القنصل في جوابه قائلاً : « لا صحة بالمرة لما تزعمونه رفعتكم من القول حول هذا الموضوع من أن علم القنصلية لا يرتفع لدى مرور زورق عزتكم الذي ترفرف عليه الراية العثمانية وهو يتهادى في نهر دجلة أمام دار القنصلية الفرنسية ، لأني على الدوام كنت بنفسي آمر برفع العلم أمامي لا فوق القنصلية الفرنسية فحسب وانما كذلك فوق زورقي نفسه ، وهناك مائتا رجل بوسعهم الادلاء بشهاداتهم لتأييد مدعاي هذا ••• »[1] •

وبلغت الازمة ذورتها في عام ١٨٤٦م حين اقتحم جنود مدججون بالسلاح دار القنصلية الفرنسية ، ورفض الوالي معاقبتهم ، مما جعل القنصل يوجه اليه احتجاجاً شديد اللهجة ، ثم أرسل الى السفارة الفرنسية في

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٠٧ •

اسطنبول يلح عليها أن تقف الى جانبه ثأراً لكرامة فرنسا ، واستجابت السفارة لطلبه فضغطت على الباب العالي من أجل توجيه توبيخ صارم الى الوالي نجيب باشا ، وقد أثمرت جهودها في هذا الشأن حيث رأينا نجيب باشا يقيم حفلة استقبال على شرف القنصل الفرنسي ويعترف له بالأولوية على زميله القنصل البريطاني[1] .

واقعة كربلا :

في السنة الثانية من ولاية نجيب باشا وقعت في كربلا مذبحة فظيعة قام بها الجيش بقيادة الوالي نفسه ، ولكي نفهم كنه هذه الواقعة يجدر بنا دراسة جذورها التي تمتد الى عهود سابقة .

الواقع ان بلدة كربلا كانت في تلك الأيام قد تحكمت فيها زمرة من الاشقياء والسفلة يقال لهم « اليرمازية » ، وهذه لفظة تركية معناها « الذين لا ينفعون لشيء » ويقصد بهم الاشرار من طبقات المجتمع[2] . وكان هؤلاء الاشرار قد تجمعوا في كربلا منذ عهد داود باشا برئاسة زعيم لهم اسمه السيد ابراهيم الزعفراني ، وأخذوا يعيثون فيها فساداً ويستغلون سكانها كما يشاؤون .

ويعزى تجمع هؤلاء الاشرار في كربلا الى ما لهذه البلدة من قدسية عظيمة اذ هي كانت ولا تزال اكبر مزار يقصدها الشيعة من أقاصي البلاد ، وكانت الحكومة في عهد المماليك تحترمها ولا تتدخل في شؤونها ، وفي عهد الوالي علي رضا باشا زاد احترامها لما كان هذا الوالي يكنّه من حب شديد للائمة . ولهذا صارت كربلا ملاذاً لكل من يهرب من وجه

---

(١) المصدر السابق ـ ص١١٠ .

(٢) جيمس بيلي فريزر (رحلة فريزر) ترجمة جعفر الخياط ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص١٧٨ .

الحكومة في العراق ، فكان الهاربون ـ من ماردين حتى المحمرة[1] ـ يلجأون الى كربلا ويحتمون بها فلا تستطيع الحكومة أن تلقي القبض عليهم ، وأخذ عددهم يزداد واعتداءاتهم تستفحل بمرور الأيام • وقد وصف السائح البريطاني فريزر وضع كربلا حينذاك فقال :

« ومن الحقائق التي تدل على ضعف الحكومة التركية التام في هذه الولاية أن جميع العتبات التي لها قدسية خاصة تقريباً قد جُعلت ملاذاً لشر الناس في المجتمع وأكثرهم تفاهة ، ولا تزال في وضعها حتى الآن ••• كما هي الحال في محلة الشيخ عبدالقادر ببغداد نفسها وقد حصل مثل هذا الوضع في النجف وكربلا معاً ، ولكن بمقياس أوسع وحالة أسوء بكثير ، اذ ازداد عدد المتمردين المتجمعين هناك بحيث لم يعد من الممكن لحاكم المنطقة ولا لسلطة الباشا أن تسيطر عليهم • وهؤلاء لا يفعلون ما يشاؤون فحسب ، بل كانوا يطلبون من الزوار الذين يأتون لزيارة العتبات المقدسة الإذعان لأوحش الطلبات وأبعدها عن المألوف والمعقول ، وفي حالة عدم الانصياع للطلبات كانوا ينهبون أمتعتهم ويجردونهم حتى من ألبستهم ، كما يسلبونهم زوجاتهم وبناتهم في بعض الأحيان • وقد استفحل هذا الشر لدرجة اضطر فيها داود باشا نفسه الى تجريد قوة ضد النجف ، فنجح في اخضاعها للطاعة • ولا تزال كربلا في حالة ثورة • فلم يستطع اليرماز والقتلة والسفهاء ، الذين يكونون عدداً كبيراً فيها ، من صد الجيش الذي جرده الباشا عليهم فقط بل أصبحوا يهيمنون هيمنة تامة على البلدة كلها بحيث لم يكن بوسع أحد أن يعصي لهم أمراً أو يتحداهم من دون أن ينال جزاءه ••• وهم يذهبون في فسادهم وخلاعتهم حتى الى حد أنهم ، حينما يعلمون أن أحد الزوار يصطحب معه زوجة جميلة أو اختاً حسناء ، يبعثون ليأتوا بها اليهم ، وحيثما يرفض ذلك يعمدون الى سرقتها منه بحيلة من

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٧٤ •

الحيل أو الى اغتصابها بالقوة •وكثيراً ما كان يحدث هناك أن تفقد زوجات بعض الناس على هذه الشاكلة لمدة اسبوع أو اكثر فيعدن الى أهلهن بعد ذلك بحالة يرثى لها ، فقد سمعت أحد الايرانيين أنا بنفسي يتذمر من معاملة زوجته بهذه الطريقة ••• »[1] •

وقد وردت تفاصيل أخرى عن وضع كربلا في الكتاب المجهول المؤلف الذي أشرنا اليه في الفصل السابق ، فهو يقول في ذلك ما نصه :

« ان كربلا كانت عاصية على وزراء بغداد ••• وكان بها السيد ابراهيم الزعفراني رجل أصله عجمي وترأس على أوباشها وسفهائها وأطاعه أراذل البلد المفسدون وهم يتولون الحرب ، وعامتهم من أيام داود باشا كانوا عاصين الا أنهم يؤدون شيئاً قليلاً عوض خراجها (نحو خمسة وثلاثين ألف قران) • وكل من يعمل مفسدة في العراق أو يأكل أموال الناس يذهب الى كربلا ويستجير بهؤلاء الأراذل حتى اجتمع عندهم مقدار عشرة آلاف مقاتل من أجلاف الناس ، وعصت أيام داود باشا وعلي باشا هم عصاة بغاة يؤذون السكان الذين في كربلا حتى أنهم مرة أمسكوا على أحد مجتهديهم السيد ابراهيم القزويني ليلاً ولم يطلقوه حتى أدى لهم أربعة آلاف قران من سكة محمد شاه فأطلقوه فهم مفسدون ذوو جرأة على أعراض الناس ، وأهل البلد يؤونهم ويخافون على أنفسهم لأنهم متى أرادوا هجموا على بيت أحدهم ونهبوه ، والحاكم الذي هو من أهل البلد طوع أيديهم ولا يعارض بما يفعل هؤلاء الباغون الفجرة ••• »[2] •

تفاصيل الواقعة :

عزم الوالي نجيب باشا بعد أن اطلع على الحالة أن يفعل ما عجز عنه

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١٧٣ ـ ١٧٦ •
(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٤ ج٦ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨ •

الولاة السابقون وهو القضاء على حركة « اليرمازية » وعدم الاهتمام بقدسية البلد • وكان أول عمل قام به في هذا الشأن هو أنه أرسل انذاراً الى رؤساء الحركة ينذرهم فيه بوجوب الخضوع ونزع السلاح خلال شهر واحد ، ولما لم يستجب الرؤساء الى انذاره وجه اليهم قوات عسكرية تصحبها المدافع • وقد حاصرت تلك القوات بلدة كربلا ثلاثة وعشرين يوماً •••

ليس لدينا اطلاع كاف على ما كان يجري في المجتمع الكربلائي أثناء الحصار ، ويخيل لي أن الكثيرين من أهل كربلا ــ لا سيما رجال الدين والتجار والكسبة ــ لم يكونوا راضين عن الحالة أو راغبين في محاربة الحكومة ولكنهم لم يستطيعوا الافصاح عن نياتهم خوفاً من « اليرمازية » • وهذا هو ما يحدث عادة في كل مجتمع يسيطر عليه السفلة والغوغاء حيث يعلو فيه صوتهم ويخفت صوت من عداهم ، والويل لمن يعارضهم في شيء ! • أضف الى ذلك أن النزعة الغوغائية التي تستفحل في مثل هذه الحالة قد تدفع الكثير من الناس الى الحماس والهتاف وابداء الشجاعة المصطنعة ، وقد ينتشر الحماس الغوغائي بين السكان كما ينتشر الوباء الجارف ، وبذا يسير المجتمع نحو الكارثة خطوة وراء خطوة كأنها القدر المحتوم •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن المجتمع الكربلائي كان منقسماً على نفسه من جراء الصراع العقائدي بين الشيخيين وخصومهم على نحو ما سوف نذكره فيما بعد • والظاهر أن نجيب باشا كان على علم بهذا الانقسام الموجود بين سكان البلدة فحاول استغلاله اذ أرسل الى السيد كاظم الرشتي رئيس الشيخيين يرجوه أن يعمل على حقن الدماء ، وقام السيد كاظم بما طُلب منه فصار يحض الناس على فتح أبواب البلدة للقوة التركية والاستسلام لها ، فكان ذلك سبباً في زيادة الانقسام والانشقاق بين

الأهالي حيث انصاع اتباع السيد كاظم لرأيه بينما ازداد خصومه عناداً واصراراً على القتال •

وأخذت الأساطير الدينية تنتشر بين السكان تحرضهم على المثابرة في القتال ، وشاع في أحد الأيام أن رجلاً رأى العباس في منامه وهو يبشّر أهل كربلا بالنصر المبين[1] • وأرسل رؤساء الحركة الى بعض العشائر المتحالفة معهم كآل فتله وآل يسار وآل زغبة يستنجدون بهم •

كان نجيب باشا قد اتخذ قرية المسيب قاعدة له ، وجعل قيادة القوات المحاصرة بيد الفريق مصطفى باشا • ثم اتصل بالقنصل البريطاني والقنصل الفرنسي ، وبالوكيل الايراني وبعض الشخصيات الايرانية الذين كانوا يسكنون كربلا ، طالباً منهم أن يساعدوه على تسوية الأزمة وكأنه أراد أن يظهر أمامهم بأنه غير مسؤول عما سوف يجرى في البلدة المقدسة من اباحة وسفك للدماء • وقد حاول بعض هؤلاء التوسط بين الفريقين من غير جدوى • ويبدو أن غطرسة الوالي من جهة وغوغائية الأهالي من الجهة الاخرى عرقلتا سبيل المفاوضة • وقيل أن بعض « اليرمازية » كانوا يرفعون أصواتهم بسب السلطان من فوق السور مما أدى الى ازدياد حنق العسكر عليهم •

وفي فجر الثالث عشر من كانون الاول ١٨٤٢م ـ وكان اليوم الثاني من عيد الأضحى ـ سلّطت القوات التركية مدافعها على سور كربلا من ناحية باب النجف ففتحت فيه ثغرة واسعة ، وبعد معركة طاحنة عند الثغرة استطاعت القوات التركيـة أن تنجح في التغلغل في البلدة ، وما هي الا برهة قصيرة حتى تم لها النصر التام فسيطرت على البلدة • وبدأ عندئذ التقتيل والنهب بشكل فظيع حيث أبيحت البلدة للجنود أربع ساعات فصاروا

(١) محمد زرندي (مطالع الأنوار) ترجمة عبدالجليل سعد ـ القاهرة ١٩٤٠ ـ ص٢٨ •

يفعلون ما يشاؤون بلذة عارمة كما هي عادة الجنود الفاتحين في القرون الغابرة •

كانت الأوامر قد صدرت الى الجنود بأن يحترموا بيت السيد كاظم الرشتي فلا يمسوه بأذى ، وحين علم الأهالي بذلك أخذوا يتهافتون على البيت طلباً للنجاة ، وقد كثر ازدحامهم عليه حتى مات تحت وطأة الزحام كما قيل عشرون شخصاً • واضطر السيد كاظم أن يضيف الى بيته بعض البيوت المجاورة بغية ايواء اللاجئين اليه ، فنجوا جميعاً[1] •

وكذلك نجا الذين التجأوا الى صحن الحسين ، وكان سبب نجاتهم أن نائب الكليدار الحاج مهدي كمونة خرج الى القائد مصطفى باشا ومعه بعض السدنة ، وكانت عمامته في رقبته وهو يطلب « الأمان » ويبكي ويلطم ثم خاطب القائد بالتركية قائلاً له ما معناه : « أفندم ، اننا لم نخلع الطاعة ولم نفارق الجماعة ، فلا تأخذنا بذنوب المفسدين ، وترحم علينا بالأمان » • فرفع القائد يده مشيراً الى الجنود بالتوقف عن الضرب ، فنجا بذلك جميع من كان في داخل الصحن الا من مات منهم من شدة الزحام •

ثم ذهب القائد من بعد ذلك الى صحن العباس وكانت أبوابه مغلقة ، ولم يفتحها أحد له ، فأمر الجنود بقلع أحد الأبواب ، ثم هجم الجنود على الذين كانوا مزدحمين في الصحن وحول الضريح وأخذوا يقتّلون فيهم تقتيلاً ذريعاً • وقد وُجد فيما بعد في السرداب الذي هو تحت رواق العباس ما يزيد على الثلاثمائة قتيل •

وفي صباح اليوم التالي وصل نجيب باشا الى البلدة ، وعندما اقترب بموكبه من صحن الحسين ترجل عن جواده فاستقبله الحاج مهدي كمونة ومن معه من السدنة وهم يحملون القرآن وأعلام الروضة • ثم دخل نجيب باشا الى الصحن وقد حف به الحاج مهدي كمونة والسيد كاظم

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٨ •

الرشتي والملا علي الخصي والشيخ وادي الشعفلج رئيس عشيرة زبيد وغيرهم • وبعد أن زار ضريح الحسين ذهب الى تكية البكتاشية الملاصقة للصحن فاستراح فيها قليلا[1] •

اختلف الرواة في تقدير عدد القتلى من سكان كربلا ، فمنهم من جعل العدد أربعة وعشرين ألفاً ، ومنهم من جعله أربعة آلاف ، ومنهم من جعله بين بين • وقد ألقي القبض على السيد ابراهيم الزعفراني فجيء به مكبلاً الى بغداد فمات فيها بعد قليل ، كما ألقي القبض على بعض أشراف كربلا بتهمة التحريض على الحركة والمقاومة من أمثال السيد صالح الداماد وعلي كشمس وطعمة العبد وبعض آل نصر الله وآل النقيب • وطورد الكليدار السيد عبدالوهاب آل طعمة ثم عفي عنه بشفاعة نقيب بغداد السيد علي الكيلاني[2] •

ان واقعة كربلا يمكن اعتبارها نموذجاً للكثير من وقائع التاريخ التي يصطرع فيها فريقان من البشر اذ يضع كل منهما اللوم على خصمه ويبرىء نفسه منه ، بينما الواقع أن الفريقين كليهما يتحملان اللوم •

أذكر في هذه المناسبة قولاً للامام علي بن ابي طالب في موضوع الثورة على الخليفة عثمان فهو قد خاطب الثوار بعد قتلهم الخليفة مقارناً بينهم وبين أقارب الخليفة الذين استأثروا بالحكم فقال : « استأثروا فأساؤوا الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع » • معنى هذا أن أقارب الخليفة يستحقون اللوم كما يستحقه الثوار الذين قتلوا الخليفة ، أولئك استبدوا وهؤلاء طاشوا ، وتلك حكمة اجتماعية بليغة يجدر بنا الاعتبار بها عند دراسة وقائع التاريخ •

---

(١) نقلاً عن كتاب مخطوط عنوانه (كربلا في التاريخ) بقلم عبود الصالحي •

(٢) جعفر الخليلي (موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم كربلا) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ج١ ص٢٧٩ ـ ٢٨٠ •

ماذا قال الشعراء :

عندما انتهت واقعة كربلا انبرى الشعراء على عادتهم ينظمون القصائد كل من جانبه الذي يميل اليه أو يطمع فيه • وكان عبدالغفار الأخرس قد نظم قصيدة طويلة مدح بها نجيب باشا وذم أهل كربلا ذماً قبيحاً اذ أشار الى أن نجيب باشا ضحى بهم في العيد كما تنحر الغنم • وفيما يلي أبيات نموذجية من تلك القصيدة :

لقد خفقت في النحر ألوية النصر	وكان انمحاق الشر في ذلك النحر
علت كلمات الله وهي علية	بحد العوالي والمهندة البتر
تبلّج دين الله بعد تقطب	ولاحت أسارير العناية والبشر
محا البغي صمصام الوزير كما محا	دجا الليل في اضوائه مطلع الفجر
وكر البلا في كربلاء فأصبحت	مواقف للبلوى ووقفاً على الضر
فدانت وما دانت لمن كان قبله	من الوزراء السابقين الى الفخر
وحذرهم من قبل ذلك بطشه	وأمهلهم شهراً وزاد على الشهر
وعاملهم هذا الوزير بعدله	وحاشاه من ظلم وحاشاه من جور
ولو يصبر القرم الوزير عليهم	لقيل به عجز وما قيل عن صبر
فان مراد الله جار على الورى	ولابد أن يُجرى ولابد أن يَجرى
فلاذوا بقبر ابن النبي محمد	وقد سر في تدميرهم صاحب القبر
سيول دم القتلى غداه أبادهم	تسيل بهاتيك الأزقة والجدر
ولا برحت أيامه الغر غرة	تضيء ضياء الشمس في طلعة الظهر
ولا زال في عيد جديد مؤرخاً	فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر[1]

ومدح شاعر آخر نجيب باشا لقيامه بتلك المذبحة فقال :

أحسين دنس دار مرقدك الألى	سموا الروافض وهو نعم المرقد
كم من وزير لم ينل تطهيرها	منهم فطهرها النجيب محمد

(١) المصدر السابق ـ ج١ ص٢٣١ ـ ٢٣٣ •

فرد عليه السيد مهدي بن السيد داود الحلي بقصيدة تضمنت بعض اقواله بعد أن عكس معناها . وهذه بعض أبيات منها :

(أحسين دنس دار مرقدك الألى) كفروا فحاشا منه يدنس مرقد
من حقده جلب الجنود لها كما جاءت اليك جنودها تتجند
دارت على أشياعكم فيها كما دارت عليك غداة قل المسعد
رقدوا به ولكونهم والوكم سموا الروافض وهو نعم المرقد[1]

وتروى في ذلك رواية أخرى اذ يقال ان المفتي أبا الثناء الآلوسي نظم بيتين من الشعر لهما شبه بالبيتين المذكورين آنفاً ،فرد عليه شاعران من الشيعة هما الشيخ عزيز بن الشيخ يوسف النجفي والملا محمود التبريزي ، وهذا هو ما نظمه الشيخ عزيز :

اخسأ عدو الله أن نجيبكم رفض الهدى وعلى العمى يتردد
ولئن به وبك البسيطة دنست فابشر يطهرها المليك محمد

لجنة تحقيق دولية :

حين وصل نبأ واقعة كربلا الى ايران ضج الناس وعمهم الحزن والحداد . ويقال ان الشاه محمد كان آنذاك مريضاً فكتم وزراؤه عنه أمر الواقعة ، ولما أبل من مرضه وعلم بها تملكه الغضب الشديد وأقسم أن يأخذ بالثأر ولكن سفراء بريطانيا وروسيا عملوا على تهدئة غضبه[2] .

ان العلاقات بين الدولة الايرانية والعثمانية لم تكن في تلك الأيام على ما يرام وكان التوتر سائداً على الحدود بينهما ولا سيما في نواحي المحمرة والسليمانية ، فلما حدثت واقعة كربلا ازداد التوتر بينهما حتى كاد يؤدي

---

(١) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٦١ ــ ص٢٠٠ .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٩ .

الى اعلان الحرب ، وأخذ التجار الايرانيون يغادرون البلاد العثمانية على وجه السرعة • وفي شباط من عام ١٨٤٣م كتب القنصل الروسي في تبريز الى حكومتــه يقول لها : ان جرائم الباشــا التركي قوبلت في ايران بالتأبين الديني وهي الآن تهدد مجدداً باندلاع الحرب بين الباب العالي وفارس[١] •

لم تشأ بريطانيا أن تقف موقف المتفرج ازاء هــذا الوضــع المتأزم فأسرعت الى التدخل في سبيل منع الحرب بين الدولتين ، وبعد جهــود دبلوماسية كثيرة في اسطنبول تألفت لجنة مختلطة للتحقيق في واقعة كربلا اشترك فيهــا مندوبون عن الدولة العثمانية وبريطانيا وروسيا • ووصلت اللجنة الى كربلا في ربيــع ١٨٤٣م وأخذت تتصــل بالأهالي وتســتمع الى شهاداتهم •

مما يلفت النظر أن التقرير الذي قدمه المندوب البريطاني عن نتائج تحقيقه كان مختلفاً كل الاختلاف عن تقرير المندوب العثماني من حيث تقدير عدد القتلى ونوعيتهم • فالمندوب العثماني قدّر القتلى من الأهالي بما يناهز المائتين والخمسين وجعل أكثرهم من الايرانيين بينما هو قــدر خسائر الجيش التركي بأربعمائة قتيل ومائتي جريح ، ومعنى هذا أنه اعتبر خسائر الأهالي أقل من خسائر الحكومة • أما المندوب البريطاني فكان مفاد تقريره أن عدد القتلى لا يزيد على الخمسة آلاف وأن ثلاثة آلاف منهم قتلوا داخل البلدة ومعظمهم من العرب ، ويضيف التقرير الى ذلك أن عدداً من الهنود من رعايا بريطانيا قد قتلوا في الواقعة أو فقدوا بينما لم يقتل من رعايا روسيا سوى شخص واحد[٢] •

الملاحظ أن كلا التقريرين على الرغم من التفاوت الكبير بينهما يرميان

---

(١) ن•أ• خالفين (الصراع على كردستان) ترجمة أحمد عثمــان أبو بكر ــ بغداد ١٩٦٩ ــ ص٥٨ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهــرة ١٩٦٨ ــ ص ٩٢ ــ ٩٣ •

الى هدف واحد هو التقليل من عدد القتلى الايرانيين ، ويبدو أن المقصود من ذلك هو مجابهة التهويل الذي قامت به ايران في تصوير الواقعة وفي تضخيم عدد القتلى من رعاياها • وعلى أي حال فقد تقدمت ايران الى الدولة العثمانية بمطاليب شديدة كان أهمها :

(١) أن يدفع السلطان تعويضاً لمنكوبي كربلا •

(٢) أن يعلن الباب العالي عدم رضاه وموافقته على حملة نجيب باشا •

(٣) أن يعيد نجيب باشا ما تخرب من العتبات المقدسة •

(٤) أن يحكم نجيب باشا بالعدل ويحمي الايرانيين في كربلا وزوارها •

(٥) أن يكون نجيب باشا مهدداً بالعزل ان هو أساء التصرف فيما بعد•

(٦) أن تعلن هذه القرارات لجميع السفراء[١] •

وقد وافقت الدولة العثمانية على هذه المطاليب ما عدا المطلب الخاص بعزل نجيب باشا اذ اعتبرت ذلك تدخلاً في شؤون الدولة الداخلية • وأيد السفير البريطاني في اسطنبول موقف الدولة العثمانية • وانتهى الأمر أخيراً بتصفية الأزمة بين الدولتين على وجه من الوجوه •

معاهدة ارضروم الثانية :

بعد أن انتهت أزمة كربلا أخذت بريطانيا تبذل جهدها بالتعاون مع روسيا من أجل حل جميع المشاكل والقضايا المعلقة بين ايران والدولة العثمانية حول الحدود ، وخصوصاً حول منطقتي عربستان وكردستان ، وهي مشاكل طال عليها الزمن وأخذت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم •

وفي ١٥ أيار من عام ١٨٤٣م عقد مؤتمر في أرضروم لهذا الغرض اشترك فيه مندوبون عن الدول الأربع هم : مرزا تقي خان مندوباً عن ايران،

---

(١) المصدر السابق ــ ص٣٣٧ •

وأنور أفندي مندوباً عن الدولة العثمانية ، والكولونيل فارانت مندوباً عن بريطانيا ، والكولونيل دانيزي مندوباً عن روسيا • واستمرت مفاوضات المؤتمر زهاء أربع سنوات •

لم تخل مفاوضات المؤتمر من بعض المخاصمات والمنازعات ، وكثيراً ما كانت توشك على الانقطاع لولا توسط المندوبين البريطاني والروسي • وحدث حادث في بداية المؤتمر كاد يؤدى الى مذبحة خلاصته أن رجلاً من حاشية المندوب الايراني أبدى ملاحظة اعتبرها أهل أرضروم اهانة لمذهب السنة فهاجم جمهور منهم المخيم الايراني وقتلوا اثنين أو ثلاثة من رجاله وكادوا يفتكون بالمندوب الايراني نفسه لو لم يسرع الى انقاذه أحد حاشية المندوب العثماني • وقد اعتذرت الدولة العثمانية لايران عن ذلك ودفعت خمسة عشر ألف تومان تعويضاً[1] •

وفي عام ١٨٤٦م اشتدت الخصومة بين المندوبين العثماني والايراني حول المحمرة الى حد كاد يؤدي الى النزاع المسلح ، فقد أرسلت الدولة العثمانية الى ميناء المحمرة سفينة حربية ، وأخذت السفينة ترغم القوارب التي كانت تقصد ذلك الميناء على الذهاب الى البصرةلدفع ما عليها من رسوم كمركية ، فاحتجت ايران على هذا العمل ، وتدخلت بريطانيا فاستطاعت أن تقنع الدولة العثمانية بسحب السفينة ، وصدرت الأوامر بذلك الى والي بغداد نجيب باشا[2] •

وفي عام ١٨٤٧م انتهى مؤتمر أرضروم من صياغة نصوص المعاهدة التي سميت بـ « معاهدة أرضروم الثانية »[3] ، وحين قدمت المعاهدة الى

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٩ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص٣٣٩ ـ ٣٤٠ •

(٣) كانت معاهدة أرضروم الأولى قد عقدت في عهد الوالي داود باشا في عام ١٨٢٣ •

الدوائر المسؤولة في طهران واسطنبول امتنعت هذه عن الموافقة عليها ولم تصادق عليها الا تحت ضغط من روسيا وبريطانيا[1] • وكان أهم ما جاء في المعاهدة النقاط التالية :

(١) أن تتنازل الدولة العثمانية لايران عن المحمرة وجزيرة عبادان مقابل تنازل ايران عن كل مدعياتها في منطقة السليمانية حيث تتعهد بعدم التدخل في شؤونها •

(٢) تقسيم منطقة زهاو الى قسمين ، فالقسم الشرقي منها وهو الذي يشمل كرند وقصر شيرين يُضم الى ايران بينما يبقى القسم الغربي منه في حوزة الدولة العثمانية •

(٣) تأمين المعاملة الحسنة وتسهيل الاجراءات الرسمية والكمركية للزوار الايرانيين الذين يقصدون العتبات المقدسة في العراق •

مسح الحدود :

لم يكد المسؤولون في طهران واسطنبول يضعون اختامهم على معاهدة أرضروم حتى بدأ النزاع يظهر من جديد بين الدولتين ، اذ أخذت كل منهما تفسر فقرات المعاهدة كما تشتهي وتعين خطاً للحدود معارضاً لخط الدولة الأخرى • وعمدت ايران الى وضع حامية في جزيرة عبادان الواقعة عند مصب شط العرب دون أن تستشير أحداً من أعضاء المؤتمر أو تستشير بريطانيا وروسيا[2] •

كانت المعاهدة قد احتاطت لهذا الأمر فنصت على تأليف لجنة من الدول الأربع لمسح الحدود مسحاً علمياً دقيقاً بغية ازالة أي سبب للنزاع حولها في المستقبل • وقد تألفت اللجنة فعلاً باسم « اللجنة المختلطة » حيث اشترك

---

(١) ن٠أ٠ خالفين (المصدر السابق) ص٦٣ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص٣٤٣ •

فيها درويش باشا مندوباً عن الدولة العثمانية ، والمرزا جعفر خان عن ايران، والكولونيل وليامز عن بريطانيا ، والكولونيل جريكوف عن روسيا[1] •

وذهبت اللجنة الى الحدود لدراستها على الطبيعة نقطة فنقطة ، وكان عملها مضنياً طويلاً وقد اعتمدت في تعيين الحدود على كل ما تيسر لديهـا من الوثائق الرسمية وسجلات الضرائب وخطوط تقسيم المياه وقمم الجبال ، وكانت تلجأ أحيانا الى استطلاع رغبات الأهالي الساكنين في المنطقة والتعرف الى انتمائهم الطائفي وقد تستمع الى شهادات المسنين منهم والاقوال المأثورة •

ولم يخل عمل اللجنة من المخاصمات والمنازعات على منوال ما حدث في مؤتمر أرضروم • وكان للطائفية يد في اثارة بعض تلك المنازعات ، فقد كان الشيعة من سـكان الحدود يميلون الى الانضمام الى ايران بينما كان السنيون يميلون الى الدولة العثمانية • خذ مثلاً ما حدث حول « قوتر » وهي قرية ذات موقع مهم في شـمال العراق اذ هي تشـرف على الطريق المؤدى الى خوي وتبريز في ايران ، وكان أهل القرية يرغبون في الانضمام الى ايران غير أن درويش باشا أراد ضمها الى الدولة العثمانيـة استناداً الى فقرات غامضة وردت في بعض المعاهدات القديمة ، وتقدم حينذاك الى اللجنة بالتواطؤ مع درويش باشا أربعة رجال مسنين فشهدوا ان القرية كانت تعود الى الدولة العثمانية منذ عهود سحيقة ، واستطاع درويش باشا أن يحقق مأربه أخيراً حيث أمر الفوات التي معه باحتلال القرية •

أرسل السفير البريطاني في اسـطنبول ، السر ستراتفورد كاننغ ، الى المندوب البريطاني في اللجنة يوصيه بأن يتضامن مع المندوب الروسي عند وقوع خلاف بين أعضاء اللجنة[2] • وهذه توصية كان لها أثرها في انجاح عمل اللجنة ، فلو لم يتضامن المندوبان البريطاني والروسي تجاه المندوبين

---

(١) المصدر السابق ـ انظر الحاشية ـ ص٣٤٢ •

(٢) ن٠أ٠ خالفين (المصدر السابق) ص٦٥ •

الآخرين لما كان في وسع اللجنة أن تصل الى اتفاق في أية نقطة من نقاط الحدود المتنازع عليها •

عقائد الشيخيين :

أشرنا من قبل الى السيد كاظم الرشتي وقلنا انه كان رئيس الشيخيين أثناء واقعة كربلا ، ولابد لنا هنا من اتمام الحديث عنه وعن الشيخيين لما كان لهم من أهمية اجتماعية في تلك المرحلة التي مر بها العراق آنذاك •

ان الشيخيين انما سموا بهذا الاسم نسبة الى الشيخ أحمد الاحسائي ، وكان هذا الرجل من أهل الاحساء ولد في عام ١٧٥٣م ، ثم هاجر الى كربلا لطلب العلم وتجول في ايران ثم استقر أخيراً في كربلا ، ومات قريباً من المدينة في عام ١٨٢٦م أثناء ذهابه الى الحج • وقد تميز الشيخ أحمد ببعض الآراء والعقائد مما أدى الى ظهور انقسام في الشيعة حيث تابعه فريق منهم وخاصمه فريق ، وقد اشتد النزاع بين اتباعه وخصومه في بعض المدن الايرانية الى حد التضارب وسفك الدماء[1] • ليس هنا مجال التفصيل في عقائد الشيخ أحمد يكفي أن نشير هنا الى بعضها باختصار :

اولا — انه يعتقد ان المعصومين الأربعة عشر — أي النبي وفاطمة والائمة الاثنى عشر —هم علة تكوين العالم وسبب وجوده وهم الذين يخلقون ويرزقون ، ويحيون ويميتون ، ولكنه يستدرك فيقول ان الله في الحقيقة هو الخالق الرازق ، والمحيي المميت ، غير أنه لعزته وتكرمه عن مباشرة الأمور بنفسه أوكلها الى المعصومين الأربعة عشر حيث جعلهم أسبابا ووسائط لأفعاله ، فهم اذن مظاهر لأفعال الله ومحال لمشيئته[2] •

ثانيا — ان الانسان اذا صفت نفسه وتخلص من أكدار الدنيا يستطيع

---

(١) أحمد كسروي (التشيع والشيعة) طهران ١٣٦٤هـ — ص٥٥ •

(٢) علي الحائري (عقيدة الشيعة) كربلا ١٣٨٤هـ — ص٩ — ١١ •

أن يتصل بأحد المعصومين الأربعة عشر عن طريق الاحلام أو بطريق آخر، فيوحى له المعصوم بالعلم الغزير ويكشف له الحجب • وقد حصل الشيخ أحمد نفسه على العلم بهذه الطريقة ، فهو ذكر في سيرته التي كتبها بقلمه : أنه رأى في منامه ذات ليلة الحسن بن علي فأجابه الامام عن مسائل كانت غامضة عليه ثم وضع فمه الشريف على فمه وأخذ يمج فيه من ريقه وكان الريق ساخناً غير أنه كان ألذ من العسل • وظل الشيخ من بعد ذلك يتصل بالائمة بهذه الطريقة فيجيبونه بشكل واضح مدعوم بالأدلة فلا يقدر أحد أن يدخل عليه أية شبهة حتى ولو اجتمع الناس كلهم على ذلك وجاؤوا بألف اعتراض[1] • والظاهر ان هذا هو السبب الذي جعل خصوم الشيخيين ينبزونهم بلقب « الكشفية » اذ هم يعتمدون في عقائدهم على « الكشف » كما يفعل الصوفية •

ثالثاً ـ ان للانسان جسدين أحدها « هورقليائي » والثاني « صوري »، فالأول منهما هو الجسد اللطيف الذي يمثل مادة الانسان الثابتة أي جوهره الأصيل كما يمثل المعدن مادة الشيء المعمول منه ، أما الجسد « الصوري » فهو الذي يتكون من الأجزاء الفضلية والكثافات العرضية الموجودة في بدن الانسان وهي كثافات تكدر البدن وتمنع من صفائه ولطافته • ويعتقد الشيخ أحمد ان الانسان اذا مات اندثر جسده « الصوري » فلا يعود اليه في يوم القيامة ، أما الذي يعود اليه فهو جسده « الهورقليائي » فقط • وكذلك يعتقد الشيخ أحمد ان النبي حين عرج الى السماء في ليلة الاسراء لم يصعد بجسده « الصوري » الكثيف بل صعد بجسده « الهورقليائي »[2] •

رابعاً ـ ان الشيخ أحمد الاحسائي ينظر الى غيبة الامام الثاني عشر

---

(١) أحمد الاحسائي (سيرة الشيخ أحمد الاحسائي) تحقيق حسين محفوظ ـ بغداد ١٩٥٧ ـ ص١٧ ـ ١٩ •

(٢) موسى الاسكوئي (احقاق الحق) النجف ١٩٦٥ ـ الفصلين الرابع والخامس •

بمثل النظرة التي نظر بها الى موت الانسان أو معراج النبي ، فهو يعتقد أن الامام عندما غاب غيبته الكبرى انما هو قد نزع عنه جسده « الصوري » وبقي محتفظاً بجسده « الهورقليائي » ، وهذا هو سر بقائه مئات السنين في قيد الحياة دون أن يتطرق اليه الفناء . ويروى عن الشيخ أحمد أنه قال : « ان الامام ، روحي له الفداء ، لما خاف من أعدائه خرج من هذا العالم ودخل في جنة هورقليا وسيعود الى هذا العالم بصورة شخص من أشخاصه ». ويعني بذلك أنه يعود بالولادة والنمو كسائر الناس(١) .

التبشير بالظهور :

كان الشيخ أحمد الاحسائي في كتاباته ودروسه يكثر من الاشارة الى قرب ظهور الامام الغائب بمناسبة انقضاء ألف سنة على غيبته ، وقيل ان الاحسائي أثناء رحلته الى ايران كان في كل بلدة يمر بها يختار نفراً من مريديه فيوجه انتباههم الى أن الامام الغائب على وشك الظهور وأنهم يجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد لنصرته ، وكان يؤكد لهم أن الامام الغائب حين يظهر سوف يبدل الكثير من العقائد والتعاليم الموجودة ، وان ذلك سيرتعب منه « نقباء الارض » لعدم قدرتهم على تحمله(٢) .

وقد أوصى الشيخ أحمد في أواخر أيامه بأن يكون السيد كاظم الرشتي خليفته من بعده ، وقال لاتباعه : « لا يوجد سوى السيد كاظم الرشتي الذي يعرف مقصدي ولا يقدر أن يفهمه أحد خلافه ، فاطلبوا علومي من السيد كاظم الرشتي فقد تلقاها مني مباشرة وهي التي تلقيتها من الائمة الذين تلقوها من رسول الله . فهو وحده الذي يعرف مغزى كلامي » .

ثم أوصى الشيخ أحمد خليفته السيد كاظم بأن يكون يقظاً يترقب

---

(١) عبدالحسين آواره (الكواكب الدرية) ترجمة أحمد فائق رشد — القاهرة ١٩٢٤ — ص٤٣ .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص١٢ — ١٣ .

ظهور الامام الغائب ويمهد أذهان الناس له ، وقال له : « فالحق أقول لك ان الساعة قريبة تلك التي طلبت من الله أن ينجيني من مشاهدتها لأن زلزلة الساعة شيء عظيم ... »[1] .

كان السيد كاظم قد اتخذ كربلا له مقراً ، وقد انقسم أهل كربلا في عهده الى فريقين فريق تابعوه وكانوا يسمون « بشت سري » وهي لفظة فارسية معناها « خلف الرأس » لأنهم يصلون خلف رأس الحسين ، أما خصومهم فكانوا يسمون « بالا سري » لأنهم يصلون فوق رأس الحسين .

وقام السيد كاظم بما أوصاه به استاذه الشيخ أحمد فكان يواصل التبشير بقرب ظهور الامام الغائب وكان يقول لاتباعه : « ان الموعود الذي تنتظرونه لا يأتي من جابلقا ولا جابرسا بل هو موجود في وسطكم وترونه بأعينكم ولكنكم لا تعرفونه » . وحين زار الرشتي بلدة الكاظمية سأله أحد الناس فيها : متى يكون ظهور الموعود ؟ فأدار الرشتي عينيه في المجلس ثم قال للسائل : « وانك أنت سوف تراه »[2] .

وقد مات الرشتي في عام ١٨٤٣م بعد قليل من واقعة كربلا . ويروى عنه أنه لم يوص بالخلافة الى أحد من بعده اذ اعتذر بقرب ظهور الامام الغائب[3] ، وقيل انه أوصى اتباعه بأن يهجروا بيوتهم ويطهروا أنفسهم من كل أغراض الدنيا ، ثم يتفرقوا في البلاد مكرسين أوقاتهم كلها للبحث عن الموعود الذي حان حينه[4] .

وانقسم الشيخيون بعد وفاة الرشتي الى فرق ثلاث : فرقة تابعت المرزا محمد حسن جوهر الذي كان يسكن كربلا ، والثانية تابعت الحاج كريم

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٤ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٢٠ .

(٣) أحمد كسروى (المصدر السابق) ص٥٧ .

(٤) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٠ ، ٣٧ .

خان القاجاري الذي كان يسكن كرمان في ايران ، أما الفرقة الثالثة فلم ينحازوا الى أحد هذين الرجلين بل ذهبوا يتجولون في البلدان بحثاً عن الامام الغائب الذي هو في اعتقادهم على وشك الظهور ، وكان على رأس هذه الفرقة الأخيرة رجل كان من الملازمين للرشتي والمتعلقين به اسمه الملا حسين البشروئي •

ظهور الباب :

استطاع الملا حسين البشروئي بعد الجهد أن يعثر على « الموعود » في شخص شاب من أهل شيراز اسمه السيد علي محمد وهو الذي لقب بـ « الباب » ومنه انبثقت الدعوة البابيه ثم البهائية •

كان الملاحسين منذ خروجه من كربلا قد أعد علامتين ليمتحن بهما الموعود عند ظهوره ، اولاهما رسالة كان الملا حسين كتبها بنفسه حول بعض الأقوال الغامضة والتعاليم المتشابهة التي صدرت من الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي فمن يحل معضلاتها ويكشف الغموض عنها لابد أن يكون هو الموعود • أما العلامة الثانية فهي تفسير سورة يوسف بطريقة جديدة مغايرة للاصول المعروفة •

وكان أول عمل قام به الملا حسين هو أنه انقطع للرياضة « الاربعينية » في جامع الكوفة وهي رياضة مأثورة لدى الشيعة لمن يريد أن يرى الامام الغائب • وبعد انقضاء الأربعين يوماً سافر الى بوشهر ومنها ذهب الى شيراز • وهناك بينما كان الملا حسين يسير منفرداً خارج سور البلدة ، في اليوم الأول من وصوله اليها ، التقى على سبيل المصادفة بشاب وسيم يلبس العمامة الخضراء هو السيد علي محمد ، وقد تقدم السيد نحوه فحياه وعانقه ورحب به كأنه يعرفه منذ زمن بعيد ، ثم دعاه الى منزله للاستراحة من وعثاء السفر ، فأجاب الملا حسين دعوته وذهب معه الى منزله حيث أمضى تلك الليلة •

ان الليلة التي قضاها الملاحسين في منزل السيد علي محمد في شيرازهي في غاية الاهمية بالنسبة للدعوة البابية والبهائية ، ولكي نفهم كنه ما جرى فيها يجدر بنا دراسة شيء من حياة السيد علي محمد وشخصيته قبل أن يعلن دعوته في تلك الليلة •

كان السيد علي محمد يومذاك في الرابعة والعشرين من عمره يمتهن التجارة مع خاله في شيراز وبوشهر ، وقد سافر في عام ١٨٤٠م الى كربلا فحضر بعض دروس السيد كاظم الرشتي وقيل ان الرشتي اهتم به وعطف عليه[1] • ويكاد المؤرخون يجمعون على أن السيد علي محمد كان ذا شخصية غير عادية اذ كان يميل الى العزلة والخشوع والانهماك في الرياضات الروحية • وحين كان يعمل في بوشهر في مطلع شبابه كان يقضي بضع ساعات يومياً في الصلاة والمناجاة على سطح المنزل فلا يبالي بالحر الشديد الذي تتميز به تلك البلدة ، وعندما كان يحضر مجالس التعزية كان يظهر عليه الخشوع والخضوع فتنهمر عيناه بالدموع بينما كانت شفتاه تهمسان ببعض المناجاة التي يتلوها[2] •

يخيل لي ان الالتقاء بين السيد علي محمد الشيرازي والملا حسين البشروئي في تلك الليلة كان من المصادفات النادرة التي تقع أحياناً فتؤثر في مجرى التاريخ البشري ، فلقد كان الملا حسين في أشد اللهفة الى لقيا « الموعود » من جهة بينما كان السيد علي محمد مستعداً من الناحية النفسية لأن يكون هو « الموعود » من الجهة الاخرى • ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان تلك السنة كانت ذات أهمية حروفية كبيرة ، فهي نهاية انقضاء ألف سنة على غيبة الامام الثاني عشر وقد ورد عنها في كتب الملاحم روايات

---

(1) E.G. Browne (A Year Among The Persians) Cambridge 1927 — P. 65.

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٦١ — ٦٣ •

مأثورة عن جعفر الصادق وابن عربي ومحمد اكبري وغيرهم[1] ٠

ليس لدينا من المعلومات عما جرى في تلك الليلة بين الرجلين الا ما ذكرته المصادر البابية والبهائية ٠ ونحن ننقل عنها فيما يلي خلاصة لما جرى :

ورد في كتاب « مطالع الانوار » : ان الملا حسين بعدما استراح من وعثاء السفر في منزل السيد علي محمد سأله السيد عمن أصبح خليفة الرشتي بعد وفاته ، فأجابه الملا أن الرشتي أوصى تلاميذه بأن يتركوا أوطانهم من أجل البحث عن الموعود ، ولذا فهو قد جاء الى شيراز وسيذهب الى غيرها من البلدان عملاً بتلك الوصية ٠ وهنا انبرى السيد علي محمد سائلاً : هل عيّن الرشتي الأوصاف والمميزات التي يجب أن يتصف بها الموعود ؟؟ فأجابه الملا قائلاً : « نعم فانه من السلالة الطاهرة والعترة النبوية ومن ذرية فاطمة ، وأما سنّه فأكثر من العشرين وأقل من الثلاثين ، وعنده علم لدني ، وهو متوسط القامة ، ويمتنع عن شرب الدخان ، وخالٍ من العيوب والعاهات الجسمانية » ٠ فسكت السيد ثم سأل بصوت جهوري : « انظر هل ترى هذه العلامات في شخصي ؟! » ٠ وقد أثار هذا السؤال المفاجيء دهشة الملا حسين فقال معترضاً : « ان الذي ننتظره هو شخص قدسي ليس فوق قداسته قداسة ، ويُظهر من الأمر ما له قوة فائقة ، وشرائطه وعلائمه عديدة ، فكم أشار السيد ــ الرشتي ــ الى سعة علمه وكم كان يقول ان علومي بالنسبة لعلمه كقطرة من بحر مما وهبه الله وان جميع ما حصلته لم يكن الا كذرة من التراب في مقابل اتساع معارفه والفرق بينهما شاسع » ٠

وبعد أن أدلى الملا حسين بهذا الجواب شعر بالخجل من نفسه وعزم على تلطيف اسلوبه وتخفيف حدته ، ثم تذكر العلامتين اللتين أعدهما من

---

(١) المصدر السابق ــ ص٣٩ ٠

قبل لامتحان الموعود عند ظهوره وأراد تقديمهما للسيد علي محمد ليمتحنه بهما • وفي تلك اللحظة أعاد السيد عليه السؤال قائلاً له : « أنعم النظر هل لا يمكن أن يكون الشخص الذي يعينه السيد كاظم انما هو أنا ؟! » • وعند هذا وجد الملاحسين نفسه مضطراً أن يمتحن السيد علي محمد فقدم له أولاً الرسالة التي تحتوي على مسائل غامضة مأخوذة من كتابات الاحسائي والرشتي وطلب منه توضيحها ، ثم طلب منه ثانياً تفسير سورة يوسف • وقد استطاع السيد علي محمد في بضع دقائق أن يوضح له المسائل الغامضة بأسلوب مبهج جعل الملا حسين مأخوذاً لا يملك نفسه • وبعد أن انتهى السيد علي محمد منها توجه نحو تفسير يوسف فتناول القلم وأخذ يكتب بسرعة لا تصدق ، ولم يتوقف عن الكتابة حتى أتم تفسير السورة كلها ، وكان يتلو الآيات أثناء كتابتها فتزيد حلاوة صوته من قوة تأثير كلماته •

لم يجد الملا حسين مناصاً تجاه هذه « البراهين الساطعة » الا بأن يصدق بالدعوة ، فكان أول مؤمن بها ، وقد أطلق السيد علي محمد على نفسه لقب « الباب » باعتباره باباً للامام الغائب ونائباً عنه ، ثم أطلق على الملا حسين لقب « باب الباب » ثم قال له : « ان هذه الليلة وهذه الساعة سيحتفل بها في الأيام الآتية كأعظم الأعياد وأهمها فاشكر الله الذي أوصلك الى مرغوب قلبك وأشربك من رحيق كلامه المختوم ، طوبى للذين هم اليه واصلون ! »[١] •

حدث كل ذلك في ليلة الخامس من شهر جمادي الأولى من عام ١٢٦٠هـ الموافق ٢٣ أيار من عام ١٨٤٤م • وقد اعتبر البابيون ــ ثم البهائيون من بعدهم ــ هذا اليوم عيداً اذ هو عيد « المبعث » بالنسبة لهم ، وهم الآن يقدسونه ويحرمون تعاطي الاشغال فيه[٢] •

---

(١) المصدر السابق ــ ص٤١ ــ ٤٩ •

(٢) عبدالرزاق الحسني ·(البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم) صيدا ١٩٥٧ ــ ص١٢ •

محاكمة في بغداد :

بلغ عدد الذين اعتنقوا الدعوة الجديدة في أول أمرها ثمانية عشر ، فسماهم الباب « حروف الحي » لأن لفظة « الحي » تساوى في حساب الحروف عدد (١٨) ، ثم أرسلهم الباب يبشرون بدعوته في أنحاء ايران •

ولم ينس الباب العراق فأرسل اليه أحد حروف الحي هو الملا علي البسطامي •وقد وصل هذا الرسول الى كربلا يبشر الذين كانوا ينتظرون ظهور « الموعود » أنه قد ظهر فعلاً ، فصدق به بعضهم وكذبه آخرون • ثم ذهب الى النجف ، وكان الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر هو الذي يتولى الزعامة الدينية فيها ، فدخل الى مجلس الشيخ وأعلن من غير تهيب أن الموعود الذي ينتظرونه قد ظهر في شيراز ، وأخذ يبرهن لهم صحة دعوى الباب حيث قال في وصفه : « ان دليله آياته ، ومعجزته هي المعجزة التي يعترف بها الاسلام لمعرفة الحق ، فمن قلم هذا الشاب الهاشمي الذي لم يدخل المدارس تجرى في ظرف ثمان وأربعين ساعة من الآيات والمناجاة ما يعادل قدر القرآن الذي أنزل على محمد رسول الله في مدة ثلاث وعشرين عاماً »[١] • كان هذا الكلام بمثابة قنبلة انفجرت في المجلس فهب الحاضرون كلهم على البسطامي وأخذوا يهينونه اهانة بالغة ثم اوثقوه بالقيود وكتبوا بكفره محضراً وقعود جميعاً وسلموه الى الحكومة متهمين اياه بهدم الاسلام والقدح في الرسول وتحريك الفتنة • وسيق البسطامي مخفوراً الى بغداد •

عندما جيء بالبسطامي الى نجيب باشا عمد هذا الى عقد مجلس خاص لمحاكمته مؤلف من علماء الشيعة والسنة معاً • وكان هذا أول مجلس من نوعه في العهد العثماني اذ لم يكن مألوفاً في ذلك العهد أن يجتمع علماء الطائفتين في مجلس واحد لمحاكمة متهم ، فهذا يعنى أن الحكومة اعترفت

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٧١ •

بمذهب الشيعة اعترافاً رسمياً • وقد اختلفت الأقوال في تعليل الدافع الذي دفع الوالي نجيب باشا الى ذلك العمل ، فمن قائل ان الوالي انما فعل ذلك من أجل أن يتقرب الى علماء الشيعة ويسترضيهم بعد الذي وقع منه في كربلا ، ومن قائل انه قصد من عقد المجلس أن يضعف موقف المفتي أبي الثناء الآلوسي لانه كان يبغضه •

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن نجيب باشا كان على صلة وثيقة بأحد علماء النجف الكبار هو الشيخ حسن كاشف الغطاء ، وقد بدأت صلته به عندما ذهب الى النجف مع فرقة من الجيش بعد واقعة كربلا ، فقام الشيخ حسن بضيافة نجيب باشا وجنوده ثلاثة أيام[1] • ويعد الشيخ حسن مقارباً في مكانته العلمية للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر وله مقلدون كثيرون •

وعندما انعقد مجلس المحاكمة ببغداد حضره الشيخ حسن كاشف الغطاء مع ابني أخيه الشيخ محمد والشيخ مهدي ، كما حضره من كربلا السيد ابراهيم القزويني والمرزا محمد حسن جوهر ، ومن الكاظمية الشيخ محمد حسن آل ياسين والشيخ حسن أسد الله • وقد حضره من علماء بغداد : المفتي أبو الثناء الآلوسي ، والسيد علي الكيلاني نقيب الاشراف ، ومحمد سعيد أفندي الطبقجلي ، ومحمد أمين افندي الواعظ •

وارتج المجتمع البغدادي لانعقاد هذا المجلس وراجت مختلف الاشاعات حوله، وظن العوام أن علماء الشيعة والسنة لايمكن أن يجتمعوا عبثاً ولابد أن يكون سبب اجتماعهم هو للنظر في قضية أبي بكر وعلي وأيهما أولى بالخلافة من الآخر • حدثني أحد المسنين من أهل بغداد أن الشيخ حسن عند وصوله الى بغداد نزل في ضيافة آل كبة اذ كانت هذه الأسرة يومذاك أغنى الأسر

---

(١) محسن الأمين (اعيان الشيعة) دمشق ١٩٤٦ ــ ج٢١ ص١٣٣ ــ ١٣٦ •

الشيعية في بغداد وأوسعها نفوذاً وشهرة ، وكان الشيخ يرتدي الملابس الخشنة على عادة أكثر العلماء في النجف فأرغمه آل كبة على ارتداء الملابس الفاخرة بحجة أنه ذاهب لمقابلة « أعداء المذهب » ولابد أن يظهر أمامهم بالمظهر اللائق .

يبدو على أي حال أن المجلس لم يخل من مجادلة عنيفة جرت بين الشيخ حسن كاشف الغطاء وأبي الثناء الآلوسي ، فقد كان رأي الآلوسي أن يُقتل المتهم ولا تقبل منه توبة ، أما الشيخ حسن فكان رأيه أن المتهم يجب أن يستتاب أولاً ولا يقتل الا اذا أصر على ذنبه ، وقد استشهد الشيخ حسن بكتب من مراجع المذهب الحنفي فجيء بها الى المجلس وتبين أن الرأي فيها مطابق لرأيه فأخذ المجلس به[1] . ان هذه المجادلة في الواقع اعتيادية تقع دائماً في مجالس علماء الدين ، ولكن العوام في بغداد لم يفهموها بهذا المعنى بل اعتبروها نوعاً من المغالبة أو المبارزة بين عالم الشيعة وعالم السنة ، وأخذوا يطنطنون لها ما يشاؤون ، شأنهم في ذلك شأن العامة في كل زمان ومكان .

لسنا نعرف ماذا حل بالملا علي البسطامي بعدئذ ، والظاهر أن الناس شغلوا بأمر المجادلة بين الآلوسي وكاشف الغطاء فنسوا المتهم الذي حدثت المجادلة من أجله . قيل انه سيّر مخفوراً الى اسطنبول فمات في الطريق من جراء مرض أصابه ، وقيل في رواية أخرى انه مات مقتولاً ، ويعتبره البابيون والبهائيون أول « شهيد » في سبيل الدعوة الجديدة .

نشاط الدعوة الجديدة :

عندما اقترب موسم الحج من تلك السنة عزم الباب على الحج فركب

(١) يجد القارىء تفاصيل ما جرى في المجلس في رسالة مخطوطة كتبها الشيخ عباس ابن الشيخ حسن كاشف الغطاء عنوانها « نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري » .

سفينة شراعية من ميناء بوشهر وكان يصحبه خادم حبشي وشاب من أتباعه المخلصين هو محمد علي البارفروشي الذي لقبه الباب بـ « القدوس » ، وبعد شهرين وصلت السفينة بهم الى جدة • وعندما أتم الباب مناسك الحج كتب رسالة الى شريف مكة يذكر فيها معالم دعوته • وقد وصلت الرسالة الى الشريف في زحمة الحج فلم يهتم بها[1] •

ولما عاد الباب الى موطنه بدأت دعوته تثير الجدل بين سكان شيراز ، اذ اعتنقها نفر منهم وتحمسوا لها بينما قاومها رجال الدين والعامة وافتوا بكفرها • وكان الشاه محمد قد علم بما يجرى في شيراز من جدال فأرسل أحد علماء الدين وهو السيد يحيى الدارابي الى هنالك لكي يمتحن الباب ويأتي بحقيقة أمره • وعندما وصل الدارابي الى شيراز واجتمع بالبـاب قدم له أسئلة لامتحانه وهي حول الآيات المتشابهة في القرآن وبعض المسائل المستعصية من نبوءات الأئمة ، فأخذ الباب يجيب عليها بشكل أثار اعجـاب الدارابي • وفي جلسة أخرى أخذ الباب يفسـر له سـورة الكوثر وكان تفسيره لهذه السورة يختلف عن التفاسير المعهودة وكانت الآيات تتموج من قلمه بسرعة مدهشة تكاد لا تصدق حتى بلغ مجموعها ألفين ، مما جعل الدارابي مسحوراً بها حتى كان على وشك أن يغمى عليه ثلاث مرات[2] ••• وانتهى الأمر بالدارابي أخيراً الى اعتناق الدعوة البابية •••

كان يحكم شيراز يومذاك وال صارم يدعى حسين خان الايرواني • ويروي صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » ان هذا الوالي استدعى الباب اليه وأخذ يتظاهر أمامه بأنه من المؤمنين به وطلب منه الاجتماع بالعلمـاء لاظهار دعوته لهم • ولما تم الاجتماع قام الباب يخاطب العلماء قائلاً : « ألم يأن لكم ايها العلماء أن تنبذوا الهوى ، وتتبعوا الهدى ، وتتركوا الضلال ،

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص١٠٩ ـ ١١٠ •

(٢) المصدر السابق ـ ص١٣٨ •

وتسمعوا أقوالي ، وتذعنوا لأوامري • ان نبيكم لم يخلف لكم بعده غير القرآن ، فهاكم كتابي (البيان) فاتلوه واقرأوه تجدوه أفصح عبارة من القرآن ، وأحكامه ناسخة لأحكام الفرقان ، فاسمعوا وانتصحوا ، وابقوا على أنفسكم وعلى أطفالكم وعلى أموالكم ، قبل أن تسل السيوف وتوضع في رقابكم ، وتشحذ في أعناقكم ، وتسفك دماءكم ، فاسمعوا وطاوعوا اني لكم من الناصحين » • وعند هذا طلب العلماء منه أن يكتب صحيفة يثبت فيها مدعياته ، ولما كتب الباب الصحيفة وجدوها ملحونة كثيرة الاغلاط ، فذكروا ذلك له فكان جوابه أنه لم يتعلم في المدارس وان الذي يكتبه هو الهام من الغيب ووحي يوحى اليه فلينظروا الى المعاني ويتركوا المباني ، وليأخذوا اللب ويرموا القشر • فارتفع ضجيج العلماء ، فمنهم من أفتى بكفره ، ومنهم من قال باختلال عقله • ثم أمر الوالي فجروه الى صحن الدار وربطوا رجليه في « الفلقة » وأخذوا يضربونه حتى كاد يغمى عليه • ثم حملوه على دابة وذهبوا به الى المسجد فصعد المنبر فأعلن توبته وأظهر الندامة[1] •

وجاء في كتاب « مطالع الانوار » أن الباب قال من على المنبر : « ان غضب الله على كل من يعتبرني وكيلاً عن الامام أو الباب اليه ، وان غضب الله على كل من ينسب الي انكار وحدانية الله أو أني أنكر نبوة محمد خاتم النبيين أو رسالة أي رسول من رسل الله أو وصاية علي أمير المؤمنين أو أي أحد من الأئمة الذين خلفوه » • ثم أطلق سراح الباب فعاد الى منزله بحراسة خاله[2] •

ظل الباب بعد تلك الحادثة بضعة أشهر وهو معتزل في منزله لا يعلن شيئاً من دعوته • والظاهر أن اتباعه كانوا دائبين في نشر دعوته ، فأخذت

---

(١) محمد مهدي خان (مفتاح باب الأبواب) القاهرة ١٣٢١هـ — ص١٣٣ — ١٤١ •

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص١٢١ — ١٢٢ •

الدعوة تنتشر في بعض البلدان الايرانية ، كما انتشرت في كربلا على نحو ما سنذكره في الفصل القادم .

أرسل الصدر الاعظم من طهران الى حسين خان والي شيراز يطلب منه التخلص من الباب بأية صورة . وفي أواخر آذار من عام ١٨٤٦م أرسل الوالي مدير شرطته عبدالحميد خان الى منزل الباب فألقى القبض عليه ثم ساقه نحو مركز الشرطة ، ولكنه لم يكد يسير به قليلاً حتى وجد السوق في هرج ومرج والناس يهرعون ذاهلين وهم يحملون الجنائز ، وكان سبب ذلك انتشار وباء الكوليرا في البلدة وموت الكثير منه فجأة . فتوجه مدير الشرطة نحو داره ومعه الباب فوجد ولده مصاباً بالوباء ، وعند هذا ألقى مدير الشرطة نفسه على أقدام الباب يتضرع اليه أن ينقذ حياة ابنه ويطلب منه المغفرة . وشرع الباب يتوضأ ثم أمر بأخذ شيء من الماء الذي غسل به وجهه ليشربه الولد المصاب . وقد نجا الولد « من بركات هذا الماء »[1].

الكوليرا في العراق :

ان وباء الكوليرا الذي انتشر في ايران في عام ١٨٤٦م جاء اليها من الهند ، ثم أخذ يسري منها نحو العراق كعادته في كل مرة . وفي ٢٣ آب من ذلك العام ، وكان موافقاً لليوم الأول من شهر رمضان ، ظهرت بوادر الوباء في بغداد فساد الرعب على الناس وارتفعت أسعار مواد التحنيط والتكفين !

من الظواهر الاجتماعية التي تُلاحظ في بغداد عند كل وباء يفد اليها هي أن الموسرين من سكانها ورجال الحكم والقناصل يهربون من المدينة ومعهم الخيام ومواد التموين ، فيخيمون في البراري بعيداً عن الناس وبذلك ينجون من الوباء في الغالب غير أن بغداد تبتلي عند ذاك بموجة عارمة من

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٥٢ ـ ١٥٥ .

اللصوص اذ هم ينتهزون فرصة خلو المدينة من السلطة فيدخلون الدور كما يكسرون أبواب الدكاكين ويعيثون فيها نهباً وتخريباً •

كان القنصل البريطاني من جملة الذين هربوا من بغداد عندما حل بها وباء ١٨٤٦م ، فذهب هو ومن معه من موظفي القنصلية وخدمها الى مقربة من طاق كسرى فخيموا هناك وفرضوا على أنفسهم نظام الحجر الصحي بكل دقة • والغريب أن القنصل الفرنسي أصر على البقاء في بغداد فلم يغادرها طيلة أيام الوباء وكأنه أراد بذلك أن يتحدى القنصل البريطاني ويستهين به • وقد أصيب القنصل الفرنسي بالوباء وكاد الوباء يقضي عليه لو لم يسرع لانقاذه طبيب أوربي كان ماراً ببغداد يومذاك •

وفي ١٤ تشرين الاول ١٨٤٦م عندما أبل القنصل الفرنسي من مرضه كتب الى حكومته رسالة يصف فيها حالة بغداد أثناء الوباء والسبب الذي منعه من مغادرتها ، حيث قال : « ••• وقد بدأت الكوليرا بالتفشي والانتشار بين الأهالي الجهلاء بصورة مرعبة اعتباراً من أول يوم من أيام رمضان • فارتاعوا منها كل الارتياع نظراً لأنهم محرومون ممن يرشدهم ارشادات صحية • وما ان شرع المرض بالظهور حتى غادر قنصل انكلترا بغداد والتجأ الى طاق كسرى الذي يبعد عنها مسيرة ست ساعات وقد اصطحب معه طبيب قنصليته وهو الطبيب النظامي الوحيد الذي استطاع أن يقدم للمرضى بعض المساعدات • وقد فرض على نفسه وعلى مرؤوسيه ومواطنيه الحجر الصحي الاربعيني ورفض رفضاً قاطعاً الاتصال بالمدينة • وما يزال هذا الاعتزال نافذ المفعول حتى الآن • ولم يساهم هذا الابتعاد في اقلاق البلدة • وما ان علم السكان برحيل الانكليز هذا حتى هربت طائفة اليهود بأجمعها تقريباً وتبعتها جماعة من النصارى وحذا حذوها عدد كبير من الأعراب ففروا جميعاً من هذا الطاعون متجهين الى مختلف الاتجاهات وذلك حين اقتنعوا بطابع هذا المرض المعدي • ومن جهة أخرى كان هناك عدد كبير

من الناس لا تعرف مذاهبهم رأوا هجرة سكان بغداد هذه وأملوا أن الجائحة ستتناول بالتدمير أكبر عدد ممكن من الأفراد الباقين في المدينة فجاسوا خلال البلدة وحرضوا السكان على الانضمام اليهم للقيام بعمليات النهب والسلب هذه تمهيداً لاشعال نيران ثورة • في هذه الظروف رأيت من المناقض كل المناقضة لواجباتي أن أحذو القنصل البريطاني في أن أغير شيئاً من مجرى الأمور اليومي في القنصلية العامة • فبقي أبناء جلدتي من الفرنسيين وكذلك الأجانب المشمولين بالحماية الفرنسية معي داخل المدينة•• وبعد أقل من خمسة عشر يوماً تبين أن الكوليرا قد حصدت أرواح ٤٣١٨ نسمة من السكان من مختلف الأعمار من السكان الذين تناقص عددهم حتى وصل الى أقل من ٣٥٠٠٠ نسمة وذلك من جراء الهجرات نتيجة للفزع العام • أما الاوربيون فلم يخسروا الا ضحية واحدة ألا وهي الأب المحترم (ألفونس) معاون مدير الارسالية التبشيرية اللاتينية ••• ومنذ بضعة ايام وقعت اصابات متفرقة بهذا المرض هنا وهناك واخذ الوباء هذا الشكل المشتت كما كانت حالته في البداية ولكنه أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً ويتراجع منحسراً عن المدينة » •

وقد وصل الجواب الى القنصل الفرنسي من حكومته على هذه الرسالة وفيه نجد وزير الخارجية الفرنسية ينحي باللائمة على عمل القنصل البريطاني لمغادرته بغداد أثناء الوباء ويستحسن قرار القنصل الفرنسي في البقاء فيها ثم يهنؤه بالشفاء « الميمون » من مرضه[1] •

لم يكد ينقضي على هذا الوباء الذي ذكرناه سوى أشهر معدودة حتى ظهرت بوادر وباء جديد من الكوليرا ، وكانت بداية ظهوره في البصرة وأخذ يسري نحو الشمال تدريجاً • وحين بلغ الحلة أخذ يفتك فيها بمعدل يتراوح بين ثمانية وعشرة يومياً • ثم وصل الى بغداد فكان معدل اصاباته اليومية ثلاثين يموت نصفهم تقريباً •

---

(١) پير دى فوصيل (المصدر السابق) ص٥١ ــ ٥٣ •

وكان للحكومة طبيب فرنسي يدعى الدكتور دروز ، وقد حذر هـذا الطبيب الحكومة من الوباء قبل مجيئه ، وطلب مبالغ من المال لاعداد بعض الأدوية اللازمة له ، غير أن الحكومة لم تهتم بطلبه ولم تتخذ أي اجراء للوقاية من الوباء . وقد أصيب القنصل الفرنسي بالوباء في هذه المرة أيضاً ولكن بخطورة أقل من خطورة المرة الأولى ، واضطر الى الانتقـال الى بستان « النجيبية » في باب المعظم قريباً من مسكن الوالي الصيفي[1] .

بين الوالي والمفتي :

لابد لنا في ختام هـذا الفصل أن نذكر شيئاً عن العلاقة بين الوالي نجيب باشا والمفتي أبي الثناء الآلوسي ، فقد كانت العلاقة بينهما سيئة للغاية اذ كان كل منهما يبغض الآخر ويحاول الانتقاص من شأنه .

الملاحظ أن الآلوسي لم يتعرض في جميع مؤلفاته لذكر السبب الذي أدى الى نشوء العداء بينه وبين نجيب باشا ، ولم يأت المؤرخون الذي كتبوا في سيرة الآلوسي بما يشفي الغليل في تعليل ذلك العداء . والظاهر أن هناك عوامل شتى لعبت دورها في هذا الشأن ، أذكر بعضها فيما يلي :

اولاً ــ كان نجيب باشا قادرياً في اتجاهه الصوفي ، وكان شديد الميل الى آل الكيلاني والى نقيبهم السيد علي أفندي الكيلاني[2] . ومما يذكر أن آل الكيلاني لم يكونوا على صلة حسنة بالآلوسي ، ولعلهم كانوا يكيدون به ويوغرون صدر نجيب باشا عليه . وكان الآلوسي قد أشـار في بعض مؤلفاته الى أن أعدائه كانوا يكثرون من الدس عليه عند الوالي غير أنه لم يذكر أسماءهم[3] ، والمظنون أنه يشير بذلك الى آل الكيلاني ومن تابعهم .

---

(١) المصدر السابق ــ ص٥٣ ــ ٥٤ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ــ ج٧ ص٨٣ .

(٣) عباس العزاوي (ذكرى أبي الثناء الآلوسي) بغداد ١٩٥٨ ــ ص ٥٨ .

ثانيا ـ كان الآلوسي لتوقد ذهنه وغزارة علمه كثير الحساد ، يقول عنه حفيده السيد محمود شكري الآلوسي : « الا أنه كان قليل الحظ من العشير ، كثير الصبر والمداراة لكل شرير ، وكان محسوداً للغاية ، مغبوطاً على ما ناله من العناية ، فلذا بلغ فيه أعداوه ما بلغوا ، حيث أنهم مما امتلأ به صدره فرغوا ... »[1] . وكان اعداء الآلوسي يسعون الى الكيد به منذ أيام داود باشا فقد اتهموه آنذاك بسبب ابن حجر ولكن داود باشا ردّهم ، وفي عهد علي رضا باشا كانوا يتفقون فيما بينهم على لغز علمي معين فيدسوه عند الوالي ليسأل به الآلوسي بغية اظهار عجزه ولكن الآلوسي كان حاضر الجواب دائماً . وظلوا يواصلون الكيد به حتى نجحوا أخيراً في عهد نجيب باشا[2] .

ثالثا ـ يبدو أن الآلوسي كان معجباً بنفسه يحب الفخار ، وهذه صفة قد تؤدي عاجلاً أو آجلاً الى نشوء فجوة نفسية بينه وبين الوالي ولا سيما اذا كان الوالي من طراز نجيب باشا . يقول محسن عبدالحميد : « والآلوسي يهمه كثيراً أن يكون محترماً بين الناس ، وهو يذكر احترام الناس لـه بفخر واعزاز ، والويل لمن لا يقدره ، ولا ينزله المنزلة التي يستحقها ، وعلى الرغم من أن القارىء يشعر أنه قد يكون صادقاً فيما يقول ـ وهذا هو الظن الأغلب ـ الا انا مع ذلك نؤاخذ الآلوسي عليه ، ونود لو أنه لم يلجأ الى هذا . ومع ذلك فالعصمة لله وحده ... ولا أستطيع أن أعد على الآلوسي المعايب ، وانما هي عبارة عن هنات وهفوات »[3] .

رابعا ـ كان نجيب باشا قد اتهم الآلوسي بولائه للقنصل الفرنسي وأرسل بذلك تقريراً الى اسطنبول[4] . وتلك تهمة كانت في تلك الأيام لها

---

(١) محمود شكري الآلوسي (المسك الاذفر) بغداد ١٩٣٠ ـ ص١١
(٢) محسن عبدالحميد (الآلوسي مفسراً) بغداد ١٩٦٩ ـ ص٩٤ ـ ٦٥.
(٣) المصدر السابق ـ ص٧٨ ـ ٧٩ .
(٤) المصدر السابق ـ ص٤٥ .

مغزاها اذ هي تدل على الميل نحو محمد علي باشا وتأييد عصيانه على الدولة. ويقول الدكتور عبدالعزيز نوار : ان الآلوسي كان يحمل روحاً عربية معادية للاتراك وكان ذلك من أسباب عداء نجيب باشا له لان هذا الوالي جاء الى العراق لينفذ سياسة الباب العالي في تقوية قبضة الدولة على البلاد والقضاء على الزعامات المحلية فيها[1] .

قد يواجهنا هنا سؤال هو أن الآلوسي في عهد علي رضا باشا كان قد كتب كتاباً في « طاعة السلطان » وكفر محمد علي باشا على عصيانه ، فكيف يا ترى تحول الآلوسي عن هذا الرأي الى الرأي المناقض له في عهد نجيب باشا ؟

الواقع ان هذا أمر جائز في تلك الأيام كما هو جائز في أيامنا ، ففي مقدور الانسان أن يبدل رأيه حسب تغير الظروف . ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن الآلوسي كان شافعي المذهب قبل أن يتولى منصب الافتاء ، فلما تولى المنصب في عهد علي رضا باشا تحول الى المذهب الحنفي . يقول عنه حفيده السيد محمود شكري الآلوسي : « وكان في صباه شافعي المذهب ، لا يميل لسواه ولا يذهب ، وقلد مدة افتائه الامام أبا حنيفة في معاملاته ، وبقي على ما كان عليه في عباداته ، وكان بعد عزله يقول أنا شافعي ما لم يظهر لي الدليل ، والا فليس عن العمل به من محيل ، حيث ان العالم اذا علم الدليل لا يعذر بالتقليد ، وليس عن العمل باجتهاده محيد ... »[2] .

مهما يكن الحال فقد بلغ العداء بين نجيب باشا والآلوسي الى حد جعل أحدهما ينتقد الآخر حين يجتمع معه في مجلس . نستدل على ذلك من

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء محمود الآلوسي) في المجلة التاريخية المصرية ــ القاهرة ١٩٦٨ ــ ج ١٤ ص١٥٧ ــ ١٦٣ .

(٢) محمود شكري الآلوسي (المصدر السابق) ص١٩ .

عبارات وردت في أحد مؤلفات الآلوسي حيث قال ما نصه : « وكم قد قال بعض الولاة اياك أن تقول في مجلسنا المسألة شرعاً كذا ، وقد أصابني منه عامله الله بعدله لعدوله عن قوله مزيد الأذى ، واتفق أن قال لي بعض خاصته يوماً ، أرى ثلثي الشرع شراً ، فقلت له وان كنت عالماً أن في أذنيه وقراً ، نعم ظهر الشـــر لما أذهبتم من الشـــرع العين ، ولم تأخذوا منـــه ســـوى حرفين[1] ٠

نستنتج من هذه العبارات المسجوعة أن الآلوسي كان يجابه نجيب باشا بالاعتراضات الشرعية مما جعل نجيب باشا يتفزز من اعتراضاته وينهاه أن يذكر الشرع في مجلسه مرة أخرى ٠ وهذا يدل على أن العلاقة بينهما أصبحت متوترة جداً ٠

يقول محسن عبدالحميد عند ذكر هذا الموقف الذي اتخذه الآلوسي تجاه الوالي : انه يدل على مظهر من مظاهر شخصية الآلوسي اذ هو كان يجهـــر بالحق من غـــير أن يخشى ما يلحقـــه في ســـبيل ذلك من الأذى والمكروه[2] ٠ ان هذا قول يصعب علينا قبوله فنحن نعرف أن الآلوسي لم يكن يجابه الوالي السابق بمثل ما كان يجابه به نجيب باشـــا ، فهي اذن ليست مسألة جهر بالحق بمقدار ما هي مسألة عاطفية وعلاقة شخصية ٠ ان من طبيعة الانسان بوجه عام ــ كما لا يخفى ــ أنه اذا أحب شخصاً غض النظر عن عيوبه وسكت عنها أما اذا أبغضه فانه يبحث عن عيوبه ويبـــالغ فيها وقد « يجهر بالحق » في سبيلها ٠

أخذ نجيب باشا يتحين الفرصة للايقاع بالآلوسي ٠ وقد حدث في أحد الأيام أن وصلت الى الآلوسي دعوة من اسطنبول لحضور الحفلة التي عزم السلطان عبدالمجيد على اقامتها لختان ولديه ، فاعتذر الآلوسي عن حضور

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص٧٦ ٠

(٢) المصدر السابق ــ ص٧٦ ٠

الحفلة وكتب في ذلك رسالة قدمها الى الوالي لكي يرسلها هذا الى اسطنبول حسبما تقضي به القواعد المتعارف عليها في تلك الايام • ويذكر الآلوسي في أحد مؤلفاته ان الوالي هو الذي أوعز اليه بالاعتذار عن حضور الحفلة أو اجبره عليه ثم اتخذ ذلك سلاحاً بيده لتشويه سمعته عند رجال‌الحكم في اسطنبول • ولم يكتف الوالي بهذا بل بعث رسالة الاعتذار الى اسطنبول بوساطة القنصل الفرنسي نكاية بالآلوسي • وكانت تلك مؤامرة من الوالي أصابت الآلوسي في الصميم[1] •

مظاهرة باب الشيخ :

أشرنا من قبل الى أن محلة باب الشيخ في بغداد كانت مثل كربلا وغيرها من العتبات المقدسة من حيث كونها حرماً أمناً يلجأ اليه الهاربون من الحكومة فلا تستطيع أن تلقى القبض عليهم فيه • وكانت محلة باب الشيخ منبعاً للكثير من المظاهرات والانتفاضات ضد الحكومة طيلة العهد العثماني • وفي عهد نجيب باشا كانت هذه المحلة تتمخض عن حركة عدائية احتجاجاً على الضرائب الفادحة التي فرضها الوالي على « الأصناف » أي أصحاب الحرف •

وفي أحد الايام من صيف ١٨٤٧م خرجت مظاهرة من محلة باب الشيخ وهي تهتف بهتافات ضد الحكومة ، واتخذت المظاهرة طريقها نحو باب المعظم ومن هناك اتجهت الى بستان « النجيبية » حيث كان الوالي يقيم في مسكنه الصيفي • وقد ارتعب الوالي من المظاهرة وظن أنها تشبه تلك التي قام بها عبدالغني جميل زادة في عام ١٨٣٢م • ولكنه سرعان ما سيطر على الموقف فاتخذ اجراءات قمعية شديدة ، وأثبت بذلك أنه شديد تجاه كل مشاغب لا فرق عنده بين أهل كربلا وأهل باب الشيخ •

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ج١٤ ص١٥٩ — ١٦٠ •

ثم أصدر الوالي أمره بابعاد خطيب الحضـرة القادرية السيد محمد أمين الواعظ وأخيه السيد خطـاب الى البصـرة اذ اتهمها بانهما كانا من المحركين للمظـاهرة[1] • وقد اغتنم الوالي هـذه الفرصة فأنزل بعدوه الآلوسي ضربته الموجعة حيث اتهمه بانه كان من المحرضين على المظاهرة فعزله من منصب الافتاء كما جرده من أوقاف المدرسة المرجانية • وأصبح الآلوسي من بعد ذلك في حالـة من الحرمان والضنك شـديدة حتى كاد ـ على حد تعبيره ـ يأكل الحصير الذي تفرش به المساجد[2] •

---

(١) مصطفى نورالدين الواعظ (الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر) الموصل ١٩٤٨ ـ ص٨٥ ـ ٨٩ •

(٢) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص٤٦ •

الفصل الخامس

قرة العين

شغل المجتمع العراقي في السنوات الاخيرة من ولاية نجيب باشا بحديث امرأة عجيبة تدعى « قرة العين » اذ هي أسفرت عن وجهها ، وارتقت المنبر ، وخطبت وجادلت ، فكان ذلك أول حدث من نوعه في تاريخ العراق ، وربما في تاريخ الشرق كله ، طيلة قرون عديدة • ونحن الآن اذ نريد دراسة تاريخ المجتمع العراقي في تلك الآونة يحسن بنا التعرف الى شخصية هذه المرأة ومبلغ تأثيرها في العراق ثم في ايران •

ولدت هذه المرأة في قزوين عام ١٨١٤م ، وقد سميت بـ « زرين تاج » وهو اسم فارسي بمعنى « التاج الذهبي » لأنها كانت ذات شعر أشقر ، وكانت أسرتها من الأسر الدينية المعروفة في قزوين ذات جاه ومكانة تدعى بـ « آل البرغاني » ، وقد برز فيها علماء مجتهدون لهم شأن كان منهم الملا محمد صالح الذي هو والد قرة العين ، والملا محمد تقي الذي هو أحد أعمامها ، وكان الملا محمد تقي هذا كبير علماء قزوين في ذلك الوقت •

تميزت قرة العين بجمالها الفتان وذكائها المفرط ، وقد بدأ نبوغها بالظهور منذ صباها الباكر قيل انها كانت تحضر دروس أبيها وعمها التي كانا يلقيانها على الطلبة ، فكان يوضع لها ستار لتستمع الى الدروس من ورائه ، وسرعان ما أخذت تشارك في المجادلات الكلامية والفقهية التي تثار بين رجال أسرتها ، وكثيراً ما كان أبوها يظهر أسفه قائلاً : « لو كانت ولداً لكانت أضاء بيتي وخلفتني » • وذكر أخوها عبدالوهاب في وصف ذكائها المفرط فقال : « اننا جميعاً من أخوة وأولاد عم ما كنا نقدر أن نتكلم في

حضرتها لأن علمها كان يرعبنا ، واذا تصادف وتكلمنا عن مسألة فانها كانت تتكلم عنها بكل وضوح واتقان على البداهة حتى نعلم أننا أخطأنا السبيل ونتركها ونحن متحيرون »[1] •

كان أهل قزوين في ذلك الحين كأهل كربلا منقسمين الى فريقين متنازعين : « بشت سري » و « بالا سري » أي شيخين وخصوم الشيخين • وكان هذا الانقسام قد سرى الى بيت قرة العين فكان عمها الكبير الملا محمد تقي من خصوم الشيخين بينما كان عمها الآخر الملا علي من الشيخين • وقد نشأت قرة العين في هذا الجو الفكري المفعم بالجدل ، ولا شك أنها استطاعت أن تستوعب بذكائها الشيء الكثير من ذلك الجدل وتنتفع به •

عندما بلغت قرة العين الرابعة عشر من عمرها زفت الى ابن عمها الملا محمد بن الملا محمد تقي ، ولم تمض على ذلك سوى مدة قصيرة حتى قرر الزوج الهجرة الى العراق لطلب العلم ، فسافرا معاً الى كربلا ونزلا في دار تعود للاسرة في محلة « الخيمگاه » وهي الدار التي لا تزال قائمة يسكنها بعض أسرة البرغاني وقد زارها كاتب هذه السطور منذ عهد قريب •

مكث الزوجان في كربلا ثلاث عشرة سنة تقريباً رزقا فيها بولدين هما ابراهيم واسماعيل ، والظاهر أن حياتهما في كربلا لم تخل من خصام ومناقرة ، فهي أخذت تميل الى السيد كاظم الرشتي الذي كان يرأس الشيخين يومذاك ، بينما كان زوجها يميل الى « البالاسري » • وربما كان الخصام بين الزوجين في بدايته بسيطاً ثم صار يشتد ويتعقد مع الايام •

عاد الزوجان الى قزوين في عام ١٨٤١م ، ورزقا هناك بولد ثالث سمياه « اسحاق » وكانت عودتهما ايذانا باستئناف الخصام والمناقرة بينهما من جديد • فقد أصدر والد زوجها فتوى أعلن فيها تكفير الشيخين بينما هي ازدادت من جانبها ولعاً بالعقائد الشيخية وتعلقاً بالسيد كاظم الرشتي •

---

(١) محمد زرندي (مطالع الانوار) ترجمة عبدالجليل سعد ـ القاهرة ١٩٤٠ ـ ص٦٣ ـ ٦٦ •

وشرعت قرة العين تكاتب الرشتي تستفسر منه عن بعض المعاني الغامضة في كتاباته ، ثم قررت أخيراً أن تترك زوجها وأولادها وتهاجر الى كربلا لتكون قريبة من الرشتي وتنضم الى حوزته العلمية •

وفي عام ١٨٤٣م سافرت قرة العين الى كربلا ، وكانت حينئذ في التاسعة والعشرين من عمرها وفي قمة نضوجها ، وحين وصلت الى كربلا فوجئت بان الرشتي الذي جاءت من أجله كان قد توفي قبل أيام قليلة فأصيبت بخيبة الأمل وشاركت في مأتمه[١] •

اعتناقها الدعوة البابية :

تجمع المصادر البابية والبهائية على أن قرة العين كانت من أوائل الذين اعتنقوا الدعوة البابية حيث أصبحت من « حروف الحي » الثمانية عشر ، وأنها اعتنقت الدعوة يوم كان الباب لا يزال في شيراز يدعو الى نفسه سراً • وهذا أمر يصعب علينا تصوره اذ كيف استطاعت قرة العين أن تعلم بالدعوة وهي في كربلا وتقتنع بها دون أن تتصل بالباب أو تعرف عنها شيئاً •

أوردت المصادر البهائية في هذا الشأن روايتين مختلفتين ، فقد جاء في أحد تلك المصادر وهو كتاب « تذكرة الأوفياء » : أن قرة العين عندما وصلت الى كربلا بعد وفاة السيد كاظم الرشتي انقطعت الى العبادة والتضرع في انتظار الموعود الذي كان الرشتي قد تنبأ بقرب ظهوره ، وفي ذات ليلة رأت في منامها شاباً يلبس رداءاً أسود وعمامة خضراء وهو في السماء رافعاً يده بالدعاء ويتلو بعض الآيات ، وبعد حين وصل اليها تفسير من الباب لسورة يوسف فوجدت فيه احدى الآيات التي سمعت الشاب يتلوها في المنام ، فأدى ذلك بها الى التصديق بدعوة الباب[٢] •

---

(١) ان هذه المعلومات عن قرة العين حصلت عليها من مصادر مختلفة ، وقد استفدت بصورة خاصة من كتاب مخطوط بقلم عبود الصالحي عنوانه « قرة العين على حقيقتها وواقعها » • ومما يجدر ذكره ان هذا الكاتب هو من أسرة البرغاني ومن أقرباء قرة العين •

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٦٤ •

أما كتاب « الكواكب الدرية » فيروي القصة بشكل آخر اذ يقول :
بينما كان تلاميذ السيد كاظم الرشتي قد انتشروا في البلاد يبحثون عن الموعود انقطعت هي للرياضة والتبتل وهجرت تناول المطبوخات ، وكانت كل أوقاتها مصروفة في الترقب والانتظار • وفي ذات يوم كتبت رسالة الى الملا حسين البشروئي تقول فيها : « اذا وفقتم للقاء طلعة الموعود فلا تحرموني من موافاتي بذلك النبأ ، ولا تضنّوا عليّ بالسعادة ، فان للأرض من كأس الكرام نصيباً » ، فوصلت رسالتها الى الملا حسين أثناء وجوده في شيراز فقدم الرسالة الى الباب ، فأدخل الباب اسمها في عداد « حروف الحي » وكتب توقيعاً بذلك • ولما جاء الملا علي البسطامي الى العراق موفداً من الباب اتصلت قرة العين به واستفهمت منه عن تفاصيل الدعوة مما جعلها تزداد ايمانا بها[1] •

المرحلة الاولى :

تشير القرائن الى ان الدعوة البابية أخذت تكتسب الاتباع في كربلا تدريجاً ، وكانوا كلهم من الشيخيين ، غير أنهم كانوا يلتزمون التقية والتكتم ولا يعلنون عن مذهبهم الجديد أمام الناس ، ولم يكن من المسموح لهم في أول الأمر أن يذكروا اسم الباب أو يعينوا شخصه بل كانوا يتحدثون عنه بطريق الرمز والاشارة ، وكثيرا ما كانوا يطلقون عليه اسم « الذكر » عند الحديث عنه •

والظاهر ان قرة العين حين اعتنقت الدعوة البابية كانت كغيرها من اتباع الدعوة تلتزم التقية ، ولكنها أخذت تنشط في الاتصال بالناس لتمهيد الاذهان نحو قبول الدعوة الجديدة • قيل انها كانت في تلك المرحلة من حياتها تلقي الدروس الدينية في منزلها ويجتمع اليها عدد كبير من الطلبة

(١) عبدالحسين آواره (الكواكب الدرية) ترجمة أحمد فائق رشد ـ القاهرة ١٩٢٤ ـ ج١ ص١١٠ ـ ١١١ •

والمستمعين ، فكانت تجلس في غرفة صغيرة وراء باب عليه ستار ، ويجتمع الطلبة والمستمعون في غرفة اخرى واسعة ، وهي تتحدث اليهم من وراء الستار •

كانت قرة العين تملك صوتاً جهورياً ومقدرة كبيرة على الكلام والجدال ، فأحدثت في المجتمع الكربلائي هزة عنيفة وأصبح اسمها على كل لسان ، وصار الناس نساء ورجالاً يتناقشون ويتجادلون في الأفكار الجديدة التي كانت تطرحها قرة العين في دروسها المنزلية •

وفي شهر آب من عام ١٨٤٦م انتقلت قرة العين مع حاشيتها الى الكاظمية ، ويقال في سبب هذا الانتقال أن خلافاً حدث بينها وبين كبير الشيخيين المرزا محمد حسن جوهر فقررت الابتعاد عنه والذهاب الى بلدة أخرى تستطيع أن تنفرد فيها من غير معارض تخشى بأسه •

استقبلت قرة العين في الكاظمية استقبالاً حافلاً وكان على رأس المحتفين بها أولاد السيد عبدالله شبر ، فنزلت أول الأمر في ضيافتهم ، ثم تحولت بعدئذ الى دار السيد صادق الكشفي وهو من خدمة الجوادين وكانت داره معدة لنزول الزوار الشيخيين فيها • وأخذت قرة العين تلقي الدروس في الكاظمية على منوال ما كانت تفعل في كربلا ، وزادت على ذلك فصارت تصعد المنبر أحيانا فتذهل السامعين بقوة حجتها وحسن القائها •

وذاع صيتها في بغداد فأخذ الكثير من سكانها ، من الشيعة وغيرهم ، يفدون الى الكاظمية لسماع دروسها ومحاضراتها • روى لي أحد المسنين من أهل الكاظمية نقلاً عمن شهد قرة العين أثناء مكوثها في الكاظمية فقال ان الكثير من الناس حضروا حلقات درسها وصلّوا وراءها ، وكانوا اذا استمعوا اليها وهي تتكلم يكادون يذهلون عن أنفسهم من شدة تأثرهم بها •

يبدو أن قرة العين لم تكن متزمتة في حجابها على النمط الشديد الذي اعتادت عليه نساء عصرها ، وهي ربما كانت تلتزم بالسفور الذي تبيحه

الشريعة الاسلامية وهو اظهار صفحة الوجه والكفين من غير زينة ، فكانت تجالس الذين تثق بهم من أصحابها وتحادثهم وهي مكشوفة الوجه ، غير أن هذا النوع من السفور لم يكن يستسيغه الناس في تلك الايام فأثار ضجة لدى العامة ورجال الدين وأخذوا يتقولون عليها ويلصقون بها التهم الشنعاء .

كان الناس في تلك الايام قد اعتادوا أن يربطوا بين عفة المرأة وشدة حجابها ، فكلما كانت المرأة أشد حجابا كانت في نظرهم أعظم عفة وأكمل خلقاً . ولهذا أخذ خصوم قرة العين يتهمونها بالتحلل الخلقي ، ولا تزال هذه التهمة لاصقة بها حتى اليوم . سألت ذات مرة أحد المسنين من أهالي الكاظمية عما يعرف عنها ، ولم يكد الرجل يسمع سؤالي حتى فاجأني بقوله انها كانت « كذا وكذا » مما لا يستحسن ذكره . وليس هذا الجواب بالأمر المستغرب من رجل عاش في بيئة الحجاب الشديد وآمن به ايماناً مطلقاً .

يقول صاحب كتاب « الكواكب الدرية » : ان سفور قرة العين تلقاء صحبها وتلاميذها أثار خلافاً بين رجال الدين وقام بينهم الجدال والشقاق على قدم وساق ، وعندما سألوا التلاميذ عن ذلك أجابوا بأن الوجه والكفين لم تكن عورة في نظر الدين الاسلامي وجاؤوا بدليل الحج حيث أن ازواج النبي لم يسترن الوجه والكفين رغم الازدحام العظيم أثناء موسم الحج ، ولكن هذا الجواب المؤيد بالشواهد لم ينه المشكلة بل استشرى الخلاف والجدال بين الناس(١) .

المرحلة الثانية :

مكثت قرة العين في الكاظمية زهاء ستة أشهر ، ثم عادت الى كربلا في شهر شباط من عام ١٨٤٧م بمناسبة زيارة الأربعين التي حلت في الثامن من ذلك الشهر . وبعودتها الى كربلا دخلت مرحلة جديدة من حياتها ،

(١) المصدر السابق ــ ص١٨٩ .

فهي أخذت تترك طريقة التقية والتكتم وتعلن دعوتها جهاراً ، وكان ذلك سبباً في حدوث انشقاق في صفوف البابيين حيث تابعها فريق منهم وهم الذين يسمون « القرتية » وكان منهم الملا باقر وهو أحد السابقين الى الدعوة البابية ومن الذين نالوا مديحاً من قلم الباب ، أما خصومها فقد اتبعوا الملا أحمد الخراساني الذي كان يتولى رعاية بيت السيد كاظم الرشتي ومسؤولاً عن أرملتــه .

عثر كاتب هذه السطور على كتابين يصوران ذلك الانشقاق الــذي حدث في كربلا تصويراً رائعاً ، وهذان الكتابان يكمل أحدهما الآخر ، أو بعبارة أدق : يرد أحدهما على الآخر . فالأول منهما مخطوط عنوانــه « عقائد الشيخية » وهو مكتوب بلغة عامية بقلم الملا أحمد الخراساني اذ ينتقد فيه قرة العين ويشتمها ويسميها « بنت طالح » ، أما الكتاب الثاني فهو بقلم أحد اتباع قرة العين يدعى الشيخ سلطان الكربلائي وهو يرد فيه على الملا أحمد الخراساني ويدافع عن قرة العين[1] .

حين نقرأ هذين الكتابين بامعان ونقارن بينهما نستطيع أن نكتشــف نقاط الخلاف بين أتباع قرة العين واتبــاع الملا أحمد . وهي باختصـــار كما يلي :

(١) ان قرة العين كانت تعتقد بأن الوقت قد حان لرفع حجاب التقية والاجهار بالدعوة ، بينما كان الملا أحمد يعتقد أن الباب أمره بالتزام التقية .

(٢) كان الملا أحمد يعتبر كتب الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي خالدة ، وكان يواصل القراءة فيهــا ، أما قرة العين وأصــحابها فيعتبرون تلك الكتب منسوخة حيث ذهب زمانها بظهور الباب ، وأخذوا

---

(١) أشكر عبود الصالحي من كربلا على اعارتي الكتاب الأول ، كما أشكر عبدالرزاق العبايجي من بغداد على اعارتي الكتاب الثاني .

يشنعون على الملا أحمد ويمنعون الناس من مجالسته ويصفونه بأنه يأكل الميتة ويعنون بذلك أنه يقرأ كتب الأموات .

(٣) المقصود بظهور الامام الغائب في رأي قرة العين هو ظهور الباب أما رجعة الائمة فالمراد بها ظهور السابقين في الدعـوة أي الذين اعتنقوا الدعوة البابية قبل غيرهم : فالملا حسين البشروئي هو في مقام رسول الله ، والملا علي البسطامي في مقـام أمير المؤمنين ، وقرة العين في مقـام فاطمة الزهراء ، والملا حسن السجستاني في مقام الحسن ، والسيد حسين اليزدي في مقام الحسين ، والملا باقر في مقام الامام الباقر ... الى آخره . ان هذا هو ما كان ينسبه الملا أحمد الى قرة العين وأصحابها ، بينما هم كانوا يتبرأون من ذلك .

(٤) كان الملا أحمد ينسب الى قرة العين أنها تمنع من اقامة العزاء على الحسين أو زيارة قبور الائمة بحجة أن الائمة لا يجوز نسبة الصفات البشرية اليهم كالموت والعطش ، فلامعنى اذن لذكر عطش الحسين أو قتله .

(٥) كانت قرة العين وأصحابها يحرمون التدخين ويعدون ذلك من التعاليم الجديدة التي جاء بها الباب ، أما الملا أحمد فكان يدخن مدعياً أنه يفعل ذلك أمام الناس من باب التقية .

ولكي يطلع القاريء على الاسلوب الذي كتب به الملا أحمد كتابـه ورأيه في قرة العين ننقل فيما يلي نبذة منه كما هي بنصها الحرفي فلا نغيّر منها شيئاً سوى اضافة بعض الفوارز وبعض الشروح حيث نضع الشروح بين شرطتين كما جرت عليه العادة . يقول الملا أحمد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي خلق الخلق ليحسنوا عملاً باتباع الصالحين ... أما بعد فيا أهل الحق من المجاهدين المحسنين الذين وعد الله لكم الحق اليقين ، فاصمتوا واسمعوا الى ما يبرز من هـذا الحقير الفقير الذي ابتلى بما ورد على أولياء الرحمن من اختلاف أهل سجّين

مع العليين ، أحمد بن اسماعيل الخراساني تلميذ السيد العظيم الذي هو من أولياء المتقين ••• فاعلموا ان مذاهب اليوم مختلفة منهم أهل السنة والجماعة ومنهم الشيعة الذين يسمون أنفسهم جعفرية الاثنا عشرية ، وهم عـلى فرقتين البالاسرية والشيخية ، والشيخية على فرقتين البابي وغيره ، والبابي أيضاً صاروا فرقتين منهـم الذين اتبعوا بنت صالح القزويني الذي انكـر الشيخ الكريم والسيد العظيم ـ يقصد الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي ـ وكذلك بنته أنكر عـلى الذكر الحكيم ـ يقصـد الباب ـ برد أقواله وأفعاله ونسبت نفسها اليه واتبعت شهوتها وهواها وبلغت منه مناها ، فتباً لها على جرأتها لسيدها ومولاها ••• » •

ثم ذكر الملا أحمد كيف أن كتاباً وصل من الباب في مدح قرة العين فاتخذ الملا باقر هذا الكتاب حجة بيده لجمع الاتباع حولها • يقول الملا أحمد : « ••• وعلى أي حال ، هذا ملا باقر أخذ منزلاً ومكاناً عند هـذه المرئة أعني بنت صالح ثم بعد مضي أيام أخذ كتاب الذي ورد لبنت صالح ويدور في الناس بين الأصحاب ويقول لهم آمنوا بالكتاب فانه ورد في حق قرة العين وهي باب اليوم عليكم كما أن جناب الملا حسين باب عليكم ، فمن أقرها نجى ومن أنكرها هلك • قلت يا ملا باقر هذا الكتاب لا يدل عـلى ما تريدون لا تفسدوا على أنفسكم ، ولا جناب قرة العين ولا سائر الناس ما سمع مني ، حتى أنه أجمع أصحاباً من الرجال عند قرة العين رأيسهم شيخ سلطان ثم شيخ صالح الكريمي ثم ميرزا هادي النهري وبعض آخر من الأصحاب • على أي حال كما قلت لهم : يا جماعة ما يدل هذا الكتاب لما تريدون • ما سمعوا مني ، وأخذوا في النزاع والجدال ، وحكموا عليّ بالكفر وعدم التدريس والتعليم للأطفال ••• وأمرتهم قرة العين أن كلما يبرز من لسان مبارك جناب الملا باقر فهو حق فخذوه وان لم تعلموا مراده فانه في عالم الفؤاد • والجماعة فعلوا فعالاً عجيبة غريبة لم يفعله لا الأولون ولا الآخرون حتي صار بين الأصحاب نزاع وجدال ••• وأنا لما وقـع

النزاع أول مرة كتبت كتباً متعددة بطريق سؤال المسائل الى الأطراف واحداً الى جناب ملا شيخ علي بالشيراز ، والآخر الى جناب السيد حسين الى الاصفهان ، وواحد الى الذكر العلي - يقصد الباب - وواحد الى جناب السيد علي في الكاظم عليه السلام . وما ذكرت في هذه الكتب قول أحدٍ أو اسم شخص لعل الجماعة يقبلون اذا جاء الجواب ، فوصل جواب كتاب الذكر العلي سلام الله عليه وجواب كتاب سيد حسين على رد أقوالهم وافعالهم ... فأولوا كتب على مرادهم وما جازوا أبداً وما أثر فيهم شيئاً ... ومن الواقعات أنه لما وقع الاختلاف أنا صرت حزيناً كئيباً الى أن رحت الى حضرة الحسين عليه السلام والتمست من الامام عليه السلام رفع الاختلاف والايتلاف ، ولما خرجت من الحضرة صرت الى بيت ميرزا هادي النهري ، فاذا جاء ملا باقر وبيده كتاب ورد من الذكر العلي سلام الله عليه يقول : البشارة البشارة ان الذكر أرسل اليك السلام ، ويريدك بنت الصالح . فلما ذهبت عندها ، وبعض الاصحاب أيضاً كانوا حاضرين ، قالت أردتك من جهة أن الذكر صلوات الله عليه بلغ اليك السلام في كتاب سيد علي شبر وهذه عبارته : (واذكر أحمد في بيت كاظم) . فلما قرأنا قالت أنت لابد أن تدرس درسين : واحد لملا باقر وشيخ صالح وميرزا هادي وخواص الاصحاب ، والآخر من أي كتاب تريد لمن تريد . فخرجت من المجلس مبتشراً برفع الاختلاف والايتلاف ، فلما جئت الى البيت سمعت من بعد يومين أنهم أوّلوا الكتاب وقالوا : (ان بيت كاظم هو ملا علي ، وأحمد هو متكلم وحده فعل المستقبل) . ففهمت أنهم ما يريدون الا النزاع والفتنة ... » .

ثم يصف الملا أحمد ما حدث بعدئذٍ لقرة العين فيقول : « ... ثم بعد ذلك اشتهر خبرها بين الناس وأنها تعدّت وفعلت ما فعلت ، فاضطرب الناس وأخبروا الحاكم بأنها كافرة تغيّر الناس . فاجتمعوا في الشورى

ورأوا الصلاح أنهم يأخذوها ، فهجموا عليها في بيت ميرزا هادي النهري فهربت الى بيت السيد صلوات الله عليه ـ يقصد بيت السيد كاظم الرشتي ـ فدخلت فيهم ، وجاؤوا جماعة فمنهم حاجي مهدي كمونة ، وملا عبدالجليل القاضي ، وسيد سعيد بن السيد ثابت ، وأخذوها من بيت السيد وحبسوها في بيت حاجي مهدي كمونة ، فمضت أيام كانت هي في الحبس ، وأخبروا الحاكم بخبرها ، ولكن لما كانت امرءة ما شدّدوا عليها فخلوا سبيلها . وفي هذه الايام أنا كنت ذات يوم قاعد في البيت وقد جائني بعض من أصحابها قـال تريدك بنت طالح ، قلت نعم فذهبت اليهـا فلما قعدت رأيت بعض أصحابها أيضاً قاعدين وهي تتكلم ، فقالت لي أتدري لأي جهة أردتك ؟ قلت لا ، قالت ألقي الي من قبل ولاية ملا باقر فألقيت عليكم فما قبل مني أحد الاّ أربعة عشر نفس ، سبعة من الرجال وسبعة من النسوان ، والآن ألقى شيئاً آخر ، قلت : أي شيء ؟ قالت : وردت علي بلسان الحال لا المقال أني أريد أرفع التقية وأثبت حجية الذكر صلوات الله عليه ـ تقصد الباب ـ وأروح بالبغداد . قلت بأي دليل؟ قالت : وردت علي من ست جهات . قلت للمعارضة : وردت علي من ست جهات أنه يجب التقية . قالت : أنت كاذب . قلت : اني غير كاذب بل أنت كاذبة . ثم قلت : أما أنا الى الآن ورد عليّ من الذكر صلوات الله عليه سبعة كتب وفيها أمرني بالتقيـة والستر والحفظ وأما أنت فافعلي ما تريدين وأنا لست مطيعاً لك بل مطيع شخص آخر وهـو ما أمرنـي بذلك ، فقمت من المجلس وقلت : أزيد من ذلك لا يجوز التكلم مع الأجنبية . وبعد ثلاثة أيام ذهبوا بعض أصحابها بأمرها الى الحاكم وكفلوا أمرها ثم قالوا للحاكم : نحن نريد نتكلم مع الناس ونثبت حجتنا . قال الحاكم : اخرجوهم فانهم بعد ما يجوزون من هـذه القضية . فأخرجوهم من المجلس ، ثم بعد ثلاثة أيام ركبوا وراحوا الى

البغداد ، النسوان مع الرجال الأجنبيين بغير المحرمية والمناسبة ، بنت طالح مع أصحابها من الرجال والنسوان »[1] .

وجهة النظر الأخرى :

في الوقت الذي سجل فيه الملا أحمد وجهة نظره في كتابه كان الشيخ سلطان قد سجل في الكتاب الثاني وجهة النظر المعاكسة ، فهو يقول :

« يا ذكر الله تعالى شأنك ، بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد الفقير الحقير ، المعترف بالقصور والتقصير ، سلطان بن خلف بن الشيخ حسن سلطان ، اليكم يا معشر الشيعة من أهل الباب ، سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فلا يخفى عليكم أيها الاخوان أن من المعلوم الضروري الذي لا يحتاج الى البيان أن العالم في الترقي ، والمدارك في ازدياد ، والله سبحانه في كل آن وزمان ، من أحداث ابتلاء وامتحان لتزييل أهل الباطل من أهل الايمان ... فلهذا الأمر المحكم صدر ما صدر ، ووقع ما وقع ، في هذه السنة في شهر رمضان ، والى الآن ، من الاختلاف الشديد في الاقوال والأعمال والاعتقادات والكليات والجزيئات . وسبب ذلك ان الملا أحمد حيث سمى نفسه من المصدقين المسلمين لأمر الذكر عليه السلام ، وجلس في بيت باب الله المقدم سلام الله عليه ــ يقصد بيت السيد كاظم الرشتي ــ وجعل يفعل فعل المكذبين المنكرين ، يجمع الناس الذين أقروا باللسان دون الجنان ، ويصنع لهم القهوة ويأمرهم بشرب الدخان في السر والعلانية . ولم يزل على هذا الحال حتى جاء شهر رمضان واتفق في ليلة منه ، وهو الثالث والعشرين ، أن المصدقين كانوا موعودين للافطار ، وبعد الفراغ منه أمر الملا أحمد لهم بالغليان ــ يقصد النارجيلة ــ وكان ذلك بحضور رجل من السابقين وهو جناب الملا محمد باقر فنهى الجماعة عن شرب الدخان ، وأكثرهم لا ينتهون ، فجعل جناب الآخوند ــ يقصد الملا

---

(١) نقلاً عن الكتاب المخطوط (عقائد الشيخية) بقلم الملا أحمد الخراساني ــ ص٣ ــ ١٣ .

باقر – يلوم الملا أحمد على فعله ، والملا أحمد يقول : انما أفعل هذا للتقية . فقال له الآخوند : انما التقية تكون من الأغيار وأنتم كلكم تدّعون التصديق والايمان وليس معكم أحد من المنكرين ، ثم وأي التقية في عدم شرب الدخان ، وما معنى التقية ، وما حدها ، وان احترام هذا البيت لازم على جميع المؤمنين ولا يجوز فيه شرب الدخان . فوصل الخبر الى العيال – يقصد أرملة السيد كاظم الرشتي – والى قرة العين ، فأرسلوا اليه يلومونه كثيراً وينصحوه ويعظوه : ان الأمر عظيم والخطب جسيم ، وأنتم عنه معرضون ، وفي اللذات الفانية منهمكون ، وللدخان والقهوات شاربون ، ولا تنقطعون الى الله ، ولا تسلكون سبيله . وهو لا يسمع منهم ولا يلتفت اليهم ، وظل يتهم جناب الآخوند ويقول : هو فضحني عند قرة العين وعند العيال ولا أرضى بعد ذلك يدخل عليّ لانه من المفسدين . وصار الملا أحمد كلما يتكلم جناب الآخوند بكلمة يردّه ان عرف حقيقتها أم لم يعرف ... والملا أحمد مصرّ على الجدال والرد على جناب الآخوند حتى وصل خبره الى جناب قرة العين فأرسلت اليه : ان الواجب عليك احترام الآحوند والقبول منه لأنه من السابقين ولا يقول الا الحق . وملا أحمد لا يقبل شيئاً مما تقول ، فطلبته وأحضرته وأقامت عليه الحجة وخصمته بأن الملا محمد باقر هو وما يقول حق وصدق . واذا خرج من عندها يرجع كما كان ولا يزداد الا عتوا ونفوراً . وبينما هو وهي في هذا الحال من الجدال والقيل والقال اذا وردت علينا كتابات وتوقيعات من الذكر عليه السلام في حق جناب قرة العين ، قرة عينه عليه السلام ، ومنها ما يدل على درجات عالية ومقامات شريفة ... »[1] .

وبعد أن ذكر الشيخ سلطان أقوال الذكر – أي الباب – في حق قرة العين ، ومدحها مدحاً كثيراً ، قال : « فسمع الملا أحمد وأصحابه شيئاً

(١) نقلاً عن كتاب « ظهور الحق » وهو مطبوع في ايران بدون ذكر لمكان الطبع أو تاريخه – ص٢٤٥ – ٢٤٧ .

من تلك البيانات ، وردّوها بالشتم والسب بلا بينة ولا برهان ، وأنكروا فضل السابقين وأكثروا الطعن فيهم ، وقاموا معنا في مقام الجدال ، وأكثروا القيل والقال ، وقالوا : ليس كل من راح الى الشيراز صار من السابقين • قلنا : نعم كل من راح في تلك الايام التي راحوا بها السابقين لأجل طلب الدين فهو منهم ••• فقال الملا أحمد : لا يلزم أن يكونوا أيضاً في الرتبة سابقين • قلنا : ان الذكر عليه السلام قال لهم سابقين ولم يقيد ولم يخصص بوقت دون آخر ، أو بالظاهر دون الباطن ، أو بالتشريع دون التكوين ، أو بالشهادة دون الغيب ، وقوله صلوات الله عليه عام شامل لجميع ما ذكرنا وما لم نذكر ، ونحن ليس لنا أن نخصص كلامه عليه السلام بوجه دون وجه ، وشيء دون شيء ، من قبل أنفسنا ما لم يرد عنه ، فان ورد قلنا به ، وان لم يرد فوجب علينا أن نأخذ كلامه سلام الله عليه على حقيقته وصرافته أيضاً ••• فقال الملا أحمد : الذي يكون كما تقول ـ أي من السابقين ـ لا يكون خالياً من العلم ، وأنا أرى أني أعلم منهم • قلنا : ليس الميزان هذه العلوم ، ولا مدار هذا الأمر عليها ، وقد بيّن الذكر صلوات الله عليه ان الميزان ليست هي العلم بشيء بل هي الفطرة الخالصة ، والحب لله ولأوليائه ، والتوجه الى الله في فؤاده وحقيقته ، بلا كيف ولا اشارة ، ولا علم ولا عبارة ••• فلما رأي الملا أحمد وأصحابه ذلك منا قاموا معنا في مقام الجدال، وأكثروا القيل والقـال ، وبعد ذلك اعتزلوا عنا وصـاروا يفترون علينا ويشـنعون عند الناس ، وينسبونا الى الاقوال الباطلة والعقائد الفاسدة • والناس يجيئون عندنا للتفحص يقولون : ان الملا أحمد وجماعة معهـم ينسبون اليكم أنكم تقولون ان الذكر عليه السلام رب من دون الله ، وان بابه وأول مؤمن به جناب آخوند ملا حسين سلام الله عليه هو محمد بن عبدالله ، وان ثاني مؤمن به جناب الملا علي ـ يقصد البسطامي ـ سلام الله عليـه هـو علي بن أبي طـالب ، وأن قـرة العين سـلام الله عليها هي حقيقة فاطمة ، وأن السابقين أحد عشر هم الائمة عليهم السلام ،

وأن الشيخ والسيد خلقا من فاضل جسم السابقين . فلما سمعنا هذه الافتراءات والزور والبهتان علمنا أنهم سعوا في الأرض فساداً بعد اصلاحها ، فجمعناهم ليلة في بيت باب الله المقدم عليه السلام لاصلاح هذا الفساد ، وتبرءاً مما أشاروا اليه من الاعتقاد ، وهم الملا أحمد ، والملا حسين الخادم في ذلك البيت ، والسيد كريم ، والسيد علي الخراساني ، والحاج صادق ، والحاج علي الصائغ ، وبعض الجهال والاراذل من أمثالهم ، وقلنا لهم يا قوم لمَ تشيّعون الفاحشة في الذين آمنوا بغير ما اكتسبوا وتحتملون اثماً كبيراً ، اتقوا الله ولا تثيروا الفتنة فانها أشد من القتل ، وما جمعناكم في هذه الليلة الا لقطع النزاع والخلاف ، ونبرء الى الله من جميع ما أشرتم من الباطل ، وعلى تقدير صحة ذلك نستغفر الله العلي المتعال ونريد السكوت بعد هذا المجلس واطفاء الفتنة . فما مضت بعد ذلك الا أيام يسيرة ، أقل من اسبوع ، واذا هو قد قام بين أصحابه منزهاً لعيبه ، مبرءاً لجيبه ، ويقول : قد نزل اليّ كتاب من الذكر عليه السلام ، ويقول : اني أنا الباب والمرجع للناس . فأخذ البيعة من أصحابه على ذلك ، وظل ينادي : أن من لم يدخل اليّ ويحضر درسي ويأتمّ بي فهو من الضالين المرتدين . فقلنا في أنفسنا : يا سبحان الله كيف يكون باباً من يدعو الى غير الله ويرد على ذكر الله صلوات الله عليه كلما نزل في فضل أبوابه وأصفيائه السابقين سلام الله عليهم . ثم طلب منا الحضور في درسه فأجبناه لذلك ، وحضرنا عنده ، وقرأنا كتابه ومن جملة ما فيه أنه عليه السلام يوصيه بالعيال حرم باب الله المقدم عليه السلام خيراً واحسانا ... »[1] .

ثم ذكر الشيخ سلطان كيف ان الملا أحمد أخذ يسيء الى أرملة السيد كاظم التي أوصاه الباب بها خيراً ، ومنعها من الحج مع قرة العين ، وسعى الى الحكام من أجل ذلك ، وأنه حين سمعت أرملة السيد وقرة العين بذلك طردتاه ولعنتاه ، غير أنه كان يزداد غياً وأخذ هو وأصحابه يسبون السيدين

(١) المصدر السابق ـ ص٢٤٩ ـ ٢٥٣ .

ويتكلمون عنهما بالكلام القبيح ، وتجرأ أحد أصحابه فخاطب قرة العين قائلاً لها « يا حميراء » ، وقد خاطبها الملا أحمد نفسه قائلاً : « ما خالفت حمراؤها صفراءها » ، فوقعت السيدة الأرملة مغشياً عليها من هول ما أصابها من يد هذا الظالم ، وتمرضت بعد ذلك ، ولم تستطع الذهاب الى الحج[1] .

ثم أشار الشيخ سلطان الى تطور النزاع بينهم وبين الملا أحمد وأصحابه ، فقال : « فلما رأى هذا الرجل عدم قبولنا لدرسه والرد عليه ، ولم نكن اتباع كل ناعق ، اجتمع هو وأصحابه علينا وطردونا مرات عديدة ، ونحن نرجع اليهم ونعتذر منهم في كمال الخضوع والمذلة والمسكنة ، حتى أن بعضاً منا قبّل يد الملا أحمد ، كل ذلك امتثالاً لأمر الذكر عليه السلام حيث أمر باحياء بيت باب المقدم عليه السلام لنجتمع هناك ونتلو من الآيات البديعة في الليل والنهار ، وما قبلوا منا عذرنا ، وطردونا بالسب واللعن ، والشتم والطعن ، وأثاروا الفتنة ، وشيّعوا الفاحشة ، وافتروا علينا الأقوال الباطلة ، وأوصلوها الى الأعداء ، وألزمونا بيوتنا . وكثر الكلام والسب والطعن علينا من كل مكان ، وحركوا الملا حسن گوهر علينا فقام يخطب في كثير من الأيام في مجلسه ، ومجلس المرزا محيط ، وكل مجلس جلس فيه ، بملأ من عامة الناس ، وهو يقول : أيها الناس ان هؤلاء الضالين المضلين خربوا الشريعة وأفسدوا في الدين فالواجب عليكم حفظ دينكم والذب عنه بكل ما يمكنكم ولا تسكتوا عنهم واذكروا أحوالهم واعتقاداتهم في جميع المجالس ، ليعرفوهم الناس ويجتنبوهم ... وظل الملا أحمد وأصحابه يثيرون الفتنة ويضرمون نارها بلا فتور ، فكتبوا كتباً عديدة بمضامين مختلفة وعبارات متفاوتة لكل أحد بحسب ما يلائم طبعه ومزاجه ، وكتبوا فيها تلك الافتراءات الأولية التي تقدم ذكرها وغيرها ، وأرسلوها الى سائر الأمصار والاقطار ، ونشروها في جميع الآفاق والبلدان ، مثل النجف

---

(١) المصدر السابق ــ ص٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

والكاظمين وسر من رأى وبغداد وشيراز وأصفهان وقزوين وخراسان وغيرها من البلاد ، وشوّشوا قلوب أولئك المؤمنين مثل جناب السيد علي شبر الكاظمي كتب لي كتابا يقول فيه : قد سمعنا أشياءاً عجيبة وأموراً غريبة تفتت الأكباد وتهجر العيال والأولاد • وكل هذه الأمور والفتنة صدرت من الملا أحمد وأصحابه ••• »[1] •

قرة العين في بغداد :

اضطرت قرة العين ازاء تلك الخصومة العنيفة التي شنها عليها الملا أحمد وأصحابه أن تغادر كربلا ، فرحلت الى بغداد مع حاشيتها وبعض أصحابها من النساء والرجال • وعند وصولها الى بغداد نزلت في ضيافة أحد المخلصين لها من سكان تلك المدينة هو الشيخ محمد شبل ، وهذا الرجل أصله من الكوفة وهاجر الى الكاظمية ، ثم انتقل منها الى بغداد في عام ١٨٢٧م ، كان وكيلا للسيد كاظم الرشتي في بغداد • فلما نزلت قرة العين في ضيافته أخيراً خصص لها ثلاث دور كان احداها لسكنى النساء من حاشيتها ، والثانية لسكنى الرجال ، والثالثة لمجلس الدرس[2] •

والظاهر أن قرة العين وجدت المجال لها في بغداد أرحب مما كان في كربلا ، فجلست لالقاء دروسها من وراء ستار وأخذ الناس يقصدونها للاستماع اليها ، وكانت في معظم دروسها تنادي بحلول اليوم الذي تُجدد فيه الشريعة وتُنسخ التقاليد البالية[3] • وقد حضرت ذات يوم مجلساً كان فيه الوالي نجيب باشا والمفتي أبو الثناء الآلوسي فأذهلت الحاضرين ببلاغتها[4] •

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ •

(٢) عبود الصالحي (المصدر السابق) ص٢١ •

(٣) أغا محمد مصطفى البغدادي (رسالة أمرية) في ذيل الرسالة التسع عشرية ـ القاهرة ١٣٣٨هـ ـ ص١٠٩ •

(٤) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص١١٢ •

ظلت قرة العين تلقي دروسها المثيرة في بغداد مدة غير يسيرة من غير معارض • ويبدو أن خصومها في كربلا لم يسكتوا عنها ، ولا سيما المرزا محمد حسن جوهر رئيس الشيخيين ، فأخذوا يبذلون جهودهم لتحريض الحكومة ضدها • وكان للمرزا محمد حسن صلة حسنة بالوالي واستطاع أن يقنعه بوجهة نظره مما اضطر الوالي أن يكتب الى اسطنبول في شأن قرة العين ثم أمر بحبسها في بيت الآلوسي ريثما يأتي الجواب من هنالك •

مكثت قرة العين في بيت الآلوسي شهرين ، ولم يكن الآلوسي مضيّقاً عليها بل كان يجتمع اليها ويناقشها في أمر دعوتها الجديدة ، وكثيراً ما كان يسمح لها بالخروج مع ناظر يرسله معها ، فكانت تذهب الى دار الشيخ محمد شبل حيث ينتظرها هناك أتباعها والمعجبون بها فتلقي عليهم ما تشاء من أحاديث ودروس •

وقد أشار الآلوسي في بعض كتاباته الى قرة العين ، وكان مما ذكره عنها قوله : « ••• وهي ممن قلّدت الباب بعد موت الرشتي ، ثم خالفته في عدة أشياء منها التكاليف فقيل انها كانت تقول بحل الفروج ورفع التكاليف بالكلية • وأنا لم أحس منها بشيء من ذلك مع أنها حبست في بيتي شهرين ، وكم من بحث جرى بيني وبينها رفعت فيه التقية من البين • والذي تحقق عندي أن البابية والقرّية ـ يقصد أتباع قرة العين ـ طائفة واحدة يعتقدون في الأئمة نحو اعتقاد الكشفية ـ يقصد الشيخية ـ فيهم ويزعمون انتهاء زمن التكليف بالصلوات الخمس وأن الوحي غير منقطع فقد يوحى للكامل لكن لا وحي تشريع بل وحي تعليم لما شرع قبل ونحو ذلك ، وهو رأي لبعض المتصوفة ••• وأعظم أسباب ضلالتهم النظر في كلام الرشتي وشيخه الأحسائي مع عدم فهم مقاصدهما منه وحمله على ما هو بعيد

عن الدين المحمدي بمراحل ولذا أكفرهم أصحاب هذين الرجلين أيضاً على ما سمعته بأذني من كبارهم ... »[1] .

انشقاق آخر :

في تلك الفترة التي كانت فيها قرة العين محبوسة في بيت الآلوسي حدث انشقاق وجدال بين اتباعها الذين هم في بغداد والكاظمية ، وكان سبب هذا الانشقاق هو أن قرة العين أخذت تدعو الى تجديد الشريعة الاسلامية والى تبديل بعض تعاليمها وشعائرها ، فوافقها على ذلك فريق من اتباعها بينما رفض الفريق الآخر . وقد أشار الى هذا الانشقاق كاتب من أتباعها هو أغا محمد مصطفى البغدادي ، وهو ابن الشيخ محمد شبل ، في رسالة صغيرة له حيث قال ما نصه :

« ... وأظهرت سر الظهور وأعلنت نسخ التقليد المهجور وبيّنت تجديد الشريعة الآلهية بشريعة البيان ، وكانت في مجلس الأحباء مكشوفة الوجه ولكن في مجلس الأغيار تكلمهم من خلف حجاب . وقد تزلزل بعض الأحباء لما شهدوا نسخ ما كانوا عليه ، وأكثرهم استقاموا واعتقدوا بأن الله يفعل ما يشاء ، والبعض من قصبة الكاظمية تزلزلوا وهم السيد محمد جعفر والسيد حسن جعفر والسيد علي بشر والسيد طه وكاظم الصوفي وقالوا أنهم مؤمنون بحضرة الاعلى ـ يقصدون الباب ـ الذي هو ذكر الله وأن حضرته لم ينسخ الشرع العتيق ولم يجدد أمراً بل زاد في الاحكام وأكد في الصلاة والصيام وحرّم الدخان وأن السيدة قرة العين تجاوزت الحد ونسخت الشريعة التي ورثناها عن الأب والجد بدون أمر من حضرة الاعلى . وكتب أعلمهم السيد علي بشر عريضة قدمها الى (ماه كو) وتشرفت بحضور العلي الاعلى ـ يقصد الباب ـ وكان حاملها رجلاً يدعى (نوروز علي) كان خادماً للسيد كاظم الرشتي . فنزل لوح بليغ في جواب تلك العريضة

---

(١) محمود شكري الآلوسي (مختصر التحفة الاثني عشرية) القاهرة ١٣٧٣هـ ـ ص٢٤ .

ورجع به (نوروز علي) الى قصبة الكاظمية وسلمه للسيد علي بشر ورفقائه ، وتوجه من بغداد الوالد ـ أي والد المؤلف وهو الشيخ محمد شبل ـ والأحباء الثابتون واجتمعوا في مجلس واحد يضم ما ينوف عن السبعين شخصاً وقرأوا اللوح المبارك علانية وفيه بيانات مباركة وآيات واضحة الى أن وصل البيان الى قوله تعالى مخاطباً للسائل بشر المتزلزل : (وأما ما سألت عن المرأة التي زكت نفسها وأثرت فيها الكلمة التي انقادت الأمور لها فانها امرأة صدّيقة عالمة عاملة طاهرة ، ولا ترد الطاهرة في حكمها لأنها أدرى بمواقع الأمر من غيرها وليس لك الا اتباعها لأنك لن تقدر أن تطلع بحقيقة شأنها) الى آخر اللوح • فلما سمعه الثابتون فرحوا وحمدوا الله على ما هداهم ، والمتزلزلون ارتدوا على أعقابهم وكفروا بما آمنوا لأن تجديد الحدود شق عليهم ••• »[1] •

ان هذا « اللوح » الذي وصل من الباب الى الكاظمية كان بمثابة وحي منزل في شأن قرة العين وعلو مكانتها ، وفيه ورد لقب جديد لها هو « الطاهرة » فصارت قرة العين منذ ذلك الحين تعرف به بين البابيين وكان له أثره فيما بعد كما سنأتي اليه •

اخراجها من العراق :

عندما وصل الخبر الى قزوين بأن قرة العين محبوسة في بغداد اهتم له عمها ووالد زوجها الملا محمد تقي البرغاني فأرسل الى أحد أرباب النفوذ في كربلا يكلفه بالتوسط لدى الحكومة في اطلاق سراحها • وقد سافر هذا الرجل الى بغداد ليسعى في هذا السبيل ، ثم كتب الى الملا محمد تقي رسالة يذكر له فيها نتائج مسعاه • وفيما يلي مقتطفات من تلك الرسالة وهي مترجمة الى اللغة العربية بقلم الشيخ عبود الصالحي حيث يقول فيها مرسلها مخاطباً الملا محمد تقي :

---

(١) اغا محمد مصطفى البغدادي (المصدر السابق) ص١٠٩ ــ ١١٠ •

« سيدي الجليل ••• سافرت الى بغداد متوجهاً الى دار مفتي بغداد اليوم معالي السيد محمود الآلوسي أفندي ، فوجدتها هناك مع ثلاث نساء أخريات وجارية • فطلب الي معالي السيد المفتي شرح حالها وبيان قصتها فقلت : نعم انها امرأة مستورة وهي في كمال الورع والتقوى وقد اعترتها بعض الوساوس الشيطانية وتمكنت منها وسيطرت على دماغها وأفكارها وكان للوسط الديني الذي تعيشه أثر بالغ في ذلك كله حيث أنها تعيش بين أحضان الورع والتقوى وفي بيت العلم والتقدس • كما سألني معالي السيد المفتي عن تاريخ حياة والدها وحالاته فقلت : انه اليوم رجل ايران الأوحد في العلم والورع • وقد أثر كلامي في نفس معالي المفتي فقال لي : سأطلب من معالي الباشا خلاصها والاعتذار لها عما حيك حولها وذهابها الى أهلها ••• وهي الآن محترمة ومعززة في دار معالي السيد المفتي وأنا في هذا اليوم الجمعة الموافق لليوم الثامن من شهر ربيع الثاني ذاهب الى بغداد لأجل العمل الجاد في خلاصها وهي مكدرة الخاطر من طرف الملا حسن گوهر ••• كما أن حضرات الاعيان وعلماء بغداد قاطبة يحترمونها أي احترام ويكنّون لها كل تقدير ، وان ما قالوه وأشاعوا عندكم فهو باطل ومحض اختلاق ••• ولتوضيح الحقيقة حررت الرسالة • وان شاء الله تعالى وبحوله وقوته سأنقلها الى داري الخاصة بأي حال من الأحوال ، وأرسلها اليكم مع حضرات السادة ان شاء الله ، فليكن خاطركم طيباً ومرتاحاً »[1] •

وصل الأمر أخيراً من اسطنبول باطلاق سراح قرة العين واخراجها من العراق ، فخرج معها لمرافقتها في السفر جماعة من اتباعها بلغ عددهم الثلاثين كان منهم : الشيخ محمد شبل ، وابنه أغا محمد مصطفى وكان في العاشرة من عمره ، والشيخ صالح الكريماوي ، والشيخ سلطان الكربلائي ، والسيد أحمد اليزدي ، والسيد محسن الشعرباف الكاظمي ، والملا ابراهيم

(١) عبود الصالحي (المصدر السابق) ص ٤٥ ـ ٤٧ •

المحلاتي ، والحاج محمد الكرادي ، وسعيد الجباوي ، وعبدالهادي الزهيراوي ، وحسن الحلاوي ، ودرويش المكوئي ، وغيرهم •

قرة العين في كرمانشاه :

خرجت قرة العين من بغداد فيما يشبه الموكب الكبير ، فقد كانت هي والنسوة اللواتي معها يركبن الهوادج بينما كان الرجال من أتباعها يمتطون الخيول • وبعد سفر طويل وصلوا الى كرمانشاه ، وقد أعطانا أغا محمد مصطفى في رسالته الصغيرة وصفاً مسهباً للضجة التي أحدثتها قرة العين في تلك البلدة • وفيما يلي ننقل عنه خلاصة لما جرى هناك •

عندما وصلت قرة العين الى كرمنشاه أمرت بالنزول في ثلاثة منازل حيث خصصت أحدها لها ولمن معها من النساء وبعض العلماء ، وخصصت الثاني لعامة الاتباع ، أما الثالث فخصصته لاجتماع الناس وتبليغهم بالدعوة • وفي اليوم التالي لوصولها أوعزت بفتح أبواب المنزل الثالث فحضر فيه أكابر البلدة وأمراؤها وخوانينها وتجارها حتى ضاقت الساحة بهم على اتساعها ، ونهض الشيخ صالح الكريماوي يتلو عليهم شرح « سورة الكوثر » بالعربية، ووقف على يمينه الشيخ محمد شبل والملا ابراهيم المحلاتي والشيخ سلطان الكربلائي يترجمون ذلك الى الفارسية •

وقد ارتجت البلدة بأسرها للأمر فكان الازدحام يكثر حول منزلها حتى تضيق الأزقة بالناس ، وكانت النساء يأتين اليها نهاراً فتقرأ عليهن الآيات الجديدة وأسرارها ، وفي المساء يأتي اليها بعض العلماء والامراء فيقابلونها من وراء ستار ويستمعون الى حديثها ثم يخرجون منها متحيرين ، وبعضهم يخرج منجذباً • وكانت الاسئلة ترد اليها في كل يوم من العامة والعلماء فتكتب الأجوبة بسرعة •

لم يتحمل المتعصبون من رجال الدين هذا الوضع وانزعجوا منه ،

فكلموا كبيرهم أغا عبدالله البهبهاني في ذلك وطلبوا منه الرد على قرة العين واجابة المسائل التي تثيرها بما يفحمها ، فذهب البهبهاني الى الأمير حاكم البلدة وطلب منه اخراج قرة العين هي وأصحابها من البلدة ، واستدعى الحاكم قرة العين الى قصره فذهبت اليه برفقة الشيخ سلطان الكربلائي والملا ابراهيم المحلاتي وبضع نسوة من حاشيتها ، وأخذ الأمير يحاورها فعرض عليها شكوى العلماء وأنهم يطلبون معرفة الهدف الذي تسعى اليه ، فأجابت قرة العين : أن الهدف هو البشارة بظهور القائم الموعود وان الدليل على ذلك هو الآيات التي جاء بها . وكان أغا عبدالله البهبهاني حاضراً في المجلس فقال يتحدّاها بأنه يطلب دليلاً غير هذه الآيات ، فأجابته أنها تطلب « المباهلة » منهم حيث يجتمعون كلهم معها في مكان يعيّنه الأمير ، ثم يتباهلون ويجعلون لعنة الله على الكاذبين ، وبذا تكون النتيجة أن يموت المبطل في مكانه .

أظهر الأمير السرور بهذا الطلب ، وأوعز الى البهبهاني بان يعيّن موعداً للمباهلة غير أن البهبهاني اعتذر بأنه مريض وأنه سيحضر المباهلة متى تم له الشفاء من مرضه . ثم خرج بعدئذٍ من البلدة واختفى في بستان خارجها .

وكتب البهبهاني رسالة الى عم قرة العين في قزوين يخبره بما فعلت ابنة أخيه في كرمانشاه من اظهار أمر الباب ونسخ الشريعة . وبعد مرور خمسة عشر يوماً على ذلك وصل الى كرمانشاه أربعة رجال من اقرباء قرة العين واتفقوا مع قائد العسكر السرتيب صفر علي على تسفير قرة العين عنوة . وقبل شروق الشمس من اليوم التالي أحاط الجنود بالمنازل الثلاث التي كانت قرة العين تنزل فيها مع أصحابها ، فأخرجوا الأمتعة منها وحملوها على بغال كانوا قد أعدوها من قبل ، فخرجت اليهم قرة العين وهي متحجبة تنادي فيهم : « قد ظهر الموعود أيها الغافلون ، قد ظهر الرب الودود وأنتم

ميتون ! » فحدث هرج ومرج، ثم حصل اعتداء على الشيخ صالح الكريماوي والشيخ سلطان الكربلائي والملا ابراهيم المحلاتي[1] •

قرة العين في همدان :

توجهت قرة العين مع أصحابها نحو همدان • والمعروف عن سكان هذه البلدة ان الكثير منهم كانوا شيخيين ، فلما سمعوا بقدوم قرة العين عليهم استعدوا لاستقبالها والاحتفاء بها باعتبارها شيخية مثلهم• وقد مكثت قرة العين في همدان تسعة أيام كانت في خلالها تسعى بحماس لنشر الدعوة الجديدة ، فتأثر بها عدد من النساء والرجال •

وكان من بين الذين تأثروا بها في همدان اثنان من أحبار اليهود هما الملا الياهو والملا لالازار ، فقد عرضت قرة العين على هذين اليهودين آيات من التوراة وكتب الأنبياء فيها اشارة الى ظهور الباب فتعجبا من سعة اطلاع قرة العين على الكتب المقدسة ، ولما ألقيا عليها الاسئلة المختلفة في هذا الأمر أجابتهما بما اقنعهما • وكانت تلك البذرة الأولى لانتشار الدعوة البابية بين اليهود[2] •

وأرادت قرة العين أن تجتذب اليها كبير المجتهدين في همدان فأرسلت اليه الملا ابراهيم المحلاتي برسالة تدعوه فيها الى التصديق بظهور الموعود وتبرهن له على صحة ذلك بالآيات والأحاديث « الصحيحة » • وحين دخل الملا ابراهيم الى مجلس المجتهد وسلمه الرسالة استشاط هذا غضباً وأخذ يلعنه بأشنع الألفاظ ، فرد عليه الملا ابراهيم ينصحه قائلاً : « ليس من شأن أهل العلم والعرفان مقابلة الدليل والبرهان باستعمال لسان الطعن والقدح » ، فاضطرم المجتهد حنقاً عليه وأمر بضربه واهانته ، فهجم الطلبة عليه وأوسعوه ضرباً ثم سحبوه وألقوا به خارج المنزل • وحمله بعض الناس الى دار قرة العين ، فلما رأته بتلك الحالة أظهرت السرور وقالت له : « طوبى

---

(١) أغا محمد مصطفى البغدادي (المصدر السابق) ص١١١ ـ ١١٤ •

(٢) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص١٩٧ ـ ٢٠١ •

لك وصلى الله عليك بما قدمت نفسك فداء لاعلاء كلمة ربك الأعلى » ثم أمرت الاصحاب بمعالجته ، وظل هو طريح الفراش سبعة ايام حتى تماثل للشفاء[1] .

قرة العين تهجر زوجها :

غادرت قرة العين همدان قاصدة الى بلدتها وموطن أسرتها قزوين ، وعندما وصلت اليها نزلت في بيت والدها ولم تذهب الى بيت زوجها الملا محمد ، فأرسل اليها زوجها نسوة لاقناعها بالعودة الى بيته غير أنها رفضت باصرار أن تستجيب له وقالت للنسوة : « قولوا لهذا القريب الأحمق المغرور لو كان قصدك حقاً أن تكون رفيقاً لي وزوجاً لكنت أسرعت لمقابلتي في كربلا ولسرت على قدمك لحراستي وحراسة هودجي طول الطريق الى قزوين ، واذ ذاك كنت أثناء سفري معه أقدر أن أوقظه من نوم غفلته وأظهر له طريق الحق . ولكن ذلك لم يقدر عليه ، وقد مر على فراقنا ثلاث سنوات فلا يمكن له في هذه الحياة ولا في الحياة الآخرة أن أجتمع به فقد طرحته كلية من حياتي للابد »[2] .

ان هذا العمل الذي قامت به قرة العين اذ هي هجرت زوجها خلافاً للتقاليد الشرعية والعرفية السائدة كان بمثابة سلاح ماض في يد خصومها فوجهوا اليها نقداً شديداً وألصقوا بها شتى التهم . وقد حاول أحد المؤلفين البهائيين تبرير هذا العمل فقال في ذلك ما نصه : « ولا يخفى أن سيدة مثل قرة العين بذّت الرجال في العلم والعرفان ، وذاقت روحها حلاوة شهد الفضل والايقان ، وأدهشت كل من سمع بياناتها الفائضة من لسانها الطلق ، لن تقبل قط أن تقيم صاغرة كسائر النساء في منزل قرينها المستبد المنتقد لجميع أعمالها وأقوالها وسلوكها ، وتقبع في كسر بيتها مكتفية بالاشتغال

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢١٨ ـ ٢١٩ .

في بسائط الأمور المنزلية ، وتجعل نفسها أسيرة في يد شخص فيـه من الأطوار والأخلاق مثل ما كان عليه ابن عمها هذا • فلا جرم لم تقبل بوجه من الوجوه أن تجيب هذا الطلب ورفضته الرفض البات ، ووقع حينئذ فراق البينونة بينهما ، وصرفت النظر عن أولادها وتركتهم »[1] •

مقتل الملا محمد تقي :

كان هذا القرار الحاسم الذي اتخذته قرة العين في هجران زوجهـا سبباً في نشوب خصام شديد بينها وبين والد زوجها الملا محمد تقي الـذي كان كبير علماء قزوين كما أسلفنا • وقد حاول والد قرة العين التوفيق بين بنته وأخيه فلم يوفق واضطر الى الاعتزال وترك الأمور تجرى لمقاديرها •

صار الملا محمد تقي يصعد المنبر بعد كل صلاة فينهال باللعن والطعن على الشيخ أحمد الاحسـائي والسيد كاظم الرشـتي وكل من اتبعهما من البابيين وغيرهم • وانتشر الهياج من جراء ذلك بين العامة فأخذوا يطاردون الشيخيين والبابيين جميعاً ويعتدون عليهم • ومن القصص التي تروى في هذا الشأن أن أحد الشيخيين تجرأ في تلك الآونة فأعلن مدح الاحسائي والرشتي وأظهر فضائلهما ، ولما سمع الملا محمد تقي بأمره حكم عليـه بالكفر وبطرده من البلدة ، فتجمع العامة عليه ونزعوا عمامته ثم ربطوا عنقه بها وأخذوا يسحبونه في طرقـات البلدة حافياً وينهالون عليه بضـرباتهم وشتائمهم[2] • ويـروى عن رجل آخر اسمه الملا جليل الأرومي أنـه كان يتجول في البلدان يبشر بظهور الباب ، ولما مر بقزوين وعلم به الملا محمد تقي أمر بعض طلبته فقبضوا عليه وجاؤا به الى داره ، ثم أمر بوضعه في « الفلقة » وبضربه على رجليه[3] •

---

(١) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ •

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٢٠ •

(٣) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ •

لم يمض على ذلك سوى مدة قصيرة حتى هجم رجل مجهول على الملا محمد تقي وهو يصلي في المسجد فجراً فطعنه بالخنجر طعنات كانت القاضية عليه[1] . فارتجت البلدة كلها لمقتله وذهب ابنه الملا محمد الى دار الحكومة وقد شق ثوبه وهو يبكي وينتحب فأحدث هياجاً بين العامة واشتعلت نيران الفتنة وصارت حياة الشيخيين والبابيين في خطر شديد[2] .

ومما يلفت النظر في هذا الصدد أن قرة العين كانت قبل مقتل عمها بأيام معدودة قد أوعزت الى أصحابها بمغادرة قزوين والعودة الى مواطنهم اذ قالت لهم : « لابد من وقوع زلزلة عظيمة ترتج منها قزوين وتسفك دماؤكم جميعاً ، وان الله يريد بكم خيراً في المستقبل ... » ، غير أنها استثنت من أصحابها رجلين هما الشيخ صالح الكريماوي والملا ابراهيم المحلاتي وقالت لهما ان الشهادة لهما قد حانت[3] .

وقد تحققت نبوءة قرة العين ، فكان الشيخ صالح الكريماوي من أوائل المتهمين بقتل الملا محمد تقي ، فسيق الى طهران وقتل في الميدان الذي يقع في وسطها ، وهو يعتبر أول من سفك دمه في سبيل الدعوة الجديدة في ايران . ثم هجم الغوغاء في قزوين على متهمين آخرين كان منهم الملا ابراهيم المحلاتي فقطعوا أجسامهم اربا اربا[4] . أما قرة العين فقد سُجنت في حرم سراي الحاكم تحت المراقبة الشديدة ، فلبثت في ذلك مدة ، ولكنها استطاعت أن ترسل رسالة الى المرزا حسين علي النوري في طهران تستنجد به[5] ، وكان هذا الرجل من ذوي الثراء والنفوذ ومن

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٢٠ .

(٢) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢٠٨ .

(٣) أغا محمد مصطفى البغدادي (المصدر السابق) ص١١٨ – ١١٩ .

(٤) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٢٢ – ٢٢٤ .

(٥) عمر رضا كحالة (أعلام النساء) دمشق ١٩٥٩ – ج٤ ص١٩٧ – ١٩٨ .

السابقين في اعتناق الدعوة البابية وكان الباب قد منحه لقب « بهاء الله » • فاستطاع أن يبعث الى قرة العين من تمكن من تهريبها من قزوين وجاء بها الى طهران ، فأخفاها في بيته • وظلت قرة العين مختفية في بيت بهاء الله الى أن تقرر عقد مؤتمر « بدشت » قرب خراسان فرحلت للمشاركة فيه •

مؤتمر « بدشت » :

ان « بدشت » مكان تكثر فيه المروج والبساتين يقع على نهر شهرود بين مازندران وخراسان • وقد قرر البابيون عقد مؤتمر لهم فيه على أثر اعتقال الحكومة للباب في قلعة « ماكو » ، وهم انما اختاروا هذا المكان لبعده عن مزدحم الناس وتطفلهم • وكان الغرض من عقد المؤتمر هو للمداولة في أمرين ، أولهما كيف يمكن انقاذ الباب من معتقله ، والثاني هل تنسخ أحكام الشريعة الاسلامية أم تبقى على حالها• وقد انعقد المؤتمر في حزيران من عام ١٨٤٨م وحضره أقطاب البابيين من مختلف البلدان الايرانية فبلغ عددهم واحداً وثمانين كان فيهم قرة العين وبهاء الله ، ولم يتغيب منهم سوى « باب الباب » أي الملا حسين البشروئي لانشغاله بأمر آخر في خراسان •

الواقع أن مؤتمر « بدشت » مهم جداً اذ هو يفصل بين عهدين في تاريخ الدعوة البابية • فقد كانت هذه الدعوة قبل مؤتمر « بدشت » تعتبر فرقة من الشيخية لا تختلف عنها الا في بعض الجزئيات التي لا أهمية لها ، أما بعد المؤتمر فقد أصبحت الدعوة البابية فرقة قائمة بذاتها أو هي بعبارة أخرى أصبحت دينا جديداً •

يبدو أن المشتركين في المؤتمر لم يهتموا بأمر انقاذ الباب بمقدار ما اهتموا بالأمر الثاني وهو : هل تنسخ الشريعة الاسلامية أم تبقى على حالها • وتشير القرائن الى أنهم منذ بداية المؤتمر انقسموا الى فئتين مختلفتين : احداهما ترى وجوب نسخ الشريعة ، والأخرى ترى وجوب الابقاء عليها •

كانت قرة العين على رأس القائلين بوجوب نسخ الشـريعة ، وكان رأيها أن الباب أعظم مقاماً من جميع الانبياء الذين سبقوه وأن له الحق في نسخ الاحكام الاسلامية القديمة والاتيان باحكام جديدة • أما المعارضون لهذا الرأي فكان على رأسهم محمد علي البارفروشي وهو الشاب الذي رافق الباب في رحلة الحج ومنحه الباب لقب « القدوس » ، وكان ذا منزلة رفيعة لدى البابيين ويعده البعض منهم في مقام الملا حسين البشروئي أو هو أرفع مقاماً منه • وقد وقف هذا « القدوس » يعارض قرة العين معارضة شديدة وتابعه الكثير من البابيين ، وكان رأيه أن الباب ليس سوى مروج للشريعة الاسلامية ومصلح لها مما طرأ عليها من الفسـاد والابتداع ، ولهذا فهي يجب أن تبقى على ما كانت عليه في الكليات والجزئيات جميعاً[1] •

بينما كان الخلاف يشـتد في المؤتمر بين قرة العين والقدوس كان بهاء الله سـاكتاً ويبدو أنه اتخذ موقف الحياد بين الفريقين وبقي ينتظر ما تتمخض عنـه الايام • وظلت قرة العين تكافح في سبيل رأيها وتسعى الى اجتذاب القوم اليها بكل جهدها ، فهي كانت تعلم علم اليقين أن رأيهـا لو تحقق لانفض عن الدعوة البابية الكثير من اتباعها ، ولكنها أصرت على الرأي بالرغم من ذلك وأعلنت قائلة : « ان هذا العمل سيبرز الى سـاحة الوجود لا محالة وسيطرق هـذا القول اذن العام والخاص ، اذن فكلما أسرعنا في الكشف عن هذه الغوامض كان أليق وأوفق وأنفع للأمر وللعمل الذي نقوم به حتى ينفصل عنا كل ضعيف لا يحتمل التجديد ولا يبقى معنا الا كل قوي مخلص يفدي بنفسه هذا السبيل القويم البديع »[2] •

عزمت قرة العين أخيراً أن تقوم بعمل تحسم به الجدال الذي استفحل بين القوم ، ففي أحد الايام بينما كان القدوس وأكثر القوم مجتمعين في خيمة بهاء الله فاجأتهم قرة العين وهي تدخل عليهم سافرة الوجه ومتزينة ،

---

(١) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢١٧ ـ ٢٢١ •
(٢) المصدر السابق ـ ص٢٢٠ ـ ٢٢١ •

وكان هذا على خلاف عادتها اذ كانت قبلئذ متمسكة بالحجاب الشديد على طريقة النساء في زمانها ، وكأنها أرادت بعملها هذا أن تنسخ حكماً من أحكام الشريعة هو تحريم التبرج الذي نزل به القرآن •

أثار دخول قرة العين على القوم بهذه الصورة ذهولاً عظيما • يقول صاحب كتاب « مطالع الانوار » في وصف ما حدث : « فأخذت الناس الدهشة ووقف الكل حائرين أمام هذا المنظر الغير منتظر • وكانوا يظنون أن رؤيتها غير محجبة من أكبر المحال وأن النظر الى خيالها وظلها غير جائز لأنهم يعتبرونها مظهر فاطمة الزهراء ورمزاً لعصمة الطهارة في نظرهم »[1] •

حاول بعضهم اخفاء وجوههم بأيديهم ، ووضع آخرون رؤوسهم تحت عباءاتهم لكي لا يقع نظرهم على وجه قرة العين ، ولم يملك واحد منهم نفسه فعمد الى رقبته فحزها بسكين كانت بيده ثم خرج من المجلس والدماء تنزف منه وهو يصرخ مهتاجاً ، واقتدى به آخرون فخرجوا وراءه ولم يرجعوا اذ هم انفصلوا عن الدعوة وعادوا الى عقيدتهم القديمة • أما الذين صمدوا فقد وقفوا بلا حراك وهم متحيرون في أمرهم لا يدرون ماذا يفعلون • أما القدوس فقد استل سيفه وهو في غضب شديد كأنه يريد أن ينقض على قرة العين ليقتلها •

لم تتأثر قرة العين بما جرى ولم ترهب سيف القدوس بل قامت تخطب في الحاضرين بكل جرأة وبلاغة • يقول صاحب كتاب « مطالع الانوار » انها وقفت وقد أضاء وجهها بشعور الفرح والغبطة والنصر وأخذت تخطب ارتجالاً باسلوب شبيه بأسلوب القرآن ، ثم قالت : « اني أنا الكلمة التي ينطق بها القائم والتي تفر منها نقباء الأرض ونجباؤها » ، والتفتت نحو القدوس تلومه على عدم طاعته لها ، ثم وجهت كلامها الى الجميع حيث طلبت منهم أن يحتفلوا بهذه المناسبة السعيدة ، وقالت : « ان هذا اليوم يوم

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٣٤ •

عيد وسرور عام وهو اليوم الذي تفك فيـه قيود الماضي • فليقم كل من يشترك في هذا المجد ويعانق صاحبه »[1] •

ان هذا الموقف الجريء الذي وقفته قرة العين حسب رواية « مطالع الأنوار » يرويه خصوم البابية بشكل آخر ، يقول صاحب كتاب « مفتاح باب الابواب » ان قرة العين صعدت المنبر في المؤتمر وخطبت قائلة :

« اسمعوا أيها الأحباب والأغيار ••• واعلموا أن أحكام الشـريعة المحمدية قد نسخت الآن لظهور البـاب ، وأن أحكام الشـريعة الجديدة البابية لم تصل الينا ، وان اشتغالكم الآن بالصوم والصلاة والزكاة وسـائر ما أتى به محمد كله عمل لغو وفعل باطل ، ولا يعمل بها بعد الآن الا كل غافل وجاهل ، ان مولانا الباب سيفتح البلاد ويسخر العباد ، وستخضع له الأقاليم السبع المسكونة ، وسيوحد الأديان الموجودة على وجه البسيطة ، حتى لا يبقى الا دين واحد ، وذلك الحق هو دينه الجديد ، وشـرعه الحديث ، الذي لم يصل الينا الى الآن منه الا نزر يسير • فبناء على ذلك أقول لكم وقولي هو الحق : لا أمر اليوم ولا تكليف ، ولا نهي ولا تعنيف، وانّا نحن الآن في زمن الفترة ، فاخرجوا من الوحدة الى الكثرة ، ومزّقوا هذا الحجاب الحـاجز بينكم وبين نسـائكم ، بأن تشـاركوهن بالأعمال ، وتقاسموهن بالأفعال ، واصلوهن بعد السلوة ، واخرجوهن من الخلوة الى الجلوة ، فما هن الا زهرة الحياة الدنيا ، وان الزهرة لابد من قطفها وشمها ، لأنها خلقت للضم وللشم ، ولا ينبغي أن يعد ولا يحد شامّوها بالكيف والكم ، فالزهرة تُجنى وتُقطف ، وللأحباب تُهدى وتُتحف ، وأما ادخار المال عند أحدكم وحرمان غيركم من التمتع به والاستعمال ، فهو أصل كل وزر وأساس كل وبال ، لأنه لم يخلق لنفس واحدة تتلذذ به من حيث يتحسر المحروم ، بل هو حق مشـاع غير مقسوم ، جعل

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٢ ـ ٢٣٥ •

للاشتراك بين الناس ، وللتداول من دون احتكار ولا اختصاص ، فليشارك بعضكم بعضاً بالأموال ، ليرفع عنكم الفقر ويزول الوبال ، ساووا فقيركم بغنيكم ، ولا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم ، اذ لا رادع الآن ولا حد ، ولا منع ولا تكليف ولا صد ، فخذوا حظكم من هذه الحياة ، فلا شيء بعد الممات »[1] •

انا لا نستطيع أن نسلّم بصحة هذه الخطبة تسليماً تاماً ، فهي مروية بقلم أحد الخصوم ومن طبيعة الخصم أنه ميال للمبالغة في ذكر الحقيقة أو اختلاق الأكاذيب فيها كما لا يخفى • ومهما يكن الحال فقد أجمع الرواة - البابيون وخصومهم جميعاً - على أن الخطبة أحدثت نزاعاً شديداً بين الحاضرين ، فقد تعصب فريق منهم الى رأي قرة العين بينما تعصب آخرون الى رأي القدوس • وقد وصف كتاب « مطالع الانوار » هـذا النزاع الشديد الذي حدث بين البابيين فقال ما نصه :

« وحصل اضطراب عظيم بين الذين قاموا على نشر هذا الاصلاح بكل جهدهم • وكان بعضهم لا يوافق على حصول مثل هذا التغيير الأساسي وظنوا أنه عين الكفر وامتنعوا أن ينسخوا ما يعتبرونه أعظم أحكام الاسلام التي لا تنسخ ، وطائفة اعتبرت أن قول الطاهرة هو الفصل في مثل هذه الأحوال وأن طاعتها واجبة على جميع المؤمنين ، وتمسك البعض ممن امتعضوا من تصرفها مع القدوس واعتبروه أنه هو الممثل والنائب عن الباب والوحيد الذي يحق له أن يحكم في مثل هذه الأمور الخطيرة ، ونظر فريق غير هؤلاء الى الحادثة بأجمعها أنها عبارة عن امتحان الهي لفصل الصادقين من الكاذبين ، والمؤمنين عن الكافرين • وكانت الطاهرة في كثير من الأحيان ترفض اطاعة القدوس وتقول : (اني اعتبر القدوس تلميذاً أرسله اليّ الباب لتعليمه وتهذيبه ولا أنظر اليه بنظر آخر) • ولم يمتنع القدوس أن

---

(١) محمد مهدي خان (مفتاح باب الأبواب) القاهرة ١٣٢١هـ - ص١٨٠ - ١٨١ •

يتهم الطاهرة أنها صاحبة هذه الفتنة وادّعى أن الذين يدعون الى رأيها وقعوا فريسة للخطأ • واستمرت حالة المشادة بين الاثنين بضعة أيام الى أن توسط بهاء الله وبطريقته المثلى وفّق بينهما تماماً ، ولمّ شعثهما ، ولأم الجرح الذي سببه هذا الهياج والنزاع الحاد ، وبذلك وجّه همة كل منهما الى طريق الخدمة المنتجة • وحصل المقصود من هذا الاجتماع المنشود ، لأن النداء بالنظام الجديد كان بمثابة النفخ بالصور ، فمسخت التقاليد العقيمة المجمع عليها والتي كانت تقيد ضمائر الناس ، ومُحيت بكل جسارة وبغير وجل • فتهيأت الطريق لاعلان الأحكام والقواعد الجديدة التي جاء بها الأمر الجديد • وعزم بقية الجمع المحتشد في بدشت على الرحيل الى مازندران • ورحل القدوس مع الطاهرة في هودج واحد أعده لسفرها بهاء الله • وفي الطريق كانت الطاهرة تنظم قصيدة وتأمر الأصحاب أن ينشدوها أثناء سيرهم خلف الهودج، وكانت الجبال والأودية تردد أصوات وأناشيد ذلك الجمع المتحمس أثناء سفرهم ايذاناً بمحو القديم وبعث اليوم الجديد »[١] •

فترة النسخ :

مهما يكن الحال فقد مرت الدعوة البابية بعد مؤتمر « بدشت » بفترة سميت بـ « فترة النسخ » ، وهي المرحلة التي نسخ الباب فيها الشريعة القديمة ولم يأت بعد بالشريعة الجديدة • ويبدو أن بعض البابين استغلوا تلك الفترة فاندفعوا في الشهوات اندفاعاً غير محمود • ورد في كتاب « مطالع الانوار » في هذا الموضوع ما نصه : « ••• وأثناء سفرهم الى مازندران أراد بعض الاتباع أن يسيئوا استعمال الحرية التي نتجت عن نسخ الشرائع القديمة وظنوا أن في طرح الطاهرة للحجاب اشارة منها للتجاوز عن حدود الآداب واشباع الأغراض النفسية • وسبّب هذا التعدي

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٣٥ ـ ٢٣٦ •

الواقع من هؤلاء البعض غضب المولى وأوجب تفريقهم وتشتيتهم • ففي قرية نيالا امتحنوا امتحانا شديداً وأصيبوا بأضرار جسيمة من يد أعدائهم ، وكان هذا التشتيت جزاءاً وفاقاً لذلك الافراط الذي ظهر من هـذا النفر القليل من غير المسؤولين من بين الاتباع المؤمنين ، وحُفظ الأمر طاهراً نقياً معززاً في شرفه »[1] •

ويروي لنا مؤلف « مفتاح باب الأبواب » ما الذي جرى في قريـة « نيالا » فيقول : ان قرة العين عندما وصلت مع أصحابها الى تلك القريـة دخلت الى الحمام مع القدوس ابتغاء الراحة من وعثاء السفر ، « وسـمع بهم أهل القريـة وبما هم فيـه ، فتجمعوا زرافات ووحدانا ، وتسـلحوا وهجموا عليهم ، وفرقوا شملهم ، وقتلوا منهم نفراً معدودين ، وجرحوا جماعة ، وأخذوا أموالهم ، وسلبوا أحمالهم ، ثم أطلقوا سبيلهم وهم عراة حفاة •••»[2] •

ان هذه الرواية التي جاءت في كتاب « مفتاح باب الأبواب » ينكرها البابيون والبهائيون انكاراً تاماً ويعدونها من أكاذيب الخصـوم • ويعلق عليها السيد كامل عباس الذي كان سكرتير المحفل البهائي ببغداد سـابقاً فيقول : ان قرة العين كانت موضع ثقة العلماء وقد شهدوا بطهارتها في كل أدوار حياتهـا ، أما ما ورد في كتاب « مفتاح باب الابواب » فهو مختلق وملفق[3] •

وقد تحدث كاتب هذه السطور الى السيد كامل عباس فسألته عن « فترة النسخ » وهل هي تشمل قواعد الزواج والطلاق مثلاً ، فكان جوابه : أن الفترة شملت التكاليف التعبدية فقط كالصوم والصلاة ونحو ذلك ، أما

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٦ ـ ٢٣٧ •
(٢) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص١٨٢ •
(٣) عبدالرزاق الحسني (البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم) صيدا ١٩٥٧ ـ ص٧٧ •

التعاليم الاخلاقية فلم يحدث فيها أي تبديل أثناء الفترة لأن الأديان كلها تتشابه في الاخلاق فلا فرق بين القديم والجديد منها .

وقد ذكر المستشرق براون أنه أثناء جولته في ايران في عام ١٨٨٨م قابل رجلاً متحرراً ينتسب الى النحلة البابية ، وقد جر الحديث بينهما الى موضوع قرة العين وما يتهمها به الخصوم من وجود علاقة مريبة لها مع القدوس ، فقال الرجل مدافعاً عنها : انهم يتهمون قرة العين بعدم العفة وهذا افتراء اذ هي جوهر الطهارة ، ولكن ما يتهمونها به ربما وقع أثناء فترة النسخ اذ هي عاشرت القدوس معاشرة الازواج ، غير أنها بعد نزول الشريعة الجديدة صارت هي وجميع الاتباع متمسكين بها كل التمسك[1].

مصير قرة العين :

في ٩ تموز من عام ١٨٥٠م أعدم الباب في تبريز بناء على فتاوي صدرت من علماء تلك المدينة . وقد أثار مقتله حنق بعض أتباعه فصمموا على اغتيال الشاه ناصر الدين أخذاً بثاره . وفي ١٥ آب من عام ١٨٥٢م بينما كان الشاه يتريض خارج قصره عند سفح جبل شمران تقدم نحوه رجلان وبيد أحدهما عريضة وهما يصرخان « الظليمة الظليمة ، الغوث الغوث » ، فلما مد الشاه يده لتسلم العريضة عاجله الثاني بطلق ناري أصاب فخذه اصابة خفيفة ، وسرعان ما تداركه الحرس فقتلوا أحد الرجلين وأمسكوا بالثاني جريحاً . وكانت محاولة الاغتيال هذه ايذانا ببدء حملة واسعة النطاق في انحاء ايران للبحث عن البابيين وقتلهم ، وقد ذهب الكثير من الابرياء ضحايا من جراء اتهام الخصوم لهم بأنهم من البابيين .

شهدت طهران آنذاك ضروباً من التعذيب والقسوة الفظيعة اشترك

---

(1) E.G. Browne (A Year Among The Persians) Cambridge 1927 — P. 571—572.

فيها الأهالي والحكومـة معاً • قيل ان البابين الذين اعتقلوا في طهران وزعوا عـلى مختلف طبقات الناس ، فأخذ كل منهم حصـته من البابيين وشهروهم في طرقات المدينة وأهانوهم وعذبوهم ثم قتلوهم[١] • وروى سايكس أن بعض البابيين قُطّعوا بالفؤوس ، وعندما أُعطي طبيب الشـاه الفرنسي حصته من البابيين رفض تقطيع ضـحيته بالفؤوس حيث اعتذر قائلاً : انـه قتل بحكم مهنته من الناس ما فيه الكفاية وهو لا يريد أن يضيف الى القائمة ضحايا جديدة[٢] •

كانت قرة العين من جملة الذين ألقي القبض عليهم غير أنها أودعت لدى محافظ مدينة طهران محمود خان كلانتر • ومما يلفت النظر أنها لم تراع الظروف الارهابية المحيطة بهـا فكانت طيلة فترة اعتقالهـا في دار المحافظ دائبة على التبشير بالدعوة البابيه • انها كانت تنتهز مناسبات الولائم والمجالس النسـائية التي تعقد في تلك الدار لتلقي فيها أحاديثها المثيرة • والظـاهر أن وجود قرة العين في تلك الدار جعل النساء يتهافتن عليهـا ليحظين بمشاهدة تلك المرأة المشهورة التي أصبح اسمها على كل لسان • وأخذت قرة العين تضرب على أوتار قلوب النساء وتظهر لهن المنزلة الواطئة التي خصصها رجال الدين القديم للمرأة وكيف أن الدين الجديد رفع من شأن المرأة ومنحها حريتها •

أرسل الصدر الأعظم الى قرة العين رجلين من العلماء ، هما الملا محمد أندرماني والملا علي كيني ، من أجل امتحانها وكتابة تقرير عن عقيدتها الدينية لكي يتخذ الاجراء المناسب لها • وقد عقد الرجلان معهـا سبع جلسات لامتحانها ، فكانت هي في كل جلسة تناقشهما بحماس وتبرهن لهما أن الباب هو الامام المنتظر الموعود ، وكان ردهما عليها أن الامام المنتظر

---

(١) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ص٣٣ •

(2) Sir Percy Sykes (A History of Persia) London 1958 — vol. 2, P. 344.

يجب أن يظهر من مدينتي « جابلقا » و « جابرسا » حسبما ورد في المصادر الدينية ، فكانت تجيبهما بأن هذا باطل محض اخترعه الرواة الكذابون وأن المدينتين المذكورتين لا وجـود لهما مطلقـاً وما هما سـوى خرافـة تليق للمجانين ، ثم قالت بتأثر : « ان الأدلة التي تسوقانها هي أشبه بأقوال طفل غبي جاهل ، فالى متى تسيران وراء هذه الأكاذيب والخرافات الجنونية ، والى متى لا ترفعان رأسكما لثريا شمس الحقيقة » • فغضب الملا علي من هذه الاقوال ونهض قائلاً لصاحبه : « ما هي الفـائدة من زيادة البحث والمناقشة مع كافرة ! » • ثم خرجا وكتبا تقريراً ذكرا فيه أن قرة العين قد ارتدت وكفرت ورفضت التوبة وأنها تستحق القتل عملا بحكم القرآن[1] •

واختلفت الأقوال في الكيفية التي قتلت بها قرة العين ، فمن قائل : انها وضعت في فوهة مدفع واطلقت عليها قنبلة مزقتها اربا اربا[2] ، ومن قائل : انها رُبطت من شعرها بذيل بغل فسحبت الى المحكمة وهناك صدر الحكم باحراقها حية غير أن الحكومة أوعزت بتأخير الاحراق الى ما بعد موتها ، فخنقت ثم أُلقيت جثتها الى النار[3] • ويروي المستشرق براون نقلاً عمن سمع من محمود خان كلانتر : أن الشاه استدعى قرة العين الى قصره في نيكارستان وطلب منها التبري من الباب ولما رفضت قرة العين ذلك وأصرت على الرفض أمر الشاه بالقائها في بئر كانت في حديقة القصر ، ثم أُلقيت فوقها أربعة أحجار ضخام ، وهيل عليها التراب[4] • أما صاحب كتاب « مطالع الأنوار » فيذكر : أن قرة العين أُخذت من دار المحافظ الى حديقة الايلخانة ، وهي حديقة كانت موجودة في ذلك الحين مقابل السفارة البريطانية ، فخُنقت بمنديل من الحرير قدمته هي بنفسها الى جلادها ،

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٤٩٧ ـ ٤٩٨ •

(٢) محمد باقي الجلالي (الحقائق الدينية في الرد على العقيـدة البهائية) النجف بدون تاريخ ـ ص٢٤ •

(٣) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص١٨٣ •

(4) E.G. Browne (op. cit.) P. 541—542.

ثم أنزلت في بئر كانت قد حفرت هنالك حديثاً ، وهيل عليها التراب[1] .

كلمة تقييم :

حين نستقرىء سيرة قرة العين منذ بداية أمرها حتى ساعة مقتلها نشعر بأنها امرأة ليست كسائر النساء ، فهي علاوة ما تميزت به من جمال رائع كانت تملك ذكاءاً مفرطاً وشخصية قوية ولساناً فصيحاً ، وتلك صفات أربع قلما اجتمعت في انسان واحد ، وان هي اجتمعت فيه منحته مقدرة على التأثير في الناس وجعلته ممن يغيرون مجرى التاريخ .

وصفها الكونت دي غوبينو في كتابه « الأديان والفلسفات في آسيا الوسطى » ، وهو قد زار ايران بعد مقتل قرة العين بمدة قصيرة ، فقال : « ... كان الكثير من الذين عرفوها وسمعوها في أوقات مختلفة من حياتها يذكرون لي دائماً أنها فضلاً عما اشتهرت به من العلم والغزارة في الخطب فان القاءها كان من السهل الممتنع وكان الناس أثناء تكلمها يشعرون باهتزاز وتأثير الى أعماق قلوبهم مفعمين بالاعجاب وتنهمر دموعهم من الآماق »[2] .

وكذلك وصفها صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » فقال : « وقصارى القول ان هذه الفتاة كانت آية الجمال والكمال ، وفريدة رصيفاتها بالحسن والاعتدال ، طلقة اللسان ، فصيحة البيان ، عذبة المنطق ، شهية الكلام ، جسوراً مقدامة ، ومن منظومها بالفارسية والعربية ما يطرب الأديب ، ويخلب لب الأريب ، ولكن قضى عليها سوء الحظ ونكد الطالع (ان صح جميع ما يقال عنها) أن تحيد عن محجة الحق والصواب ، وتميل عن منهج الهدى والثواب ، وتأتي بما تمجه نفوس أولي الألباب ، حتى ترتكب ما أطفأت به نور جمالها الزاهي الزاهر ، ومحقت بدر كمالها البهي

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٥٠٠ ـ ٥٠١ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٥٠٥ .

الباهر ، ولله الأمر في الأول والآخر »[1] .

الملاحظ من خلال سيرتها أنها كانت شديدة الميل الى التجديد في العقيدة ، فهي قد اعتنقت العقيدة الشيخية عندما كانت تلك العقيدة جديدة بالنسبة الى عقائد الشيعة المألوفة ، غير أنها لم تكد تسمع بظهور الباب حتى أسرعت الى اعتناق دعوته . ورأيناها منذ اعتنقت الدعوة البابية تتزعم القائلين بتجديد الشريعة بين أتباع تلك الدعوة ، مرة في كربلا وأخرى في الكاظمية وثالثة في بدشت ، حتى كتب لها الفوز أخيراً . وقد يصح القول انه لولا قرة العين لما سار تاريخ الدعوة البابية على النحو الذي سار عليه فعلاً .

حاول بعض الخصوم تعليل هذا الميل لتجديد الشريعة عند قرة العين بأنه نتيجة زواجها الفاشل من ابن عمها ، ففي رأيهم أنها كانت تبغض زوجها من أعماق قلبها ولما كانت الشريعة الاسلامية لا تمنح المرأة حق الانفصال عن زوجها أو الطلاق منه فقد اندفعت قرة العين اندفاعاً لا شعورياً نحو اعتناق كل دعوة تتيح لها نسخ الشريعة لكي تتخلص من ربقة زوجها البغيض على وجه من الوجوه .

اني اعتقد على أي حال أن قرة العين امرأة لا تخلو من عبقرية وهي قد ظهرت في غير زمانها ، أو هي سبقت زمانها بمائة سنة على أقل تقدير . فهي لو كانت قد نشأت في عصرنا هذا ، وفي مجتمع متقدم حضارياً ، لكان لها شأن آخر ، وربما كانت أعظم امرأة في القرن العشرين !

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص١٨٣ ــ ١٨٤ .

الفصل السادس

عشـرون سنة

مرت على العراق بين عزل نجيب باشا وتعيين مدحت باشا فترة عشرين سنة تعاقب فيها عدة ولاة كان أشهرهم نامق باشا ، ورشيد باشا ، وعمر باشا • وسنحاول في هذا الفصل البحث في سيرة هؤلاء الولاة والأحداث التي حدثت في أيامهم حسب تعاقبها الزمني •

نامق باشـا :

في تموز من عام ١٨٤٩م عزل نجيب باشا من ولاية بغداد فحل محله عبدالكريم نادر باشا ، وقد عزل هذا بدوره في كانون الاول من العام التالي فحل محله محمد وجيه باشا ، وقد عزل هذا كذلك بعد أن أمضى في منصبه سنة واحدة فحل محله الوالي المشهور نامق باشا الملقب بـ « الكبير » •

كان نامق باشا قبل تعيينه لولاية بغداد مشيراً لفيلق العراق واختلف مع الوالي محمد وجيه باشا حول الطريقة التي ينبغي أن يحكم بها العراق ، وكانت قد نشبت آنذاك ثورة عشائرية كبيرة في الفرات الأوسط فارتأى الوالي محمد وجيه باشا أن تعالج الثورة باللين والسياسة ، أما نامق باشا فكان رأيه اتباع طريق السيف والشدة وتعهد بضرب العشائر وتأديبهم حفظاً لهيبة الحكومة • وجرت المخابرات مع اسـطنبول في هـذا الشأن فجاءت الأوامر من هنالك مؤيدة لرأي نامق باشا مما اضطر محمد وجيه باشا الى رفع استقالته من الولاية ، فعينت الدولة نامق باشا بدلاً عنه ، وبهذا جمع نامق باشا في يديه الادارة المدنية والعسكرية معاً •

وصف أبو الثناء الآلوسي نامق باشا بأنه « المشير الذي لا يستشير سوى غضبه » ، وقال عنه محمود الشاوي في تاريخه : « كان نامق باشا شجاعاً حقوداً على العصاة فكل من يخرج على طاعة الحكومة يقدم له السيف لا السياسة ... وكان الموظفون في أيامه يخافون بطشه ويبذلون كل جهد لينالوا رضاه ... »(١) .

أول عمل قام به نامق باشا عند تسلمه زمام الولاية هو أنه سار على رأس قوة كبيرة نحو العشائر الثائرة في الفرات الأوسط ، فانزل بهم ضربات ساحقة . وقد سُمّيت تلك الواقعة بـ « واقعة الوردية » لانها حدثت في مقاطعة الوردية القريبة من الحلة ، وكان قد اشتركت فيها عشائر الخزاعل وبنو حسن وزوبع وغيرهم . واستطاع نامق باشا أن يأسر سبعة من رؤساء العشائر الثائرة كان منهم كريدي شيخ الخزاعل ، وظاهر المحمود شيخ زوبع وهو والد ضاري الذي اشتهر فيما بعد أثناء ثورة العشرين . وأمر نامق باشا بسوقهم جميعاً مقيدين بالاغلال نحو اسطنبول ...

يبدو أن طريقة الشدة التي انتهجها نامق باشا أدت الى عكس ما كان يأمله منها ، فقد انتشرت الفوضى في أنحاء العراق وأمست الطرق غير مأمونة والقوافل تُهاجم وتنهب في كل مكان .

كان أول من أعلن راية التمرد على نامق باشا هو الشيخ ظاهر المحمود ، اذ هو استطاع أن يهرب من أيدي حراسه بعد مغادرته الموصل ، ثم استدعى اليه عشيرته فصاروا يقطعون الطرق وينهبون القوافل . واحتذت بهم عشيرة زبيد فأخذت تقطع الطرق في جنوب بغداد ، وفي أواخر شباط من عام ١٨٥٢م اعترض أفراد من زبيد خمس سفن في دجلة وهي محملة بأموال كثيرة للتجار ، وبعد أيام معدودة استحوذوا على قرية المسيب ونهبوا

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ — ج٧ ص ٩٣ — ١٠٠ .

أهلها كما نهبوا ما كان مخزوناً فيها من الأطعمة ، ثم توجهوا نحو الحلة فحاصروها . وبهذا انقطعت الطرق واستولى الرعب على الناس حتى صاروا لا يستطيعون الخروج من بغداد ، وظلت المزارع حول بغداد من غير حصاد ، وارتفعت الاسعار في كربلا والنجف(١) .

وصف أبو الثناء الآلوسي في أحد مؤلفاته حالة العراق يومذاك وكان معاصراً لها بقوله : « وأنه لا يستطيع الطير أن يطير ، ولا الأسد الوثاب أن يسير ، ما بين حلتها وبصرتها ، بل ما بين كرخها ومقبرتها ، وتعذر على الساعي الخريت ، الذهاب من باب الكاظم الى هيت وتكريت ، حيث كثر القتل والنهب في جهاتها الأربع ، فغدا كل من اشتمل عليه سورها يفتت مما عراه اليرمع ... »(٢) .

عزل نامق باشا :

يقال عن نامق باشا انه لم يكن شديداً على العراقيين فقط بل كان شديداً أيضاً على الاجانب الذين يسكنون العراق لا سيما النصارى منهم ، فكان متعصباً عليهم . وقد حدثت في بغداد حادثة دلت على ما يضمره هذا الوالي من عداء وتعصب على النصارى .

خلاصة الحادثة أن صيرفياً نصرانياً يحمل الرعوية الفرنسية كان يسكن بغداد ويمثل بعض البيوت التجارية في بيروت ، وفي يوم جمعة بينما كان هذا الرجل راكباً حصانه وهو يسير به في أحد الأسواق مر به موكب الوالي وهو في طريقه الى صلاة الجمعة . وكان الموكب فخماً طويلاً تتألف مقدمته من الفرسان والقواصين وكبار الموظفين ، ويأتي بعدهم الوالي راكبا حصانه ، فيتلوه الكهية ثم الامام وعدد كبير من رجال الدين . وقد جرت العادة أن يقف الناس جميعاً عند مرور الموكب وأن يترجل من

---

(١) المصدر السابق ـ ج٧ ص٩٧ ـ ٩٩ .
(٢) المصدر السابق ـ ج٧ ص١٠٠ ـ ١٠١ .

كان منهم راكباً ، والظاهر أن الصيرفي كان يجهل تلك العادة فلم يترجل عن حصانه ، فلمحه نامق باشا واعتبر ذلك منه صلفاً وسوء أدب فأمر جنوده بانزاله عن حصانه وتأديبه ، وأخذ هؤلاء يضربونه ضرباً مبرحاً بكعاب بنادقهم حتى أنهكوه وأدموه • وظل الصيرفي بعد هذا طريح الفراش بضعة أسابيع • وقدم القنصل الفرنسي في بغداد احتجاجاً شديد اللهجة كما أن السفير الفرنسي في اسطنبول قدم احتجاجاً مماثلاً الى الباب العالي وطالب بتعويض للصيرفي مقداره (٣٦٠٠) فرنك • وقد اضطر الباب العالي أخيراً أن يستدعي نامق باشا الى اسطنبول[١] •

رشيد باشا :

في آب من عام ١٨٥٢م صدر الفرمان باسناد ولاية بغداد الى رشيد باشا ، وكان هذا الوالي الجديد يلقب بـ « الگوزلگلي » أي صاحب النظارات ، وسماه العراقيون « أبو المناظر » ، والظاهر أنه كان أول من استعمل النظارات في البلاد العثمانية حيث جاء بها من أوربا فاشتهر بها •

المعروف عن رشيد باشا أنه ولد في جورجيا من أبوين مسيحيين ، ولما بلغ التاسعة من عمره أسره الأتراك وأكرهوه على الاسلام ، ثم صار فيما بعد من الضباط اللامعين في الدولة العثمانية فأُوفد الى فرنسا للتخصص في فنون المدفعية وبقي فيها عدة سنوات • يقول السائح الألماني بيترمان الذي زار بغداد في ١٨٥٤م : ان رشيد باشا كان أثناء ولايته في بغداد يطالع الكتاب المقدس ولا سيما الانجيل وبالنظر لبقائه في فرنسا مدة طويلة فقد ارتاب البغداديون في اسلامه ، ولكي يبعد هو عن نفسه تلك الشبهة شرع بتعمير جامع من ماله الخاص بشكل محتشم[٢] •

---

(١) المصدر السابق — ج٧ ص٩٨ — ٩٩ •

(٢) سعاد هادي العمري (بغداد كما وصفها السواح الأجانب) بغداد ١٩٥٤ — ص ١٠٥ •

يمكن القول على أي حال ان رشيد باشا كان ثاني والي في العراق من ذوي الثقافة الحديثة ، فقد سبقه في ذلك عبدالكريم نادر باشا الذي كان قد تلقى تعليمه في النمسا ، ولكن الفرق بين الرجلين هو أن أولهما كان مولعاً بالأدب والشعر فألهاه ذلك عن تفهم الثقافة الحديثة تفهما عميقاً وظل مشغولاً بالألفاظ وبالتحذلق فيها ، أما الثاني ـ أي رشيد باشا ـ فكان من طراز آخر ، ويرجح في ظني أنه كان أول حاكم في العراق حاول أن يسير به في طريق المدنية الحديثة .

يقول سليمان فائق : « ان رشيد باشا كان قد قضى مدة طويلة في فرنسا للدراسة ، وقد حصل على درجة عالية في علم الادارة والسياسة ، وصار من الرجال الذي يشار اليهم بالبنان ، وقد اختار السير على سياسة اللين والصفح على عكس ما كان عليه نامق باشا الذي أوصل البلاد الى الدرك الأسفل بسبب شدته وقسوته . وقد تمكن رشيد باشا خلال مدة قصيرة من سبر غور العراق والعراقيين ، ومعرفة ميولهم وطبائعهم ، وراح يعالج الأوضاع بحكمة وتعقل ، ومع أنه قد تشدد في اظهار سطوته وقدرته على المتمردين والعصاة ، الا انه قد استمال هؤلاء ، وألّف بينهم ، ونشر العدل ، ووسع المشاريع العمرانية ، ووفّر للخزينة الكثير من الأموال والايرادات ، واستطاع أن يدفع ما تراكم على الخزينة العراقية من ديون ، وأن يدفع أيضاً رواتب الموظفين المدنيين والعسكريين المتأخرة التي لم تدفع منذ عهد علي رضا باشا . وسعى سعياً حثيثاً في سبيل اعمار البلاد فانتعشت على يديه وأعاد اليها رونقها وازدهارها وبث في أفرادها روح الحركة والنشاط في مختلف المجالات ، وبقي دائباً على هذه الحركة يواصل ليله بنهاره مدة أربع سنين متوالية ... »[1] .

---

(١) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص١٦٦ ـ ١٦٧ .

ولم يكن سليمان فائق المؤرخ الوحيد الذي وصف رشيد باشا بهذا المدح بل نجد مؤرخين آخرين يصفونه بذلك أيضاً ، أحدهم لونكريك صاحب كتاب « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » ، فهو يقول عن رشيد باشا : ان السنوات الخمس التي قضاها هذا الرجل في حكم العراق تميزت بالحكم النزيه الصارم الحر ودلت على أن في المقدور ادخال حكومة حديثة في العراق ، فقد كان رشيد باشا يلح على موظفيه في أن يعملوا بنزاهة ، وحاول مكافحة الفساد العام المستحوذ على كل شيء ، وكثرت في ايامه الواردات لأنه حال دون الاكثار من النهب والاختلاس ، وحقق موردآ دائما للتصدير بنقل الحبوب الى الحجاز ، وكذلك شق الترع العديدة للري ، غير أنه ضويق كثيراً من اسطنبول للحصول على المال الكثير وارساله الى الدولة التي كانت مشغولة بحرب القرم[١] .

وورد في تقارير القنصل الفرنسي الذي كان في بغداد يومئذ ما يؤيد قول لونكريك وسليمان فائق ، فقد كتب القنصل الى حكومته في باريس يصف رشيد باشا قائلاً : انه منذ وصوله الى بغداد أخذ يدفع رواتب العساكر التي لم تدفع طيلة السنتين الماضيتين ، وأشاع الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد ، وصار يهدد الخونة والمختلسين حيث أبلغ الموظفين المسؤولين عن الأموال العامة أن حساباتهم سيدققها بنفسه وأن المتلاعب بها سيعاقب بالجلد على عدد القروش التي اختلسها من غير اعتبار لمركزه أو رتبته ، وبفضل هذه الاجراءات الحازمة استوفيت الضرائب بيسر وسهولة وتدفقت الأموال الى خزائن الولاية وانتعشت التجارة وازدهرت[٢] .

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) بيير دي فوصيل (الحياة في العراق منذ قرن) ترجمة أكرم فاضل ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ص٨٦ .

وجهة نظر أخرى :

في الوقت الذي نجد فيه رشيد باشا ممدوحاً من قبل هؤلاء المؤرخين الذين ذكرناهم نراه مذموماً من قبل مؤرخين آخرين • ولا غرابة في هذا اذ هو أمر طبيعي يحدث لكل من يعمل وينتج في أي مجال من مجالات هذه الدنيا ، فهو ما دام عاملاً منتجاً فلابد أن يتضرر من عمله فئة من الناس فيبغضونه ويذمونه •

كان رشيد باشا قد اهتم بتنظيم الزراعة وحفر الأنهار ، كما ضرب على أيدي المرتشين والمختلسين من الموظفين وقاوم المحتكرين من التجار ، وأشرف على شؤون الضرائب والأموال العامة بحيث استطاع أن يدفع الرواتب المتراكمة ، وهذه كلها لابد أن تؤدي الى تضرر الكثير من الناس أو فقدان ما كانوا يجنونه من أرباح ، وليس من المتوقع أن يبقى هؤلاء ساكتين تجاه الأعمال التي تضرروا منها ، فهم لابد أن يعدوا أنفسهم على حق ويعدوا الوالي الذي سلبهم أرباحهم على باطل ، ثم يأخذون بالتقول عليه والمبالغة في ذكر مساوئه أو اختلاقها ، وقد يتحول الأسود لديهم الى أبيض والابيض الى أسود ، كما هو دأب البشر دائماً عندما يبغضون أو يحبون •

أقبح ما كُتب عن رشيد باشا نجده في الكتاب المجهول المؤلف الذي ذكرناه في فصلين سابقين ، والظاهر أن المؤلف كان معاصراً لرشيد باشا وكان وثيق الصلة بالتجار والزراع الذين تضرروا من أعماله العمرانية • وفيما يلي ننقل جزءاً مما كتبه بلغته العامية حيث قال في وصف رشيد باشا ما نصه :

« ••• حسد كل من يتعاطى المعاملة في البيع والشراء حتى أنه أعطى دراهم لأناس يجلبون الأغنام من القرى وهو شريك معهم على زيادة الدراهم • وكان يأتي الى بيت بعض التجار ويسأل كم يملك فلان التاجر ،

وكم يملك فلان ، وهو حسود قد فاق (•••) بالحسد ، ويأتي الى مخازن التجار ويستكشف عن دفاترهم : ما تملكون ؟ وما عندكم من مال ؟ وقد تحكّم به الملل الخارجية كاليهود والنصارى • ومن حين ورد بغداد الى آن هلك ما تصدق على فقير بدرهم واحد ، وهو كذوب حسود قاسي القلب بخيل ما سمعنا له بخصلة حسنة ••• ومن أهم من يصح ذكرهم آل دانيال ••• تقدموا عنده ••• وامتزجوا معه امتزاج الماء مع الخمر ، وانتفعوا انتفاعاً بيّناً ، كل ذلك بالتفات الوزير لهم وتبينهم له وجه المنافع الجارية على غير المعتاد ، بظلمهم على العباد ، الى أن توغلوا في الأمور ، وتقدموا عنده حتى أنهم أخفوا عليه الحال وأخذوا يأكلون من أموال الميري لتوجهه لهم ، ولم يستيقظ من هذه الغفلة الا قبل موته بأيام قلائل • وقد آل أمرهم الى أن ما كان يزرع في ملحقات بغداد من حنطة وشعير أو رز يشترونه ويحتكرونه حتى تغلو أسعار ذلك ، فيبدأون ببيعه حسب مرامهم• هذا ما ثبت عند الخاص والعام صراحة واعلاناً منهم بيّناً ، وقد انقطع سبب البائعين والشارين من الأهالي والسكنة ، فصار الطعام محوزاً ومدخراً تحت أيديهم ، فأسعار الطعام غالية دائماً في بغداد ونواحيها ••• وهؤلاء اليهود هم أساس فساد المملكة يلقون الفتنة بين شيوخ الأعراب والولاة ، فاستقام أمرهم خمس عشرة سنة بهذه الكيفية الى مدة انتهاء هذا الوزير •• وهم باقون على هذه الحال ، وقد جمعوا دراهم جمة • واذا أردنا أن نذكر كل ما عملوه لطال التحرير وقصر التقرير ، ولكننا أوجزنا التسطير في ذكر أصحاب السعير • وقد وضعوا بدعاً في أراضي الهندية لم تكن في الزمن السالف ، ومن ذلك أن موطناً فيه ماء يقال له (أبو بغال) جعلوا عليه أعواناً يأخذون من المار اذا كان راكباً ، أو كان حمل على دابته قوارب ، ثلاثة دراهم ونصف ، فضاعفوه وبدأوا يأخذون خمسة عشر قرشاً ، وأحياناً عشرين قرشاً ، ومع هذا يضمنونه من الملتزم بثلاثين ألف قران ، ويلزم بأيديهم مائتين وثلاثين ألف قران ، وسبب ذلك ان الملتزم

لتلك الأراضي لابد أن يقدم كفيلاً وهم يكونون كفلاء بشرط أن يضمنهم (أبو بغال) المكان المذكور فيضطر الملتزم الى اعطائهم ذلك بثمن بخس ، ويحصل الضرر على الضامن وتحصل مغدوريته على أموال السلطان »[1] .

ان هذه التهم التي ألصقها المؤلف المجهول بالوالي رشيد باشا ربما كانت صحيحة قليلاً أو كثيراً ، وليس من المستبعد أن يكون رشيد باشا قد جمع لنفسه أثناء ولايته مالاً على نحو ما كان يفعل غيره من الولاة العثمانيين ، ولكن الذي نريد أن نلفت نظر القارئ اليه هو أن تلك التهم على فرض صحتها لا تمنع من أن يكون رشيد باشا من الحكام المصلحين ، فنحن نعلم أن الانسان بوجه عام كثيراً ما تختلط فيه نوازع الشر والخير معاً ، وربما كان رشيد باشا من هذا الطراز اذ كان يسعى نحو تعمير البلاد ونحو تعمير جيبه في الوقت نفسه .

تأثير حرب القرم :

وقعت حرب القرم في الوقت الذي كان فيه رشيد باشا والياً في بغداد ، وهي كانت حرباً شعواء كما تحدثنا عنها في فصل سابق ، وقد نال العراق منها الضرر كما نالته جميع البلاد العثمانية ، ولعل ذلك كان من أسباب زيادة عدد الناقمين على رشيد باشا .

عندما وصل نبأ اعلان الحرب الى بغداد جمع الوالي أعيان بغداد وعلماءها ، وكان منهم صبغة الله الحيدري وأبو الثناء الآلوسي ، وقال لهم ان « الأرس » أي الروس تحركوا على محاربة السلطان ، ثم طلب منهم أن يجمعوا التبرعات من الأهالي لمعونة الدولة . وقر رأي المجلس أن يدفع الموسر من الأهالي مبلغ ألف قرش ، والمتوسط مائة قرش ، والفقير خمسة وعشرين ، وكذلك فُرض على كل بيت رسم مقطوع قدره مائة قرش . وقد استُثنيت محلة باب الشيخ من دفع هذه الأعانة اذ اعتذر عنها النقيب

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١١٠ ـ ١١٤ .

فذكر ما عليه سكانها من ضعف الحال ورق عليها قلب الوالي[1] ٠

وعندما اشتدت الحرب وطالت أيامها أخذت الاشاعات تروج بين الأهالي حول احتمال هجوم ايران على العراق ٠ وانتشر في بغداد خبر مفاده أن الشاه ناصر الدين تحالف مع الروس وأرسل اليهم المعدات والاطعمة ، فاضطرب أهل بغداد لهذا الخبر كما اضطرب اهل خانقين وشاع الخوف وارتفعت الاسعار ٠

أعلن الشاه أنه لن يطعن أخاه العثماني المسلم من الخلف ، ولكن الأجراءات العسكرية التي اتخذها على الحدود جعلت الناس لا يصدقون بقوله ٠ واهتم الوالي رشيد باشا بالأمر كل الاهتمام ، فأخذ يحشد جنوده ، وطلب النجدة من عشيرتي شمر وعنزة ، كما استدعى عشيرة عقيل الساكنة في الكرخ اذ كانت هذه العشيرة بمثابة جيش غير نظامي للحكومة ٠ ثم استدعى عبدالله بابان من منفاه في اسطنبول ليتولى تجميع القوات الكردية من أجل الدفاع عن منطقة السليمانية ، وأرسل رسول بك الصوراني الى كركوك للدفاع عنها ٠ وفي الجنوب أوعز رشيد باشا الى شيخ الكويت وشيخ المنتفق بان يستعدا لمواجهة الهجوم المتوقع من جنوب ايران ٠

كان القنصل البريطاني في بغداد هنري رولنسون يرى أن تنتهز بريطانيا الفرصة للاستيلاء على العراق ، وكان يظن أن العراقيين ينتظرون يوم الخلاص من الحكم التركي على يد بريطانيا ٠ ولكن هذه الفكرة التي سيطرت على ذهن رولنسون لم تكن تنسجم مع سياسة حكومته في لندن ، فأرسلت اليه تلفت نظره الى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية وأن أهم ما يجب أن يفعله في هذا الوقت هو منع ايران من

---

(١) المصدر السابق — ج٧ ص١٠٥ ٠

استغلال ظروف الحرب لاقتناص العراق[١] •

وقد بذلت بريطانيا في الواقع جهداً كبيراً لكي تجعل الحكومة الايرانية تقف على الحياد أثناء حرب القرم ، وصارت تضغط على الشاه لتمنعه من الانسياق وراء الوعود الروسية ، وأرسلت الى شط العرب سفينتين حربيتين لارهاب القوات الايرانية[٢] •

وأخذت الحكومة في بغداد تتشدد في طلب المجندين ، وكان هناك عدد منهم قد أُعفوا من الخدمة سابقاً لعلل في أبدانهم ، فسيقوا الآن الى الخدمة قسراً ، وتألف منهم ومن غيرهم جيش أريد له التوجه نحو الحدود الايرانية من جهة زهاو وكرمانشاه •

وبينما كان الناس في هرج ومرج وقد سادهم الرعب وصل خبر مفرح الى القنصل البريطاني ببغداد مفاده أن الشاه ترك أمر مهاجمة العراق بتحريض من امام الجمعة بطهران ، فقد قال له هذا الرجل بان محاربة الدولة العثمانية نصر للكفار وهذا أمر لا يجوز شرعاً[٣] • وكان وصول هذا الخبر في اواخر عام ١٨٥٣م ، وبه انفرجت الضائقة عن الناس واطلق سراح المجندين •

بهاء الله في بغداد :

ان بهاء الله كان كما ذكرنا في الفصل السابق من ذوي النفوذ والثراء في طهران ومن أوائل الذين اعتنقوا الدعوة البابية • وفي عام ١٨٥٢م عندما قام بعض البابيين بمحاولة اغتيال الشاه اعتقل بهاء الله فيمن اعتقل من

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (دور العراق العثماني في حرب القرم) في المجلة التاريخية المصرية ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ج١٣ ص٢٣٢ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهرة ١٩٦٨ ــ ص٣٤٤ ــ ٣٤٥ •

(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٠٧ •

البابيين ، وأودع في سجن مظلم زهاء أربعة أشهر ، ثم أطلق سراحه بشفاعة من الصدر الأعظم[1] ، وقيل ان الوزير المفوض الروسي دلگوركي تشفع له كذلك[2] ، ثم أُبعد مع أفراد أسرته الى العراق •

وفي ٨ نيسان من عام ١٨٥٣م وصل بهاء الله الى بغداد ، فنزل في أول الأمر في الكاظمية على عادة الايرانيين عند مجيئهم الى العراق ، غير أنه انتقل الى بغداد بايعاز من القنصل الايراني فسكن محلة العاقولية بجانب الرصافة ، ثم تحول بعدئذ الى دار واسعة تقع في محلة الشيخ بشار بجانب الكرخ[3] •

وبعد مدة قصيرة من وصول بهاء الله الى بغداد وصل اليها أخوه من أبيه المرزا يحيى الملقب بـ « صبح الأزل » ، وكان هذا معروفاً بين البابيين يومذاك بأنه هو وصي الباب وخليفته وأن بهاء الله انما يرأس البابيين بالنيابة عنه • وقد استطاع صبح الازل أن يهرب من ايران متنكراً بزي درويش فكان يتجول في القرى بهذا الزي حتى وصل الى بغداد •

كان البابيون في بغداد في تلك الآونة في شقاق ونزاع على نمط ما كانوا عليه يوم كانت قرة العين هنالك • وقد أشار أحد المصادر البابية الى ذلك فقال ما نصه :

« ••• لأن الاحباب تشتتوا وكل من كان يبلغ أمر الله رأى نفسه

---

(١) محمد مهدي خان (مفتاح باب الأبواب) القاهرة ١٣٢١هـ — ص٣٣٣ •

(٢) محمد زرندي (مطالع الانوار) ترجمة عبدالجليل سعد — القاهرة ١٩٤٠ — ص٤٨١ — ٤٨٦ •

(٣) حدث حول هذه الدار نزاع شديد بين الشيعة والبهائيين في العشرينات من القرن الحالي ، واستطاع الشيعة أخيراً أن يستحوذوا عليها فحوّلوها الى « حسينية » ، ولا يزال البهائيون يأملون في استرجاعها • انها كعبة مقدسة بالنسبة اليهم •

شيئاً من الأشياء كأنهم مرايا الظهور وخصوصاً حين نزول صاعقة الامتحان وهو صعود الرب الأعلى جل شأنه ـ يقصد مقتل الباب ـ لأنه امتحان عظيم ولا حول ولا قـوة الا بالله العلي العظيم • وبقي الأمر في هرج ومرج واستندت أحباء كل بلدة الى أحد المرايا مثلاً جماعة اعتقدوا بصبح الازل، وآخرون اعتقدوا برجل بغدادي يدعى الشيخ علي الدباس ، وجماعة أخرى اعتقدوا بالسـيد علاو ••• والأحباء تشـتتوا وكل واحد منهـم يفعل ما يشاء ••• »[1] •

يبدو ان بهاء الله حاول التوفيق بين البابيين ورفع أسباب الشـقاق بينهم فلم يفلح • فقد ذكر صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » عن ذلك يقـول :

« وكان وصول البهاء وحزبه الى بغداد في اليوم الأول من شـهر محرم سنة ١٢٦٩هـ ويعرف عند البابية (بعام بعد حين) فاحتجب المرزا يحيى عن الناس وكان تارة يجول بضواحي بغداد متستراً ، ويشتغل ببعض الحرف متنكراً ، وأحياناً يمكث في بغداد بزي الاعراب ، ولكن البهاء لم يخرج من بغداد وكان يجلس يومياً في ملهى (قهوة) بساحل الدجلـة ويسامر الناس كأحدهم ، فابتدأ يفد اليه بقايا البابية في ايران واجتمع هنا بضعة مئات منهم وهم لا يدرون ماذا يفعلون ، والى من ينتسبون ، ولمن يخضعون ، لأن الوجهاء منهم كان كل منهم يدعي لنفسه الرياسة والزعامة، والبهاء ينظر اليهم شزراً لما كان يختلج في فؤاده ويدبر في نفسه من القبض على زمام القوم في يوم ، وكان ينكر عليهم ما يأتونه من الموبقات وما يدعونه من الرئاسة والنيابة ، ويظهر خلافة أخيه ومشروعيتها للبابية ويبذل الجهد في جلب الناس اليه ، ولكن البابية لم يذعنوا لأقواله ولم يسلموا بخلافـة

---

(١) اغا محمد مصطفى البغدادي (رسالة أمرية) في ذيل الرسالة التسع عشرية ـ القاهرة ١٣٣٨هـ ـ ص١٢٦ •

أخيه ونيابة البهاء عنه ، فاشتعلت نيران الشحناء والبغضاء ، وأخذ يضمر بعضهم لبعض الحقد والضغينة ، وينسبون له ما يخجل اليراع من ذكره ودام الحال على هذا المنوال نحو سنة حتى أضمروا له الشر ونووا الفتك به لما رأوا منه الثبات وعدم التحول عن عزمه ، وكادوا يقضون وطرهم منه ، فاضطر البهاء الى الهرب لشدة المقاومة والمناصبة ، فبرح بغداد خفية وسافر الى جهات كردستان العثمانية ... »(١) .

غادر بهاء الله بغداد بمفرده متجهاً الى الشمال وهو في زي درويش يحمل كشكولاً وسمى نفسه « درويش محمد » ، وعند وصوله الى السليمانية اعتكف في جبل سركلو الذي يقع على مقربة منها ، ثم انتقل بعد فترة وجيزة الى البلدة نفسها فنزل في تكية الخالدية حيث أمضى فيها سنتين . وحين اهتدى أفراد أسرته الى مكانه أرسلوا اليه يرجونه أن يعود ويلحون في رجائهم عليه ، وذهب الشيخ سلطان الكربلائي الى السليمانية ليقنعه بالعودة . فعاد بهاء الله الى بغداد وكان وصوله اليها في ١٩ آذار من عام ١٨٥٦م .

الدعوة البابية في العراق :

عند عودة بهاء الله الى بغداد استطاع أن يجمع شمل البابيين ويزيل أسباب الخلاف من بينهم ويبعث فيهم الحماس . وكانت علاقته برجال الحكم وعلماء بغداد والقناصل قوية ، وقد زاره القنصل البريطاني في منزله بنفسه وعرض عليه أن يجعله تحت الحماية البريطانية ويسهل سفره الى الهند ، وتعهد له بأن يوصل أية رسالة منه الى الملكة فكتوريا ، ولكن بهاء الله رفض كل ذلك حيث اختار السكنى في بلاد السلطان(٢) .

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص٣٤١ ـ ٣٤٢ .

(2) Shoghi Effendi (God Passes By) Wilmette 1950 — P. 128—131.

وكان الكثير من البابيين الايرانيين قد لجأوا الى بغداد هرباً من الاضطهاد الذي أصابهم في ايران ، وأخذ عددهم يتكاثر في بغداد شيئاً فشيئاً • ذكر السائح الألماني بيترمان الذي زار بغداد في عام ١٨٥٤م ان عددهم فيها بلغ خمسة آلاف تقريباً[1] • وربما ازداد هذا العدد بعدئذ •

وأخذ البابيون ينشطون برئاسة بهاء الله في نشر دعوتهم في العراق على نحو ما كانوا يفعلون في ايران ، فاستجاب لدعوتهم بعض الافراد ، وكان أهم من اعتنق دعوتهم ببغداد رجل يُعد من كبار الملاكين والأغنياء فيها هو المرزا موسى الجواهري ، وهذا الرجل هو من أصل ايراني اذ كان أبوه المرزا هادي من كبراء ايران وقد هرب منها عام ١٨٢١م لاجئاً الى الدولة العثمانية ، وكان يحمل معه جواهر كثيرة فباعها واشترى بثمنها أملاكاً في بغداد والكاظمية وبعض قرى ديالى ، ولا يزال في الكاظمية حمام يعرف باسمه فيقال له « حمام مرزا هادي » • ولما اعتنق ابنه المرزا موسى الدعوة البابية صار يبذل في سبيلها الكثير من جهده وماله ، وهذا هو السبب الذي جعل الدعوة البابية تنتشر في بعض قرى ديالى كالعواشق وذيابه والهويدر •

يمكن القول على أي حال ان الدعوة البابية لم يبلغ انتشارها في العراق مقدار ما بلغ في ايران أو جزءاً منه ، فقد كان انتشارها في ايران واسع النطاق حيث دخل الناس فيها أفواجاً ، بينما كان انتشارها في العراق تدريجياً بطيئاً يكاد لا يتأثر به في الجيل الواحد سوى افراد معدودين ، فما هو السبب في ذلك يا ترى ؟!

ان هذا موضوع اجتماعي مهم يحتاج الى دراسة ، وأستطيع الآن أن أدلي فيه برأي عسى أن يكون نواة لبحث مقبل • ففي نظري أن هناك عوامل مختلفة جعلت انتشار الدعوة البابية في ايران أوسع منه في العراق ،

---

(١) سعاد هادي العمري (المصدر السابق) ص٨٧ •

أذكر فيما يلي أهمها :

اولاً ـ ان الدعوة البابية في ايران وقعت منذ بداية أمرها تحت وطأة الاضطهاد الشديد بينما هي كانت في العراق حرة نسبياً ، وقد جرى الولاة في بغداد على سياسة التسامح معها أو غض النظر عنها ، ولعلهم كانوا يتبعون في ذلك سياسة « فرق تسد » على وجه من الوجوه . وفي رأي المستشرق براون الذي درس الدعوة البابية دراسة مستفيضة أن الاضطهاد الذي حل بها في ايران كان من العوامل الفعالة في نشرها بين الشعب الايراني ، وهو ينقل قولاً لمبشر أوروبي كان في أصفهان اثناء اضطهاد رجل من البابيين خلاصته : أنه كلما قُتل واحد من البابيين من أجل عقيدته دخل في الدعوة مائة مؤمن جديد[1] .

ثانياً ـ كانت ايران منذ العهد الصفوي تعج بطقوس التعازي الحسينية كالمواكب ومجالس البكاء ، وهذه أثرت في ذهنية الشعب الايراني وجعلت بعض الأفراد منه يميلون الى تحمل الآلام والى التضحية من أجل الائمة اعتقاداً منهم أن تلك هي وسيلتهم الى الجنة . يرى براون ان تلك التعازي بالرغم مما تحتوى عليه من أباطيل ومبالغات قد خلقت في الايرانيين تحمساً للموت في سبيل العقيدة[2] . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان البابيين في ايران خاضوا معارك ضارية ضد قوات حكومية تفوقهم في العدد والعدة ، وأبدوا فيها بسالة نادرة ، ومات الكثيرون منهم فيها . فكانت هذه المعارك في نظر بعض الايرانيين كأنها اعادة لمعركة كربلا ، فكانوا يتمنون لا شعورياً أن يكونوا قد شاركوا فيها حيث يتصورون أنهم يقتدون بأنصار الحسين . أما في العراق فالتعازي الحسينية لم تظهر الا منذ ولاية علي رضا باشا كما

---

(1) E.G. Browne (A Literary History of Persia) Cambridge 1953 — Vol. 4, P. 195—196.

(2) Ibid, Vol. 4, 164—166.

ذكرناه في فصل سابق ، ولهذا فهي لم تؤثر في النفسية العراقية كما أثرت في النفسية الايرانية • أضف الى ذلك أن القيم البدوية المسيطرة على الفرد العراقي تجعله أقل تأثراً بتلك التعازي من الفرد الايراني • ان الفرد العراقي أميل الى التباكي منه الى البكاء الحقيقي •

ثالثاً ـ ان الدعوة الشيخية التي سبقت الدعوة البابية ومهدت الطريق لها كانت منتشرة في ايران انتشاراً كبيراً ولها أتباع في أكثر المدن الايرانية، بينما هي كانت في العراق قليلة الاتباع نسبياً • وقد وجدنا الدعوة البابية في أول أمرها تنتشر بين الشيخيين أكثر مما انتشرت بين غيرهم • فالشيخيون كانوا كما رأينا في فصل سابق يترقبون ظهور « صاحب الزمان » بمناسبة قرب انتهاء ألف سنة على غيبته ، وعندما حلت السنة « الموعودة » وهي سنة ١٢٦٠هـ صاروا متلهفين لسماع « النبأ العظيم » الذي كان قد بشر به الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي ، فلما وصلهم النبأ تهافت الكثير منهم عليه • ولهذا كان شعار البابيين في بداية أمرهم هو « يا صاحب الزمان » ، فكانوا يهتفون به عندما يبرزون الى القتال أو يساقون الى ساحة الاعدام •

والملاحظ ان البابيين في ايران كانوا متحدين في الغالب ، بينما كان البابيون في العراق متفرقين وكثيراً ما كانت المجادلات والمنازعات تسود بينهم • ويبدو أن السبب في ذلك هو وجود الاضطهاد على البابيين في ايران وعدمه في العراق • ولو كان البابيون في العراق قد جوبهوا بالاضطهاد لاتحدوا ازاءه كما فعل اخوانهم في ايران •

ملكم خان في العراق :

في الوقت الذي كان فيه بهاء الله في بغداد وصل اليها من ايران رجل ذو شخصية عجيبة للغاية يُدعى « ملكم خان »[١] • وقد قام هذا الرجل

(١) لا نعرف على وجه الدقة اية سنة جاء فيها ملكم خان الى العراق ، والمظنون أنه جاء بعد عام ١٨٦٠م •

في بغداد والكاظمية وكربلا بأعمال « سحرية » أدهشت عقول الناس ولا يزال المسنون في هذه المدن يتناقلون الحكايات الغريبة عنه .

ان ملكم خان ينتمي الى أسرة أرمنية ، وكان أبوه مسيحياً ثم اعتنق الاسلام ، ويزعم ملكم خان أنه كان أخاً بالرضاعة للشاه ناصر الدين . وكان في طفولته قد تعلم بباريس ، وعند عودته الى طهران أسس فيها محفلاً ماسونياً ، وكان بذلك أول من أدخل الماسونية في ايران .

واشتهر ملكم خان في طهران بأنه ساحر عظيم يقوم بالخوارق التي لا يمكن تفسيرها ويروي السر برسي سايكس نموذجاً من أعماله الخارقة نقلاً عن رجل شهدها عياناً في محضر الشاه[(١)] وهي مما يصعب تصديقها .

كان ملكم خان صغير الجسم ذا أنف طويل وعينين سوداوين ، وقد وصفه المستشرق بلنت بعد اجتماعه به في لندن فقال عنه : انه كان أروع شخصية التقى بها ، وقد زاد اقتناعاً على أثر اجتماعه به بتفوق الذكاء الشرقي[(٢)] . ويزعم ملكم خان ـ حسبما رواه بلنت عنه ـ أنه أسس في طهران نحلة دينية خاصة به سماها « الانسانية » أو « الآدمية » ، وقد بلغ أتباعها هناك ثلاثين ألفاً ، وصار هؤلاء الاتباع يطلقون عليه لقب « الطيف المقدس » ، فوضع لهم « انجيلاً »[(٣)] .

يبدو أن الشاه ناصر الدين ارتاب من ملكم خان ، ولعله خشي أن يفعل ملكم خان في ايران كما فعل الباب من قبل ، فطلب منه مغادرة ايران ، فرحل ملكم خان الى العراق وزار العتبات المقدسة ، وكان في كل

---

(1) Sir Percy Sykes (A History of Persia) London 1958 — Vol. 2, P. 397—398.

(2) E. G. Browne (The Persian Revolution) Cambridge 1910 — P. 38.

(٣) ألفريد سكاون بلنت (التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر) القاهرة بدون تاريخ ـ ج١ ص١١٣ ـ ١١٦ .

مدينة عراقية ينزل فيها يثير الدهشة بأعماله العجيبة • وقيل انه حضر مجلس الوالي بدعوة منه في أحد الأيام فجعل الحاضرين من أعيان بغداد وعلمائها يقصون لحاهم بمقصات أعطاها لهم وهم يحسبون أنهم يقصون عناقيد العنب •••

وقد روى لي بعض المسنين في الكاظمية قصصاً في منتهى الغرابة عن ملكم خان أثناء زيارته لهذه البلدة مما لا يسع المجال لذكره • ولم يفت هؤلاء الرواة أن يذكروا كيف اجتمع ملكم خان ببهاء الله في وليمة فأخجله بأفاعيله السحرية لكي يسيء الى مكانته الدينية ، وذلك أن بهاء الله حين مدّ يده لتناول الطعام انقلبت حبات الرز في يده الى دود وأخذت الدجاجة المطبوخة ترفرف بجناحيها ثم طارت بين دهشة الحاضرين وضحكهم •••

لست هنا بصدد البحث في هذه القصص المنسوبة الى ملكم خان أو غيره من ذوي المواهب الخارقة ، وهل هي علمية أم خرافية ، فذلك أمر يطول[١] • يكفي أن أقول هنا باختصار : ان علماء الغرب كانوا في القرن الماضي ينظرون الى تلك الخوارق نظرة استهجان وتكذيب ، غير أنهم منذ عام ١٩٣٠م أخذوا يخضعونها للبحث المنهجي ، وظهر بذلك علم جديد اسمه « الباراسيكولوجي » •

والجدير بالذكر أن الباحثين الماركسيين كانوا يستنكرون هذا العلم مثلما فعل زملاؤهم الغربيون قبلهم ، ثم بدأوا منذ عام ١٩٦٠م يعترفون به ، وقد وصلوا أخيراً في دراساتهم له الى نتائج ايجابية تشبه تلك التي توصل اليها علماء الغرب •

---

(١) بحثتُ هذا الموضوع في كتابين من كتبي السابقة ، وهما : (خوارق اللاشعور) المطبوع في بغداد عام ١٩٥٢ ، و (الاحلام بين العلم والعقيدة) المطبوع في بغداد عام ١٩٥٩ •

لم يمكث ملكم خان في العراق سوى مدة قصيرة رحل من بعدها الى اسطنبول ، ثم ذهب الى لندن حيث عيّنه الشاه وزيراً مفوضاً لايران فيها • وبقي ملكم خان في منصبه هـذا سبعة عشـر عاماً ، ويقال انه قام ببعض الأعمال الخارقة هناك مما أذهل عقول البريطانيين • وفي عام ١٨٨٩م عـزل ملكم خان من منصبه فكان ذلك سبباً لأن يعلن ملكم خان عداءه الشـديد للشاه ، فأصدر في لندن جريدة باللغة الفارسية عنوانها « القانون » وأخذ يشن بها حملات شعواء على الشاه • فكانت هذه الجريدة تهرب الى ايران خفية ، كما كانت تصل الى العراق عن طريق البريد الهندي ، وقد أحدثت في كلا البلدين تأثيراً غير قليل •

ولاية عمر باشا :

في منتصف شهر آب من عام ١٨٥٧م أصيب الوالي رشيد باشا بالتهاب في حنجرته لم يعرف سببه ، فسقاه الأطباء دواءاً لم ينجع فيه ، وقيل ان الدواء كان مغلوطاً فأدى الى موتـه[١] ، وكان عمره يومذاك لا يتجاوز الخمسين عاما • فعينت الدولة في مكانه قائداً عسكرياً من الذين اشتهروا في حرب القرم اسمه عمر باشا •

ان عمر باشا من أصل هنغاري وكان في مطلع شبابه يسمى ميخائيل ، وحين بلغ الثامنة والعشرين من عمره غادر وطنه فاعتنق الاسلام وسـمى نفسه « عمر » ثم دخل جندياً في خدمة الدولة العثمانية • ويبدو أنه كان رجلاً مقداماً فصار يرتقي في المراتب العسـكرية تدريجاً[٢] ، وكان في حرب القرم بطلاً يشار اليه بالبنان •

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المنتفق) ترجمة محمد خلوصي الناصري — بغداد ١٩٦١ — ص ٢٨ — ٢٩ •

(٢) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر) — بيروت بدون تاريخ — ج١ ص٢٣٨ — ٢٤٠ •

وصل عمر باشا الى بغداد في ١٨ شباط من عام ١٨٥٨م ، وكان قد جاء معه بعض القواد الذين قاتلوا معه في حرب القرم من أمثال شبلي باشا العريان الدرزي واسكندر باشا البولوني الأصل ، كما جاء معه جنود نظاميون وغير نظاميين يبلغ عددهم أربعة آلاف •

وتشير القرائن الى أن عمر باشا انما جاء الى العراق بمهمة خاصة هي فرض التجنيد الاجباري على الأهالي ، فقد كانت الحكومة تخشى مغبة ذلك لسيطرة الروح العشائرية على سكان العراق ، وربما ظنت أن عمر باشا قادر على تحقيق المهمة لما كان يملك من ارادة قوية وشخصية عسكرية صارمة •

أول عمل قام به عمر باشا بعد وصوله الى بغداد هو أنه أمر بهدم القلاع التي بناها سلفه رشيد باشا في أنحاء الهندية وسوق الشيوخ ، وكأنه أراد بذلك أن يلقي في روع الناس أنه ليس في حاجة الى القلاع لضبط الأمن ، ولعله ظن أن في مقدوره تأديب العشائر بقوة قليلة عند ظهور تمردهم وعصيانهم ، غير أن العشائر في تلك الانحاء لم تكد ترى هدم القلاع حتى صارت لا تعبأ بالحكومة أو تخاف منها ، وأخذت تعبث بالأمن كما تشاء •

كان التجنيد الاجباري يطلق عليه في ذلك الحين اسم « عسكر نظام » وكانت خطة عمر باشا أن يشرع بتنفيذه في منطقة بغداد أولاً فاذا نجح فيه سعى الى تنفيذه في المناطق الأخرى • ولذا فانه جمع علماء بغداد وأعيانها بغية اقناعهم بالأمر الجديد ، وقبل أن يقرأ عليهم فرمان التجنيد وزع عليهم مبالغ كبيرة من المال ، كل حسب رتبته ، لاجتذاب قلوبهم • فكان نصيب القاضي عشرة آلاف قرش صاغ ، ونصيب النقيب الكيلاني سبعة آلاف وخمسمائة ، أما بقية الحاضرين فقد حصل كل واحد منهم على خمسة آلاف قرش • وقد بلغ مجموع ما وزع عليهم كلهم ثلاثة وستين

ألف قرش • فلما قُرأ عليهم فرمان التجنيد بعدئذٍ رحبوا به جميعاً وأظهروا الطاعة ، ثم صاروا يأتون بأولادهم فيدخلونهم في سلك التجنيد ، وكان أول من فعل ذلك مفتي بغداد محمد فيضي الزهاوي حيث جاء نفسه بولده[1] ، فحذا حذوه وجهاء بغداد • وفي خلال بضعة أيام تم تجنيد خمسمائة[2] •

فرح عمر باشا بهذا النجاح وخيل له أن أهل العراق جميعاً سيفعلون مثلما فعل أهل بغداد ، غير أنه لم يكد يشرع بفرض التجنيد على العشائر والمدن خارج بغداد حتى أخذت الفوضى تعم البلاد وانتشر التمرد في كل مكان • فقد أعلنت عشائر ديالى العصيان وتركت مزارعها وفرت هاربة من وجه الحكومة[3] • وانتقل العصيان الى الفرات الأوسط واستطاعت العشائر هناك أن تضرب القوات الحكومية ضربات شديدة ، ثم عم العصيان مناطق أخرى من العراق[4] •

لكي يأخذ القارىء صورة واضحة عما جرى في العراق من جراء التجنيد الاجباري يومذاك ننقل ما ورد عنه في كتاب التاريخ المجهول المؤلف الذي نقلنا عنه غير مرة سابقاً • فقد ذكر المؤلف تفصيل ما جرى في صدد الحديث عن عمر باشا حيث قال في وصفه ما يلي :

«لا يدرك شيئاً من سياسة الحكومة وأخرب ما حول بغداد بعدم تدبيره وغروره لأنه أراد من جميع العرب القاطنين حول البلد عساكر نظام وهذه الارادة منافية لطباع العرب الساكنين بنواحي بغداد ويفرون منها فرار الجبان من الأسد • وفي يوم الأربعاء ١٣ شوال ، الساعة ١١ ، طلع

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٢١ •

(٢) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ص١٦٧ •

(٣) المصدر السابق ــ ص١٦٧ •

(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ــ ص١٢١ ــ ١٢٥ •

الوزير من بغداد الى أطراف الحلة ليمهدها ويرتب قوانينها وفق الارادة اللائقة أو حسب ارادته ولم نعرف ما يحدث من مرامه • وأخذ معه الكهية، والشيخ بندر شيخ المنتفق المعزول ، ومحمد أفندي كاتب العربية ، وصالح اليهودي ابن دانيال • والخلاصة قد أمر على أهل الحلة خمسين نفراً بطريق البدلية ، فضجروا من ذلك وأخذوا بالفرار من بلادهم ، ثم استغاثوا به فلم يغثهم ، حتى أنهم حرروا عرضاً ـ يقصد عريضة ـ وجاء به مقدار مائة رجل فأكثر وصاحوا صيحة واحدة فأهالوه وأنكر منهم ذلك ، ومع هذا فان سكنة الحلة ليس عندهم داركة أو معرفة ولا نباهة كنباهة أهل بغداد ••• ولما عاين الوزير ضجر أهل الحلة وعدم انقيادهم له وشاهد منهم التكلف ، وهم ضاجون صاخبون أمامه في الطرق والأسواق ، أمر بمسك كل من جاء اليه بالعرض وهم كثيرون ، فمسك منهم مقدار مائة نفر ، وأخذ منهم أربعين نفراً ، وسرح الباقي • فالخلاصة برجاء والي بلدهم القائمقام جعل الذين يؤدون البدلية ثلاثة وأربعين نفساً ، والذين مسكهم مقدار أربعين نفساً ، منهم من بقي في النظام بلا بدل لضعفه ، ومنهم من أتى ببدل عوض عنه وأطلق نفسه من النظامية • وعلى أهل الحسين ـ يقصد أهل كربلا ـ جعل خمسين نفساً وأخذ منهم بالبدلية ، ثم تحركوا بحركات فاسدة وقتلوا اثنين من أهل البلد ، واحد من كربلا وآخر نظام ، وهربوا ، ورأى منهم الغيلة والخيانة ، ويظهر منهم اشارة خلع الطاعة ، فأمر النظام وأدخل عليهم عسكراً وافراً وأمر بمسك كل من يصادفوه ، فصادفوا مقدار ثلاثين نفراً ، فمسكوهم غصباً وأتوا بهم الى بغداد مقيدين ذليلين وأدخلوهم الى النظام • وجعل على المشهد ـ يقصد النجف ـ ثلاثين نفساً فلما عاين أهل النجف ما فعل بأهل الحلة وأهل كربلا أبانوا وجه الطاعة ومسكوا ثلاثين نفساً بدلاً عنهم وأتوا بهم الى بغداد بالطاعة والانقياد وخلصوا مما حصل من الوزير على القريتين المذكورتين • ثم أراد الوزير من الأعراب الذين هم بأطراف الهندية ونواحيها ومن الشامية والديوانية ، من أهل

الهندية تسعين نفساً ومن الديوانية والشامية من الأعراب الذين هم حول الديوانية مائة وثمانون نفساً ، فجميع الاعراب الذين هم بأطراف الحلـة خلعوا الطاعة وأبانوا المحاربة والقتال ونهبوا أموال المترددة ، لا سـيما الخزاعل فانهم قد خلعوا الطاعة وكان اذذاك الرئيس على أعراب الخزاعل ومن والاهم مطلق بن كريدي • ولما أنهم أظهروا عدم الطاعة قد سيّر عليهم الوزير عسكراً من بغداد ، وكان الأمير على العساكر شبلي باشا ، ثم اتبعه بعسكر ثان وعليهم الرئيس اسكندر باشا • والخلاصة أمدهم بأربع دفعات من العساكر النظامية والسوارية والهايته ، ووقعت بينهم حروب دفعات ، وفي الأكثر تكون النصرة للأعراب على عسكر الوزير المذكور الى أن آل الأمر الى أن شبلي باشا أراد الصلح معهم ، وأخبر بذلك الوزير ، فقال له الوزير لا تتصالح معهم الى أن آتيك • ثم طلع الوزير في المحرم بنفسه ومعه جملة عساكر ، ونازلهم الى أن تنحوا عنه ، ولحقهم الى أطراف السماوة بلا قتال منـه ولا منهم • ثم في آخر المحرم وقعت محاربة بين الأعراب وعسـاكر الوزير ، ونشب الحرب فيما بينهم مقدار ست ساعات ، وانتصر الأعراب على العسكر وقتل منهم مقدار خمسمائة نفس ، وقتل القليل من الأعراب • ثم في اليوم الثاني ارتحل العسكر من مكانه بأمر الوزير ونزل الجربوعية ، وفي اليوم الثالث ارتحل ونزل هو وعسكره الحلة خائفين • ولو لم يرحل وجنوده معه والاّ كان بيتوه ليلاً وهجموا عليه وعلى معسكره وأكثروا فيهم القتل ، حتى أنه لما كان في مقامه الأول وهو وعسكره أمامهم هاجوا عليه في الليل وهجموا على العسكر ، وقتلوا مقدار مائة نفر فأكثر • ولما ظعن العسكر وهو معهم ودخل الحلة أعلم الناس أنه يريد سد الهندية التي هي مدار قوة العرب ، لانه ما زالت الهندية مكسورة لم يقدر عليهم الوزير حيث أنهم يتحصنّون بأهوارها وبطائحها ويعيشون في أطراف الأراضي البعيدة ، لأنه يكون ما حولهم من جميع الجهات ماء محيط بهم مقدار ست سـاعات ، وبعض الأماكن أكثر • وأمر بارسـال عشـرة آلاف جراب

وخمسمائة مسحاة من أجل سد الهندية ، والدفتردار قائمقام في بغداد قد مسك بما أراد الوزير من الجربان »[1] .

ان هذه الشدة التي استعملها عمر باشا في سبيل التجنيد الاجباري أثار عواطف الشاعر المعروف السيد حيدر الحلي وكان معاصراً لها ، فنظم قصيدة « عصماء » استصرخ فيها الامام الغائب ودعاه الى الظهور من أجل انقاذ شيعته من الكارثة التي حلت بهم ، فان الدين على قوله قد تغير والضلال ملأ الأرض والهدى مات . وهي قصيدة طويلة نقتطف منها ما يلي ليطلع القارىء على مبلغ كراهية الناس للتجنيد في ذلك الزمان :

لم صاحب الأمر عن رعيته ... أغضى فغصّت بجور أكفرها
ما عذره نصب عينه أُخذت ... شيعته وهو بين أظهرها
يا غيرة الله لا قرار على ... ركوبه فحشائها ومنكرها
سيفك والضرب ان شيعتكم ... قد بلغ السيف حز منحرها
مات الهدى سيدي فقم وأمت ... شمس ضحاها بليل عثيرها
فالله يابن النبي في فئة ... ما ذخرت غيركم لمحشرها
ماذا لأعدائها تقول اذا ... لم تنجها اليوم من مدمرها
أشقة البعد دونك اعترضت ... أم حجبت منك عين مبصرها
كم سهرت أعين وليس سوى ... انتظارها غوثكم بمسهرها
تغضي وأنت الأب الرحيم لها ... ما هكذا يا ابن أطهرها
ترضى بأن تسترقها عصب ... لم تله عن نايها ومزهرها[2]

عزل عمر باشا :

في الوقت الذي كان فيه عمر باشا مشغولاً بأحداث الفرات الأوسط

---

(١) المصدر السابق - ج٧ ص١٢٠ - ١٢٤ .

(٢) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) - بغداد ١٩٦١ - ص١٩٤ - ١٩٦ .

وصلت الأنباء اليه بأن الشاه ناصر الدين يتقدم نحو الحدود بجيش تعداده عشرون ألفاً ، فأسرع عمر باشا بجيشه نحو السليمانية ولكنه لم يكد يصل اليها حتى علم بعودة الشاه الى مقره • وقد انتهز عمر باشا فرصة وجوده في تلك الأنحاء فأخذ يطارد قبيلة الهماوند التي كانت تقطع الطرق وتعبث بالأمن ، واستطاع أن يلقي القبض على بضعة أفراد منها فأمر باعدامهم حالاً لكي يجعلهم عبرة لغيرهم •

وبينما كان عمر باشا يتجول بقواته في تلك المنطقة وصله خبر مفاده أن عشائر غزية عبرت الفرات قادمة من بادية الشام وأخذت تعيث في البلاد وتنهب القوافل ، حتى وصلت الى مقربة من بغداد ، فتوجه عمر باشا نحوها بكل سرعة ، حتى أنه تمكن من الوصول الى قرية دلي عباس في خلال ثلاثة أيام • وقد استقبله هناك سليمان فائق قائمقام قضاء خراسان ، وأخبره بأن العشائر عادت الى بادية الشام • يقول سليمان فائق في معرض حديثه عن عمر باشا : « فلما سمع ذلك مني اختلجت أساريره وشاهدت آثار التأسف قد بدت على وجهه لأنه كان مصمماً على التنكيل بتلك العشائر وتأديبها »(١) •

لم يمض على عودة عمر باشا الى بغداد سوى خمسة أيام حتى جاء البريد بأمر عزله من الولاية • وقيل ان السبب المباشر الذي أدى الى عزله هو تسرعه في اعدام الهماونديين دون استئذان من الدولة ، فقد كانت الدولة تخشى أن يؤدى هذا العمل الى خروج قبيلة الهماوند من العراق والتحاقهم بايران • وربما كان السبب الحقيقي في عزله غير هذا حيث لم ترض الدولة عن سياسة الشدة التي اتبعها عمر باشا مع أهل العراق وما أدت اليه من فوضى وتذمر عام(٢) •

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٦٩ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٢٧ •

ان سليمان فائق يلوم الدولة على عزلها عمر باشا ، فهو يقول في ذلك : « وهكذا فان الوالي المذكور أيضاً بعدما اكتسب معرفة واسعة بأحوال العراق وسكانه خلال مدة قصيرة من الزمن وعرف طبائع الأمور فيه وقام بأعمال باهرة للأخذ به الى التقدم ، تعرض للعزل لمجرد أنه ألقى القبض على بضعة أفراد من الأشقياء الهماوند وأعدمهم قبل الاستئذان من المقامات العليا ، ولم تأخذ تلك المقامات بنظر الاعتبار خدماته الجليلة واخلاصه وأحكامه التي كان يجتهد فيها ويتحرى وجه الحقيقة والصواب ، وكثيراً ما كان يرجع عن أي عمل حالما يشعر بأنه مخطىء فيه . وبعزله أرجعوا عجلة التقدم الى الوراء ... »[1] .

وفي ٢٥ ايلول من عام ١٨٥٩م غادر عمر باشا بغداد معزولاً ، وكانت مدة ولايته في العراق سنة واحدة وسبعة أشهر ، وحين شاع خبر عزله عم الفرح في أنحاء العراق ، ولا سيما في الفرات الأوسط ، واعتبر العراقيون يوم عزله عيداً[2] . وقد أرخ أحد ظرفاء الحلة سنة عزله بقوله : « عمر باشا ترس » ، وهذه الجملة تساوي في حساب الحروف عدد ١٢٧٦ وهو يمثل السنة التي عزل فيها عمر باشا حسب التقويم الهجري[3] .

تنافس على الولاية :

مرت بعد عزل عمر باشا فترة تشبه من بعض الوجوه أيام المماليك التي كانوا يتنافسون فيها على ولاية بغداد ويحاول بعضهم القضاء على البعض الآخر .

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٦٩ .

(٢) ودّاي العطية (تاريخ الديوانية قديماً وحديثا) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ص٤٥ .

(٣) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) النجف ١٩٦٥ ـ ج١ ص ١٤٣ .

كان في بغداد أثناء عزل عمر باشا قائد عسكري برتبة فريق اسمه أحمد توفيق باشا ، وكان هذا يطمح الى منصب الولاية ويتحرق اليها شوقاً غير أن الدولة لم تستجب لرغبته وعينت للولاية بدلاً عنه رجلاً آخر اسمه مصطفى نوري باشا ، فادى ذلك الى نشوء البغضاء بين الرجلين ، وصار أحمد توفيق باشا يتحين الفرص للايقاع بغريمه وتشويه سمعته .

ليس لدينا معلومات كافية عن مصطفى نوري باشا سوى ما كتبه عنه سليمان فائق، وقد أعطانا سليمان فائق عنه صورة سيئة جداً أرجح الظن أنها لا تخلو من مبالغة ، فلقد كان سليمان فائق من خصومه كما يبدو ، فهو يقول فيه : انه كان أمياً لا يتمكن حتى من كتابة اسمه على الرغم من أنه يحمل لقب « كاتب السر » ، وانه كان لا يعرف سوى الأكل والبلع مادة ومعنى ، فكان ذلك شغله الشاغل ، وفي خلال حكمه الذي دام نحو أحد عشر شهراً أضر بخزينة الدولة زهاء ثلاثين ألف كيس ، وكان لا يتردد عن قبول أية رشوة مهما كان مبلغها — من المجيدي الواحد الى الألف كيس — وكان صهره محمد باشا الذي كان يتولى في عهده منصب « الكهية » هو الواسطة بينه وبين الناس في الرشوات ، وقد حصلا معاً خلال تلك المدة القصيرة على ألفي كيس من النقود المجيدية البيضاء . ثم يقول سليمان فائق : « وسار على هذا المنوال بقية أتباعه من الموظفين والمقربين حتى انتشرت هذه الروائح الكريهة في أرجاء البلاد ، ووصلت الى أوربا وتشوهت بذلك سمعة الحكومة ، وصار حديث الأندية والمجالس اذ لا يخلو مجلس من التطرق الى ذكر شيء من سوء أفعال الوالي واتباعه ، وأخيراً بلغ الأمر أن أذيعت هذه الأخبار وانتشرت هذه الروائح التي تزكم الأنوف في الصحف السيارة ... »[١] .

واستطاع أحمد توفيق باشا أخيراً أن ينظم هو وأعوانه « مضبطة »

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٦٩ — ١٧٠ .

ضد خصمه مصطفى نوري باشا ، وقد وقع « المضبطة » بعض علماء بغداد وأعيانها حسبما جرت عليه العادة في تلك الأيام ، ثم أرسلوها الى السلطان عبدالعزيز في اسطنبول .

وقد انتجت « المضبطة » أثرها المنشود فجاء الأمر من اسطنبول بعزل مصطفى نوري باشا من ولاية بغداد . وصادف أن كان خط التلغراف قد تمّ مده الى بغداد في تلك الآونة ، فكان أول استعمال له هو في نقل أمر العزل ، مما دعا الشاعر عبدالباقي العمري الى نظم بيتين من الشعر في تلك المناسبة هما :

كاتب السر كان في الزوراء وزيراً وفي العراق مشيراً

فاتى التلغراف كاتب سر لاحقاً بانصرافه مأموراً[1]

وفي أواخر شباط من عام ١٨٦١م وصل الأمر من اسطنبول بتعيين الفريق أحمد توفيق باشا والياً على بغداد ، وهذا هو ما كان يتمناه ويسعى اليه .

ولم يكد الوالي الجديد يجلس على كرسي الحكم حتى أصدر أمره باتخاذ الاجراءات التي أراد بها التدليل على نزاهته وعلى ارتشاء سلفه . وكان أول عمل قام به في هذا الشأن هو الغاء المخصصات التي كان الولاة يأخذونها من الخزينة لنفقات سفرهم وتنقلاتهم ، وكان مقدارها ألفي كيس . ثم أخذ يعزل القائمقامين والموظفين الذين عينوا في عهد سلفه، ويعين غيرهم مكانهم . وأجرى التحقيق مع الكهية السابق محمد باشا ، وقيل ان المبالغ التي أخذها هذا الكهية من شيوخ العشائر والقائمقامين والضباط كانت ستة عشر ألف كيس بحساب اسطنبول[2] . وقد استطاع

---

(١) عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقي) النجف ١٩٦٤ — ص ٤٢٠ .

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٣٢ ـ ١٣٣ .

أحمد توفيق باشا في خلال شهرين أن ينظم شؤون الخزينة فيوفر فيها زيادة قدرها خمسة وعشرون ألف كيس[1] .

لم يدم حكم أحمد توفيق باشا في بغداد سوى مدة قصيرة تقل عن سبعة أشهر . والظاهر أن سلفه مصطفى نوري باشا كان السبب في عزله حيث صار يسعى في اسطنبول نحو تبرئة نفسه وادانة خصمه ، وربما بذل في سبيل ذلك جزءاً كبيراً من الأموال التي حصل عليها في بغداد ، فأمرت الدولة باعادة التحقيق في أمره . وكانت نتيجة التحقيق في هذه المرة على النقيض مما كانت عليه في المرة السابقة ، اذ اتضح للمحققين أن ما اتُهم به مصطفى نوري باشا ليس صحيحاً وأنه كان من تدبير خصمه أحمد توفيق باشا . فصدر الأمر بعزل هذا من ولاية بغداد .

يقول سليمان فائق في التعليق على ذلك : ان الدولة لم تكافىء أحمد توفيق باشا على ما بذله من خدمات جليلة، بل هي كافأته على عكس المأمول، فقد استطاع المحققون أن يجعلوا الحق باطلاً والباطل حقاً واعتبروا الشكاوى التي رفعت الى الدولة ضد مصطفى نوري باشا انما صدرت من أناس مشاغبين مغرضين ، وان الذين وقعوا عليها من الأهلين وأعضاء المجلس كانوا مخدوعين اذ هم وضعوا تواقيعهم عليها دون أن يعلموا بما تحويه . وينعى سليمان فائق على الدولة سوء سياستها في العراق لأنها تقيّم الولاة على خلاف حقيقتهم أحيانا ، فان أعمال الوالي قد تكون على جانب من الحكمة والاستقامة والخدمة الخالصة ولكن الدولة تعده على الضد من ذلك ، ولهذا صار القطر العراقي يميل طابعه نحو النحوس منذ أمد غير قصير[2] .

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٧١ – ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق – ص١٧٠ – ١٧٢ .

نامق باشا ــ للمرة الثانية :

جاء التلغراف بتعيين نامق باشا والياً على بغداد ، وهو نفس الوالي الذي خبره العراقيون قبلئذٍ في عام ١٨٥٢م حيث اشتهر بالقسوة .

وصل نامق باشا الى بغداد في ٤ شباط من عام ١٨٦٢م ، وبعد قراءة « الفرمان » في ساحة السراي خطب في الحاضرين قائلاً : انه سوف يعامل بشدة كل من يحاول الاخلال بالأمن كما أنه لا يقرّب اليه الا من كان يحسن عملاً(١) .

ظن الناس ان نامق باشا سيعود الى سيرته الأولى من حيث اتباع سياسة الشدة في العراق ، ولكن القرائن دلت على أنه كان في هذه المرة يختلف عما كان عليه في المرة السابقة . والظاهر ان المدة التي فارق فيها العراق ، وهي تناهز العشر سنوات ، أثرت في شخصيته تأثيراً غير قليل . فقد كان المعروف عنه سابقاً أنه كان من المتفرنجين الذين لا يبالون بالدين كثيراً ، ولكنه عند عودته الى العراق للمرة الثانية لوحظ عليه أنه أخذ يميل الى الطريقة « الخلوتية » وأظهر التقوى وواظب على الصلوات المفروضة .

وفي اليوم الثالث من وصوله الى بغداد أمر بعزل الجلواز المشهور الحاج أحمد أغا ، فقد كان هذا الجلواز في منصب « التفنكچي باشي » يصول ويجول ويتعسف في معاملة الناس حتى صار البغداديون يضربون به المثل ، فاذا أرادوا الاشارة الى شخص يتصف بالعناد والرعونة قالوا : « تعال فهّم الحاج أحمد أغا » . وقد استطاع نامق باشا أن ينقذ الناس منه بجرة قلم .

واهتم نامق باشا كذلك بانقاذ الناس من « الاشقياء » الذين يحترفون اللصوصية ، وكانوا كثيرين في بغداد يتباهون بشجاعتهم واعتدائهم على

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٣٥ .

الناس ، فأمر نامق باشا بأن كل شخص يؤتى به متهماً بالسرقة أو شرب الخمر أو التسكع من غير عمل يجب أن يؤخذ الى القلعة ويسجل هنالك في سلك الجندية ثم يساق الى اليمن • وكان المشهور عن اليمن في تلك الأيام أن المنفي اليها لن يعود •

وحين سافر نامق باشا الى البصرة ، وذلك بعد اسبوعين من وصوله الى بغداد ، أخذ معه في المركب جماعة من القتلة واللصوص يبلغ عددهم مائة وعشرة وقد وضعت أيديهم في القيود ، وعند وصولهم الى البصرة أمر نامق باشا بتشغيلهم في الأعمال الشاقة ، غير أن فريقاً منهم استطاعوا أن يهربوا وأن يعودوا الى بغداد ، ثم أخذوا يعبثون فيها بالأمن من جديد فكانوا يختفون نهاراً ويسطون على البيوت ليلاً • فأمر الوالي بمطاردتهم فقبض على البعض منهم ثم حبسوا في القلعة مكبلين بالحديد[1] •

وأخذ نامق باشا يهتم بالأمور المالية اهتماماً شديداً ، قيل انه صنع للخزانة ثلاثة مفاتيح أودع أحدها عند أمين الصندوق ، والثاني عند الدفتردار ، أما الثالث فأبقاه عنده ، وأمر أن تقدم له في كل يوم لائحة يفصل فيها الوارد والمصروف ، ومنع من صرف أي مبلغ بغير اذنه • ويحكى عنه أنه كان يتلو في كل يوم دعاءاً عند الخزانة يطلب به من الله دوامها وحراستها وزيادتها • وقد استطاع بتدبيره هذا أن يرسل في رأس كل شهر قافلة من البغال محملة بالنقود الى السلطان[2] •

بين البابيين والشيعة :

تشير المصادر البهائية الى أن نامق باشا كان على صلة وثيقة ببهاء الله الذي كان يرأس البابيين في بغداد يومذاك ، فكان يقدره كل التقدير وزاره

---

(١) المصدر السابق ـ ج٧ ص١٣٨ •

(٢) المصدر السابق ـ ج٧ ص١٣٦ •

في منزله ، وكان احترامه له عميقاً[1] • والظاهر ان البابيين اغتنموا هذه الفرصة فنشطوا في اعلان دعوتهم وترويجها بين الناس مما جعل الشيعة يتحفزون للرد عليهم ومحاربتهم •

ويجب أن لا ننسى ان علماء الشيعة في العراق كانوا ينظرون الى الدعوة البابية كنظرة زملائهم في ايران اليها حيث يعدونها مارقة عن الاسلام ، وصارت تهمة « البابية » عندهم تشبه تهمة الزندقة والكفر • ومما زاد في نفرتهم منها أن البابين جعلوا اليوم الأول من شهر محرم عيداً لهم باعتباره يوم ميلاد الباب، فكانوا يجتمعون للاحتفال به في حديقة « النجيبية » بباب المعظم فيمرحون ويلهون ، مع العلم أن الشيعة يعتبرون ذلك اليوم يوم حزن لهم اذ يبدأون به طقوسهم في التعازي الحسينية التي تستمر عشرة أيام كما هو معروف •

كان يسكن العراق في تلك الآونة عالم ايراني واسع النفوذ يلقب بـ « شيخ العراقين » واسمه الشيخ عبدالحسين الطهراني ، فأخذ هذا على عاتقه مقاومة الدعوة البابية ، وقد عاونه في ذلك القنصل الايراني العام في بغداد المرزا بزرك خان القزويني •

كانت أولى محاولات الشيخ عبدالحسين والقنصل الايراني هي في اقناع حكومة بغداد على اعادة بهاء الله الى ايران ، ولكن الحكومة لم تستجب لرغبتهما ، وبعد محاولات أخرى غير موفقة قرر الشيخ عبدالحسين دعوة علماء الشيعة الى مؤتمر عام يعقد في الكاظمية للنظر في هذا الأمر •

وعندما انعقد المؤتمر في الكاظمية حضره معظم علماء الشيعة ولا سيما علماء النجف وكربلا • وقد ذكر صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » : ان الشيخ مرتضى الانصاري الذي كان يتولى الزعامة الدينية للشيعة يومذاك

(1) Shoghi Effendi (op. cit.) P. 131.

لم يحضر المؤتمر بل وقف على الحياد[1] ، أما المصادر البهائية فتقول ان الشيخ مرتضى حضر المؤتمر غير أنه رفض أن يوافق الحاضرين على رأيهم في تكفير الدعوة البابية وأعلن قائلاً : « اني لست مطلعاً على كنه حقائق هذه الطائفة ، ولا عالماً باسرار سرائر إلهياتهم كما هو حقها ، ولا فهمتها بعد ، ولا رأيت من أحوالهم وأطوارهم ما ينافي الكتاب المبين ، ويدعو الى التكفير والتضليل ، فأقيلوني من هذه القضية ، وكل انسان درى بتكاليف نفسه فعليه أن يعمل »[2] • وخرج الشيخ مرتضى من المجلس وعاد الى النجف ثم أرسل من هناك الى بهاء الله يعتذر اليه عما جرى ويبدي رغبته المخلصة في حمايته[3] •

وذكرت المصادر البهائية أيضاً أن علماء الشيعة قرروا في مؤتمرهم أخيراً ارسال رجل يعتمدون عليه الى بهاء الله ليجادله ويطلب منه البرهان على صحة دعواه ، ووقع اختيارهم على رجل من بينهم اسمه « الحاج ملا حسن عمو » وهو ايراني يتميز برجاحة العقل وفصاحة اللسان[4] • فذهب هذا الرجل لمقابلة بهاء الله في بغداد ، وعندما استمع الى براهينه واقتنع بها قال له ان العلماء لا يقتنعون بدعوتك الا اذا قمت لهم بمعجزة باهرة تقطع حججهم كلها • فكان جواب بهاء الله أنه قال :

« لا حق لكم في ذلك ، لأن الله هو الذي يمتحن عباده وليس عباده الذين يمتحنونه ، واني مع ذلك سأجيب طلبكم غير أن الدعوة الربانية ليست من قبيل الألاعيب المسرحية التي تُقدم بكل ساعة أو تتبدل

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص٣٤٧ •

(٢) كتاب (مقالة سائح) ـ المؤلف غير مذكور ـ ترجمة محمد حسين بيچارة ـ القاهرة ١٩٢٣ ـ ص٦٢ •

(3) Shoghi Effendi (op. cit.) P. 144.

(٤) أبو الفضائل الجرفادقاني (كتاب الحجج البهية) القاهرة ١٩٢٥ ـ ص١٤٢ •

كل يوم ، والا فهي تصبح كألعاب الأطفال • ان العلماء يجب أن يجتمعوا كلهم ويوقعوا على محضر يتعهدون به أنهم اذا تمت المعجزة أمامهم فانهم لابد أن يؤمنوا بالدعوة ايمانا لا شك فيه ، أما اذا عجزت عن القيام بالمعجزة حق لهم أن يحكموا عليّ بالتدليس والكذب » •

فوافق الملا حسن على هذا القول وعاد الى العلماء يخبرهم به ، ولكن العلماء رفضوا الأخذ به حيث قالوا ان بهاء الله ساحر وربما قام بالمعجزة عن طريق السحر فلا يستطيعون أن يردوا عليه(١) •

تسفير بهاء الله :

أخذ الشيخ عبدالحسين الطهراني بالتعاون مع القنصل الايراني يسعى نحو ابعاد بهاء الله الى ناحية قاصية من البلاد العثمانية ، وقد اتصلا بالشاه في هذا السبيل ، فأوعز الشاه الى سفيره في اسطنبول بأن يقنع الحكومة العثمانية بذلك •••

وفي يوم ٢١ آذار من عام ١٨٦٣م بينما كان بهاء الله واصحابه يحتفلون بعيد النوروز في مزرعة الوشاش قريباً من بغداد ، وصل اليهم رسول من الوالي نامق باشا طالباً من بهاء الله أن يذهب الى السراي للمباحثة في أمر هام • وفي اليوم التالي عندما ذهب بهاء الله الى السراي قدم له نائب الوالي رسالة من الصدر الاعظم يدعوه فيها أن يكون ضيفاً على السلطان في اسطنبول ، وقدم اليه أيضاً مبلغاً من المال لنفقات سفره •

وفي ٢١ نيسان انتقل بهاء الله مع أفراد عائلته وعدد من أتباعه الى بستان النجيبية فخيموا فيها بضعة عشر يوماً استعداداً للرحيل الى اسطنبول• وتروي المصادر البهائية ان الوالي نامق باشا زار بهاء الله أثناء مكوثه في البستان لتوديعه ، وأظهر له أسفه الشديد ، وأبدى استعداده التام لكل

---

(1) Abdul - Baha (Events in Bahai History) in (The Bahai World) — Wilmette 1945 — Vol. 9, P. 160.

مساعدة يحتاج اليها وقال له : «كلما أردت شيئاً فليس عليك سوى أن تأمر ، ونحن مستعدون لتنفيذ أمرك » • ثم سلّم الوالي الى الضابط المكلف بمرافقة بهاء الله في سفره رسالة يأمر فيها جميع الولاة والموظفين الذين يمر بهم بهاء الله في طريقه أن يقدموا له أقصى ما في مقدورهم من احترام ومساعدة[1] •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن بهاء الله أثناء مكوثه في بستان النجيبية نزل عليه « الوحي » بأنه هو « الموعود » الذي كان الباب يبشر به في كتبه وألواحه ، فأعلن بهاء الله ذلك للأصحاب المجتمعين في البستان حيث ذكر لهم أن الباب بالنسبة له كيوحنا المعمدان بالنسبة للمسيح • فوافق الأصحاب على ذلك وأعلنوا فرحهم به •••

وفي ٩ أيار غادر بهاء الله ومن معه بستان النجيبية في قافلة تضم خمسين بغلاً وسبعة هوادج ، ويصحبها عشرة فرسان من جنود الحكومة مع ضابط يرأسهم • وسارت القافلة عن طريق كركوك والموصل الى ميناء صمصون على البحر الاسود ، ومن هناك ركبوا باخرة الى اسطنبول فوصلوها في ١٦ آب • وبعد أن مكثوا في اسطنبول أربعة أشهر انتقلوا منها بايعاز من الحكومة العثمانية الى مدينة أدرنة •

وفي مدينة أدرنة نشب نزاع شديد بين بهاء الله وأخيه صبح الأزل حول رئاسة البابيين انتهى الى انشقاق البابيين الى جماعتين متعاديتين ، فالجماعة التي تابعت بهاء الله أُطلق عليها اسم « البهائية » بينما أُطلق على الجماعة الأخرى اسم « الأزلية » • وسنحاول تلخيص النتائج التي تمخض عنها هذا النزاع في ملحق هذا الفصل •

نامق باشا وآل السعدون :

كان آل السعدون يرأسون اتحاداً عشائرياً قوياً في جنوب العراق

---

(1) Shoghi Effendi (op. cit.) P. 149—150.

يسمى بـ « المنتفق » ومركزه سوق الشيوخ ، وفي عام ١٨٦٠م أراد والي بغداد مصطفى نوري باشا تحويل منطقة المنتفق الى قائمقامية تابعة لبغداد بغية تدعيم السيطرة الحكومية على تلك الانحاء القاصية التي كانت زاخرة بالفوضى والتمرد • فعيّن الشيخ منصور السعدون قائمقاماً برتبة « مدير الاسطبل العامر » ومُنح لقب « بك » •

ومن طريف ما يروى في هذا الشأن أن عشائر المنتفق استاؤوا من هذا العمل اذ لم يهن عليهم أن يكون شيخهم موظفاً في الدولة مع وجود العداء الشديد الذي طال عليه الزمن بينهم وبينها ، فنظم شاعرهم بيتين من الشعر بلهجته البدوية هما :

يابـو علـي الموردة أميرنا صـاير مدير
عاداتنا ذبح العساجر وشعاد لوجانا المشير[1]

الواقع أن نظـام القائمقاميـة كان في أول أمره صـورياً حيث بقي الرئيس السعدوني على عادته جالساً في مضيفه يستقبل ضيوفه ، ويكـرم الشعراء الذين يمدحونه ، ويفصل في المنازعات العشائرية حسبما يقتضيه العرف العشـائري ، أما اللقب أو الرتبة الرسـمية التي حصـل عليها من الدولة فلم يعرها أهمية سوى ما يمكن أن ينتج عنها من زيادة في المهابة والنفوذ تجاه الموظفين وسكان المدن •

وعندما تولى نامق باشا الحكم في العراق في عام ١٨٦٢م أراد أن يجعل آل السعدون أكثر انصياعاً لنظام الحكومة فعيّن سليمان فائق محاسباً للمنتفق ، وكان هذا قائمقاماً في خانقين فنقله الى هنالك ليكون بمثابة رقيب أو مستشار للشيخ منصور السعدون • وقد أثار هذا التعيين آل السعدون وأحنقهم ، وكان أشدهم حنقاً الشيخ ناصر أخو الشيخ منصور ، فجمع أتباعه وصار يسعى نحو تحريك الفتنة وبث الاشاعات المغرضة ضد سليمان

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) بغداد ١٩٤٨ ـ ج١ ص٧٥ •

فائق وضد الحكومة •

أمضى سليمان فائق في وظيفته الجديدة ثلاثة أشهر تقريباً وهو في وضع مريب ينذر بالخطر ، واجتمع آل السعدون برئاسة الشيخ ناصر للتآمر على قتله ، وكادوا يقتلونه لو لم ينبر الشيخ منصور للدفاع عنه حيث أعلن قائلاً : ان سليمان فائق ضيفه وفي حمايته وهو لا يتردد عن قتل نفسه اذا نال سليمان فائق أي مكروه • واستطاع سليمان فائق أخيراً أن يهرب الى القرنة ناجياً بنفسه وقد أعانه في هربه داود أفندي السعدي الذي كان يتولى وظيفة الافتاء والتدريس في سوق الشيوخ آنذاك •

واشتد الاضطراب في منطقة المنتفق من جراء ذلك ، فأعلنت العشائر العصيان ، ونهبوا المواشي والسفن ، وقطعوا خطوط التلغراف التي كانت قد أنشئت منذ وقت قريب وكأنهم أرادوا بقطع تلك الخطوط تحدي الحكومة وارهابها • واضطر نامق باشا تجاه هذا الوضع المتأزم أن يلغي نظام القائمقامية وأن يعهد بمشيخة المنتفق الى الشيخ فهد السعدون ، غير أن العشائر لم تقبل بهذا الحل ولعلها استمرأت العصيان ، فأرسلت الحكومة اليها من العمارة باخرة فيها فوج من المشاة ومدافع صغيرة ، وقد تمكنت هذه القوة من مباغتة العشائر وأمطرتها بالقنابل فمزقت شملها •

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فقد وقعت واقعة أخرى بين العشائر وقوة حكومية كان شبلي باشا العريان قد أرسلها من الحلة ، وتمكنت العشائر من دحر تلك القوة والقضاء عليها اذ لم ينج منها الا نفر قليل • وحين سمعت عشيرة بني مالك بهذه الواقعة ، وكانت تسكن في جوار البصرة ، هاجمت قوات الحكومة فيها ، فاضطر سليمان فائق الذي كان يومذاك قائمقاماً في البصرة أن يستعين بأهالي البصرة لمقاومة العشائر فسلحهم وأحضر لهم المدافع ، واستطاع أخيراً أن يهزم العشائر حيث سقط منهم أكثر من ستمائة قتيل ، واضطرت العشائر أن تتقدم الى الحكومة صاغرة

تطلب منها « الدخالة » •

ثم أرسل نامق باشا من بغداد قوة كبيرة بقيادة حافظ باشا ، فوصلت تلك القوة الى المنتفق وضربت العشائر ضربة ساحقة ، ووقع الشيخ ناصر في الأسر فجيء به الى بغداد حيث فرضت عليه الاقامة الجبرية مع تخصيص مرتب له • أما الشيخ منصور فقد هرب مع بعض أتباعه الى الصحراء ، وظل يتجول فيها زهاء سنة كاملة ، ثم جاء بعدئذ الى البصرة يرجو « الدخالة » من سليمان فائق ، وجاء به سليمان فائق الى بغداد فأدخله على نامق باشا ، فقبل نامق باشا دخالته وعفا عنه[1] •

توديع نامق باشا :

في ١٠ تموز من عام ١٨٦٧م وصلت برقية من اسطنبول تستدعي نامق باشا للتوجه اليها حيث قد اختاره السلطان لكي يكون وزيراً للحربية• وبعد خمسة أيام من وصول البرقية تحرك نامق باشا من بغداد متوجهاً الى اسطنبول فخرج البغداديون لتوديعه •

يصف سليمان فائق روعة التوديع الذي جرى لنامق باشا فيقول : ان أهل بغداد خرجوا لتوديعه بكافة طبقاتهم ، رجالاً ونساءاً ، وصبياناً وأطفالاً ، وحينما تحركت العربة به بكي المودعون ونادوا بأعلى أصواتهم : « عليك عون الله فاذهب بسلام راشداً مهدياً ايها المقدام » • ويعلل سليمان فائق هذا التوديع الحار بانه اعتراف من البغداديين بما قام به نامق باشا من أعمال جليلة ، حيث كثر الانتاج الزراعي في عهده ، وراجت التجارة ، واستتب الأمن ، وانقمعت الفتن ، وانقطعت شهادة الزور ، وسدت أفواه النمامين ، وقطع دابر المفسدين[2] •

قد يسأل سائل : هل كان هذا القول صحيحاً ؟ وهل كان سليمان

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المنتفق) ص٣٢ ـ ٤٩ •

(٢) المصدر السابق ـ ص٥٢ •

فائق مخلصاً فيه ؟ يرجح في ظني ان سليمان فائق لا يختلف في قوله هذا عن أمثاله من المؤرخين الذين دأبوا على تفسير الأحداث كما يشتهون • ان من يعرف طبيعة المجتمع البغدادي في ذلك الزمان يستطيع أن يدرك مغزى اجتماع الجماهير فيه لتوديع حاكم أو لاستقباله • ولعلني لا أعدو الصواب اذا قلت ان العامة من أهل بغداد حين خرجوا لتوديع نامق باشا انما فعلوا ذلك من أجل التفرج كما هي عادتهم في مثل هذه المناسبة ، أما علماءبغداد وأعيانها فهم اعتادوا أن يخرجوا في استقبال كل حاكم وفي توديعه ، فتلك هي وظيفتهم الاجتماعية ، وهم يستفيدون منها كل الفائدة ، اذ هي تزيد من حظوتهم لدى الحكام من جهة ، وترفع من مقامهم في نظر العامة من الجهة الأخرى • وكثيراً ما نراهم يتبخترون أمام العامة وكأنهم يقولون لهم بلسان الحال : انظروا الينا !

ويخيل لي أن هؤلاء العلماء والأعيان عندما خرجوا لتوديع نامق باشا كانوا حريصين كل الحرص على اظهار العواطف « النبيلة » بين يديه ، فهو قد صار وزيرا رفيع الشأن وذا نفوذ في الدولة ولدى السلطان ، وهم يتصورون أنهم سيحتاجون اليه في يوم من الأيام ، وأنه سيساعدهم جزاء عواطفهم « النبيلة » • فلما تحركت العربة به هتفوا له وانهمرت الدموع من أعينهم • وفي هذه الحالة لابد أن يتجاوب العوام معهم فيهتفون مثلهم ويبكون وهم لا يدرون لماذا يهتفون ويبكون !

بين القاضي والقنصل :

حل تقي الدين باشا محل نامق باشا في ولاية بغداد ، وقد وصل الى بغداد بعد مغادرة سلفه اياها بأربعة أيام ، وكانت ولايته قصيرة الأمد اذ لم تدم سوى سنة واحدة وبضعة أشهر غير أنه أعيد الى بغداد بعدئذ في عام ١٨٨١م وظل فيها والياً مدة تزيد على الست سنوات •

لم يقع في ولاية تقي الدين باشا ــ في دفعتها الأولى ــ ما يستحق

الذكر سوى حادث نزاع جرى بين قاضي بغداد والقنصل الفرنسي ، وهو حادث جدير بالذكر لما له من أهمية اجتماعية .

ورد وصف لهذا الحادث في تقرير للقنصل الفرنسي أرسله الى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٠ تموز ١٨٦٨م حيث قال ما نصه :

« لقد قمت يوم عيد ميلاد جلالة السلطان بزيارة رسمية للوالي مرتدياً الحلة الرسمية كما تقضي بذلك العادة ... ولدى خروجي من داره عرجت على دار قائد القوات العسكرية . فاستقبلني الجنرال لدى باب الصالون استقبالاً في غاية اللطافة والحلاوة كما هو المعتاد ، ولدى دلوفي الى هذه الغرفة وقع نظري على القاضي وقد جلس القرفصاء بوقاحة وقلة حياء وتجاهل وجودي ولم يتزحزح من مكانه فينهض لتحيتي لدى دخولي كما فعل الآخرون . فدنوت منه بخطى قصيرة دون أن يجتاحني الغضب وبهدوء تام ، وبعد أن حدجته بنظراتي ببرودة مدى لحظة التقت عيناي بعينيه أمسكت بلحيته برقة ولطف واستجوبته بهذه الكلمات : (عجباً . أما يرى هذا الرجل قنصل الامبراطور نابليون ؟) . فظهر العجب والدهشة على وجه القاضي ، ولكنه ظل جالساً على مقعده . حينئذ أضفت هذه الكلمات وأنا باق على هدوئي ، ولكنني لم ألمس لحيته هذه المرة : (ان هذا الرجل يتبجح بأنه لم ينهض لتحية رجل مسيحي .. على رسله .. ولكن بوسعه بعد الآن أن يقول ان رجلاً مسيحياً هز لحيته عندما كان قاضياً لبغداد) . فامتعض الجنرال كل الامتعاض من سلوك القاضي وتوسل اليّ أن أجلس . فصمدت أمام توسلاته . لأن القاضي لم يبد عليه أنه يريد التنازل عن موقفه فينهض احتراما لي ولا أن يغادر القاعة . لذلك امتطيت جوادي من فوري عائداً مع ضباطي الى دار القنصلية » .

ثم كتب القنصل في ختام تقريره يصف القاضي بالتعصب الذميم وكراهية المسيحيين لكي يبرر بذلك سلوكه المتعجرف معه ، حيث قال :

« ان هذا الشخص منذ وصوله الى بغداد يتباهى على ملأ من الأشهاد بأنه

لا ولن ينهض أبداً من مقعده تحية لرجل مسيحي بالغاً ما بلغت درجة هذا الرجل المسيحي من الرفعة والوجاهة • ولذلك فقد تعمد الوقاحة التي مثلها أمامي مع سبق الاصرار ، لان هذا ما علمناه علم اليقين منذ عهد قريب • وقد أراد أن يرى الجمهور رأي العين تعلقه بحبل الدين الحنيف فدبر توقيت هذه المقابلة معي على أن تقع في يوم من أيام الاحتفالات ليظهر في ظرف رسمي احتقاره للمسيحيين حتى ولو كان ذلك تجاه البزة الرسمية التي تحمل رسم الامبراطور منقوشا ••• وقد جاء هذا المتعصب يحمل بين جنبيه هذه النية البلهاء منتظراً قدومي الى صالون قائد القوات العسكرية حيث لم أكن أتوقع أن أصادفه قط »[1] •

وعلى أي حال فان الحادث لم ينته بسلام وكاد يؤدى الى فتنة ، فان اهانة القنصل الفرنسي للقاضي بامساك لحيته كان أمراً في منتهى الأهمية عند البغداديين اذ أن اللحية كانت في ذلك الزمان تعتبر رمز كرامة الرجل• وقد ذكر بعض الشهود أن القنصل لم يكتف بامساك لحية القاضي حسبما ورد في تقريره بل عمد فوق ذلك الى شد القاضي من معصميه لكي يرغمه على النهوض • وحين انتشر الخبر بين الأهالي هاجوا وماجوا واعتبروا اهانة القاضي بمثابة اهانة للمسلمين جميعاً ، وعزموا على القيام بمظاهرة عدائية ضد الأجانب ، وعلى مهاجمة القنصلية الفرنسية وقتل القنصل ، غير أن المشير الذي وقع الحادث في داره أسرع بقوة من الجيش فأحاط بالقنصلية للحيلولة دون مهاجمتها • واهتم الوالي تقيالدين باشا بالأمر فاستدعى جماعة من أعيان بغداد وطلب منهم تهدئة الخواطر خوفاً من حدوث ما لا يحمد عقباه[2] • ثم قطع الوالي علاقته مع القنصل وطلب من الحكومة الفرنسية سحبه من بغداد فاستجابت الحكومة الفرنسية لطلبه ، كما أن الباب العالي في اسطنبول أصدر أمره بعزل القاضي • وبذا هدأت الحالة وعادت الأمور الى مجاريها •

---

(١) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) ص١١١ ـ ١١٣ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٥٦ •

ملحق الفصل

أشرنا في هذا الفصل الى ما حدث في أدرنه عام ١٨٦٣م من نزاع شديد بين بهاء الله وأخيه صبح الأزل حيث انشق البابيون الى جماعتين متعاديتين : بهائيـة وأزلية • وهنـا ينبغي اتماماً للفائدة أن نذكر شيئاً من النتائج التي تمخض عنها هذا النزاع وما آل اليه أمر الجماعتين في النهاية •

يمكن القول ان النزاع بدأ منذ اليوم الـذي أعلن فيهـا بهاء الله في بستان النجيبية أنه هو « الموعود » الذي بشر به الباب ، فقد أغضب هـذا الاعلان صبح الأزل ولكنه كتم غضبه حتى وصل الى أدرنة ، وهناك انفجر غضبه بتحريض من صديق له كربلائي اسمه السيد محمد الاصفهاني • وقد اشتد النزاع بين الفريقين الى حد أنهم صاروا يتخاصمون علانية أمام الناس ويدس بعضهم السم في طعام البعض الآخر •

كان صبح الأزل يزعم أن معه « وصية » موقعة من الباب وهي دليل قاطع على أنه وصي الباب وخليفته من بعده • أما البهائيون فيقولون أن هذه « الوصية » انما كتبها الباب لكي يجعلها تغطية يحافظ بها على حياة بهاء الله وينجيه من كيد الاعداء ، أي أن الباب في نظر البهائيين أراد أن يصون بهاء الله ويصرف عنه الانظار لكي لا يمسه الأذى من بعده فأظهر الخلافة لاخيه صبح الازل من باب التستر والتغطية • ويضـيف البهائيون الى ذلك قائلين : ان الباب حين عيّن صبح الأزل خليفة صورياً له حذّره وأنذره بأن هـذه الخلافة هي لأمد محـدود ، وهـي تبقى الى أن يعلن « الموعود » ـ أي بهاء الله ـ دعوته ، وحينذاك يجب على صبح الازل أن لا يعاند أو يعادي « الموعود » عند ظهوره ، والاّ فهو سوف يكون مطروداً من ربقة الايمان ، ولكن صبح الأزل لم يكترث لما قال له الباب بل عاند وكابر وبذلك خرج من ربقة الايمان •

في عام ١٨٦٨م تم الاتفاق بين الحكومة العثمانية والسفارة الايرانية على

التفريق بين الجماعتين ، فأبعدت بهاء الله مع اتباعه البالغ عددهم ثمانية وستين الى عكا ، بينما أبعدت صبح الازل مع اتباعه البالغ عددهم ثلاثين الى جزيرة قبرص .

وفي ٢٨ أيار من عام ١٨٩٢م مات بهاء الله في عكا وكان في الخامسة والسبعين من عمره ، فخلفه في رئاسة البهائيين حسب وصية منه ولده الاكبر عباس أفندي الملقب بـ « عبدالبهاء » . وقد وقع شيء من التنازع على الخلافة بين عبدالبهاء وأخيه المرزا محمد علي ، ولكن هذا التنازع لم يدم طويلاً اذ انتصر عبدالبهاء أخيراً ودان له البهائيون بالطاعة المطلقة .

كان عبدالبهاء يتميز بالحنكة والذكاء العظيم ، واستطاع في خلال سنوات معدودة أن يحوّل النحلة البهائية من دعوة محلية الى دعوة عالمية . وقد تجول في أوربا وأمريكا مرتين ، في عام ١٩١١م وعام ١٩١٢م ، فخلب عقول الكثير من الناس هناك واجتذبهم الى نحلته . فكان مظهره وهو في عمامته وجبته ولحيته البيضاء وصوته الخفيض ذا أثر فعال على الناس من الناحية النفسية .

وفي الوقت الذي كانت فيه النحلة البهائية تنتشر في العالم على يد عبدالبهاء ، ويتكاثر اتباعها ، كانت النحلة الأزلية على العكس من ذلك تسير نحو التضاؤل والاضمحلال ، ولم يبق الآن من الأزليين سوى عدد محدود قد لا يتجاوز المائتين أو الثلاثمائة واكثرهم يعيشون في ايران .

يقول صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » في وصف عبدالبهاء « ... ان الرجل ذو مقدرة قوية في استجلاب القلوب ببراعته وحسن خلابته ، وسعة اطلاعه على أخبار الأمم والملل ، ومخاطبة كل قوم بما يوافق اعتقادهم وذوقهم . واعتقادي أنه لولا العباس لما قامت للبابية البهائية قائمة لأنه ذو مكانة سامية في الحزم والسياسة ... »[1] .

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص٣٥٦ .

الفصل السابع

ولاية مدحت باشا

الواقع ان مدحت باشا لم يكن والياً عادياً كغيره من الولاة الذين حكموا العراق في العهد العثماني • انه كان واحداً من عظماء الرجال ، ولم تكن ولايته في العراق سوى فترة قصيرة من حياته المليئة بالاعمال التي غيرت مجرى التاريخ العثماني • وقد اشتهر بكفاحه في سبيل الحركة الدستورية ومقاومة الاستبداد ، وكان مصيره الموت خنقاً على نحو ما سوف نذكره في الجزء الثالث من هذا الكتاب • ان هذه السيرة جعلت من مدحت باشا « بطلاً شهيداً » في نظر أكثر الناس ولا سيما بعدما انتصرت الحركة الدستورية في البلاد العثمانية ، فلقد أصبحت سيرة مدحت باشا من جراء ذلك اسطورة تحيط بها هالة من المجد ويشيد بذكرها الناس في كل مناسبة •

حين يتحول أي رجل من رجال التاريخ الى « اسطورة » ينسى الناس سيئاته وأخطاءه ويبالغون في ذكر حسناته ومناقبه • وهذا هو ما حدث فعلاً في شأن مدحت باشا ، فقد صار في نظر الكثير من الكتاب والمؤرخين كأنه معصوم من الخطأ وكأن أعماله كلها حسنة لم يصدر منها أي قبيح اطلاقاً • ان مدحت باشا يشبه من هذه الناحية بعض عظماء التاريخ الذين تمجدهم أممهم فنحن اذ نقرأ سيرتهم الآن لا نجد فيها سوى المديح مع العلم أنهم كانوا في حقيقة أمرهم بشراً يصيبون ويخطئون • ان سيرة الرجل من هؤلاء يمكن أن نصفها بأنها « مغربلة » ، وهي سيرة لا يستسيغها المنهج العلمي الحديث كما لا يخفى •

أستطيع أن أقول بوجه عام ان مدحت باشا على الرغم مما تميز به من كفاءات وفضائل كان يرتكب أخطاءاً كثيرة من جراء ثقافته الناقصة وشدة شغفه بالحضارة الأوربية . والظاهر أنه كان ذا ولع مفرط بالتجديد وبتقليد الأوربيين ، وكأنه كان يعتبر الأوربيين المثل الأعلى الذي يجب أن يهتدي به كل من يريد اصلاح بلاده من الشرقيين . يقول المؤرخ لونكريك عنه أنه : « لم تخل أعماله العديدة التي اضطلع بها خلال سنى حكمه في العراق ... من آثار العجلة والأغلاط الاقتصادية الناشئة عن جهل بعض الأمور أو تناسيها ، لأنه كان في بعض الأحيان كثير الثقة ، حتى الافراط ، بكل ما يسمى تجديداً ، كما أنه كان يفضّل في أحيان أخرى الأمور الخلابة على الأمور المعقولة ... على أن نظره للأمور ، وفعاليته الوطنية ، واستقامته المطلقة ، كلها قد أنجزت أعمالاً أعظم من الأعمال التي تمكنت ثقافته الناقصة من تشويهها ... »[1] .

يخيل لي أن مدحت باشا كان لا يختلف من بعض الوجوه عن اولئك « الافندية » المغرورين الذين لم ينالوا من الثقافة الحديثة سوى معلومات ضحلة فصاروا يتحذلقون بها ظناً منهم أنهم استوعبوا جميع أسرار الكون والمجتمع وأنهم قادرون على اصلاح كل شيء بجرة قلم . لا ننكر أن مدحت باشا كان يمتاز على هؤلاء « الأفندية » بنزاهته ، ونشاطه الذي لا يحد ، وميله الى العمران والاصلاح ، ولكنه مع ذلك لم يكن خالياً من بعض الغرور والتظاهر . وصفه المستشرق بلنت وكان قد التقى به في دمشق أثناء ولايته عليها فقال عنه : « لم يكن ممتازاً بأي شيء في مظهره سوى أنه كان فخوراً مختالاً ، ولم أجد في أثناء محادثتي معه في موضوع تجديد تركيا واصلاحها أي عمق في أفكاره ، والواقع أنه كان أكثر من

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

الأتراك احتقاراً لكل ما هو عربي »[1] .

قراءة الفرمان :

وصل مدحت باشا الى بغداد يوم ٣٠ نيسان من عام ١٨٦٩م ، وأقيم الاحتفال له في السراي فقرىء « الفرمان » السلطاني بالتركية وهو طويل بدأ بالعبارات التقليدية وهي كما يلي بعد ترجمتها الى العربية حسبما جاء في جريدة الزوراء :

« الدستور المكرم ، والمشير المفخم ، نظام العالم ، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهام الأنام بالرأي الصائب ، ممهد بنيان الدولة والاقبال ، مشيد أركان السعادة والاجلال ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى ، ومن أفاخم وكلاء دولتي العلية ، رئيس شورى الدولة السابق ، الموجه لعهدة استيهاله واقتداره هذه المرة نظارة ادارة أمور الفيلق السادس الهمايوني مع انضمام ولاية بغداد ، والحائز الوسام العثماني من الرتبة الأولى ، وكذا الوسام المجيدي الهمايوني من الرتبة الاولى ، وزيري وسمير درايتي مدحت باشا أدام الله تعالى اجلاله .

« ليعلم أنه اذا جاءكم توقيعي الرفيع الهمايوني فليكن معلوماً أنه مما لا حاجة للاطناب في وصفه وبيانه هو أن خطة بغداد الجسيمة من أعظم القطع التي تتألف منها ممالك دولتي العلية المحروسة ومن مقتضيات أرضها ووضعها أنها صالحة لكل اعمار وترق . وهذا من المسلمات . ولما كانت أعز الآمال والمطالب لسلطنتي الهمايونية أن تحصل على كافة أسباب العمران ، وهذه الآمال لا تتم كما هو المرغوب فيه الا أن يقع الاختيار على من هو عارف ، قادر على ايصال ذلك بمنّه تعالى الى حيز العمل »[2] .

---

(١) الفريد سكاون بلنت (التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر) القاهرة بدون تاريخ - ج١ ص١٢٢ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ - ج٧ ص١٦٠ .

وبعد الانتهاء من قراءة « الفرمان » ألقى مدحت باشا خطاباً طويلاً بالتركية حث الناس فيه على العمل في سبيل الزراعة والتجارة والصناعة ، وذكّر الموظفين أنهم مكلّفون بخدمة الأهلين والعمل من أجل سلامتهم وسعادتهم • ومما يلفت النظر في الخطاب أنه وضع اللوم في الخراب السائد في العراق على عاتق الرعية لأنهم قصروا في عملهم ولم يسلكوا سلوك الأمم الراقية • فهو يقول في ذلك ما نصه : « ولكن الخراب المستولي وعدم النشاط ناجم من تقصير الأهلين ، فلم يسلكوا ما سلكته الأمم ، وانما تُرك كل امرىء وشأنه ، وصارت الامة لا تأبه بما أخذت به الأمم •• والا ّ فحضارة القطر الماضية وصناعته القديمة لا تزال آثارها مشهودة ••• ولا منجاة من هذه الورطة الا بالانقياد للمتبوع الأعظم ، ومن قدّمه من أصحاب المناصب ، بأن يُطاعوا ، ويُسلّم اليهم بما أرادوا ، وهو قد حافظ على حقوق الأهلين عموماً ، وراعى استراحتهم ، والعدل فيما بينهم ، وأرسل الولاة لهذا الغرض ، فلا يتطلب أكثر من التسليم لهم والانقياد بالطاعة ، ليتمكنوا من السعي والحصول على المبتغى »(١) •

ان هذا الخطاب الذي افتتح مدحت باشا به حكمه في بغداد لم يكن يخلو من اشارة ضمنية الى أن داء العراقيين يكمن في قلة طاعتهم للسلطان ، أي أنهم يتصفون بالعصيان والتمرد على الحكومة ، ولا منجاة لهم الا ّ بأن يقتدوا بالأمم الاخرى فيتعودوا على الطاعة والنظام • ان هذا قول طالما سمعناه يتردد على ألسنة الناس منذ صدر الاسلام ، وكان قد استقر في أذهان رجال الدولة العثمانية أن العراق تسوده النزعة العشائرية فهو يتمرد على الحكومة حالما يلمح ضعفاً فيها ، والمظنون أن مدحت باشا كان يحمل مثل هذا الرأي عند وصوله الى بغداد • يقول سليمان فائق : ان مدحت باشا في بداية ولايته في العراق كان يعتقد أن اصلاح العشائر لا يتم الا ّ

---

(١) المصدر السابق ـ ج٧ ص١٦٣ •

بالقوة الترهيبية وبالسيف ، ثم أدرك خطأ هذا الرأي أخيراً[1] .

أعماله الاولى :

من أوائل الأعمال التي قام بها مدحت باشا هو التقصّي عن الموظفين المعروفين بالرشوة لمعاقبتهم من أجل أن يجعلهم عبرة لغيرهم . والظاهر ان هذا كان أول عمل من نوعه قام به وال عثماني في العراق ، اذ المعروف عن معظم الولاة أنهم كانوا يشاركون الموظفين في الرشوة أو هم على الأقل يغضون النظر عنها ويتساهلون فيها حسب مبدأ « الخطية » الذي كان ولا يزال شائع الاستعمال في العراق .

بدأ مدحت باشا بقائمقام راوندوز ، ثم أعقبه بمدير ناحية عانه وقاضيها ، وساقهم للمحاكمة . وحين علم بأن متصرف كربلا وبعض الموظفين معه مصابون بداء الرشوة أيضاً سافر بنفسه الى كربلاء ، وبعد التحقيق معهم عزل المتصرف حالاً وأحاله الى المحكمة . ثم انتهز فرصة وجوده في كربلا فأمر بتخطيط محلة جديدة فيها لتخفيف ما كان فيها من زحام ، وكانت تلك أول محلة في العراق تحتوى على شوارع عريضة ومستقيمة نسبياً ، ولا تشبهها في ذلك سوى بلدة الناصرية التي أسست في عهد مدحت باشا أيضاً ـ كما سنأتي اليه فيما بعد .

ويروى سليمان البستاني في كتابه « عبرة وذكرى » طريفة عن مدحت باشا جديرة بأن تذكر هنا ، وخلاصتها أنه في أوائل أيامه ببغداد جمع أعضاء مجلس الادارة واقترح عليهم أن يكتبوا الى الباب العالي استئذاناً بزيادة الضرائب ، فوافقه الأعضاء على اقتراحه وكتبوا بذلك محضراً ختموه باختامهم . وبعد أيام حين عاد المجلس الى الانعقاد عرض عليهم مدحت باشا اقتراحاً مضاداً لاقتراحه الأول وهو أن يكتبوا الى الباب العالي

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المنتفق) ترجمة محمد خلوصي الناصري ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص٦٣ ، ٦٧ .

قراراً يذكرون أنهم تسرعوا في قرارهم الأول وأنهم وجدوا الضرائب الحالية ثقيلة فلا يجوز زيادتها • وأسرع أعضاء المجلس فوافقوا على ما قال وختموا المحضر المطلوب باختامهم • وهذا أمر كثير الحدوث لدى مجالس الادارة في العراق أو هو بالأحرى العادة الجارية فيها ، حيث يسرع الأعضاء الى الموافقة على كل يرتأيه الرئيس حقاً أو باطلاً ، وأراد مدحت باشا أن يلقنهم درساً في ذلك فأخرج المحضرين المتناقضين ومزقهما أمامهم[1] •••

ثورة في بغداد :

في أوائل شهر ايلول من عام ١٨٦٩م – أي بعد انقضاء أربعة أشهر على ولاية مدحت باشا في بغداد – شبت ثورة شعبية فيها ، وكان السبب المباشر لتلك الثورة هو ما عزم عليه مدحت باشا من فرض التجنيد الاجباري على سكان بغداد •

كان مدحت باشا على علم بالصعوبات التي جابهت عمر باشا في أمر التجنيد الأجباري ، فارتأى أن يشرع بتطبيق نظام التجنيد على أهل بغداد أولاً قبل غيرهم من سكان العراق ، فأمر بتشكيل لجان للتجنيد فيها قوامها ضباط عسكريون على أن يعاونهم مختارو المحلات • ويبدو أنه كان واثقاً من طاعة أهل بغداد لوجود القوات الحكومية بالقرب منهم •

أصابت « القرعة » ثلاثمائة مكلف ، ولكن هؤلاء رفضوا الانصياع عندما استدعوا الى الخدمة ، وأخذت بوادر النقمة والتحفز تظهر هنا وهناك في بعض المحلات • وكان على رأس المحلات الثائرة محلة باب الشيخ – كما هي دأبها في كل مرة – تتلوها محلة قنبر علي • وحمل الكثير من الأهالي أسلحتهم وقاموا بمظاهرة تتقدمهم الطبول وهم « يهوسون » تحدياً للحكومة ، وتوجهت بعض العصابات المسلحة منهم نحو الأسواق فصارت

---

(١) سليمان البستاني (عبرة وذكرى) القاهرة ١٩٠٨ – ص٦٨ – ٦٩ •

تنهب الدكاكين ، ثم سارت نحو محلات اليهود والنصارى بغية العيث فيها •

كان مدحت باشا جالساً في مقره قبيل غروب الشمس فسمع لعلعة الرصاص[1] ، ولم يكد يتبين جلية الخبر حتى أسرع بنفسه الى ثكنات الجيش فصار يوزع السلاح بيده على الجنود ، وأرسل قوة منهم الى محلات اليهود والنصارى وبيوت الاجانب لحمايتها وكأنه خشي أن يحدث فيها ما حدث في الشام قبل عشر سنوات من مذابح فظيعة • ثم أمر بقطع الجسر ومنع عبور النهر بأية وسيلة ، وأرسل قوة من الخيالة لكي تحيط ببغداد وتلقي القبض على كل هارب منها أو داخل اليها بغية النهب[2] •

وركز مدحت باشا اهتمامه على محلتي باب الشيخ وقنبر علي ، فوجه الى الاولى منهما أربع سرايا من الجنود مع مدفع تحت قيادة اللواء سامح باشا ، كما وجّه الى الثانية مثل ذلك تحت قيادة اللواء فيضي باشا • والظاهر ان الأهالي أدركوا وخامة العاقبة فتفرقوا قبل أن يطلق عليهم الجنود طلقة واحدة • وعندما حل الظلام ألقت الحكومة القبض على مائة وثمانين رجلاً اتهموا بأن لهم ضلعاً في اثارة الجمهور ، فمن كان يحترف « الشقاوة » منهم أُدخل في سلك التجنيد ، أما الباقون فقُدموا للتحقيق والمحاكمة[3] •

ثم استُدعي بعدئذ المكلفون الثلاثمائة الذين كانت القرعة قد أصابتهم فلبوا الدعوة طائعين • وكان ذلك ايذاناً ببدء تطبيق التجنيد الاجباري على العراق كله ، فصارت الحكومة تستدعي المكلفين من جميع الألوية ولم يُستثن منها سوى ألوية المنتفق والدليم والعمارة باعتبار أن أكثر السكان فيها هم من العشائر الرحالة[4] •

---

(١) مدحت باشا (مذكرات مدحت باشا) ترجمة كمال بك حتاتة ــ القاهرة بدون تاريخ ــ ص١٥٨ •

(٢) صديق الدملوجي (مدحت باشا) بغداد ١٩٥٣ ــ ص٣٦ •

(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٠١ ــ ٢٠٢ •

(٤) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٣٦ •

ثورة الفرات الاوسط :

لم يكد مدحت باشا ينتهي من ثورة بغداد حتى هبت في الفرات الأوسط ثورة أخرى أشد خطراً وأوسع نطاقاً ، وهي التي عرفت بـ « واقعة الدغارة » .

كان سبب هذه الثورة لا يختلف عن سبب اكثر الثورات العشائرية التي زخر بها تاريخ العراق في العهد العثماني ، وهو النزاع حول الضرائب . ففي تلك السنة امتنعت عشيرة عفك عن دفع الضريبة المفروضة عليها بحجة ان المزارع تلفت من جراء الفيضان . وكانت العشيرة تابعة يومذاك للحلة ، فسار متصرف الحلة توفيق بك نحوها تصحبه قوة عسكرية مؤلفة من ٣٨٠ جندي وعلى رأسها ضابطان كبيران ، وعند وصوله الى مقربة من العشيرة أرسل يستدعي اليه رؤساءها ، فجاءه أحد أولئك الرؤساء وهو الحاج طرفة الأحمد وأخذ يعتذر اليه ، فلم يتحمل المتصرف سماع أعذاره وقام اليه فلطمه على عينيه ، وكان ذلك ايذانا بنشوب الثورة[١] .

ولسليمان فائق رأي آخر في تعليل الثورة خلاصته أن مدحت باشا كان له معاون يعتمد عليه كل الاعتماد اسمه رائف افندي وهو الملقب بـ « تويسز » أي عديم الشعر ، وكان لهذا المعاون صديق يهودي يُدعى عزرا الصراف ، فكان عزرا هذا من الأبالسة يتوسط في رشوة الموظفين ويعاون على سرقة أموال الحكومة ، وقد توسط لتعيين متصرف للحلة متفسخ فلم يكد يصل هذا المتصرف الى محل عمله حتى باشر بنهب الأموال واكراه الرعية على اعطاء الرشاوي بدعاوى مزورة فاستعرت نيران العصيان هنالك من جراء ذلك[٢] .

مهما يكن الحال فالثورة بدأت بانتصار ساحق نالته عشيرة عفك ،

---

(١) ودّاي العطية (تاريخ الديوانية) النجف ١٩٥٤ ـ ص٥١ ـ ٥٣ .
(٢) سليمان فائق (المصدر السابق) ص٥٧ ـ ٦٠ .

فقد طوقت هذه العشيرة القوة التركية ثلاثة أيام ثم هاجمتها أخيراً فقتلت المتصرف والضابطين اللذين معه ومعظم جنوده ، ولم يبق من القوة التركية سوى قليل من الجنود فروا على وجوهم • وقد أدى هذا الانتصار الى تضخم الثورة وتكاثر المنضمين اليها من العشائر المجاورة حتى قيل ان عدد الثوار بلغ مائة ألف[1] •

اهتم مدحت باشا للأمر ، فأسرع بارسال ما كان متيسراً لديه من قوات نظامية وغير نظامية الى الديوانية ، واستعان بالعشائر الموالية للحكومة كعشائر المتنفق التي كان يرأسها ناصر السعدون • أما العشائر الثائرة فقد كانت آنذاك قد طوقت الديوانية ، وقطعت أسلاك التلغراف ، ونهبت المؤون والمعدات التي كانت مرسلة من الحلة الى القوات المحصورة في البلدة •

أدرك مدحت باشا حراجة الموقف فسافر الى الحلة ليشرف بنفسه على قيادة المعارك ، وقد اشتد غضبه حين علم بأن قائد القوات المحصورة في الديوانية يريد أن يعقد صلحاً مع الثوار ، فأمر بعزله حالاً وعين مكانه قائداً آخر •

وجد مدحت باشا أن اتخاذ العشائر الثائرة مقرها وسط الاهوار قد ساعدها على الغلبة اذ هي تضرب ليلاً ثم تختفي نهاراً في الأهوار بين أحراش القصب والبردي فلا يمكن الوصول اليهم ، فارتأى أن يقطع المياه عنهم لكي تجف أراضيهم • أسرع بمن كان معه من جنود ومدافع الى صدر نهر الدغارة وبدأ يعمل على اهالة التراب فيه بغية منع مرور الماء منه • وقد حاولت العشائر مهاجمته وعرقلة عمله دون جدوى ، اذ أن مدافعه كانت شديدة الفتك فيهم حيث منعتهم من التقرب منه • وبعد مرور ثلاثة عشر يوماً استطاع أن يبني سداً محكماً في صدر النهر ، ثم بنى عليه قلعة حصينة جهزها بالمدافع • وعند هذا أدرك الثوار ما ينتظرهم من مصير وخيم

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢١١ •

فطلبوا منه الأمان ، ولابد أن المنافسات والأحقاد الموجودة بين الرؤساء كان لها أثر في هذا الاستسلام •

قُدّم الى المحكمة العسكرية اثنان من الرؤساء هما : دنان رئيس عشيرة عفك، وبديوي رئيس عشيرة الدغارة، ثم شُنقا على جسر الديوانية ـ كل واحد منهما على جانب منه • وأُلقي القبض على بعض الرؤساء الآخرين فسُجن بعضهم وأُبعد البعض الآخر الى جزر بحر ايجه وبلاد الروملي[1] •

ملاحظة اجتماعية :

ان انتصار مدحت باشا على ثورة الفرات الأوسط بعث في نفسه الفخار والغبطة ، فنظم بيتين من الشعر هما :

فلا والقنا والمرهفات البواتر ... فلا ترة أبقيت لي عند واتر
أيذهب خصم في دم لي مضيع ... ولست أذيق الخصم حد البواتر

ولست أدري هل نظم مدحت باشا نفسه هذين البيتين أم نظمهما له أحد الشعراء المقربين منه • وعلى أي حال فقد صار البيتان مدار حديث الناس في مجالس بغداد وأنديتها الأدبية وأخذ الشعراء يتبارون في تشطيرهما وتخميسهما كما هي عادتهم في مثل هذه المناسبة • يقول الشاعر الحلي المعروف السيد حيدر الحلي في ديوانه :

« ولما قدم حضرة قطب الوزارة ، ومؤمل الامارة ، والي بغداد جناب أحمد مدحت باشا ، نظم بيتين يتحمس بهما ••• فكتب اليّ الحاج مصطفى كبة الى الحلة يستحثني بعد الالتماس على تشطيرهما وتخميسهما وأن أنثر مع ذلك نبذة من مدح الوالي المشار اليه ، وأن أنظم من الشعر مما يحسن به الثناء عليه ، وذكر أنه حضر في تلك المجالس ، وجرى ذكر

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٣٣ ـ ٣٥ •

البيتين فضمن التشطير والتخميس ، ثم ألزمني بذلك وحثني على الاستعجال فأجبته ... » ثم أخذ السيد حيدر يمدح الوالي مدحاً عظيماً فوصفه بأنه : « ألحف بيضة الاسلام جناح ظله ، وأقام دون حوزة الملك سداً من زبر آرائه ونصله ، ومد غطاء الأمن على الدين ، وبسط العدل على جميع المسلمين ... حتى هتف لسان العراق ، الآن بزغت شمس العدل باهرة الاشراق ، ودرّ حلب البراعة ، ونطق بعد الافحام لسان اليراعة ، واستطيب نفحات غوالي الفضل ، بعدما منع من شمها زكام الجهل ، وقام وزن الآداب، بعدما كسدت منها البضائع ، حين نجم مشترى زهرة الكمال في حضرة فلكية المطالع ... » .

وبعد أن كال السيد حيدر أفانين المديح على مدحت باشا خمس البيتين وشطرهما ، ثم خمس التشطير أيضاً . وهو لم يكتف بذلك بل نظم قصيدتين في مدح مدحت باشا بناءاً على التماس من الحاج مصطفى كبه. وفيما يلي أبيات نموذجية من احدى القصيدتين :

أثنت عليك بأسرها الدول ... وتشوقتك الأعصر الأول

وأعدت للايام جدّتها ... فاليوم عمر الدهر مقتبل

أوسعتها وفضلتها كرماً ... عنه يضيق السهل والجبل

وسبرت غور زمانها فغدا ... لا جرح الاّ وهو مندمل

ما في الحياة لخالع أمل ... انت الحمام وسيفك الأجل

ان تنتعل قمم الملوك فقد ... توّجتهم بالفخر لو عقلوا

قل للقبائل لا نعدّكم ... جمع القبائل كلها رجل

أسد قلوب عداه من فرق ... ذهل ونابل فكره ثعل

يا ابن الوزارة أنت أوحدها ... لاراعها بفراقك الثكل

فأقم وبدرك كامل أبداً ... والبدر منتقص ومكتمل

في دولة صلحت وزارتهـا   لك فهي تحسدها بك الدول[1]

نقف هنا لنتساءل : كيف جاز للسيد حيدر الحلي وهو الرجل المعروف بالفضل والعزوف عن الدنيا أن يمدح والياً عثمانياً قضى على ثورة شعبية وشنق زعماءها ؟! •

الواقع أن هذا الذي فعله السيد حيدر قد يدعو الى العجب في زماننا أما في زمانه فكان أمراً مألوفاً لا داعي للعجب منه • ان أكثر الشعراء ، أو كلهم تقريباً ، كانوا على هذه الشاكلة اذ هم يمدحون ويذمون فلا يبالون بما في قولهم من غلو أو باطل أو كذب • وجرى الكتاب على ذلك أيضاً حيث شغلتهم عباراتهم المنمقة المسجوعة عما في الحياة من حقائق صارخة • فقد كان العرف السائد بين الناس هو أن يكون الاهتمام بجودة النظم وتنميق العبارة اكثر من الاهتمام بما وراء ذلك من حق أو باطل • وما زال بعض الشعراء والكتاب يسيرون على هذه الوتيرة حتى الآن •

وهناك ناحية أخرى ينبغي أن لا ننساها في هذا الصدد هي أن السيد حيدر الحلي كان ينظر الى واقعة الدغارة بمنظار رجل من أهل المدن تجاه العشائر المجاورة • أي أنه لم يكن ينظر الى تلك الواقعة كما ننظر اليوم الى ثورة شعبية ضد حكومة جائرة ، بل كان على العكس من ذلك يعتبرها كأنها حركة عصيان من عشائر متمردة هدفها الغزو والنهب وقطع الطريق•

يمكن القول بوجه عام انه كان بين أهل المدن والعشائر في العراق عداء واحتقار متبادل على وجه من الوجوه ، فكثيرا ما كانت العشائر تتحين الفرص لغزو المدن ونهبها ، كما كان أهل المدن من جانبهم يبنون الاسوار حول مدنهم بغية حمايتها من غزو العشائر • وعندما وقعت واقعة الدغارة كان الكثير من أهل المدن القريبة يتمنون انتصار الحكومة وانكسار العشائر

---

(١) حيدر الحلي (ديوان السيد حيدر الحلي) بغداد ١٩٦٤ — ج٢ ص٤١ — ٤٧ ، ٢٠١ — ٢٠٤ •

لأنهم يدركون ماينتج عن انتصار العشائر من فوضى واباحة وتقتيل •

يروي الشيخ يوسف كركوش الحلي عن رجل من أهل الحلة عاصر واقعة الدغارة أنه قال في سبب تلك الواقعة ما نصه : « ان مدحت باشا زار منطقة الديوانية وتجول في عشائرها وجلس في رباعها ، فشاهد أهل الأرياف لا يعرفون لبس السراويل ، وحين يجلسون تبدو عوراتهم ، فأمر المتصرف أن يلزمهم بلبس السراويل ، فامتنعوا عن لبسها وقاموا ببعض الأعمال التي تمس بكرامة الحكومة ، فقام المتصرف بتأديب الفاعلين • وبذلك استعرت نيران الفتنة فتحولت الى ثورة جامحة ذهب ضحيتها الألوف من الطرفين وقتل فيها متصرف الحلة توفيق ••• »[1] •

ان هذا السبب الذي جاء به الرجل الحلي في تعليل واقعة الدغارة ليس بالسبب الوجيه كما لا يخفى ، انما هو يصلح لتمثيل رأي أهل الحلة في تلك الواقعة ، اذ هم ينسبون سبب الواقعة الى امتناع العشائر عن لبس السراويل والى اصرارهم على كشف عوراتهم في مجالسهم • وهذا يدل على احتقار أهل الحلة للعشائر الثائرة ، وعلى وضع اللوم عليهم بدلاً من وضعه على الحكومة •

تفويض الأراضي :

ان واقعة الدغارة لفتت نظر مدحت باشا الى مشكلة العراق الكبرى أي مشكلة العشائر • فالعشائر في ذلك العهد كانوا يؤلفون ثلاثة أرباع سكان العراق تقريباً ، وكانوا في قتال متصل ، فيما بينهم تارة ، وفيما بينهم وبين الحكومة تارة أخرى • وكان رأي مدحت باشا أن أهم عامل وراء هذا الوضع الاجتماعي الشاذ هو عدم تملك العشائر للأرض حيث جعلهم ذلك يتنازعون على الأراضي من غير اهتمام باصلاحها أو اعمارها ، وجعل

---

(١) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) النجف ١٩٦٥ — ج١ ص١٤٥ •

الكثير منهم يعودون الى حالة الترحل والبداوة[1] •

جاء في مذكرات مدحت باشا ما نصه : « تعرضت بلاد العراق للحروب والغارات وتهديد الأمن وكثر الثوار في جهـات هندية والحلة وغيرهمـا كما لا يخفى على عارف أحوال تلك البلاد • وقد اختلفت الأفكار في شأن هذه الثورات فمن قائل ان أهالي البلاد هم من الشيعة وسبب شقهم عصـا الطاعة هو أن رجال الحكومة يخالفونهم في المذهب ، ومن قائل ان رؤساء القبائل يحثون الأفراد على مقاتلة الحكومة للتخلص من الأموال الأميرية • وهذه الاسباب غير كافية لأنه لا يعقل أن هذا العدد الكبير يثور ويهدر دمه باشارة المشـايخ ، والذي ينظر الى حالة البلاد يتضـح له أن سبب هـذه المخاصمات هي مسألة الأراضي ••• »[2] •

وقد استقر رأي مدحت باشا أخيراً على ان يكون حل تلك المشكلة المستعصية هو في تفويض الأراضي الأميرية الى العشائر ببدل زهيد • وانكب مدحت باشا على هذا الحل يسعى فيه بكل جهده ، فأسس دائرة للتسجيل العقاري سميت بـ « دائرة الطابو » ، وأخذ يشجع الرؤساء والاغنياء على التسجيل ويرغبهم فيه بكل وسيلة •

ظن مدحت باشا أن مشروعه هذا ـ أي مشروع تفويض الأراضي ـ سيؤدي الى تغير جذري في المجتمع العراقي ، وأن العشائر سيتحولون بـه دفعة واحدة من وضعهم القديم الى وضع جديد حيث يصبحون ـ في زعمه ـ مواطنين صالحين يعملون في زيادة ثروة البلاد الزراعية وتنتهي الخلافات المزمنة بينهم •

تبين أخيراً أن هذا كان وهماً من الاوهام • ويذهب معظم المؤرخين الى أن مشروع تفويض الاراضي كان من جملة الأخطاء الكبيرة التي تورط

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٣٨ ـ ٣٩ •

(٢) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٦٣ •

فيها مدحت باشا ، فهو قد تحمس للمشروع واندفع فيه دون أن يراعي ملائمته للظروف الاجتماعية التي تحيط به • لا ننكر أن المشروع قد أصابه شيء من النجح في بعض المناطق من العراق ، ولكنه في الغالب قد انتهى الى الاخفاق ، وربما صح القول انه أدى الى تعضّل مشكلة العشائر بدلاً من علاجها •

يمكن أن نعزو فشل المشروع الى عاملين رئيسين : أولهما تفسخ الجهاز الاداري ، والثاني العداء الموجود بين الشعب والحكومة • ولا يخفى ان هذين العاملين هما من أهم العوامل في فشل أي مشروع حكومي في اي بلد من بلاد العالم •

فمن حيث العامل الأول نرى أن الموظفين الذين أُوكل اليهم أمر تسجيل الأراضي عبثوا به عبثاً ذريعاً تحت تأثير الرشوة أو المراعاة الشخصية كما هو دأبهم في معظم أعمالهم • فكثيرا ما كانوا يبدلون اسم شخص بآخر ، واذا سجلوا حدود أرض جعلوها كما يشاء الشخص المفوض له حتى ان بعض الأراضي حُدّدت بتعابير غريبة كأن يقال « من مطلع الشمس الى مغيبها » أو « من الجاري الى الذاري »[1] • ويبدو أن بعض الاشخاص الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف انتهزوا الفرصة فسجلوا بأسمائهم مساحات شاسعة من الأراضي وذلك بعد أن دفعوا شيئاً من الرشوة الى الموظف المسؤول ، فادى هذا فيما بعد الى ظهور الكثير من القضايا المعقدة والدعاوي التي لا نهاية لها •

اما من حيث العامل الثاني ـ أي عامل العداء بين الشعب والحكومة ـ فالملاحظ أن أكثر العشائر الذين كانوا يتصرفون بالأرض فعلاً لم يعيروا مشروع التفويض أي اهتمام ولم يستفيدوا منه ، بل كانت نظرتهم اليه

---

(١) عبدالله الفياض (مشكلة الأراضي في لواء المنتفك) بغداد ١٩٥٦ ـ ص ٤٧ •

كنظرتهم الى سائر مشروعات الحكومة مليئة بالريب والحذر • يجب أن لا ننسى أن العشائر العراقية اعتادوا منذ زمان بعيد على اعتبار الحكومة عدوة لهم ، ولم يكن من المعقول في نظرهم أن تقوم الحكومة بعمل نافع لهم، والقاعدة عندهم أن العدو لا يمكن أن ينفع عدوه •

وعندما جاءهم مدحت باشا بمشروعه لم يستطيعوا أن يتصوروا أنه في مصلحتهم ، ولعلهم ظنوا أن وراء المشروع قصداً خفياً ضاراً بهم ، وقد ذهبت تأكيدات مدحت باشا لهم أدراج الرياح حيث حسبوه كغيره من الحكام لا يريد بهم غير السوء •

ان الذين استفادوا فعلاً من المشروع هم نفر من أغنياء المدن وبعض رؤساء العشائر الذين كانت لهم صلة وثيقة بالحكومة ، وكان أكثرهم استفادة آل السعدون في المنتفق • فالمعروف عن مدحت باشا أنه عندما فكر بالمشروع في البداية استدعى اليه ناصر السعدون وأقنعه بفائدته ، فكان ناصر هذا من أشد الناس اندفاعاً في تسجيل الأراضي باسمه وفي حثّ قومه على الاقتداء به •

يقول علي الشرقي : ان ناصر السعدون كان ينصح جميع عشائر الغراف والمنتفق بأن يسجلوا الأراضي التي يتصرفون فيها بأسمائهم ، وكان يحذّرهم من مغبة اهمالهم لهذا الأمر لأنه سيؤدى أخيراً الى تجريدهم من تلك الأراضي حيث يصبحون غرباء في بلادهم ، وكان يبالغ في نصحهم في هذا الشأن ، غير أن اولئك البسطاء امتنعوا أشد الامتناع وتوهموا في ذلك وساوس كثيرة ، فكان يشفق عليهم بالرغم من ذلك ويرسل عليهم الزعماء لاقناعهم فكانوا يفرّون من وجهه[1] •

وانتهى الأمر أخيراً بأن صار الكثير من أراضي المنتفق مسجلاً باسماء آل السعدون ، فأدى ذلك الى نشوء النزاع الطويل هنالك بين آل

---

(١) علي الشرقي (ذكرى السعدون) بغداد ١٩٢٩ ـ ص٤٥ ـ ٤٦ •

السعدون المالكين للأرض رسمياً والعشائر المتصرفين فيها فعلياً ـ وهو النزاع المشهور الذي أقلق الحكومة زمناً طويلاً ولم يُحسم الا مؤخراً •

تشييد مدينة الناصرية :

يبدو أن مدحت باشا كان يسعى نحو ادخال معالم الحضارة الى العراق بكل وسيلة ممكنة ، وكان مما فكر فيه من هذه الناحية هو تحويل بعض شيوخ العشائر الى موظفين رسميين ، وقد وقع اختياره على ناصر السعدون ليجعله نموذجاً في هذا السبيل •

رأينا في الفصل السابق كيف أن ناصر السعدون قاوم هذا الاتجاه في عهد نامق باشا ، ولكننا نراه في عهد مدحت باشا يرضى ويخضع لأمر الحكومة • يقول علي الشرقي : ان مدحت باشا « استقدم الشيخ ناصر الى بغداد ورغّبه في تحويل المشيخة الى متصرفية وولاية ، وحسن له الترغيب في بناء حاضرة للمنتفق وايجاد أساليب حضرية • وقد اقتنع الشيخ ناصر بأن الأيام قد دالت وأن انقلاباً اجتماعياً واقع لا محالة • فأراد أن يستقبله ولا يقاومه • وسرعان ما تنازل لقبول الجديد وصارت المشيخة متصرفية ••• »[1] •

صدر الأمر بتعيين ناصر السعدون متصرفاً للواء المنتفق ، واختير الموظفين الذين يساعدونه في الادارة ، فعيّن عبدالرحمن بك الذي كان قائمقام الهندية معاوناً له ، والحاج سعيد أفندي محاسباً ، وعبدالقادر أفندي الآلوسي قاضياً • وفي أواخر شهر آب من عام ١٨٦٩م ركب هؤلاء الباخرة النهرية من بغداد ، وكان برفقتهم بعض الموظفين الصغار ، فوصلوا البصرة ثم توجهوا منها نحو المنتفق •

كانت بلدة سوق الشيوخ هي مركز اللواء في البداية ، فارتأى مدحت

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٨ •

باشا الانتقال منها الى مدينة أخرى تشاد على الفرات الى الشمال منها • وقد شُرع ببناء المدينة فعلاً حيث وضع تصميمها مهندس بلجيكي اسمه « جولس تلي »[١] ، وسميت بـ « الناصرية » نسبة الى ناصر السعدون • ومن الممكن القول ان « الناصرية » أول مدينة تشاد في العراق على الطراز الحديث ، اذ هي ذات شوارع عريضة مستقيمة وقد تقاطعت تقاطعاً هندسياً جميلاً ، وهذا أمر لم يكن مألوفاً في العراق يومذاك •

كان أول بناء أقيم في المدينة الجديدة هو سراي فخم للحكومة ، وقد تبرع ناصر السعدون لاكمال بناء المدينة بثمانمائة وخمسين كيساً ، وكان ذلك يساوي (٤٢٥٠) ليرة ذهب ، ثم تبرع كذلك بما يقارب الألف ليرة لانشاء جسر من القوارب يربط المدينة بالجانب الآخر من النهر • وجاء على أثر ذلك نعوم سركيس[٢] الذي كان صرافاً لناصر السعدون وأمينا لخزانته فبنى داراً لسكناه وكذلك بنى أسواقاً وخانات ومقاهياً ، فاقتدى به الناس وأخذوا يبنون الدور والدكاكين تدريجاً •

يروى عن منصور السعدون ـ وهو الاخ الاكبر لناصر السعدون ـ أنه كان يعارض في تاسيس مدينة الناصرية معارضة شديدة اذ كان يرى أن ذلك سيؤدى الى اضعاف المشيخة السعدونية والقضاء عليها ، وحين وجد أخاه مصراً على تأسيس المدينة اشترط أن يكون موقعها في منخفض من الأرض لكي تكون تحت خطر مياه بحيرة « أبوجداحة » حتى اذا أرادت الحكومة بهم سوءاً سلّطوا مياه البحيرة على المدينة فاغرقوها[٣] • والظاهر

---

(١) عبدالرزاق الحسني (العراق قديماً وحديثا) صيدا ١٩٥٨ ـ ص ١٦٥ •

(٢) ان نعوم سركيس هذا هو والد الباحث يعقوب سركيس صاحب كتاب « مباحث عراقية » •

(٣) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ص١٦٥ •

أن مدحت باشا أدرك المغزى من ذلك فأمر بتحكيم السداد لوقاية المدينة من الغرق .

أود في هذه المناسبة أن أنقل رأيا لعلي الشرقي وكان خبيراً بتاريخ المنتفق ، فهو يقول : ان بناء الناصرية كان بمثابة هدم لآخر ساف من صرح الامارة السعدونية ، ففي الظاهر كانت تلك الايام أسعد أيام الأسرة السعدونية غير أنها كانت تخفي تحتها الشقاء اذ أن الأسرة أخذت في تلك الأيام تتحضر ، فتركت البداوة التي هي أساس امارتها ، بينما هي لم تتماسك في طورها الحضري بل انغمست في الترف ، وكان اهتمامها منصباً على تسجيل الأراضي وأجربة النخيل في دفاتر الحكومة ، وبذا تحول آل السعدون الى ملاكين بعد أن كانوا أمراء[١] .

فتح الاحساء :

في الوقت الذي كان فيه مدحت باشا والياً ببغداد كان الانشقاق قد ظهر بين أفراد الأسرة السعودية في نجد ، فكان هناك سعود الفيصل قد احتل الرياض وأخذ يحكم فيها ، بينما كان أخوه عبدالله ينافسه على الحكم واتصل بمدحت باشا مدعياً أنه موال للسلطان وأن أخاه عميل للانكليز .

ورد في مذكرات مدحت باشا حول هذا الموضوع ما نصه : « وكان ابن سعود المدعو عبدالله الفيصل من قبيلة الوهابيين ولكنه لم يحذ حذو أسلافه في نشر مذهبه ولا عاكس الدولة العلية وكان معتدلاً في أعماله أما أحد اخوته المسمى سعود فكان يسعى في اغتصاب الامارة من أخيه ولذا فانه توجه الى الهند للاستعانة بالانكليز وألّب العشائر وحثهم على شق عصا الطاعة في وجه أخيه ... »[٢] .

وفي ٢٠ نيسان ١٨٧٠م طبع ببغداد منشور بغية توزيعه على سكان

(١) علي الشرقي (المصدر السابق) ص٢٨ ، ٤٤ .
(٢) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٧٣ .

نجد والأحساء وهو مملوء بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحض الناس على « طاعة ولي الأمر » و « توحيد الكلمة » و « قتال الفئة الباغية » • وكان القصد منه اثارة الناس هنالك على سعود الفيصل بحجة أنه يمثل الفئة الباغية المارقة عن الدين والخارجة عن طاعة السلطان • وكانت هذه من أهم وسائل الدعاية والتوجيه في تلك الايام •

وأعد مدحت باشا حملة قوامها أربعة آلاف من الجنود النظاميين ، وألف وخمسمائة من العشائر ، بقيادة نافذ باشا • وتحركت الحملة من البصرة وهي محمولة على سفن شراعية كويتية بلغ عددها ثمانين سفينة بين كبيرة وصغيرة ، وكان معها بواخر تحمل المدافع أكبرها باخرة تسمى « بروسة » تحمل ثلاثة وعشرين مدفعاً • وفي شهر أيار من عام ١٨٧١م نزلت الحملة في رأس التنورة ، ثم استطاعت أن تحتل الأحساء كلها بعد أن خاضت معارك قليلة غير مهمة • والظاهر أن المدافع التي كانت مع الحملة هي التي ساعدت على نجاحها ، اذ أن البدو لم يكونوا يملكون من المدافع سوى عدد قليل ، وكانوا علاوة على ذلك لا يعرفون كيف يستعملونها على الوجه الصحيح •

وفي أواخر تشرين الاول غادر مدحت باشا بغداد باحدى البواخر النهرية متوجهاً الى البصرة في طريقه الى الأحساء ، وكان في عزمه أن يعيّن عبدالله الفيصل متصرفاً على الأحساء على منوال ما فعل بناصر السعدون في المنتفق ، وخصص له ثلاثين ألف قرش راتباً شهرياً • ولكنه لم يكد يصل الى الأحساء حتى وجد عبدالله قد هرب الى الرياض • وأدرك مدحت باشا أن عبدالله ليس من طراز ناصر السعدون اذ هو يريد أن يكون آمراً لا مأموراً حسب المبدأ البدوي القائل : « الامارة ولو على الحجارة » •

بقي مدحت باشا في الاحساء أربعين يوماً تفقد فيها أنحاء البلاد ، وعين فيها نافذ باشا متصرفاً ، ثم عاد الى بغداد • وقد كتب اليه السلطان عبدالعزيز

يشكره على ما فعل وأهدى اليه سيفاً مرصعاً ، وكذلك كتب اليه الصدر الاعظم أمين عالي باشا بخط يده كتابا قال له فيه : « ان نجداً ستكون جنة تجرى من تحتها الأنهار كمصـــر بهمتكم في زمن قريب »[1] • وانتهز الشعراء الفرصة على عادتهم فنظموا القصائد « الرنانة » في مدح مدحت باشا وتهنئته على « الفتح المبين » وعلى اهداء السلطان له السيف المرصع ، وكان من جملة أولئك الشعراء عبدالغفار الأخرس ، والسيد أحمد بن السيد كاظم الرشتي ، ومحمد أمين العمري • وقد تضمن البيت الاخير من قصيدة العمريّ تاريخاً هو هذا :

وقد جذّ رأس البغي اذ قيل أرخوا أتاك من الخاقان سيف مرصع[2]

١٢٨٨هـ

ثورة شمر :

بينما كان مدحت باشا مشغولاً باعداد حملة الاحساء أعلن عبدالكريم الصفوق شيخ شمر عصيانه على الدولة وأخذ يقطع الطرق وينهب القرى في المنطقة الواقعة بين الموصل وحلب وديار بكر • وقد أعلن مدحت باشا عن عشرة آلاف قرش مكافأة لمن يأتيه بعبدالكريم حياً ، ونصف المبلغ لمن يأتيه به ميتاً[3] •

مما يجدر ذكره في هـــذه المناسبة أن قبيلة شـــمر كانت آنذاك تمر بمرحلة حرجة من تاريخها الاجتماعي ، فهي كانت قبيلة بدوية على وشك أن تقع تحت تأثير الحضارة ، وكان هناك صراع شديد بين شيخها عبدالكريم الذي كان يريد بقاء القبيلة على بداوتها ، وبين أخيه فرحان الذي يريد

---

(١) المصدر السابق ــ ص١٨٢ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٦٦ •

(٣) عبدالعزيز ســـليمان نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهرة ١٩٦٨ ــ ص٣٧٠ •

توجيه القبيلة نحو الزراعة والاستقرار في الأرض •

كان فرحان من أم حضرية وقد نشأ في اسطنبول ودخل في مدارسها ، أما عبدالكريم فكانت أمه بدوية تُدعى « عمشه » وكانت تلقي في ذهن ولدها منذ صغره أن يكون فارساً بدوياً يقود قبيلته نحو الغزو ومقاتلة الحكومة على منوال ما فعل الآباء والأجداد • ونشأ عبدالكريم وهو كسائر شيوخ البدو يعتبر الزراعة مجلبة للذل ، وأن مجد العرب منوط بسكنى الخيام واستعمال السيف •

وتذكر الباحثة آن بلنت أن عبدالكريم كان يحب فتاة طائية متزوجة على جانب كبير من الجمال ، ولما أراد أن يأخذها عنوة قطع الزوج جسمها ارباً أمامه ، فكان ذلك سبباً في أن يصاب عبدالكريم بلوثة في عقله ، وصار منذ ذلك الحين يشن الغارات ويقطع الطرق[١] • وعلى أي حال فقد وضع مدحت باشا خطة محكمة للقضاء عليه بالتعاون مع والي ديار بكر •

جرت معارك عديدة بين عبدالكريم والقوات التركية أصيب فيها عبدالكريم بهزائم فادحة ، وهرب أخيراً مع ألفين من أتباعه نحو بادية الشام، ثم انحدر جنوباً •. وعندما مر قريباً من ديار المنتفق ألقى ناصر السعدون القبض عليه وسلمه جريحاً الى مدحت باشا • وبعد محاكمة قصيرة صدر الحكم عليه بالاعدام ، وتم اعدامه شنقاً في الموصل •

أخذ مدحت باشا يسعى نحو توطين قبيلة شمر في الأرض وترك البداوة ، وجعل فرحان « متصرفاً » براتب سنوي قدره عشرون ألف قرش يأخذه من أعشار المنتوج الزراعي • وقد نجحت هذه الخطة في بداية أمرها حيث بلغ عدد « الكرود » التي نصبت لارواء الأراضي هنالك مائة وسبعين كرداً[٢] • ولكن الحال لم يدم على ذلك طويلاً ، فان « عمشة »

---

(١) نقلا عن المصدر السابق ــ حاشية ص٣٧١ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٦٣ •

كان لها ولد آخر صغير اسمه « فارس » وكانت قد ذهبت به مع أولاد عبدالكريم الى عشيرتها في جبل حائل ، وانشأتهم هنالك على عداء فرحان وعلى عداء الحكومة والحضارة • وحين كبر هؤلاء عادوا الى قبيلة شمر واستطاعوا أن يجتذبوا عدداً كبيراً من أفرادها الى البداوة من جديد •••

زيارة الشـاه :

في عام ١٨٧٠م جاء الشاه ناصر الدين الى العراق لزيارة قبور الائمة، وكانت تلك أول مرة يزور فيها شاه ايراني العراق سلماً • وقد وردت الأوامر من اسطنبول الى مدحت باشا تأمره أن يبذل أقصى ما في وسعه للاحتفاء بالشاه وضيافته •

أخذ مدحت باشا يستعد لاستقبال الشـاه بكل جهده ، فشيد قصراً واسعاً في بستان النجيبية وهو القصر الذي صار فيما بعد مستشفى باسـم « المجيدية » • وقيل ان مدحت باشا أرسل مقاييس غرف القصـر وقاعته الواسعة الى معامل فينا لصنع الأثاث المناسب له من طراز لويس الخامس عشر ، وقد وصل الأثاث في الوقت الذي تم فيه بناء القصر • ثم صـنع مدحت باشا جسراً جديداً بدلاً من الجسر القديم لمرور موكب الشـاه عليه[1] •

وصل الشاه الى بغداد في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٨٧٠م ، وكان مدحت باشا قد خرج لاستقباله الى خانقين ، ونظم المفتي محمد فيضي الزهاوي قصيدة بالفارسية ترحيباً بالشاه كان هذا مطلعها :

هزاران شكر كز فضـل وعطاي ايزد منّان

شد أز تشريف شه بغداد رشك جمله بلدان[2]

ومعناه : آلاف الشكر لله المنّان حيث صارت بغداد بتشريف الشـاه لها محسودة من جميع البلدان •

---

(١) يوسف عزالدين (فهمي المدرس) القاهرة ١٩٧٠ ـ ص٢٩٢ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٤٣ •

كانت تلك السنة سنة غلاء وقحط شديد ، وكان مع الشاه حاشية كبيرة يتجاوز عدد أفرادها العشرة آلاف ، ومعهم أكثر من خمسة عشر ألف دابة . وقد لقي مدحت باشا مشقة كبيرة لاطعام هذا العدد الكبير من البشر والحيوان . واستمرت زيارة الشاه ثلاثة أشهر بلغ ما أنفقه مدحت باشا فيها ثلاثين ألف ليرة ، وهذا كان مبلغاً عظيماً في تلك الأيام .

وذهب الشاه لزيارة القبور المقدسة في الكاظمية وسامراء وكربلاء والنجف ، وكان مدحت باشا في صحبته اينما ذهب . وقد أراد الشاه في النجف أن يشاهد الكنوز المخزونة في المرقد المقدس وهي من هدايا الملوك والأمراء على توالي الزمان ، فأخرجها له مدحت باشا ، وظهر أن المصاحف والمخطوطات القديمة كانت قد أصابهاالتلف لقلة العناية بحفظها وهي تحت الأرض ، أما الكنوز الأخرى من الذهب والأحجار الكريمة فلم يصبها شيء من التلف ، وقد قدّر ثمنها بما يربو على الثلاثمائة ألف ليرة عثمانية . وكان رأي مدحت باشا أن تباع هذه الكنوز ويُنشأ بثمنها خط حديدي بين ايران والنجف لتسهيل سفر الزوار ، فلم يوافق علماء الدين على هذا الرأي . فأعاد مدحت باشا الكنوز الى موضعها القديم ثم ختم على بابها بختمه هو ومن كان معه من وزراء ايران[1] .

لم تخل زيارة الشاه من طرائف ونوادر صارت موضوع حديث الناس زمناً طويلاً . فالمعروف عن الشاه ناصر الدين أنه كان من دهاة الرجال وله مهارة في خلق القصص التي تكسبه اعجاب الناس ومديحهم . يروى عنه مثلاً أنه أثناء زيارته لكربلاء ذهب الى أحد العلماء الكبار وهو ملا أغا الدربندي ليزوره في بيته ، وكان هذا العالم معروفاً بالغلظة والجرأة على المجابهة لا يهاب أحداً . ولما دخل الشاه عليه لاحظ أن شوارب الشاه طويلة فأعلن انتقاده لها قائلاً يخاطب الشاه : « أنت سلطان مسلم وعدم

---

(١) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٧٠ .

قص شاربك مخالف لقوانين الاسلام » • فأسرع الشاه يطلب مقراضاً ثم قص شواربه بالمقراض قبل أن يقوم من مجلسه[1] ، فكان ذلك منه عملاً لا يخلو من دهاء ولباقة سياسية •

ويروى أيضاً أن الشاه حينما كان في زيارة ضريح الحسين ألقى خطيب من خطباء كربلا اسمه الشيخ لطف الله كلمة بين يديه قال فيها يخاطب الحسين : « السلام عليك يا أبا عبدالله •• لقد كنت في يوم كربلا تنادي (هل من ناصر) ، فلم يأت لنصرك أحد ، أبشر اليوم فقد جاءك الناصر ! » وكان الخطيب يقصد بذلك الشاه ناصر الدين ، فأخذ الشاه يبكي بكاءاً شديداً ، ثم أمر بتخصيص مرتب شهري للشيخ لطف الله يأخذه من القنصلية الايرانية هو وأولاده من بعده •

وحدثني من أثق به أن الشاه عندما فرغ من زيارة ضريح الحسين وخرج ليلبس حذاءه في « الكشوانية » سمع المؤذن يؤذن للصلاة من على المنارة ، ولاحظ أن الأذان كان خالياً من الشهادة الثالثة ، مع العلم أن الايرانيين كانوا قد أدخلوا الشهادة الثالثة في الأذان منذ بداية العهد الصفوي • فأمر الشاه باحضار المؤذن بين يديه وأمره أمراً جازماً بأن يعيد الأذان مرة أخرى على أن يدخل الشهادة الثالثة فيه • فأطاع المؤذن أمر الشاه ، ثم اقتدى به جميع المؤذنين فيما بعد وما زالوا حتى يومنا هذا !

مشكلة نقل الجنائز :

انتهز مدحت باشا فرصة زيارة الشاه ففاوضه حول بعض المشاكل التي كانت قائمة بين البلدين احداها كانت مشكلة نقل الجنائز •

والواقع أن مشكلة نقل الجنائز كانت من المشاكل المستعصية التي أدت الى الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، فقد كان الايرانيون يحرصون كل

(١) محسن الامين (أعيان الشيعة) دمشق ١٩٣٧ - ج٦ ص٦ •

الحرص على نقل موتاهم الى العراق لدفنها في النجف ، فكانت الجثث تتعفن في الطريق لطول المسافة ، وكثيراً ما كانت سبباً في نقل الامراض والأوبئة الى العراق • وقد تمّ الاتفاق بين مدحت باشا والشاه على أن لا يسمح بدخول الجنائز الايرانية الى العراق الاّ بعد مرور سنة واحدة على الوفاة[1] •

كان القصد من هذا الاتفاق أن يجري دفن الموتى في المقابر المحلية في ايران موقتاً لمدة سنة واحدة ، وهو ما يعرف عندهم بـ « الأمانة » ، حتى اذا انتهت السنة جاز نقل الجثث الى العراق وهي عندئذٍ ليست سوى عظام جافة لا لحم عليها ، وبذلك يمكن تجنب الضرر الناتج عنها • وقد وضعت الحكومة العثمانية على الحدود الايرانية موظفين صحيين يراقبون نقل الجنائز ويفحصونها لكي لا تكون « طرية » •

ظن مدحت باشا حين عقد هذا الاتفاق مع الشاه أن المشكلة حُلّت حلاً نهائياً واستراح الناس منها ، وقد تبيّن فيما بعد أن ظنه هذا كان خاطئاً من بعض الوجوه • ذلك أن بعض الايرانيين لجأوا الى « التهريب » في نقل جنائزهم فادى هذا الى ظهور مشكلة ربما كانت أشد ضرراً من المشكلة الاولى •

ظهر في بعض المدن الايرانية أشخاص اختصوا بتهريب الجنائز وكأنهم جعلوا ذلك مهنة لهم ، فهم يأتون بجثة الميت فينتزعون عنها اللحم بالسكين والحجر ثم يرشون على العظام مقداراً من النورة والزرنيخ ، ويتركونها معرضة للشمس والهواء حتى تصير كأنها مدفونة تحت التراب مدة طويلة • وتُحمل هذه العظام في صندوق خاص بها ، أما اللحم فيحمل في كيس ، حتى اذا وصل أصحاب الجنازة الى النجف جمعوا اللحم والعظام ، ودفنوها معاً في قبر واحد ، بعد أن يقرأوا الفاتحة والأدعية المناسبة طبعاً !

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٤٥ ـ ٤٦ •

والظاهر أن رقباء الحدود فطنوا للحيلة فأخذوا يتشددون في البحث عن مخابىء لحوم الموتى المراد تهريبها ، وأخذ حملة الجنائز يتفننون من جانبهم في اخفائها عن عيون الرقباء . وتروى في ذلك نوادر عجيبة لا يزال بعض المسنين يتحدثون بها حتى الآن ، منها أن رجلاً ايرانياً كان يحمل لحم أبيه في كيس وهو في طريقه الى النجف ، وشاءت الصدفة أن أحد رفاقه في السفر شعر بالجوع وأخذ يبحث عن شيء يأكله فوجد الكيس فاستخرجه وطبخه ثم أكله ، غير أنه لم يكد ينتهي من طعامه حتى اكتشف أنه انما أكل لحم الميت ، وصار ابن الميت يلطم وجهه ويصرخ « يا ويلتاه أكلت أبي ! »[1] .

لا حاجة بنا الى القول ان نقل الجنائز عادة غير اسلامية وقد نهى عنها الامام علي نهياً شديداً وعاقب عليها[2] ، وهي انما بدأ استعمالها في القرن الرابع الهجري ثم استفحل أمرها في القرون الأخيرة . ومما يلفت النظر أن بعض المشعوذين من رجال الدين كانوا يشجعون العامة عليها ، وقد روي عن أحد هؤلاء المشعوذين واسمه الملا محمد علي الأردوبادي أنه ورد اليه استفتاء من أحد العامة يسأله قائلاً : « قد ينجم عن نقل الجنائز المفاسد ، فان أكثر المكارين يسعون عند رأس الحد لاخفاء الجنائز عن موظفي الجمارك فتراهم يكسرون العظام ويدقونها لكي يمكنهم وضعها في كيس صغير واخفائها في زاوية من زوايا الاصطبل أو في غيرها من المحال ؟ » . فكان جواب الملا محمد علي : « ان نقل الجنائز أمر قريب الوجوب . وأما ما ذكرت من كسر عظام الميت فلا بأس به فان له أسوة بمولانا علي الاكبر ... فقطعوه ارباً ارباً »[3] .

---

(١) هبة الدين الشهرستاني (تحريم نقل الجنائز) بغداد ١٣٢٩هـ ـ ص١٦ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٤ .

(٣) أحمد الكسروي (التشيع والشيعة) طهران ١٣٦٤هـ ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

أعمال مدحت في بغداد :

قام مدحت باشا بأعمال عمرانية متنوعة في بغداد كانشائه أول مدرسة وأول مطبعة وأول جريدة وأول مستشفى ، كما أنشأ سكة حديد لعربات تجرها الخيول بين بغداد والكاظمية[1] • ومن الممكن اعتبار ولاية مدحت باشا نقطة تحول في حياة بغداد الاجتماعية والفكرية ، فهو قد خلب الأذهان بانجازاته الحضارية التي لم يعهد البغداديون لها مثيلاً من قبل وصارت محور أحاديثهم مدة طويلة •

يجب أن لا ننسى على أي حال أن بعض الانجازات التي اشتهر بها مدحت باشا كان قد بدأ بها ولاة سابقون ، كتشييد دار الحكومة ببغداد وهي التي تعرف بـ « القشلة » فهي قد شرع ببنائها نامق باشا ، ولم يكن لمدحت باشا من فضل فيها سوى العمل على اكمالها ، ولكنه عندما افتتحها في عهده أضاف الى سمعته هالة جديدة وجعل الناس يبالغون في الحديث عنه والثناء عليه •

كانت بغداد عند مجيء مدحت باشا اليها محاطة بسور قديم يرجع تاريخه الى العصر العباسي ، فارتأى مدحت باشا أن يهدم هذا السور ويجعل مكانه حدائق ومنتزهات عامة • والظاهر أنه لم ينجح في انشاء تلك المنتزهات اذ صار موضع السور مجموعة من الخرائب[2] ، غير أنه استطاع أن يبني بطابوق السور ــ وكان من النوع الجيد ــ عدداً من الأبنية التي ظلت قائمة ينتفع منها الناس حتى عهد متأخر ، ولا يزال بعضها قائماً حتى الآن •

---

(١) سنأتي الى ذكر هذه الأعمال بتفصيل في الجزء الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان « بواكير الحضارة الحديثة في العراق » •

(٢) سيتون لويد (الرافدان) ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس ــ بغداد بدون تاريخ ــ ص٢٥٥ •

لم يكلف مدحت باشا خزينة الحكومة كثيراً في بنائه تلك الأبنية ، فعلاوة على الطابوق الذي استمده من سور بغداد كان يجمع لها الأموال من تبرعات الأهالي ، وكان من جملة الذين تبرعوا لهذا الغرض : الشيخ ناصر السعدون ، وسليمان فائق بك ، والامير اقبال الدولة ، ومحمد أفندي جميل زاده ، والخواجة يوسف الكركوكلي •

ومن الجدير بالذكر أنه في الوقت الذي كانت فيه سمعة مدحت باشا ترتفع في نظر الكثير من الناس كان المتزمتون من رجال الدين ينظرون اليه بعين الريبة والاستنكار ، فهو في رأيهم « متفرنج » وأن ما جاء به من تجديد خطر يهدد الدين والاخلاق تبعاً للمبدأ للقائل : « التشبه بالكافر الحاد »[1] •

ومن أعمال مدحت باشا التي أثارت عليه نقمة اولئك المتزمتين أنه حوّل بستان « النجيبية » الى حديقة عامة وأنشأ فيها جوقاً موسيقياً يعزف الألحان لروادها ، وجعل أجرة الدخول اليها خمسة قروش • ويبدو أن بعض رواد الحديقة صاروا يشربون الخمر فيها ويطلقون لأنفسهم العنان ، فأخذ خصوم مدحت باشا يتقولون عليه أنه هو الذيأباح شرب الخمر فيها •

استقالة مدحت باشا :

كان الصدر الاعظم أمين عالي باشا يعطف على مدحت باشا ويدعمه ، وحين مات هذا الرجل في أوائل عام ١٨٧٢م تولى الصدارة بعده محمود نديم باشا ، فصار هذا يشنّع على مدحت باشا أمام السلطان ويكيد له •

ورد في مذكرات مدحت باشا : أن واردات العراق وصلت في عهده الى مائتين وعشرين ألف كيس ـ أي ما يعادل مليون ومائة ألف ليرة

---

(١) منير بكر التكريتي (الزوراء) بغداد ١٩٦٩ ـ ص١١ •

عثمانية ـ وكان مدحت باشا قد تعهد بارسال خمسين ألف كيس الى اسطنبول في كل سنة ، فطلب محمود نديم باشا زيادة المبلغ الى أربعة وسبعين ألفاً ، وهذه الزيادة تقتضي تخفيض مرتبات الموظفين كما تقتضي تقليل المبالغ المخصصة للاعمار . فلم يوافق مدحت باشا على ذلك وأرسل عدة برقيات الى اسطنبول يحتج بها ويذكر فيها وجهة نظره ، فلم يصله من هنالك الجواب المقنع مما اضطره الى رفع استقالته . وقد قبل محمود نديم باشا استقالته من غير تردد(١) .

حُسبت المدة التي أمضاها مدحت باشا والياً في العراق فكانت ثلاثة سنوات وواحداً وعشرين يوماً(٢) . وفي ٢٧ أيار من عام ١٨٧٢م غادر مدحت باشا بغداد متوجها نحو اسطنبول . وتُروى في هذا الصدد قصة لا ندري مبلغ صحتها ، خلاصتها : ان مدحت باشا عندما عزم على السفر لم يجد ما يكفي لنفقات سفره فرهن ساعته عند الحاج مصطفى كبة . ويروي فهمي المدرس هذه القصة بشكل آخر اذ يقول : ان مدحت باشا اضطر عند سفره أن يبيع العلبة التي أهداها له السلطان عبدالعزيز ، فطلب من صديقه معلم نسيم أن يبيعها له سراً ، وذهب هذا الى الأمير الهندي اقبال الدولة الذي يسكن الكاظمية فعرض العلبة عليه ، ولم يشأ هذا الأمير أن يأخذ العلبة فأعادها الى مدحت باشا مع مبلغ من الليرات ، ولكن مدحت باشا أعاد العلبة الى الأمير ، فأعادها هذا مرة أخرى . وهكذا كانت العلبة تذهب وتعود بين الرجلين مرة بعد مرة مما جعل الأمير يذهب بنفسه الى مدحت باشا يرجوه متوسلاً أن يقبل المبلغ مع العلبة . فأبى مدحت باشا ذلك وفضّل أن يسافر الى اسطنبول كما يسافر الفقير البائس .

ويقول فهمي المدرس في تفسير هذه القصة : ان مدحت باشا كان

---

(١) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢) انظر مجلة « الروضة » البغدادية بعددها الصادر في ٢٥ آب ١٩٥٩ .

يقبض مرتباً شهرياً قدره ألف ليرة عثمانية ولكنه « لا يصيبه منه سوى سد الرمق لما تعوده من البذل والبسط في اطعام الطعام ظهراً ومساءاً لرجال حاشيته وكبار الموظفين ومن يتعذر عليهم مفارقة الكراسي من الكتاب والمأمورين ـ لاستمرار العمل ـ وانصاف الذين يواصلون السعي معه على ضوء الشموع الى هزيع من الليل وامداد المعوزين منهم بالمال واسعافهم في الاعياد واعالة المنقطعين ... »[١] .

يخيل لي ان هذه القصة وتفسيرها هي جزء من « الاسطورة » التي اصطنعت حول شخصية مدحت باشا ، ولا أستبعد أن يكون مدحت باشا نفسه قد اختلق بذرة القصة على شكل من الأشكال ثم ترك الناس من بعده يزوّقون فيها ويبالغون كما هي عادتهم في مثل هذه الأمور .

---

(١) يوسف عزالدين (المصدر السابق) ص٤٨٨ .

تمت الفصول

ويليها ملحقان

الملحق الاول

المجتمع المصـري

أثناء الاحتلال الفرنسي

أشرنا في الفصل الأول من هذا الجزء الى فتح نابليون لمصر في أواخر القرن الثامن عشر وما كان له من أهمية كبيرة في تاريخ الدولة العثمانية والبلاد العربية • والواقع أن هذا الحادث لا تقتصر أهميته على الناحية التاريخية فقط بل كانت له أهمية أخرى من الناحية الاجتماعية • فهو يعطينا دروساً ذات قيمة علمية لا يستهان بها حيث يصور لنا ماذا يحدث بين الناس عند احتكاك حضارتين من مستويين متفاوتين •

كان المجتمع المصري عند فتح نابليون له في مستوى حضاري منخفض ، وجاء الفرنسيون اليه وهم يحملون حضارة من مستوى أرفع نسبياً • وبذا لم يكن الصراع بين الفرنسيين والمصريين عسكرياً فقط بل كان اجتماعياً أيضاً • وهو يشـبه من بعض الوجوه ما حدث في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها عندما احتلت بريطانيا العراق وبدأ الصراع بينهـا وبين العراقيين •

أظن ان القاريء العراقي سينتفع من هذا الملحق قليلاً أو كثيراً ، فسيرى فيه أحداثاً مشابهة للاحداث التي وقعت في العراق اثناء الاحتلال البريطاني • وربما استطاع القاريء أن يخرج من هذه المقارنة بعبر اجتماعية تساعده على فهم الانسان والمجتمع على وجه من الوجوه •

قدوم الاسطول الفرنسي :

في ١٩ أيار ١٧٩٨م تحرك اسطول فرنسي ضخم من ميناء طولون

متوجهاً نحو مصر لغرض فتحها بقيادة نابليون بونابرت • وكان نابليون يومذاك في التاسعة والعشرين من عمره قصير القامة شاحب اللون رقيق البدن ليس له مهابة تؤثر في الناظر اليه غير أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة وعبقرية عسكرية لا تضاهى •

وعند اقتراب الاسطول من الساحل المصري خطب نابليون في جنوده يذكرهم بحملته السابقة في ايطاليا فقال : « ايها الضباط والجنود ، لقد حضرت قبل عامين لاتولى قيادتكم • وكنتم يومها على ساحل ليجوريا تعانون الفاقة والعوز في كل شيء ، حتى لقد بعتم ساعاتكم لتشتروا ما تحتاجون اليه • وقد وعدتكم أن أقضي على هذا الحرمان ، وقدتكم الى ايطاليا ، حيث أُعطيتم كل شيء بسخاء ، فهل بررت بوعدي لكم ؟ » فأجابوه بصوت واحد : نعم ! فواصل خطابه قائلاً : « حسناً ، دعوني أخبركم أنكم لم تفعلوا بعد للوطن ، ولا فعل الوطن لكم ، ما فيه الكفاية • واني الآن قائدكم الى بلد تفوقون فيه بأعمالكم المقبلة ما قمتم به الى الآن من أعمال تدهش المعجبين بكم ، وستؤدون للجمهورية خدمات يحق لها أن تنتظرها من جيش لا يقهر • واني أعد كل جندي أن يحصل عند عودته لفرنسا على ما يكفيه لشراء ستة أفدنة من الأرض » • وبعد أن انتهى نابليون من خطابه ارتفعت الهتافات من الجنود : « تحيا الجمهورية الخالدة » وتلتها أناشيد وطنية •

لقد كان الجنود الفرنسيون في تلك الحملة كغيرهم من جنود العالم الذين يذهبون للفتح يدفعهم دافعان : أحدهما مثالي يظهر في هتافاتهم وأناشيدهم ، وآخر واقعي يكمن في أعماق نفوسهم اذ هم يطمعون أن يشبعوا به رغباتهم المكبوتة • يقول المؤرخ هيرولد : ان الجنود الفرنسيين كانوا ، باستثناء عدد قليل منهم ، يشوب وطنيتهم ذكرى الغنائم والطعام الكثير والخمر والنساء ، وتوقع الظفر بهذا كله في وفرة تشرح الصدور ،

ولا ريب اذن في أن وعد بونابرت لرجاله بالغنيمة والمكافآت المادية أثار حماستهم أكثر من أي شيء آخر في خطابه[١] •

الحالة في مصر :

في الأول من تموز وصل الاسطول الفرنسي الى مقربة من الاسكندرية فكان منظره في البحر مذهلاً اذ كان يحتوي على زهاء أربعمائة سفينة — بين بارجة وفرقاطة وناقلة — فأثار رعباً في أهل الاسكندرية اذ هم لم يشاهدوا من قبل مثل هذا المنظر • وقد وصف الحالة مؤرخ شامي اسمه نقولا الترك فقال : ان المشاهدين من البر لا ينظرون بحراً بل سماء ومراكب « فوقع عليهم خوف عظيم ووهم جسيم ، شيء لا يُقدّر »[٢] •

كان المماليك هم الحكام الفعليين في مصر في تلك الآونة ، وكان كبيرهم اسمه مراد بك ، فلما وصل الخبر اليهم بوصول الاسطول الفرنسي الى الاسكندرية أظهروا عدم الاكتراث اعتماداً على قوتهم وقالوا : « اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون في مقابلتهم وانهم يحطمونهم بسنابك الخيول ، ويحصدون رؤسهم ببوارق السيوف »[٣] • ويروى عن مراد بك نفسه أنه قال مفاخراً : انه سيشرح الافرنج كما يشرح التسمّام[٤] •

احتل نابليون الاسكندرية من غير مقاومة تذكر ، ثم توجه نحو فتح القاهرة • ويصف المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي حالة القاهرة عند وصول الخبر اليها — وكان شاهد عيان فيها — فقال : « وفي يوم الثلاثاء

---

(١) ج • كرستوفر هيرولد (بونابرت في مصر) ترجمة فؤاد اندراوس — القاهرة ١٩٦٧ — ص١٠ — ١١ •

(٢) المصدر السابق — ص٦ •

(٣) عبدالرحمن حسن الجبرتي (يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ — ج١ ص٣٣ •

(٤) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٢٨ •

نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، وصاروا يكررون المناداة كل يوم ، فأغلق الناس الدكاكين والأسـواق ، وخرج الجميع لبر بولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خيماً ، أو يجلسون في مكان حرب أو مسجد ، ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم ، وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك ، بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم ببذل أموالهم ، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ، ولكن لم يساعدهم الدهر ، وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ، ويذكرون بأذكار مختلفة ، وصعد نقيب الأشراف السيد عمر للقلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي فنشره من القلعة الى أن وصل به الى بولاق وهو راكب ومعه ألوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح وبصحبته طبول وزمور وغير ذلك وأما مصر فانها بقيت خالية الطرق لا تكاد تجد بها أحداً سوى النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة فانهم مستترون مع النساء في بيوتهم • والاسواق مجفرة ، والطرق معفرة ، من عدم الكنس والرش • وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع رطل البارود بستين نصفاً ، والرصاص بتسعين • وغلا السلاح وقل ، وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي ، ومكث المشايخ والعلماء بزاوية علي بك ببولاق يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر • وأقام غيرهم من الرعايا ، البعض بالبيوت ، والبعض بالزوايا ، والبعض في الخيام • ومحصل الأمر أن جميع ما بمصر من الرجال تحول لبولاق وأقام بها ••• وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون قوت يوم بيوم لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد • وتنقطع

الطرق ويعدو الناس بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً ، وكذلك العرب تغير على الأطراف والنواحي ، وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب ، واخافة طريق ، وقيام شر ، واغارة على أموال الناس ، وافساد مزارع ، وغير ذلك من أنواع الفساد التي لا تحصى . وطلب أمراء مصر الافرنج الذين هم تجار بمصر فحبس بعضهم بالقلعة ، وبعضهم بأماكن الأمراء ، وصاروا يفتشون في محلات الافرنج على الاسلحة وغيرها ، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة ، والعامة لا ترضى الا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم ، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة في وقت الفتنة » .

ويقول الجبرتي أيضاً : ان العلماء كانوا أثناء ذلك يجتمعون « في الأزهر كل يوم لقراءة البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون للأذكار ، وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف ... »[1] .

منشور نابليون :

لم تكد الاسكندرية تسقط في يد نابليون حتى بدأت تظهر على جدرانها أوراق مطبوعة تحتوى على خطاب من نابليون موجه الى الشعب المصري باللغات العربية والتركية والفرنسية . وفيما يلي النص العربي لهذا المنشور وهو كما يلاحظ القاريء مكتوب بلهجة عامية واطئة :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه . من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ، يعرف أهالي مصر

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٤٦ ـ ٥٠ .

جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها • فأما ربّ العالمين القادر على كل شيء فأنه قد حكم على انقضاء دولتهم • يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف الا ّ بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا ّ لأخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبّرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها • وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا ّ الظلم والطمع من المماليك • أيها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين • ومع ذلك

الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه • ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم • طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم • طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ••• »[١] •

لقد اعترف نابليون في اواخر أيامه عندما جاء ذكر هذا المنشور فوصفه : أنه كان قطعة من الدجل ولكنه دجل من أعلى طراز[٢] • ومهما يكن الحال فقد أمر نابليون بطبع آلاف النسخ من المنشور ونشره في أنحاء مصر ، واستخدم في سبيل ذلك جواسيس من مالطة يتكلمون اللغة العربية بلهجة المغاربة ، فصار هؤلاء يخالطون الجموع المحتشدة في بولاق ويوسوسون لهم ويثبّطون من عزائمهم[٣] • والمظنون أن هؤلاء الجواسيس كان لهم أثر لا يستهان به في الجماهير •

معركة الاهرام :

كان الفرق بين المماليك والفرنسيين في القتال كبيراً يلفت النظر ، فقد كان المماليك رجالاً اشداء يملكون من صفات الشجاعة والبسالة والقوة البدنية شيئاً كثيراً ولكنهم كانوا يقاتلون على طريقة أبي زيد الهلالي • أما الفرنسيون فكانوا قد جاؤوا معهم بأحدث ما وصل اليه فن الحرب من علم وتنظيم وتدريب ، وكان قائدهم نابليون كما أشرنا اليه من

---

(١) ج•كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٩٦ ـ ٩٨ •
(٢) المصدر السابق ـ ص١٩ •
(٣) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٣٧ •

قبل يملك عبقرية عسكرية لا تضاهى ، وقد عده بعض المؤرخين أعظم قائد عسكري أنجبته العصور الحديثة •

وصف ضابط فرنسي فرسان المماليك أثناء تهيؤهم لخوض احدى المعارك فقال : « كانت الصحراء تمتد الى الخلف ومن فوقها السماء الزرقاء ، وأمامنا الخيول العربية الجميلة المطهمة تنفخ وتصهل وتطفر في رشاقة وخفة تحت راكبيها من المقاتلين المدججين بسلاح يخطف بريقه الأبصار ، مرصع بالذهب والجواهر الكريمة • أما ملابسهم فزاهية الألوان ، وأما عمائمهم فيعلوها ريش مالك الحزين ، وبعضهم يلبسون الخوذات المذهبة • وأما سلاحهم فالسيوف والرماح والصوالج والحراب والبنادق والبلط والخناجر ،ويحمل كل منهم ثلاثة أزواج من الطبنجات ••• » ويضيف المؤرخ هيرولد الى هذا الوصف قائلاً : « كل مملوك كان (جبخانة) تمتطي جواداً ، فهذا الفارس الذي يركب على الطريقة القوقازية يطلق أولاً قربينته ثم يدسها تحت فخذه ، وبعدها يطلق طبنجاته ويقذف بها من فوق كتفه ليلتقطها خدمه بعد حين ، ثم يقذف الجريد الفتاك ، وهو سهام طولها أربع أقدام مصنوعة من جريد النخل بعد شقه وثقفه ، وأخيراً يهاجم العدو بسيفه الأحدب ، وقد يحمل سيفين في آن واحد ويضرب بهما ولجام الجواد بين نواجذه • وقد علمته سنوات طويلة من المرانة أن يفصل الرأس عن الجسد بضربة عكسية لا ثاني لها ••• »[1] •

كان المماليك قد حشدوا جموعهم للدفاع عن القاهرة في جبهتين : الأولى في قرية بولاق[2] على الضفة الشرقية من النيل بقيادة ابراهيم بك ،

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٢٧ •

(٢) لم تكن بولاق يومذاك متصلة بمدينة القاهرة كما هي عليه الآن، بل كان يفصل بينهما سهل مترب خال من العمران • فقد كانت مساكن القاهرة تنتهى عند بركة الازبكية التي هي الآن حديقة عامة ، وكانت قد بنيت على ضفاف البركة قصور باذخة لبعض أمراء المماليك •

والاخرى في قرية أمبابة على الضفة المقابلة من النيل بقيادة مراد بك . ويعتقد الخبراء العسكريون أن مراد بك ارتكب خطأً حربياً جسيماً بمقابلة الفرنسيين عند أمبابة ، اذ كان الواجب عليه أن يجمع قواته الى قوات ابراهيم بك في بولاق ويترك للفرنسيين مهمة عبور النيل من أجل دخول القاهرة ، وهي مهمة لا تخلو من خطر على الجيش الفرنسي المهاجم . ويقال ان النفرة والتنافس والتحاسد بين القائدين كانت سبباً في هذه الخطة الخاطئة[1] .

وقعت المعركة الفاصلة في امبابة في ٢١ تموز ١٧٩٨م ، وقد أطلق المؤرخون على تلك المعركة اسم « معركة الاهرام » لأن الأهرام كانت تلوح للناظر من ساحة القتال على الرغم من أنها كانت على بعد عشرة أميال منها . وقد خطب نابليون في جنوده عند بدء المعركة قائلاً لهم : « أيها الجنود ان أربعين قرناً تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام »[2] .

أمر نابليون جنوده بأن يكونوا على هيئة مربعات ، وهي خطة أذهلت المماليك . والواقع أن المماليك قاتلوا ببسالة نادرة ، فكانوا يرمون بأنفسهم الى ساحة القتال لا يبالون بالموت ، وأخذ الموت يحصدهم حصداً . وكان أشدهم في ذلك رجل اسمه أيوب بك الدفترار فقد هجم بحصانه على الفرنسيين وهو يصيح فيهم على طريقة أبي زيد الهلالي : « ويلكم يا لئام ، ساقكم الغرور لفتح هذه الثغور ، اليوم نملأ منكم القبور ... » ، ولكنه سقط قتيلا وداسته الخيل[3] .

وذكر الجبرتي : أن الجموع الذين كانوا محتشدين في بولاق في الضفة المقابلة من النيل أخذوا يصرخون : يا رب ، يا لطيف يا رجال الله ،

---

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (عمر مكرم ـ بطل المقاومة الشعبية) ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص٤٠ ـ ٤١ .

(٢) في . كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٣٣ .

(٣) المصدر السابق ـ ص١٣٥ .

ونحو ذلك ، وكأنهم كانوا يقاتلون بصياحهم وجلبتهم ، فكان العقلاء منهم يأمرونهم بترك الصياح ويقولون لهم ان الرسول والصحابة انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح ، فلم يستمع أحد منهم لهذه النصيحة ، ومن يقرأ ومن يسمع[1] •

حاول المماليك الذين كانوا في بولاق أن يعبروا النهر بالسفن لنجدة اخوانهم في أمبابة ، ولكن الهزيمة كانت قد حلت بهؤلاء قبل أن يتمكن أولئك من العبور • وكانت هزيمة شنعاء تشبه أن تكون مجزرة ، وكان منظر جثث الرجال والخيل رهيباً لكثرة ما أريق من دماء في ساحة المعركة، وغرق مئات من المماليك في النيل أو قتلوا بمدافعهم التي صوبها الفرنسيون عليهم •

شيوع الذعر :

بعد أن حلت الهزيمة المنكرة بجيش المماليك في أمبابة فر مراد بك مع من بقي معه من أتباعه نحو الصعيد ، كما فر ابراهيم بك نحو بلاد الشام • وكانوا قبل فرارهم قد أشعلوا النار في السفن التي كانت راسية في النيل وكان عددها يناهز الثلاثمائة • وعندما حل المساء صار أهل القاهرة يشاهدون اللهب المتصاعد من السفن في النهر ، وباتت منائر القاهرة طوال الليل ينعكس ظلها بتأثير أضواء اللهب الآتية من النيل ، كما انعكست الأضواء على جوانب الأهرام البعيدة • وظن الناس أن الافرنج أحرقوا الجيزة وبولاق ، وانتشرت الاشاعة أنهم قادمون نحو القاهرة وأن طلائعهم وصلوا الى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء[2] • ومما زاد في الوضع سوءاً عودة الجموع من بولاق وهم يلطمون وجوههم ويقولون : « يا ويلنا قد وقعنا في أسر الافرنج ! »[3] •

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٣٧ •

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٣ ـ ٥٤ •

(٣) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٣٨ •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول الجبرتي : « ... فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أي طريق يسلكون ، وأي جهة يذهبون ، وأي محل به يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع . فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته أو يسد جوعه ، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوت عن الحصر ... وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وعروا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان ، فمنهم من رجع من قريب وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين ، ومنهم من جازف متكلا على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب ، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله ولا سمعنا بما يشابه بعضه في تواريخ المتقدمين ، وما راءٍ كمن سمع »[1] .

ولم تسلم دور المماليك في القاهرة آنذاك من النهب والتخريب ، فقد انتهز الأوباش واللصوص الفرصة ـ كعادتهم في مثل هذه الحالة ـ وأخذوا يعيثون فيها كما يشتهون ، حيث انتهبوا ما كان في الدور من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان[2] .

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ـ ج١ ص٥٧ .

الافرنج في القاهرة :

أدرك الناس بعد فوات الأوان أن الخطر الذي كانوا يخشونه لا وجود له ، وأن الفرنسيين لم يعبروا النيل وأنهم لا يزالون في الجانب الآخر منه • فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ثم اتفقوا على كتابة رسالة الى الافرنج واختاروا لحمل الرسالة رجلاً مغربياً يعرف لغتهم ورجلاً آخر معه • وذهب الرجلان فقابلا نابليون في الجيزة ، فبشّ نابليون لهما وطمّنهما وسألهما : « اين عظماؤكم ومشايخكم ؟ لمَ تأخروا عن الحضور لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ » •

وبعد مفاوضات تم تسليم القاهرة لنابليون ، فدخلت طلائع الجيش الفرنسي اليها في ٢٣ تموز • ثم دخل نابليون الى القاهرة في اليوم التالي وكانوا قد أعدوا له قصراً فخماً من قصور المماليك في حي الازبكية ، وكان هذا القصر قد بناه صاحبه حديثاً وبذل في زخرفته وتأثيثه أموالاً عظيمة ثم تركه من غير أن يهنأ به ، وكأنه كان قد بناه من أجل نابليون !

ونصب الفرنسيون جسراً من القوارب على النيل لكي يعبره الجنود ، وكانت القاهرة آنذاك خاوية خالية لا يشاهد في شوارعها غير السارقين المتلصصين ، وغير الكلاب والقطط وبعض العجائز المقنعات • ثم أخذ المارة يتكاثرون وكان أولهم الباعة المتجولون الذين يتجرون في كل سلعة حتى البغايا • ثم أخذ رجال الشرطة يتجولون ليلاً ونهاراً للقضاء على اللصوص والقتلة ، وكان الجلادون يسيرون معهم ، فاذا أمسكوا برجل مشتبه به حكموا عليه بالموت فوراً وسرعان ما يسقط رأسه الى الأرض[1] •

ولم يمض وقت طويل حتى أدرك سكان القاهرة أن الافرنجي على خلاف ما صورته الاشاعات سابقاً من أنه شيطان طول أظافره قدم • والواقع ان الجنود الفرنسيين أخذوا يتبعون مع الأهالي سياسة التحبب والمحاسنة ،

---

(١) ج• كروستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢١٣ ـ ٢١٤ •

وصاروا يضاحكون الباعة ويشترون ما يحتاجون اليه منهم بالثمن الغالي قياساً على أسعار بلادهم ، وكان هذا مصدر دهشة الناس لأنهم كانوا قد اعتادوا في العهود السابقة أن ياخذ الجندي ما يريد دون أن يدفع له ثمناً وربما اعتدى على البائع وضربه علاوة على ذلك .

يقول الجبرتي في معرض حديثه عن سلوك الفرنسيين في أسواق القاهرة : « ثم أن عساكرهم صارت تدخل الى المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منهم الطرقات وسكنوا البيوت وجافت منهم الحارات ، ولكن لم يشوشوا على أحد ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ، وهذه من أعظم المكايد لأجل اضلال عقول العامة ، وانهمكوا على أنواع المأكولات مثل الكلاب السعرانين ففجر السوقه وصغروا الخبز وطحنوه بترابه وباعوا البيضة بنصف فضة بعد أن كانوا يبيعون كل أربع بيضات بنصف ، وفتح الناس عدة دكاكين بجوارهم يبيعون فيها أصناف المأكولات كالفطير والكعك والسمك المقلي واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك ، وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع المسكرات وعدة خمامير وقهاوي ، وطافت جماعة من النصارى في الاسواق تبيع العرقي كسقاة الماء وصاروا ينادون به في الأسواق بلغتهم وفحش ذلك جداً »[1] .

وكان نابليون قد أصدر في ٢٥ تموز مرسوماً بتشكيل ديوان للحكم مؤلف من أعيان القاهرة وعلمائها ، وكان هذا على حد تعبير الدكتور لويس عوض « أول مجلس للوزراء عرفته مصر »[2] ، فقد كان في مصر قبل هذا ديوان للحكم ولكن عضويته كانت قاصرة على الاتراك والمماليك أما الآن فقد صار مصرياً خالصاً . ويقول الدكتور عوض في وصف هذا الديوان :

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) لويس عوض (تاريخ الفكر المصري الحديث ـ الفكر السياسي والاجتماعي) ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص١٩ .

« ولا شك أن هذه الواجهة من الحكم المصري كانت في حقيقتها (وزارة دمى) ، وهي حال كل وزارة من أبناء البلاد في أي بلد تحكمه سلطة عسكرية أجنبية تحتله . ولكن مجلس الوزراء المصري لم يكن مجرداً تماماً من الارادة المستقلة ولا سيما في الأمور التي لا تتعارض مع مصالح الفرنسيين المباشرة وقد كان يباشر اختصاصه المحدد في تعيين الموظفين رغم معارضته الفرنسيين في بعض الاحيان ... »[1] .

نابليون والاسلام :

اتخذ نابليون منذ دخوله مصر سياسة التقرب من المسلمين والتحبب اليهم ، وقد أعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سيعتنق الاسلام ، ولبس العمامة والقفطان في أحد الأيام ، وصلى مع المصلين ، وقال لأحد مشايخ الدين : انه ينوى « اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادىء القرآن التي هي وحدها المبادىء الحقة القادرة على اسعاد الناس » .

وحاول نابليون أن ينشر بين المصريين اشاعة مفادها أن النبي ظهر له في المنام وقال له : « اجهر بايمانك بأركان ديني لأنه دين الله . ان العرب في انتظار هذه العلامة ، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك » . وتقول الاشاعة ان نابليون التمس من النبي مهلة سنة واحدة ليعد فيها جيشه ، فأعطى النبي له المهلة ، وتعهد نابليون بأن يبني مسجداً عظيما وأن جيشه كله سيعتنق الاسلام[2] .

وحين اقترب موعد الاحتفال بالمولد النبوي تساءل نابليون عن سبب امتناع المسلمين عن اقامة شعائر المولد كعادتهم في كل سنة فاعتذر السيد خليل البكري بتعطل الأمور وتوقف الأحوال ، فأمره نابليون باقامة الشعائر

---

(١) لويس عوض (تاريخ الفكر المصري الحديث ـ الخلفية التاريخية) ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٥ .

ومنحه ثلاثمائة ريال فرنسي ليستعين بها على ذلك ، فأُقيمت الاحتفالات ثلاثة أيام بلياليها ، وشارك الفرنسيون فيها « ولعبوا ودقوا طبولهم، وأحرقوا حراقة في الليل وسواريخ تصعد في الهواء ونفوط »(١) .

وأمر نابليون بأن تقام احتفالات مماثلة في غير القاهرة من المدن ، وأن يشارك القواد الفرنسيون فيها . وكان نابليون قد حضر الوليمة التي أقامها السيد خليل البكري بالمناسبة ، فاستمع الى تلاوة القرآن بخشوع . وعندما قُدّم الطعام وهو عبارة عن تلال من الرز واللحم عليها شحم الضأن قاوم نابليون شعور الغثيان ومدّ يده نحوها آكلاً . ثم وصل الى دار البكري موكب يتقدمه جوق موسيقي عسكري وفيه جميع الضباط يرافقهم حملة المشاعل(٢) .

يمكن القول على أي حال ان هذه المراءاة التي تظاهر بها نابليون لم تؤثر الا في القليل من الناس ، وبقي أكثرهم ولا سيما رجال الدين في شك منه وريبة ، يذكر المؤرخ نقولا الترك أنهم كانوا يقولون : « كل هذا خداع ومخاتلة لبينما يتملك ، وأما هو نصراني ابن نصراني »(٣) .

وكان نابليون يسعى نحو ازالة الريبة من قلوبهم بكل وسيلة ، فكان في احاديثه مع شيوخ الأزهر يحاول أن يقنعهم بأن النبي خصه بعنايته وأن ذلك هو الذي مكّنه من هزيمة المماليك الشجعان ، وأن القرآن تنبأ بذلك في عدة آيات . وفي احدى مناقشاته معهم ذكر لهم أنه يرغب أن يعتنق الاسلام هو وجيشه ولكن الذي يمنعه من ذلك عقبتان : أولاهما مسألة الختان ، والثانية تحريم الخمرة . فكان جوابهم له : أن الختان مستحب وليس واجباً ، أما الخمرة فهي اثم ولكنها لا تجعل شاربها مارقاً عن الاسلام اذ قد يشربها الانسان ويبقى مسلماً(٤) . ثم طال الجدل بينهم ، ولا ندري

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٦٧ .
(٢) ج. كروستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٠٧ ـ ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق ـ ص٤٣٨ .
(٤) المصدر السابق ـ ص٢٥٣ ـ ٢٥٥ .

على وجه اليقين ما هي النتيجة التي انتهى الجدل اليها •

صدر منذ عهد قريب كتاب صغير لمؤلف باكستاني بعنوان « نابليون المسلم » ، وقد حاول فيه مؤلفه أن يبرهن على أن نابليون اعتنق الاسلام عن اخلاص • وجاء في الكتاب ما يلي ننقله بنصه :

أولاً – رب منتقد يقول ان هذا التحول الديني باب من أبواب الاسترضاء ولكن نابليون لم يكن بحاجة الى مثل ذلك وهو القرم العنيد الذي لم تلن له قناة حتى مع أكبر قواده •

ثانياً – اذا كان ادعاؤه الاسلام مع استثنائه من شرطي الختان والخمرة بدعة استرضائية فلماذا عمد الى بناء جامع كبير وأباح لجنوده ومقربيه اعتناق الاسلام ؟

ثالثاً – ألم يصرح بأن جميع بني الانسان متساوين فما يفضل انسان على آخر الا بالتقوى كأنه استوحى آية القرآن وآمن بها ؟

ثم يختم المؤلف الباكستاني كتابه بعبارة أشار بها الى أن شعر نابليون وأظافره نمت بعد موته ، واعتبر ذلك ظاهرة عجيبة لا سابقة لها في التاريخ وقال : « وليس لها من تفسير الا ما برّره الايمان بحلول القوة الالهية جزاء للتقوى ، تغمد الله روح نابليون الكبير برحمته ورضوانه »[1] •

انا ننقل رأي هذا المؤلف الباكستاني من غير تعليق ، ونترك للقاريء أن يحكم له أو عليه •

جاك عبدالله مينو :

بينما كان نابليون يعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سوف يعتنق الاسلام ، كان هناك قائد فرنسي آخر اعتنق الاسلام فعلاً وسمى نفسه « عبدالله مينو »

---

(١) أبو أحمد جل الوحيد (نابليون المسلم) مترجم عن الانكليزية – المترجم غير مذكور – بيروت ١٩٥٤ – ص١٦ – ٦١ •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأخذ يوقع رسائله بهذا الاسم الجديد .

كان هذا القائد يومذاك في الخمسين من عمره يرأس القوة الفرنسية في بلدة رشيد ، وعندما اعتنق الاسلام أخذ يقوم بكل ما يفرضه الاسلام على أتباعه من شعائر وعبادات ، فكان يتلو القرآن ، ويؤدي الصلاة في المسجد في كل جمعة ، ويقيم الصلوات الخمس في تعبّد ظاهر . وتزوج فتاة علوية كان أبوها صاحب حمام في رشيد اسمها « زبيدة » ، وقيل انه تزوجها على الطريقة السائدة في البلاد الاسلامية يومذاك أي أنه عقد عليها قبل أن يراها[1] . غير أنه استطاع أن يحصل على اعفاء من الختان[2] .

أصبح اسلام مينو حكاية غريبة يتناقلها الناس في جميع أنحاء مصر ، وأخذ الجنود الفرنسيون يعلّقون عليها تعليقات شديدة البذاءة . أما نابليون فأدرك أن هذا الحدث قد أضفى شيئاً من المعقولية على وعده بتحول الجيش الفرنسي كله الى الاسلام ، وكتب الى مينو يهنؤه على « تضحيته » في سبيل القضية « الوطنية »[3] .

وقد اختلفت الآراء في تعليل اسلام مينو ، فمن قائل انه انما أعلن اسلامه من أجل الزواج بزبيدة لأنها كانت فتاة مغرية أيقظت بمفاتنها شهواته وعبثت بعقله ،ومن قائل انه فعل ذلك لدافع سياسي اذ المعروف عنه أنه كان أكثر القواد الفرنسيين بمصر تحمساً لسياسة الاندماج مع الأهالي وكان رأيه أن مصر يجب أن تبقى مستعمرة فرنسية أبداً . ولست أدري ما هو رأي المؤلف الباكستاني في هذا الشأن ؟ أحسبه يقول بأن اسلام مينو كان نتيجة اخلاص واقتناع عميق ــ والله أعلم !

ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة أن قائداً فرنسياً من أصدقاء

---

(١) ادوار لوكروا (الجزار قاهر نابليون) بيروت بدون تاريخ ــ ص ١٨٠ .

(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٥ .

(٣) المصدر السابق ــ ص٥٠٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مينو كتب اليه يسأله : هل أن زوجته المسلمة جميلة ، وهل في نيته أن يتحفها برفيقات لها جرياً على عادة أهل البلاد ؟ فأجابه مينو قائلاً : « يا عزيزي الجنرال ، ان زوجتي ••• طويلة القامة ، مبسوطة الجسم ، حسنة الصورة من جميع الوجوه • فلها عينان رائعتان ، ولون بشرتها هو اللون المصري المألوف ، وشعرها طويل فاحم • وهي لطيفة الطبع ، وقد وجدتها تتقبل كثيراً من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت ••• وأنا لم ألح عليها بعد في الخروج سافرة على الرجال ، فهذا يأتي شيئاً فشيئاً •• ولن انتفع بما أباحه النبي من الزواج بأربع نساء خلاف السراري : فان في النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة ؟ وفي زوجة واحدة أكثر من الكفاية لي »[1] •

المجمع العلمي المصري :

كان نابليون قد استصحب معه الى مصر ١٦٧ رجلاً من المختصين بمختلف العلوم والفنون ، فكان فيهم الفلكيون والرياضيون والكيميائيون والأطباء والآثاريون والمعماريون وعلماء المعادن والنبات والحيوان والمصورون وغيرهم ، وقد ألّف من هؤلاء مجمعاً سُمّي بـ « المجمع العلمي المصري »• لقد كان هدف نابليون من فتح مصر تحويلها الى مستعمرة فرنسية ، وأراد من أعضاء المجمع أن يساعدوه على جعل مصر أكثر عمرانا وانتاجاً ونظاماً لكي يزداد بذلك كسب فرنسا منها •

كان نابليون كصاحب البقرة الذي يغذيها جيداً ويعتني بها لكي يزداد لبنها ، وهو بذلك يختلف عن معظم الفاتحين القدامى الذين دأبوا على استهلاك أقصى ما يستطيعون من البقرة حتى اذا ماتت أكلوا لحمها وقرمطوا عظامها • يقول المؤرخ هيرولد في وصف نابليون : « كانت القدرة على الجمع بين حب العظمة الشخصية ونفع الناس احدى المواهب الكثيرة

---

(١) المصدر السابق ــ ص٥٠٥ •

التي تفرد بها . فأنشأ المجمع العلمي المصري معيناً له ، وضرباً من التجميع لأرباب الفكر ، لتساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته في ادارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها في المستقبل . وكان هذا الهدف في ذاته جديداً لم يسبق له نظير ... »[1] .

اتخذ المجمع مركزه في قصر فخم من قصور المماليك في حي الناصرية في القاهرة ، وأضاف اليه مجموعة من المباني المحيطة به ، وما لبث أعضاء المجمع أن أنشأوا حديقة للحيوان وأخرى للطيور ، وثالثة للتجارب الزراعية ، ثم أسسوا مختبراً كيمياوياً ، ومتحفاً صغيراً للتاريخ الطبيعي ، ومكتبة ، ومرصد ، ومطبعة ، ومجلة ، ونواة لمتحف للآثار ، ومعمل لصنع الآلات التي يحتاجون اليها أو لاصلاحها . وكانت المهام العملية التي كُلّف بها أعضاء المجمع قسمين : الأولى عاجلة وهي العمل على اقامة طواحين الهواء ، وتطهير الترع وصيانتها ، واصلاح النظام المالي ، وصنع الأدوات التي لا يمكن جلبها من فرنسا بسبب الحصار البحري الذي فرضته بريطانيا . أما المهام الآجلة فهي العمل على دراسات تتناول شق قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الابيض ، وبناء سدود على النهر للاستفادة من مياهه على نحو أفضل ، وادخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ، ووضع نظام تعليمي جديد ، وغير ذلك .

وانصرف أعضاء المجمع الى هذه المهام بدأب عجيب ، وفي خلال السنوات الثلاث التي عملوا فيها بمصر انتجوا أثراً خالداً من آثار البحث الجماعي هو كتاب « وصف مصر »الذي يحتوي على أربعة وعشرين مجلداً ضخماً ، وقد طبع في فرنسا بين عام ١٨٠٩ و ١٨٢٨م[2] .

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٠ .

(٢) توجد في بغداد نسخة من هذا الكتاب بمجلداته المتعددة عند السيدة مرغريت مكية استاذة التاريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد .

وفتح المجمع قاعاته ومكتبته لمن يريد الاطلاع عليها من الفرسيين أو المصريين • يقول الجبرتي : « واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد والاقاليم ••• ولقد ذهبت اليهم مراراً واطلعوني على ذلك ••• » • ويصف الجبرتي كيف قام العلماء الفرنسيون أمامه ببعض التجارب الكيميائية والفيزيائية ، ثم يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا »[١] •

يقول الدكتور حسين فوزي النجار : « وقد كشف مجيء الحملة الفرنسية عن عظم الهوة التي تفصل بين حضارة الغرب الناهضة المتقدمة وحضارة الشرق الآفلة والتي لم يبق منها غير تلك الذبالة التي تلفظ أنفاسها في رحبات الأزهر ••• »[٢] •

مخترعات الحضارة :

مما يجدر ذكره ان الحضارة الأوربية كانت يومذاك في بداية ازدهارها ، ولم تكن المخترعات العجيبة التي نشهدها الآن قد ظهرت ما عدا بعض الأوليات منها ، كالساعة والمطبعة ، والمدفع والبندقية ، والعربة المركبة على نوابض وعجلات ، والنواظير المقربة والمكبرة ، والأداة التي تنتج تياراً كهربائياً ضعيفاً ، والمحرك البخاري ، والمنطاد الذي يرتفع في الهواء بتأثير الدخان • وكان المصريون يعرفون بعض تلك المخترعات قبل مجيء

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٥ ـ ٢٣٧ •

(٢) حسين فوزي النجار (رفاعة الطهاوي) ـ القاهرة بدون تاريخ ص ١٧ •

نابليون ، كالساعة والمدفع والبندقية ، أما المخترعات الأخرى فكانوا يجهلونها ، وقد حاول الفرنسيون اثارة دهشتهم بها فنجحوا تارة وفشلوا تارة أخرى .

يحدثنا الجبرتي عن الأداة التي تنتج التيار الكهربائي ، وكان قد شهدها عند زيارته للمجمع العلمي ، فيقول : « ... ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا أمسك علاقتها شخص ، ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة . ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفاً أو أكثر ... »[1] .

يظهر أن الفرنسيين لم يكتفوا بالتجارب العجيبة التي يقومون بها في مختبرات المجمع العلمي والتي يشهدها قلة من الناس ، فأرادوا تطيير منطاد في سماء القاهرة ليشهده آلاف الناس . وكان المنطاد قد اخترعه اخوان فرنسيان اسمهما « مونتغولفيه » في عام ١٧٨٣م ، وهو عبارة عن كرة كبيرة مصنوعة من القماش الخفيف والورق لها فتحة في أسفلها وتنصب فوق موقد يخرج منه دخان كثيف ، فعندما تمتليء الكرة بالدخان ترتفع في الجو عالياً ، وقد تبقى في الجو عدة دقائق وهي تحمل قفصاً فيه حيوانات أو بشر[2] . وقد استطاع بعض المغامرين في فرنسا أن يعبروا بحر المانش بمنطاد من هذا النوع .

أمر نابليون بصنع منطاد في القاهرة ليطير به رجل على مشهد من

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٣٧ .

(2) ... (One Hundred Great Lives) London 1948 — P. 47—51.

الجمهور • وقد تم صنع المنطاد فعلاً ولكن أحداً لم يتطوع لركوبه مخافة أن يهبط به وسط خيام البدو • وقد كان البدو في تلك الأيام يعادون الفرنسيين فاذا أمسكوا بواحد منهم لاطوا به قسراً انتقاماً منه • واضطر الموكلون بأمر المنطاد أن يطلقوه في الجو من غير أن يكون فيه انسان ، بل ملأوه بالمناشير المطبوعة • ولم يكد المنطاد يرتفع حتى اشتعلت فيه النار ، وأخذت المناشير تنزل منه مبعثرة ، وشعر المشاهدون من المصريين بأنهم انخدعوا • وكان الجبرتي من جملة المشاهدين فقال يصف ما حدث : « فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة ••• بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والافراح » •

وقام الفرنسيون بمحاولة أخرى في اطلاق منطاد ، فارتفع المنطاد واندفع مع الريح حتى وصل الى بعض التلول القريبة من القاهرة فسقط عليها • ويتهكم الجبرتي على هذه المحاولة الثانية فيقول : « ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا انها سافرت الى البلاد البعيدة بزعمهم »[1] •

أسباب الثورات :

ان السنوات الثلاث التي كانت مصر فيها تحت وطأة الاحتلال الفرنسي مليئة بالانتفاضات الشعبية والثورات، فقد نشبت في القاهرة ثورتان عارمتان : أحداهما في تشرين الاول من عام ١٧٩٨م والثانية في آذار من عام ١٨٠٠م، كما نشبت ثورات أخرى في مختلف أنحاء القطر •

ليس من العجيب أن تنشب ثورات في أي بلد يقع تحت وطأة احتلال أجنبي ، ولا سيما اذا كان سكان البلد على دين غير دين المحتلين ، فهذا أمر

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢١٢ ـ ٢١٣ •

يكاد يكون طبيعياً • ومع ذلك فاننا سنحاول فيما يلي ذكر الاسباب التي نراها ذات أثر في تحريض المصريين على مقاومة الاحتلال الفرنسي :

أولاً ـ كان الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال نلسن قد أنزل ضربة ماحقة بالاسطول الفرنسي في أبي قير بالقرب من الاسكندرية ، وذلك في بداية شهر آب من عام **١٧٩٨م** ، وبذا انقطع الاتصال بين فرنسا والجيش الفرنسي في مصر ، فاضطر نابليون أن يعتمد في تموين جيشه على الضرائب والغرامات والقروض الاجبارية مما جعل المصريين يتذمرون• وكان أشد الضرائب وقعاً على سكان القاهرة ضريبة العقار ، فقد فرض الفرنسيون على الدار من المستوى الأعلى ثمانية فراسنة ، والأوسط ستة ، والأدنى أربعة ، ولم يعفوا من الضريبة سوى الدار التي يقل ايجارها الشهري عن الريال الواحد • وفرضوا الضرائب كذلك على الوكايل والخانات والحمامات والسيارج والحوانيت كل بحسبه ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها على الجدران ، وعينوا المهندسين والخبراء لتقدير الضريبة على كل موضع • وكانت هذه الضريبة هي السبب المباشر لثورة القاهرة الاولى حسب رواية الجبرتي[1] •

ثانياً ـ أنشأ الفرنسيون عند دخولهم القاهرة جهازاً للشرطة مؤلفاً من المصريين ، ولم يقبل الدخول في سلك الشرطة سوى السفلة والشذاذ من الناس وصار هؤلاء يتحكمون في الأهالي ويقسون عليهم ، وكان أبرزهم رجل رومي اسمه بارتلميو ، وقد أطلق عليه الأهالي اسم « برطلمين » ، وسماه بعضهم « فرط الرمان » ، وكان في أول أمره ذا دكان في سوق الموسكى يبيع فيه القوارير ، ثم صار في عهد الاحتلال الفرنسي جلوازاً كبيراً يقود سرية من الشرطة كلهم من الأدنياء مثله • فكان يخرج في الشوارع بقامته الطويلة وهو راكب فرسه ، وقد تخرج زوجته العملاقة معه

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٣ ـ ٩٤ •

أحياناً فتركب فرساً الى جواره • وكان أحب الأمور اليه قطع الرقاب بالجملة ، « وكان منظره وهو يسير الى القلعة وقد جرد سيفه في يده ، ومن خلفه ضحاياه المكبلين ، ما يكفي لاخماد كل النوايا الشريرة في قلوب الكثيرين »[١] •

ثالثاً ـ كان الفرنسيون على أثر دخولهم القاهرة قد اتخذوا بعض الاجراءات الشديدة من أجل تنظيف المدينة وتنظيمها وتقليل خطر الأوبئة فيها ، فقد هدموا جميع البوابات التي تفصل أحياء المدينة والحارات بعضها عن بعض ، وأمروا كل ذي دار أن يضع قنديلاً مضيئاً أمام داره طوال الليل ، كما أمروا بوضع قنديل على كل ثلاثة دكاكين ، وألزموا الناس بالكنس والرش وازالة القذارة والقطط الميتة من الطرق القريبة منهم ، ووضعوا السم للكلاب ، ومنعوا من دفن الموتى في المساجد والمواضع القريبة من المساكن ، ونودي في الأسواق بنشر الثياب والامتعة وتعريضها للهواء والشمس خمسة عشر يوماً ، وعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف عن ذلك ، وأمروا ذوي المرضى أن يبلغوا عن مرضاهم لكي يعودهم الأطباء الفرنسيون ، وأن يبخروا مساكنهم دفعاً للتعفن وانتشار الأمراض[٢] • وهذه اجراءات لم يكن الأهالي قد اعتادوا عليها ، فصاروا يتخوفون منها ويتهربون ويتذمرون كما هو دأب الناس في البلاد المتخلفة دائماً •

رابعاً ـ كان دخول الفرنسيين للقاهرة سبباً في نشر السفور والتبرج والخلاعة بين النساء ، فادى ذلك الى امتعاض الأهالي وتذمرهم الشديد • يقول نقولا الترك في وصف ذلك : « فلهذا السبب صعب جداً دخول الافرنج على المصريين الى هذه الديار ولا سيما اذ كانوا يرون نساءهم

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٩٨ ـ ١٩٩ •

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٧٥ ، ٩١ ـ ٩٢ •

وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين الافرنج جهاراً ، ماشين معهم في الطريق ، نايمين قائمين في بيوتهم ، فكانوا يكادون أن يموتوا من هذه المناظر ... »[1] . ويذكر الجبرتي ذلك بصورة أكثر تفصيلا فيقول : « لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، فتداخلن مع الفرنسيس لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهم ... ولما وفى النيل ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهن لهم في المراكب ، والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة ، وصحبتهم آلات الطرب وخدمة السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاذبون الصوت في تحريك المقاذيف بسخائف موضوعاتهم ، وكثائف مطبوعاتهم ، وخصوصاً اذا دبت الحشيشة في رأسهم وتحكمت في عقولهم ، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم بشيء كثير ... »[2] . وكان مما حزّ في قلوب المصريين أشد من غيره تبرج زينب بنت السيد خليل البكري نقيب الاشراف ومخالطتها للفرنسيين وهي لم تكن آنذاك قد تجاوزت السادسة والعشرين من عمرها ، وشاع بين الناس أنها صارت عشيقة لنابليون وخليلته .

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٦١ .

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٣٢ — ١٣٤ .

خامساً ـ كان النصارى في مصر لهم زي خاص يتميزون به عن المسلمين ، ولم يكن يجوز لهم أن يحملوا السلاح أو يركبوا الخيل ، فلما احتل الفرنسيون مصر أمروا بالمساواة بين الناس من غير تفريق بينهم على أساس من الدين أو غيره • والظاهر أن البعض من النصارى واليهود قد فرحوا بالوضع الجديد واشتطوا فيه ، فساء المسلمين ذلك • وكان مما زاد في استياء المسلمين أنهم شاهدوا نساء النصارى واليهود تنتشر بينهن « موضة » السفور تقليداً للفرنسيين • وصار المسلمون يشكون الى نابليون من ذلك فأصدر نابليون أمره بان يعود النصارى واليهود الى ارتداء عمائمهم القاتمة وأحزمتهم المزركشة وأحذيتهم السوداء • ثم كتب نابليون الى أحد قواده يقول : « مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائماً أصدقاءنا • فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا في وقاحتهم »[1] •

سادساً ـ ان نابليون حين أنشأ ديوان الحكم من أعيان القاهرة وعلمائها ظن أنه يؤلف قلوبهم بذلك ويجتذبهم اليه ، ولكنه نسي أمراً كان الجدير به أن لا ينساه هو أنه أرضى بعمله فئة من الأعيان والعلماء هي تلك الفئة التي اشتركت في ديوان الحكم ، أما الفئات الأخرى فلابد أن تشعر بالحقد والنقمة وتضمر له العداء • ان نابليون بفعله ذاك كان كمثل من يقيم وليمة فاخرة بغية التحبب الى الناس ولكنه في الواقع يثير استياء الكثيرين منهم • فصاحب الوليمة انما يكسب بوليمته قلوب الذين دعاهم اليها فقط ، أما الذين لم يدعهم اليها وهم الاكثرون فانهم سينقلبون الى اعداء حاقدين يبغضونه ويشنّعون عليه • ليس في مقدور صاحب الوليمة أن يدعو اليها جميع من يعرف من الناس ، ولابد أن يبقى منهم من ليس مدعواً ، وكلما اتسعت دائرة المدعوين اتسع معها عدد الذين يشعرون بأن صاحب الوليمة قد أهملهم ، ومعنى هذا كثرة الحاقدين عليه والشاتمين له !

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٩٩ •

سابعاً ـ كان السلطان العثماني سليم الثالث قد أصدر فرامين يدعو المسلمين بها الى الجهاد ضد الفرنسيين ، وأخذت نسخ من هذه الفرامين تدخل مصر خلسة ويقرأها الأئمة علناً في المساجد . وقد هدد السلطان في فرامينه بأن جيوشه قادمة سريعاً لسحق الفرنسيين ، وستأتي معها مراكب عالية كالجبال ، ومدافع تبرق وترعد ، وأبطال يزدرون بالموت في سبيل الله . وكان المماليك الذين نجوا من معركة الاهرام وفروا الى الصعيد أو بلاد الشام يرسلون دعاتهم الى مصر ينذرون كل من يتعاون مع الفرنسيين بسوء العاقبة ، ويبشرون الناس بقرب الفرج .

وصار الذين تعاونوا مع الفرنسيين من أعضاء الديوان وغيرهم موضع احتقار الناس . حدث مرة أن نابليون أراد تكريم رئيس الديوان الشيخ عبدالله الشرقاوي فوضع على كتفه طيلسانا فيه شعار الجمهورية الفرنسية المثلث الألوان ، فاحمر وجه الشيخ غيظاً وألقاه على الأرض ، ولما أوضح الترجمان له أن الطيلسان يُقصد به رفع مكانة صاحبه في عيون الفرنسيين أجاب الشيخ : « ولكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين »[١] .

ثورة القاهرة الاولى :

بدأت هذه الثورة في ٢١ تشرين الاول ١٧٩٨م ـ أي بعد ثلاثة أشهر من دخول الفرنسيين الى القاهرة ـ وكان أول محرك لها شيخ أزهري خرج الى الاسواق ينادي : « أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الازهر ، لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي الكفار » ، وصارت الأصوات ترتفع من فوق المآذن والسطوح العالية تدعو المسلمين الى الجهاد ، وظهر « فتوات » الحسينية والحارات البرانية وهم ينادون : « نصر الله دين الاسلام »[٢] . وتجمع العامة حولهم وهم مسلحون بالبنادق والهراوات ، وأقفلت الأسواق .

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢١٠ .

(٢) ابراهيم جلال بك (من يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ ـ ص٩٤ .

وجاء الحاكم العسكري الجنرال ديبو راكباً حصانه مع خمسة من أعوانه ، فانبرى له من أحد الازقة رجل وضربه على خاصرته بخشبة ، فسقط ديبو على الأرض ثم مات •

يقول الجبرتي : « فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ، وفي كل حدب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة ••• وهدموا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس ••• وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد ، وبالغوا في القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم الى النهب ، والخطف والسلب ، فهجموا على حارة للجوانية ، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام ، وما جاورها من بيوت المسلمين على التحام ، وأخذوا الودايع والأمانات ، وسبوا النساء والبنات ، وكذلك نهبوا خان الملايات ، وما به من الأمتعة والموجودات ، وأكثروا من المعاطب ، ولم يفكروا في العواقب ، وباتوا تلك الليلة سهرانين ، وعلى هذه الحال مستمرين »[١] •

وهاجم فريق من العامة الدار التي أودعت فيها الأدوات العلمية ، الفلكية والهندسية والكيمياوية والكهربائية وغيرها ، فقتلوا أربعة من الخبراء الذين كانوا فيها ثم حطموا الأدوات تحطيما • وهاجم فريق آخر منهم المستشفى العسكري فقتلوا جرّاحين اثنين على بابه ، كما قتلوا ثلاثة وثلاثين مريضاً فيه • وكاد دار المجمع العلمي أن يكون عرضة لهجوم العامة لولا قيام العلماء للدفاع عنه ، وقد صمد هؤلاء العلماء فأخذوا يتصيدون أفراداً من المهاجمين ببنادقهم ، وظلوا كذلك عدة ساعات حتى وصلتهم النجدة في الوقت المناسب •

ان ما فعله العامة في ثورة القاهرة لم يكن بالأمر الغريب أو النادر في تاريخ الثورات ، فهو يقع في كل ثورة شعبية على شكل من الاشكال •

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٤ ـ ٩٥ •

وكان ما فعله العامة في الثورة الفرنسية لا يختلف في أساسه الاجتماعي عما فعله العامة في ثورة القاهرة • يقول المؤرخ هيرولد : ان الغوغاء الذين شاركوا في ثورة القاهرة لم يكونوا يختلفون عن اولئك الذين ساروا الى فرساي في بداية الثورة الفرنسية ، أو الذين جابوا شوارع باريس بعدئذ وهم يرفعون ثديي الأميرة دولامبال على رؤوس الرماح[1] •

ان الغوغاء هم الغوغاء في كل مكان وزمان ، ولكن أفعالهم الوحشية الفظيعة لا يجوز أن تحجب عنا ما في الثورات التي يشاركون فيها من جوانب حميدة أو مبادىء صالحة •

القضاء على الثورة :

أمر نابليون بتسليط مدافع القلعة على جامع الأزهر وما حوله من الدور والأسواق اذ كانت تلك المنطقة مركزاً لتجمع الثوار • ففي ظهر اليوم الثاني من الثورة بدأت القنابل تتساقط تباعاً على ساحة الجامع فتفتك بمن كان فيها من الناس ، كما سقطت على الدور المجاورة ، فبعث دو يهـا الرعب الشديد في سكان القاهرة اذ لم يكونوا قد شاهدوا ذلك من قبل ، فأخذوا يصرخون : « يا سلام من هذه الآلام ، يا خفي الألطاف نجنّا مما نخاف »[2] ، وصاروا يتراكضون في كل جانب ويدخلون في كل مكان يظنون فيه النجاة • وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون يصحبهم ثلاثمائة خيال بالجامع ، ثم دخلوا فيـه وأخذوا يأسـرون من كان فيه من الثوار ويعبثون به وبمحتوياته عبثاً شديداً • وذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون في الأزبكية يطلبون منه الصفح ، فأخذ يلومهم ثم أعلن العفو عنهم • ولكن اعلانه العفو كان ظاهرياً اذ أنه أصدر أوامره خفية بقتل كل من قاد الثورة أو شارك فيها • وكان من جملة ما أمر به في هذا الشأن قوله لأحد قواده :

---

(١) ج٠ كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٦٤ ٠

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٦ ٠

« تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أُمسكوا وبيدهم سلاح ، فليؤخذوا الى شاطيء النيل ... بعد هبوط الظلام ، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر » . ثم أمر نابليون باعدام ثمانين رجلاً من الذين كانوا أعضاء في « ديوان الدفاع » وهو الديوان الذي كان بمثابة مركز القيادة للثورة[1] .

ومضت بضعة أيام كانت شديدة على سكان القاهرة ، فقد صار الجلواز الكبير « برطلمين » يبث أعوانه وجواسيسه في الطرقات والحارات بحثاً عمن شارك في الثورة أو نهب الدور ، وكان المنهوبون من النصارى وغيرهم يدلّونه على من اعتدى عليهم ، كما كان الناهبون أنفسهم يدل بعضهم على بعض . وصار موكب « برطلمين » يسير في شوارع القاهرة وفيه الكثير من المقبوض عليهم موثقين بالحبال وهم يساقون الى السجن[2] .

وسرعان ما عادت المياه الى مجاريها ، فنظفوا الأزهر وعاد الناس الى الصلاة فيه ، واستطاع الخبراء في المجمع العلمي صنع أدوات جديدة بدلاً من تلك التي حُطمت أو نُهبت . وفي ٢١ كانون الأول أذاع نابليون على أهالي القاهرة منشوراً أشار فيه الى عفوه ، وهذا هو نصه :

« ايها العلماء والأشراف ، أَعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأً ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة . وأَعلموا أمتكم أن الله قدّر في الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي ، وقدّر في الأزل أني أجيء من المغرب الى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذي أمرت به . ولا يشك العاقل أن هذا

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٧٠ — ١٧١ .
(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٩ .

كله بتقدير الله وارادته وقضائه • وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرّح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل ، وأشار في آيات أخرى الى أمور تقع في المستقبل ، وكلام الله في كتابه صدق وحق • اذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم ، فلترجع أمتكم جميعاً الى صفاء النية واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور • والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافق ، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب • واعلموا أيضاً أنني أقدر على اظهار ما في نفس كل أحد منكم لانني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه ، وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده • ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد ، وان اجتهاد الانسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدرّه وأجراه على يدي ، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام »(١) •

يلاحظ القاريء في هذا المنشور انه يختلف اختلافاً واضحاً من حيث أسلوبه ولغته عن المنشور الأول الذي نشره نابليون في بداية الغزو • فالمنشور الأخير مكتوب بلغة فصيحة وأسلوب أدبي لا بأس به ، بينما كان المنشور الأول مكتوباً بلهجة عامية مبتذلة • ويمكن أن نفسر هذا الفرق بين المنشورين بأن نابليون لم يكن لديه في بداية الغزو من يترجم له سوى بعض العامة من المغاربة أو أهل مالطة ، أما بعد استقراره في القاهرة فقد كان لديه موظفون يحسنون الترجمة والتعبير بالعربية الفصيحة •

ظهور المهدي :

في أواخر كانون الثاني من عام ١٧٩٩م توجه نابليون بشطر من جيشه

---

(١) ج٠ كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٧٤ ـ ٢٧٥ ٠

نحو الشام بغية فتحها • وقد فتح الكثير من المدن الفلسطينية بسهولة غير أنه وقف عاجزاً تجاه أسوار عكا ، وبعد أن حاصرها طيلة شهرين نكص عنها خائباً ، وكان للطاعون أثر غير قليل في خيبته تلك •

في الوقت الذي كان فيه نابليون مشغولاً بحصار عكا ، ظهر في الاسكندرية درويش ليبي اسمه أحمد وادعى انه المهدي المبعوث لقيادة المؤمنين في القضاء على الكفار • وسار نحو الجنوب في منطقة البحيرة الواقعة الى الغرب من نهر النيل حول دمنهور ، فأخذ يتجول في القرى وبين القبائل البدوية يهيّج الناس ويعظ فيهم • وكان يسير بين الناس عارياً من الثياب تقريباً ويزعم أنه قادر أن يقلب الافرنج الغزاة الى تراب بمجرد النظر اليهم ، وأن يمنع مدافعهم من الانطلاق بنفخة من فمه ، وأن يجعل قذائف المدافع واقفة في الهواء فلا تصل اليهم •

وكان هذا « المهدي » يزعم أيضاً أنه ابن ملك المغرب ، وأن جسده روح خالص لا يحتاج الى طعام ، وهو يقتات عادة بغمس اصبعيه في ابريق لبن ودعك شفتيه بهما ، وهو يستطيع أن يحوّل كل مايمسه الى ذهب ، أما الرصاص فلا يؤذيه ولا يؤذي أصحابه • وقد انطلت هذه المزاعم على الفلاحين والبدو واستهوتهم ، فجنّد منهم عدة آلاف •

وفي ٢٤ نيسان ١٧٩٩م استطاع اتباع هذا « المهدي » أن يستولوا على بلدة دمنهور ، وذبحوا الحامية الفرنسية فيها ،ثم زحفوا على الدلتا • غير أن حملة تأديبية فرنسية أدركتهم في ٩ آذار ، وأدركوا خطأهم في أول لقاء لهم برصاص البنادق وقذائف المدافع • ففروا الى الصحراء • ولا يعرف على التحقيق هل فر « المهدي » معهم أم سقط بين الضحايا(١) •

يبدو على أي حال أن ثورة المهدي أقلقت الفرنسيين في أول نشوبها ، ولعلهم ظنوا أنها ستنتشر في القرى المصرية انتشار النار في الهشيم • فقد

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٤٢٩ ـ ٤٣٠ •

كتب أحد الفرنسيين في مصر وهو المسيو ثير يقول : ان ثورة المهدي وضعتهم في خطر[1] • ومهما يكن الحال فقد انتقم الفرنسيون من دمنهور انتقاماً فظيعاً ، حيث ورد على لسان أحد قوادهم قوله : ان دمنهور زالت من الوجود ، فقد أُحرق أو ضُرب بالنار ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ من أهلها[2] •

معركة أبي قير :

كانت حملة نابليون في فلسطين سيئة الحظ الى أقصى حد ، فلم يرجع الى مصر من الجنود الفرنسيين سوى ثلثهم تقريباً ، أما الباقون فقد ماتوا أو أصابهم العجز • ولكن نابليون حين عاد الى القاهرة أمر بان يقام له استقبال كما يقام للفاتح المنتصر •

وفي ١٤ حزيران دخل نابليون القاهرة على رأس من بقي من جنوده ، أما الجرحى والمرضى فكانوا قد وزعوا على عدد من المدن في الطريق اخفاءاً لأمرهم • ودخل موكب نابليون من باب النصر ، وكان كل واحد من جنوده يحمل خوصة من سعف النخل مثبتة في قبعته اشارة الى النصر المزعوم الذي ظفروا به في فلسطين ، كما نُشر السعف في طريق الموكب ، واكتظت الشوارع بجموع كبيرة من المتفرجين • ووصل الموكب الى ميدان الازبكية حيث كان في استقباله العلماء والأعيان وكبار القواد •

ولم يمض على نابليون في القاهرة بعد عودته اليها من فلسطين سوى شهر واحد حتى بلغه وصول جيش عثماني بالسفن الى مقربة من الاسكندرية • وكانت هذه فرصة كان نابليون يترقبها في تلك الظروف الحرجة المحيطة به ، فهو كان يطمع أن ينزل هزيمة فادحة بالعدو لكي يستعيد بعض سمعته التي فقدها من جراء الحملة الفلسطينية •

(١) أدوار لوكروا (المصدر السابق) ص١٨١ •
(٢) ج كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٤٣٠ •

قُدّر عدد الجيش العثماني بما يقارب العشرة آلاف ، وقد نزل على مقربة من قرية أبي قير ، فاقتحم معقلاً فرنسياً يضم ثلاثمائة جندي وذبحهم جميعاً ، ثم احتل بعدئذ الحصن المشيّد على قمة شبه الجزيرة • وعندما وصلت أنباء هذه الانتصارات الى سكان القاهرة انتشر الفرح بينهم وظنوا أن الجيش العثماني سيدق قريبا أبواب القاهرة • يقول الجبرتي في هذا الصدد : « فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغط في الناس وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى ، واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة مع بعض نصارى الشوام فقال المسلم للنصراني : ان شاء الله بعد أربعة أيام نشتفي منكم ، وكلام من هذا المعنى ، فذهب النصراني الى الفرنسيس مع عصبة من جنسه وأخبروهم وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين اثارة فتنة ، فأرسل قايمقام الى الشيخ المهدي وتكلم معه في شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدي خطيباً وتكلم كثيراً ونفى الريبة وكذب أقوال الأخصام وتشدد في تبرئة المسلمين عما نسب اليهم وبالغ في الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى ، وكان هذا المقام من مقاماته المحمودة • ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم »[1] •

وفي صباح ٢٥ تموز نشبت معركة طاحنة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في أبي قير ، وكان نابليون يدير المعركة بنفسه ببراعته العسكرية المعهودة • وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم انتهت المعركة بانكسار الجيش العثماني وأسر قائده مصطفى باشا ، ولم ينج منه سوى أفراد قلائل فكانت هزيمة ماحقة •

ولما عاد نابليون الى القاهرة واستقر في قصره بالأزبكية ذهب للسلام عليه العلماء والأعيان • يقول الجبرتي : « فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : ان صاري عسكر يقول لكم انه لما سافر الى الشام

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص١٩٤ — ١٩٥ •

كانت حالتكم طيبة في غيابه ، وأما في هذه المرة فليست كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين وكنتم تعارضون الأغا في أحكامه ، وان المهدي والصاوي ما هم (بونو) أي ليسوا طيبين ، ونحو ذلك ... فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثهم على ما وقع له مع العساكر بأبو قير والنصر عليهم وغير ذلك »[1] .

الجنرال كليبر :

بلغ نابليون عن تدهور الأوضاع في فرنسا وقيام اتحاد دولي ضـدها ، فقرر العودة اليهـا . وقيل ان مما دفعـه الى العودة نبأ مفاده أن زوجته جوزفين انتهزت فرصة غيابه وصارت تخونه مع عشيق لها .

أُعدّت لنابليون في الاسكندرية أربع سفن اثنتان منها حربية من نوع الفرقاطة . وفي ٢٣ آب ١٧٩٩م تحركت السفن بنابليون ومعه أربعمائـة رجل ، وكان الحظ حليفـه حيث نجـا من الوقوع في قبضة الاسـطول البريطاني الذي كان يبحث عنه . وقد استغرقت الرحلة الى فرنسا سبعة وأربعين يوماً عاش فيها نابليون على أعصابه .

استخلف نابليون على القيادة من بعده قائد اسمه الجنرال كليبر ، وكان هذا يختلف عن نابليون من بعض الوجوه ، قيل ان نابليون كان يقطع في كل يوم ستة رؤوس وهو محتفظ ببشاشته أما كليبر فكان يقطع رؤوساً أقل ولكنه لم يكن بشوشاً وكان علاوة على ذلك يعتصر الاغنياء بطريقـة منظمة ويفرض عليهم الضرائب والغرامات الفادحة[2] .

وقامت في عهد كليبر ثورة القاهرة الثانية وكانت أشد من الأولى وأكثر هولاً ، وقد شارك فيها أهل بولاق . واستطاع كليبر أن يقضى عليها ، كما هزم الجيش العثماني الذي كان قد اقترب من القاهرة من جهة الشرق

---

(١) المصدر السابق ـ ج١ ص١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السبق) ص٤٧٢ .

في الوقت نفسه •

وفي ١٤ حزيران ١٨٠٠م بينما كان الجنرال كليبر يتمشى في حديقة قصره اقترب منه رجل بزي العمال اسمه سليمان الحلبي متظاهراً بأنه يريد تقبيل يده ، ثم أغمد مديته في بطنه فسقط كليبر صريعاً يتخبط بدمائه • وانتشر خبر مصرع كليبر في القاهرة كالبرق ، ودقت الطبول تدعو الجنود الى مراكزهم ، ولجأ الأهالي الى بيوتهم محتمين بها خشية العاقبة ، بينما اندفع بعض الجنود في الشوارع كالمجانين يضربون بسيوفهم كل من يصادفونه من الرجال والأطفال • ولم تنته الفوضى الا بالعثور على القاتل ، فقد وجدوه يصلّي الى جانب جدار متهدم والمدية بقربه وهي ملوثة بالدم والتراب •

وبعد اجراء المحاكمة للقاتل حُكم عليه بعقوبة تسمح بها تقاليد الحكم في مصر ولكنها لا تتفق مع مبادىء الثورة الفرنسية• وقد تولى « برطلمين » تنفيذ الحكم فجعل يد القاتل تشوى على النار أولاً ثم أجلسه على خازوق بعدئذ • وقتل « برطلمين » معه ثلاثة من الأزهريين دل التحقيق على أن القاتل أفضى اليهم بعزمه على اغتيال كليبر ولم يخبروا الحكومة عنه[1] •

عهد عبدالله مينو :

خلف كليبر في قيادة الجيش الفرنسي بمصر عبدالله مينو الذي تحدثنا عن اسلامه من قبل • وأخذ هذا الرجل يعمل في ضوء الخطة التي تبنّاها بحماس وهي جعل مصر قطعة من فرنسا ، فراح يغير ملامح البلاد ليصوغها على صورة فرنسا ، فأمر بهدم أحياء كاملة في القاهرة لتتسع لانشاء شوارع فسيحة ، وانتزع جباية الضرائب من أيدى الأقباط وفرض ضريبة واحدة على الأرض ، وألغى الرسوم الاقطاعية ، وانشأ محاكم جنائية تحت ادارة الفرنسيين ، وأمر بقيد المواليد والوفيات اجبارياً ، وأصدر أول

(١) المصدر السابق ــ ص٤٩٩ ــ ٥٠٥ •

جريدة تطبع باللغة العربية ، وغير ذلك .

وكان عبدالله مينو يتظاهر بأنه حريص على الاسلام ويريد تطهيره من البدع . يقول الجبرتي : « ... أرسل كبير الفرنسيس يسأل المشايخ عن الذين يدورون بالأسواق يكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقد فيهم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون ، هذا جائز في الاسلام أو حرام في الشريعة ؟ فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنّتنا ، فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه بهذا الوصف ، فان كان مجنوناً ربط في المارستان ، أو غير مجنون فاما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد » .

وفي أوائل عام ١٨٠١م وُلد للجنرال مينو طفل من زوجته العلوية زبيدة سماه « سليمان مراد جاك مينو » ، فكتب اليه مشايخ الديوان رسالة يهنئونه بهذا الحدث السعيد ، فرد عليهم مينو بجواب طويل ملأه بعبارات الخضوع لله وتمجيد الاسلام وذكر فناء الدنيا وبقاء الآخرة ، وفيه يقول : « ... فنحن نعلم أن القرآن العظيم الشأن ، ذلك المصحف الأكمل ، والكتاب المفضل ، يشمل على مبادىء الحكمة السنية والحقوق اليقينية ... بمثل ذلك عرفتُ أنه لمن المستحيل أن القرآن الشريف يفصح الا على ما هو من باب النظام لأنه من دون ذلك فكل ما هو في هذا العالم الفاني ليس الا ممات وخراب ... فالآن انما نكون نحن من أشر المذنبين اذا سرنا سيرة كالضالين ، وعلى أوامره عصاة غير منخضعين ، ومع ذلك فنسأله جل شأنه أن يقوينا على السلوك في ديننا ودنيانا وهذا القدر كفانا ... فيا حضرة المشايخ والعلماء الكرام اننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا من تهنئة بولادة ولدي السيد سليمان مراد جاك مينو ، فنطلب من الله سبحانه تعالى واسألوه كذلك بجاه رسوله سيد المرسلين أن يجود به عليّ زماناً مديداً ، وأن يكون للعدل محباً ، وللاستقامة والحق مكرماً ، وبوفاء وعده صادقاً ، وأن لا يكون من أهل الطمع ، فهذا هو أوفر الغنى الذي أرغبه

لولدي ، لأن الرجل الذي لا يهتدى الا بالخير لا يصرف اعتناءه الا في خير الأدب ، لا في قنية الفضة والذهب ، فنسأله تعالى أن يطيل بقاءكم ، والسلام »[1] .

مما يلفت النظر أن هذه الجهود التي بذلها مينو من أجل اقناع المصريين باخلاصه وصحة اسلامه باءت بالفشل ، فقد كان المصريون ينظرون الى مينو كنظرتهم الى نابليون من قبل اذ اعتبروه دجالاً يريد بأخاديعه اقتلاع تقاليدهم ونظمهم[2] .

الجلاء عن مصر :

ان خطة مينو في البقاء في مصر والعمل على جعلها مستعمرة فرنسية كانت سبباً في انقسام الجيش الفرنسي الى فريقين : أقلية تؤيد مينو في البقاء ، وأكثرية تحن الى فرنسا وتريد الجلاء عن مصر . وقد فعل هذا الانقسام فعله في التعجيل بنهاية الاحتلال الفرنسي لمصر[3] .

وكانت بريطانيا تحاول منذ البداية ـ كما رأينا ـ مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر بكل وسيلة تقع في يدها . ثم استقر رأيها أخيراً على ارسال قوات بريطانية لتساهم مع القوات العثمانية في اخراج الفرنسيين من مصر . وفي الأول من آذار ١٨٠١م نزل في الاسكندرية جيش بريطاني ، كما جاء من الجنوب عن طريق البحر الأحمر جيش آخر فوصل الى الجيزة . وزحف من الشرق جيش عثماني بقيادة الصدر الاعظم يوسف ضياء باشا . وبعد مفاوضات ومماحكات تم الاتفاق على أن يجلو الفرنسيون عن مصر على نفقة الحلفاء . وقد حاول مينو التمرد على هذا الاتفاق ومعارضته ولم يقبل به الا بعد أن حوصر مع بعض قواته في الاسكندرية وذاقوا من

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص٨٩ ـ ٩٤ .
(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٩ .
(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (المصدر السابق) ص٨٤ ـ ٨٥ .

الجوع والعطش والوباء قسطاً لا يستهان بـه • وفي ١٨ تشـرين الاول ١٨٠١م تم اجلاء آخر جندي فرنسي عن الأراضي المصرية •

يقول الجبرتي في وصف الفرح الذي عم القاهرة لجلاء الفرنسيين عنها : « ••• ففرح الناس وهنأ بعضهم بعضاً ، وأظهروا الفرح والسرور بدخول المسلمين وخروج الكافرين ، وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم ، والنساء يلقلقن بألسنتهن عند رؤيتهن في الأسواق ومن الطيقان ، وقام في الناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهن بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك ••• وفي يوم الأحد سافر هجان الى جهة الحجاز وصحبته فرمان بخبر الفتح والنصر وارتحال الفرنسيس وجلائهم عن أرض مصر ، ومكاتبات من التجار لشـركائهم بارسال البن والبضائع والمتاجر الى مصر • وفيه نودي بعدم التعرض بالايذاء لنصراني أو يهودي سواءاً أكان قبطياً أو رومياً أو شامياً فانهم من رعايا السلطان ، والماضي لا يعاد ••• »[١] •

وذكر الجبرتي أن الجنود العثمانيين عادوا الى عاداتهم القديمة في معاملة أهل الاسواق ، فقد أخذوا يتحكمون في الباعة ويفرضون على أصحاب الحوانيت دراهم يأخذونهـا كل يـوم ، كما صـاروا يتناولون طعامهم في الاسواق بلا ثمن ، ولم يكفهم هذا بل تعرضوا للناس في مساكنهم فكان أفراد منهم يأتون الى البيت ويأمرون صـاحبه بالخروج منه ليسـكنوه • وأسرف بعض الجنود في التعدي على الناس ، فكان أحدهم يذهب الى السوق ومعه دنانير مزيفة ويستبدل بها دراهم من فضة • أو يستأجر حماراً من المكارين فيذهب به الى غير رجعة واذا سار المكارى معه ليمشي وراء حماره قتله • وعندما اشتكى الناس ذلك الى الرؤساء قال هؤلاء لهم : ان الجنود

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٧٥ — ١٨٤ •

هم اخوانكم في الجهاد حاربوا أعداءكم وأخرجوهم من بلادكم وهم الآن ضيوفكم لأمد قصير فلم يسع الناس الا السكوت(١) .

ومن أغرب ما ذكره الجبرتي في هذا الشأن هو أن بعض الانتهازيين الذين كانوا يخدمون الفرنسيين ويتعاونون معهم انقلبوا الآن وصاروا من أشد الناس حماساً في تأييد العهد الجديد . يقول الجبرتي : « ... والعجب أن بعض نصارى الأروام الذين كانوا بعسكر الفرنسيس تزيوا بزي العثمانية وتسلحوا بالأسلحة واليطقانات ودخلوا فيهم وشمخوا بآنافهم وتعرضوا بالايذاء للمسلمين في الطرقات بالضرب والسب باللغة التركية ويقولون في ضمن سبهم للمسلم : فرنسيس كافر . ولا يميزهم الا الفطن الحاذق أو يكون له بهم معرفة سابقة »(٢) .

ومن الأحداث التي أثارت انتباه الناس آنذاك ما جرى لزينب ابنة نقيب الاشراف السيد خليل البكري ، وهي الفتاة التي تبرجت وخادنت نابليون حسبما أشيع عنها ، فقد استُدعيت هي وأبوها الى المحاكمة ، ولما حضرت سئلت أمام أبيها عما فعلت فقالت : « اني تبت من ذلك » . ولما سئل أبوها قال : « اني بزيء منها » ، فأمروا بكسر رقبتها . وصدر الأمر بعزل البكري من نقابة الاشراف واعادة النقابة الى صاحبها الأول السيد عمر مكرم الذي كان الفرنسيون قد عزلوه عنها . ثم أصدر الوالي العثماني أمره بعزل البكري من مشيخة السجادة البكرية أيضا وقال : انه « لا يصلح لسجادة الصدّيق »(٣) .

---

(١) ابراهيم جلال بك (المصدر السابق) ص١٢٠ ــ ١٢١ .

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٨٤ .

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (المصدر السابق) ص٨٧ ــ ٨٩ .

الملحق الثاني

حول طبيعة الانسان

كثيراً ما أخطأ المفكرون القدماء في فهم ظواهر المجتمع وأحداث التاريخ من جراء خطأهم في فهم الطبيعة البشرية • وقد حاولت في مؤلفاتي التطرق الى بحث الطبيعة البشرية وشرح بعض نواحيها ، ووجدت الآن من المناسب أن أكتب هذا الملحق لأجمع فيه خلاصة ما كنت قد ذكرته سابقاً حول هذا الموضوع مع بعض الزيادات اتماماً للفائدة •

ان ما ابتغيه من هذا الملحق هو أن يعرف القاريء رأيي في الطبيعة البشرية لكي يفهم الاتجاه الذي أسير عليه في تفسير التاريخ والمجتمع •

العقل البشري :

يجب أن نعلم منذ البداية ان الانسان هو حيوان قبل أن يكون انساناً، وهو انما امتاز عن أخيه الحيوان ببعض الفروق التي جعلت منه انساناً • وأول هذه الفروق هو العقل •

بالغ القدماء في تقدير العقل واعتبروه موهبة عليا خلقها الله في الانسان لكي يجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر ، ويرشده الى الحق • وقد اتضح الآن خطأ هذا الرأي ، ولم يعد يؤمن بصحته الا الذين لا يزالون يعيشون في تراث الماضي ، وهم كثيرون عندنا مع الأسف •

ان العقل في الانسان ما هو الا عضو كسائر الاعضاء ، وهو انما خلقه الله في الانسان لكي يساعده على تنازع البقاء كمثل ما خلق الخرطوم الطويل في الفيل ، أو المخالب القوية في الأسد ، أو السيقان السريعة في الفرس ، أو الناب السامة في الحية ، أو الدرع الواقي في السلحفاة • وبعبارة اخرى : ان العقل ليس المقصود منه اكتشاف الحقيقة ، أو التمييز

بين الخير والشر ، كما كان القدماء يظنون ، بل المقصود منه اكتشاف كل ما ينفع الانسان في الحياة ويضر خصمه •

معنى هذا ان الانسان في تفكيره لا يبحث عن الحقيقة بمقدار ما يبحث عن الوسيلة التي تساعده في الحياة • انه يدّعي دائماً بأنه يحب الحق والحقيقة ، ويضحي بمصلحته في سبيلهما • وهذا وهم يتوهمه الانسان أحياناً لكي يتباهى بنفسه • فالانسان يحب الحقيقة حين تكون نافعة له ، وتراه عند ذلك يطالب بها ويترنم بمدحها ويلعن مخالفيها ، وهو يستمر على ذلك ما دامت الحقيقة بجانبه ، ولكنها لا تكاد تتحول الى جانب خصمه حتى يبدأ بالنظر اليها من راوية أخرى ونجده حينئذٍ يراوغ ويداور ، ويبحث عن الأدلة التي تقلل من شأن تلك الحقيقة ، وقد ينكرها انكاراً تاماً في حالة عجزه عن تفنيدها •

لكي نفهم كنه العقل كما هو في واقع أمره دعنا ننظر في أحوال البشر المختلفة ، ولنأت على ذلك بأمثلة ثلاثة هي :

أولاً ـ ان الانسان اذ ينشأ في بيئة اجتماعية معينة ، ويظل قابعاً فيها لا يفارقها ذهنياً ، نراه يؤمن بصحة ما فيها من معتقدات وتقاليد وقيم ، فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أنها خير ما يمكن أن يكون في الدنيا كلها ، وأن ليس هناك ما هو أفضل منها ، وهو كلما فكر وتأمل لا يستطيع أن يخرج من اطار هـذا الاعتقاد الجازم • ان العقائد التي ينشأ عليها قد تكون « سخيفة » جداً ولكنها في نظره « معقولة » جداً ، وهو يتعجب ويتساءل لماذا لا يؤمن بها المخالفون مثلما يؤمن هو بها ، ولا يدرى أن المخالفين يتعجبون ويتساءلون مثله •

ثانياً ـ ان الانسان حين يتنازع مع خصم له على مصلحة له مادية أو معنوية نراه يتخذ كل وسيلة تقع في يده من أجل التغلب على خصمه ، وهو مؤمن أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه ، ويريد من الناس أن يؤيدوه على رأيه هذا • وهم اذا وافقوه كانوا في نظره منصفين ، أما اذا خالفوه كانوا ظالمين أو مغرضين « لعنة الله عليهم » ! • ان من الصعب جداً ،

أو من المستحيل أحياناً ، أن يقتنع انسان برأي ليس في مصلحته ، فان البرهان الذي نقدمه له هو برهان قوي في نظرنا نحن ، أما في نظره فهو بارد تافه لا قيمة له •

ثالثا ـ اذا أحب الانسان شخصاً أو شيئاً تحيز في تفكيره نحوه ، فصار يبالغ في ذكر محاسنه ويغض النظر عن مساوئه • وهو يفعل العكس من ذلك اذا أبغض ذلك الشخص أو الشيء • ويتضح هذا غاية الوضوح في تحيز الانسان لنفسه اذ هو يحب نفسه أكثر مما يحب أي شيء آخر في الوجود ، وهذا موضوع سنأتي الى ذكره فيما بعد على شيء من التفصيل•

قد يسأل سائل : اذا كان العقل البشري كما تقول فكيف استطاع أن يخترع هاتيك المخترعات العجيبة حتى تمكن أخيراً من الوصول الى القمر ؟!

الواقع اننا لا ننكر عظمة العقل البشري من حيث قدرته على الاختراع والابداع ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون العقل متحيزاً في تفكيره • وربما صح القول ان تحيز العقل هو الذي مكّنه من الاختراع والابداع •

ان العقل البشري لا يبدع الا اذا كانت لديه مشكلة يريد حلها • أنظر الى الانسان في بداية أمره عندما كان النزاع على البقاء شديداً بينه وبين أخيه الحيوان ، فلقد كان الحيوان أقوى منه جسماً غير أن الانسان يمتاز عليه بما يملك من مقدرة على التفكير • فكان أول اختراع للانسان هو « الفأس الحجرية » ، وهي قطعة مدببة من الحجر منحوتة من أحد جوانبها لكي يسهل مسكها • وقد استطاع الانسان أن يغالب بها الحيوان على الرغم من ضعف جسمه • ثم أخذ الانسان يطور أسلحته شيئاً فشيئاً حتى توصل أخيراً الى الصواريخ والقنابل النووية •

معظم الاختراعات التي تزخر بها الحضارة الآن كان المقصود منها مغالبة الخصوم على وجه من الوجوه ، وهذا هو الذي جعل الاختراعات تنمو نمواً كبيراً أثناء الحروب ـ الحارة أو الباردة •

ان الباحث الذي يواصل الليل والنهار في مختبره بغية اكتشاف شيء من العلم يبدو للناظر البسيط كأنه منهمك في البحث عن الحقيقة لذاتها ، بينما هو في الواقع يبحث عن شيء ينفعه تجاه منافسيه ، او ينفع قومه تجاه خصومهم • ولهذا نجده يتالم كل الألم حين يسبقه أحد الى الاختراع ، ويزداد المه حين يظهر الاختراع على يد احد من اعداء قومه •

الشعور بالذات :

قلنا ان الانسان يتميز عن الحيوان بالعقل ، وهناك ميزة أخرى للانسان ذات أهمية قد لا تقل عن أهمية العقل ، هي الشعور بالذات • ومما يلفت النظر ان القدماء لم يفطنوا الى هذه الميزة على الرغم من أهميتها ، وكان ذلك من الأسباب التي جعلتهم يخطئون في فهم الطبيعة البشرية •

ان الشعور بالذات هو ما يشعر به الانسان حين يتحدث عن نفسه ويقول « أنا » ، وهو الذي يدفع الانسان دائماً نحو الارتفاع في نظر الغير والحصول على اعجاب الناس وتقديرهم •

كل انسان يرغب من أعماق نفسه في أن يكون محترماً في مجتمعه له منزلة رفيعة أو مشهوراً يشار اليه بالبنان • فهو كثيراً ما يفضّل معاناة الألم أو الجوع ، وقد يضحي بماله أو بنفسه أحياناً ، من أجل أن يصون منزلته بين قومه • وهذا هو المحور الذي يدور حوله الشعور بالذات •

ان الشعور بالذات غير موجود في الحيوان ، فالحيوان لا يستحي ولا يبالي بأفراد نوعه كيف ينظرون اليه ، انه يعيش في عالمه الخاص به وهو سعيد ما دام قد حصل على الدفء والطعام • أما الانسان فلا تكمل سعادته الا بوجود الناس حوله من جهة ، وباحترامهم له من الجهة الاخرى •

ان الطفل البشري لا يملك الشعور بالذات عند ولادته ، ثم يبدأ هذا الشعور ينمو لديه تدريجاً • والملاحظ أنه في بداية شعوره بذاته يود أن يكون ممدوحاً ومفضّلاً على اخوته وأترابه ، فاذا مدحناه انتعش وبان

السـرور على وجهه ، واذا ذممناه انزعج وتألم وربما عصى وتمرد واخذ يزعق من غير سبب ظاهر • ان السبب الحقيقي في تمرده هو شعوره بأنه صار دون أترابه في المنزلة ، وهذا يؤلمه ألماً شديداً ، وربما جهل الطفل سبب ألمه في بعض الأحيان •

وحين يكبر الطفل ويصبح شخصاً بالغاً تظل هذه النزعة ملازمة له ، غير أنها تختفى تحت طلاء من الادعاءات والمزاعم المصطنعة • فالشـخص البالغ لا يختلف عن الطفل من حيث حبه للمديح وتقدير الناس له ولكنه لا يظهر ذلك علانية بل يتظاهر بالعكس من ذلك رياءاً • ان الطفل صريح لم يتعلم الرياء بعد ، ولهذا فالطبيعة البشرية تظهر عليه بشكل مفضوح •

ان الشعور بالذات عملية نفسية تحدث في الانسان على مراحل ثلاث وهي تتتابع في لحظة واحدة ، فالانسان أولاً يتخيل شخصاً أو جماعة من الناس ينظرون اليه ، وهو ثانياً يتخيلهم يحملون رأياً عنه حسـناً أو قبيحاً ، وهو ثالثاً يشعر بالفخار أو الخزي حسبما يتخيل من رأيهم فيه • معنى هذا ان الشعور بالذات قد ينشأ من التوهم أو التخيل • فالانسان يشعر بالاعتزاز ويرفع رأسه فخاراً حين يتوهم رأي الغير فيه حسناً ، وهو عـلى النقيض من ذلك يشعر بالانكساف ويطأطىء رأسه خجلاً حين يتوهم رأي الغير فيه قبيحاً • ان الانسان لا يعرف ماذا يضمر الناس له في قلوبهم من احترام أو احتقار ، بل هو يتخيل ذلك تخيلاً ، وكثيراً ما يخطىء في تخيله فيحسب الناس معجبين به بينما هم في الواقع يستصغرونه ويحتقرونه ، أو يحسبهم محتقرين له بينما هم يحترمونه •

لا شك أن الانسان كلما ازداد نضوجه ازدادت مقدرته على معرفة ماذا يفكر الناس عنه ، ولكنه مهما كان ناضجاً فانه لا يستطيع أن يكتشف حقيقة ما يضمره الناس له بكل دقة ، ولابد أن يبقى جزء كبير من مشاعر الناس نحوه محجوباً عنه •

اذا كان الانسان مصاباً بـ « عقدة النقص » توهم أن الناس كلهم

يحتقرونه ويستهينون به ، ولذا فهو يشعر بالخجل والانكماش النفسي ، وتراه ضعيف الثقة بنفسه يخشى أن ينطق بقول أو يقوم بعمل لئلا يجابهه الناس بالسخرية والاهانة • وكثيراً ما تفوته الفرص من جراء ذلك •

ان المصابين بعقدة النقص قليلون ، أما اكثر الناس فهم يحملون ما يمكن أن نسميه بـ « عقدة الكمال » • والمصاب بهذه العقدة معجب بنفسه ويقدرّها أكثر مما هي في حقيقة أمرها ، فهو يعتقد أنه عظيم أو ذكي أو جميل ، وأنه يتفوق على أقرانه في كل شيء ، ويسوءه أن يرى أحد أقرانه ينال اعجاب الناس دونه ، فهو يضمر الحسد له أو الحقد ، ويحاول تصغير شأنه في نظرهم بأية وسيلة يقدر عليها •

الخلل في تكوين الذات :

ان الشعور بالذات في بداية تكوينه عند الطفل يكون فجاً ساذجاً على نحو ما رأينا ، ثم يتقدم نحو النضوج تدريجاً • ومن مظاهر الفجاجة في الطفل أن شعوره بالذات يتنوع بين لحظة وأخرى حسب تنوع الاشخاص الذين ينظرون اليه ، أو يتخيل أنهم ينظرون اليه • ففي مقدورنا أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نريده بمجرد أن نمدحه عليه كأن نقول مثلاً : « انظروا اليه كيف يصلّي ! انه يتقن الصلاة جيداً ! » ، ونراه عندئذ يقف بوقار مصطنع ويحرك شفتيه بالتلاوة ثم يركع ويسجد بغية أن ينال اعجابنا • أو نقول : « أنظروا كيف يرقص ! انه يتقن الرقص جيداً ! » ، ونراه يبدأ بالرقص على منوال ما فعل في صلاته •

وبمرور الأيام تأخذ الذات بالتناسق شيئاً فشيئاً حيث يقل فيها التنوع وتتجه نحو التوحد • وكلما ازداد نضوج الشخص وكثر احتكاكه بالناس زاد تناسق الذات فيه • ولكننا يجب أن لا ننسى أن التناسق الكامل في الذات لا يستطيع أن يصل اليه أي انسان مهما بلغت درجة نضوجه ، فلابد أن يبقى في الانسان شيء من التنوع الذاتي على وجه من الوجوه •

الملاحظ في بعض الأشخاص أنهم على الرغم من بلوغهم سن الكهولة

يظلون يحافظون على درجة من التنوع الذاتي قريبة مما كانوا عليها في سن الطفولة • فترى أحدهم يبدّل شخصيته حسب تبدل الاشخاص الذين ينظرون اليه دون أن ينتبه الى التناقض الواضح الذي يقع فيه • فهو مثلاً أثناء الحديث مع صاحب له قد يلمح امرأة حسناء بالقرب منه ، فيتغير فجأة في طريقة كلامه ، وفي حركاته وسكناته • انه يغفل عند ذاك عن وجود صاحبه ويركز اهتمامه على المرأة حيث يروم أن يؤثر فيها وينال اعجابها •

أعرف شخصاً من المصابين بهذا الخلل في تكوين الذات ، وهو يصلح أن يكون نموذجاً له ، فهو اذا جلس في مجلس أخذ يتغير في كلامه حسب تغير الاشخاص الذين يدخلون المجلس أو يخرجون منه • وهو قد يبدي رأياً ويتحمس له ثم ينقضه بعد لحظات • ولا يستحي من التناقض الذي يظهر عليه أو لعله لا يدري به • والسبب في ذلك ان الذات عنده لم تصل بعدُ الى درجة التناسق المناسبة لسنّه ، بل بقي كما كان في طفولته فجاً •

وهناك خلل آخر في تكوين الذات هو الذي يطلق عليه اسم « السيكوباثية » وقد يصح تعريبه بـ « داء الصفاقة » • فالشخص المصاب بهذا الداء يتميز عن غيره بوجود ضعف في تناسق ذاته من الناحية الزمنية • فهو لا يبالي بما فعل في الماضي ، أو ما سوف يفعل في المستقبل ، ولا يستحي منهما • انه قد يستقرض منك مبلغاً من النقود على أن يرجعه اليك بعد ساعة ، ثم تمضي عليه الساعة والساعتان وعشرات الساعات دون أن يشعر بأهمية وعده ، وربما قابلك بعدئذٍ بوقاحة كأنه لم يستقرض منك شيئاً ، وهو قد يبتسم لك ابتسامة بلهاء ثم يكرر الوعد لك مرة بعد مرة بلا جدوى •

ان الشخص « الصفيق » قد يخونك أو يغشك أو يغتابك أو يهاجمك بصلافة ، ثم ينسى ذلك ويريد منك أن تنساه أيضاً • ومما يجدر ذكره أن الشخص السوي قد يرتكب مثل هذه الأفعال ولكنه يخجل منها عادة ويحاول الاعتذار عنها أو تبريرها • أما الشخص « الصفيق » فهو يرتكب تلك الافعال بلا اكتراث كأنه لم يفعل شيئاً يستحق اللوم •

ان الشخص « الصفيق » كثيراً ما ينتهي أمره الى الضياع والانهيار المعنوي • فهو حين ينسى وعوده ، أو يأكل الديون الصغيرة التي عليه ، يجعل الناس لا يثقون به ، وقد يصبح بينهم منبوذاً لا يعامله أو يعتمد عليه أحد • ومعنى هذا أنه يخسر سمعته ومستقبله من أجل دراهم معدودة أو أشياء تافهة •

ان الناس يتعجبون حين يجدون شخصاً يضرّ نفسه بهذا الشكل • والواقع أن الشخص « الصفيق » عندما يضر نفسه لا يخضع للتفكير المنطقي، بل هو يفعل ذلك بدافع لا شعوري لا يعرف هو مأتاه في نفسه • انه يكتفي بما تأتي به اللحظة الحاضرة من لذة عاجلة ، ولا يبالي بما يأتي به الغد من خسارة دائمة • وبعبارة أخرى ان شعوره بذاته منحصر في نطاق اللحظة التي هو فيها ، فهو لا يتخيل ذاته الماضية ولا ذاته المقبلة •

لا ننكر أن الشخص « الصفيق » قد يستفيد في بعض الظروف ، فقلة الحياء فيه تجعله ناجحاً في انتهاز الفرص أحياناً • انه يستطيع أن يتزعم كل مظاهرة ، ويقف في كل حفلة ، ويتزلف لدى كل متنفذ • والمعروف عن بعض المتنفذين أنهم يحتاجون الى شخص من هذا الطراز لكي يقوم بخدمتهم في المهمات التي لا يرضى أن يقوم بها الاشخاص الأسوياء •

التغلف الذاتي :

يحيط بعقل الانسان غلاف وهمي يحجب عنه ما يقول الناس في ذمه، ولهذا يبقى الانســان مغروراً بنفســه معجباً بها فلا يعرف قيمته الحقيقية الموجودة في أذهان الناس عنه •

مما يساعد على تكوين هذا الغلاف الذاتي في الانســان هو ما اعتاد الناس عليه في حياتهم الاجتماعية من مجاملات ، فهم اذا أرادوا ذم شخص تحدثوا عنه في غيابه ولم يذكروا ذلك في حضوره الا نادراً ، أما المديح فهم يحرصون على ذكره في حضور الشخص وكثيراً ما يبالغون فيه بدافع التزلف والنفاق •

والانسان حين يسمع الناس يمدحونه يحسب أنهم يذكرون الحق الذي لا شك فيه • انه لا يدري ماذا يقول الناس عنه في غيابه • فهو مغتبط بالمديح الذي يسمعه ، اذ يميل اليه بكل جوارحه ، ويبتش للمادحين ويصغي اليهم مما يشجعهم على التمادي فيه • واذا كان ذا نفوذ أو ثروة وجاء المنافقون يتزلفون اليه بمديحهم المفرط ازداد اغتباطا بنفسه وغروراً بها ، وتخيل أن الدنيا كلها تلهج بذكره وأن ليس للناس من حديث سوى حديث فضله وعظمته •

من طبيعة العقل البشري أنه لا يأخذ صور الاشياء كما هي في الواقع على نحو ما تفعل المرآة ، بل هو يلتقط نقاطاً معينة من الشيء الذي ينظر اليه ثم يكمّل الصورة بعدئذٍ من الخيال • وهذا هو ما يحدث للانسان عندما يريد أن يأخذ صورة عن نفسه ، فهو يلتقط الأماديح التي تقال فيه ، فيحفظها ويؤكد عليها ويبالغ فيها ، ثم يبني منها صورة زاهية عن نفسه ، وهو معتقد كل الاعتقاد أن هذه هي الصورة الحقيقية الموجودة في أذهان الناس عنه • فاذا جاءه أحد يصارحه بالحقيقة المرة تملكه الغضب واعتبر الانتقاد باطلاً وأن قائله لابد أن يكون مغرضاً أو حسوداً أو لئيماً •

والغريب أن الانسان كثيراً ما يذم الناس في غيابهم ، ولكنه لا يتصور أن الناس يفعلون به مثلما يفعل هو بهم • ان الغلاف الذاتي يمنعه من رؤية هذه الحقيقة الواضحة •

يجب أن لا ننسى ان الأفراد ليسوا كلهم على درجة واحدة من حيث ثخانة الغلاف الذاتي الذي يحيط بعقولهم ، فمنهم من يكون غلافه ثخيناً جداً وهو الذي يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الفطير » ، وفيهم من يكون على النقيض من ذلك ذا غلاف رقيق يكاد يكون شفافاً وهو الذي يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الناضج » • وأكثر الناس هم الذين يتفاوتون من حيث ثخانة غلافهم الذاتي بين « الفطير » و « الناضج » على درجات •

ان الشخص « الناضج » هو الذي يعرف قيمة نفسه ويقدرها تقديراً

قريباً من الواقع ، واذا أحس بشيء من الغرور أو الاعجاب بالذات استطاع كتم هذا الاحساس في نفسه وترويضه بحيث لا يظهر منه الا ما هو مقبول في نظر الناس • وهو حين يتواضع في اظهار مشاعره الذاتية لا يصطنع التواضع ويتكلفه ، وكثيراً ما يكون تواضعه صميمياً لا رياء فيه أو مباهاة •

أما الشخص « الفطير » فأمره عجيب • انه معجب بنفسه الى الدرجة القصوى وهو موقن بأن الناس كلهم معجبون به أيضاً • واذا استحسن شيئاً ظن أن الناس جميعاً لابد أن يستحسنوه مثله • وتراه يأتي بالنكتة التافهة ويكون أول الضاحكين عليها ، وحين يضحك الناس معه مجاملة يعتقد أن الناس « ماتوا » من الضحك ، وقد يؤدي ذلك به الى أن يعيد النكتة على الناس مرة بعد مرة •

واذا تحدث هذا « الفطير » في مجلس أخذ يرنو ببصره خلسة نحو الحاضرين ليرى تأثير كلامه فيهم • أما اذا ألقى كلمة في حفل عام ، أو كتب مقالة في جريدة ، فانه يظل يتباهى بما قال مدة طويلة ، ولا يكاد يلتقي بصديق له حتى يسأله عن الكلمة التي ألقاها وعن « عبقريتها » التي لا تضاهى • وقد يضطر الصديق الى مجاملته فيقول له ما يريد أن يقال ، وعند هذا ينبلج وجهه عن ابتسامة الفخر ثم يمضي في طريقه رافعاً رأسه نحو الأعالي •

واذا كان هذا « الفطير » شاباً من طلاب الغرام ازدادت مشكلته تعويصاً ، فهو يحسب أن « حسنه » فاق حسن يوسف الصديق ، فاذا دخل الى مرقص شرقي تخيل أن الراقصات وقعن في حبائل غرامه ، أو هن على وشك أن يقعن فيها ، وهو عند انتهاء الحفلة ربما وقف في باب المرقص متوقعاً أن تدعوه احدى الراقصات الى بيتها لشدة ما تشعر به نحوه من لوعة الهيام !

قد يسأل سائل : أيهما اكثر سعادة في الحياة ، « الفطير » أم « الناضج » ؟ •

يمكن القول ان الشخص « الناضج » أكثر قدرة على فهم الحياة وعلى الاكتناه الموضوعي لها ، انما هو لا ينال من السعادة بمقدار ما ينال منها الشخص « الفطير » • ان الشخص « الناضج » حين ينجز عملا من الأعمال يستطيع أن يعرف القيمة الحقيقية لعمله على وجه التقريب ، ولهذا فهو لا يفرح به كما يفرح الشخص « الفطير » •

الواقع أن كل انسان مهما كان « ناضجاً » لا يمكن أن يخلو من بعض « الفطارة » قليلاً أو كثيراً • ان « النضوج » التام غير موجود في البشر كما لا توجد فيهم أية صفة أخرى كاملـة • ومن الجدير بالذكر أن « الفطارة » ذات نفع كبير لصاحبها لانها تمنحه المنزلة الاجتماعية الرفيعـة التي يطمح اليها ولو عن طريق الأوهام ، فلولا « الفطارة » لأدرك الانسان قدر نفسه وقيمة أعماله كما هي على حقيقتها ، وهذا أمر يصعب على الانسان تحمله • ان الأوهام ضرورية للانسان ولولاها لما أحب الانسان الحياة •

الجنون والعقل :

الجنون موضوع لا يزال العلم عاجزاً عن اكتناهه ، ولست أريد أن أتطرق الى هذا الموضوع الا بالقدر الذي يتصل بطبيعة الانسان من حيث تكوين الذات والعقل فيه •

الجنون أصناف شتى ، وأهم صنف فيه وأوسعه انتشاراً هو الذي يسمى بـ « الشيزوفرينيا » أي جنون الفصام ، وهو انما سمي بهذا الاسم لأن المصاب به ينفصم نسبياً عن المجتمع ويخلق له في أوهامه مجتمعاً خاصاً يعيش فيه كما يشاء •

ان شخصاً ما قد يعجز عن نيل المنزلة العالية التي كان يطمح اليهـا فيندفع ، لسبب من الاسباب ، نحو تخيل عالم خاص به لينال فيه المنزلة المطلوبة ، فتراه يحسب نفسه ملكاً أو أميراً أو قائداً مشهوراً أو عبقرياً

يشار اليه بالبنان ، وهو سعيد بهذه المنزلة الوهمية التي حصل عليها •

وهناك صنف آخر من الجنون هو ما يسمى بـ « البارانويا » ، أو جنون العظمة والاضطهاد ، والمصاب به يشبه المصاب بجنون الفصام من حيث اعتقاده بأنه شخص عظيم ، غير أنه يعتقد بالاضافة الى ذلك أن الناس يضطهدونه ويتآمرون عليه ، فاذا رأى اثنين يتهامسان فيما بينهما ظن أنهما يتآمران للايقاع به ، واذا سمع عن مظاهرة سياسية تصور أنها مدبرة ضده، وربما تصور أن الاستعمار العالمي كله يضع الخطط لقتله والتخلص منه •

يمكن القول ان كل انسان على وجه الأرض قد يحمل في أعماق نفسه بذرة الجنون من هذا الصنف أو ذاك ، أو كليهما معاً ، فكل انسان غير قانع بالمنزلة الواقعية التي هو فيها ، وهو قد ينطوي على نفسه ليتخيل المنزلة الرفيعة التي يطمح اليها ، وربما تخيل كذلك ان الناس يحسدونه على تلك المنزلة ويضمرون له البغضاء ويكيدون له • ولكن الفرق بين المجنون والعاقل هو أن أحدهما يتستر على نفسه ويكتم مشاعره ويتظاهر بالتواضع فيقول الناس عنه انه عاقل ، بينما الآخر يعلن عن مشاعره جهاراً ولا يبالي بما يقول الناس عنه • وبعبارة أخرى : ان العاقل هو الذي يملك القدرة على التمييز بين الأفعال التي يرضى عنها الناس وتلك التي يسخرون منها ، أما المجنون فهو لا يملك مثل هذه القدرة وتراه يكشف للناس عن جميع مايشعر به تجاه نفسه وتجاه الغير لا يكتم منه شيئاً ، فظاهره وباطنه سـواء !

ولابد لنا في هذه المناسبة من أن نتطرق الى نموذج من الناس هو وسط بين العقل والجنون ، أو هو بعبارة أخرى : قريب من الجنون ولكنه ليس مجنوناً ، هو الذي يمكن أن نسميه بالشخص « الكيشوتي » •

ان هذا الاصطلاح مأخوذ من اسم بطل القصة الاسبانية المشهورة « دون كيشوت » ، وهذا الرجل كان يعيش في القرون الوسطى وكان يطمح أن يكون فارساً من اولئك الفرسان الشجعان الذين كانوا ينالون

اعجاب الناس يومذاك ، غير أنه كان ضعيف الجسم مسكيناً • وقد وجد حصانا هزيلاً فامتطاه ، ثم وجد درعاً ممزقاً فلبسه ، وخرج الى الناس ينادي : هل من مبارز ؟! وصار يبارز طواحين الهواء ظنا منه أنه يبارز العمالقة ، ويقتل قطيعاً من الغنم ظناً منه أنه يقاتل جيشاً عرمرماً •

ان هذه قصة لا تخلو من مبالغة ولكنها مع ذلك تمثل نموذجاً لشخصية موجودة في الواقع وان كان أصحابها قليلين •

ان الشخص « الكيشوتي » يقف في منتصف الطريق نحو الجنون ، والناس قد يسخرون منه كما يسخرون من المجنون أحياناً ولكنه لا يتقدم نحو الجنون ، بل يقف في مكانه طيلة حياته • انه يتصور نفسه أميراً ، أو زعيماً سياسياً مشهوراً ، أو قائداً من قواد صاحب الزمان ، والناس يعاملونه حسبما يتصور هو في نفسه لكي يضحكوا عليه ولكنه يعتقد أنهم يعاملونه بصدق واخلاص • وهو قد يقوم بأعمال عجيبة ليمثل الدور الذي يشتهيه ، كأن يظهر بمظهر الأمير أو الزعيم أو القائد ، واذا اشتد الناس في السخرية منه ظن أنهم يمازحونه حباً به •

ان الشخص « الكيشوتي » يختلف عن المجنون بكونه قادراً على كسب العيش واحتراف مهنة كسائر الناس ، وهو في مهنته يكاد لا يختلف عن العقلاء ، ولكن نقطة الضعف فيه هي أوهامه « الكيشوتية » وهي أوهام لا تسمح له أن يكون عاقلاً ، ولا تتقدم به نحو الجنون ، فهو يظل طيلة حياته في تلك المرحلة الوسطى بين العقل والجنون •

ان أكثر المجانين يمرون بالمرحلة « الكيشوتية » قبل أن يدخلوا في عالم الجنون • وكثيراً ما يدفعهم الناس بسخريتهم نحو الجنون دفعاً • أما الشخص « الكيشوتي » فهو يبقى في مرحلته الوسطى مهما سخر الناس منه وآذوه • فما هو السبب في ذلك ؟ ان هذا من ألغاز الشخصية البشرية التي لا يزال العلم عاجزاً عن حلها •

العامية والتفرد :

ان الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشبه من بعض الوجوه التنويم المغناطيسي ، وهو ما يمكن أن نسميه بـ « التنويم الاجتماعي » . فالمجتمع يسلط على الانسان منذ طفولته ايحاءاً مكرراً في مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية ، وهو بذلك يضع تفكير الانسان في قوالب معينة يصعب التحرر منها . وهذا هو الذي جعل الانسان الذي ينشأ في بيئة مغلقة ينطبع تفكيره غالباً بما في تلك البيئة من عقائد دينية وميول اجتماعية واتجاهات عاطفية وما أشبه . فهو يظن أنه اتخذ تلك العقائد والميول بارادته واختياره ، ولا يدري أنه صنيعة بيئته الاجتماعية ولو أنه نشأ في بيئة أخرى لكان تفكيره على نمط آخر .

ان التنويم المغناطيسي في حقيقته ليس سوى ايحاء مكرر يُسلّط على الشخص كأن يقال له تكراراً انه يرى شيئاً معيناً ، وربما كان الشيء غير موجود ولكن صورته تنطبع في ذهن الشخص كأنه موجود فعلاً . وهذا هو ما يفعله التنويم الاجتماعي في الكثير من الناس بحيث يجعلهم يؤمنون بالأوهام والخرافات وهم واثقون بأنها حقائق واضحة لا يجوز أن يتجادل فيها اثنان ، أو يشك فيها انسان !

ثبت علمياً أن الافراد لا يتأثرون كلهم بالتنويم المغناطيسي على وتيرة واحدة . فمنهم من يتأثر به كل التأثر ومنهم من يكون تأثيره فيه ضعيفاً ، وهناك أفراد لا يمكن تنويمهم اطلاقاً . والظاهر أن الافراد يتفاوتون تجاه التنويم الاجتماعي على منوال ما يتفاوتون تجاه التنويم المغناطيسي .

فالملاحظ أن السواد الاعظم من البشر في كل العصور ، وهم الذين نسميهم « العامة » ، يتأثرون بالتنويم الاجتماعي تأثراً كبيراً . فالفرد منهم يكون خاضعاً في تفكيره للايحاء الاجتماعي المسلّط عليه ، فهو يفكر مثلما يفكر الناس حوله ، يحب ما يحبون ، ويكره ما يكرهون ، وتكون عقائده وميوله طبق ما هي في محيطه الاجتماعي لا يخالفها الا قليلا ، واذا اندفع

الغوغاء في أفعال اعتدائية عاتية أيدهم وهتف لهم بشرط أن تكون أفعالهم موافقة للايحاء المسلط عليه ، أما اذا كانت مخالفة له فانه يشجبها ويتقزز منها ويتعجب كيف قام الناس بها •

ان الشخص « العامي » قد يكون ذا شهادة علمية عالية ولكن علمه ليس سوى مجموعة من المعلومات حفظها حفظاً دون أن تؤثر في نمط تفكيره • انه يبقى « عامياً » في تفكيره مهما تعلم ، وهو لا يختلف عن « العامي » غير المتعلم الا بمظهره الخارجي أو بما يتحذلق به من أفانين الكلام وترديد المصطلحات العلمية •

وهناك على الضد من الشخص « العامي » شخص يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « المتفرد » وهو الذي يكون تأثره بالتنويم الاجتماعي ضعيفاً نسبياً • وهذا الشخص يشعر منذ طفولته بأنه مختلف عن غيره ، فهو يرى الناس حوله يتفاخرون بأمور هي في نظره لا تستحق الفخار • انه يحب أن ينسجم مع الناس ولكنه لا يتمكن من ذلك في أكثر الأحيان ، فهو في واد وهم في واد آخر ، وربما كان معذباً من الناحية النفسية لعجزه عن مجاراة الناس في معتقداتهم وميولهم ، وهو قد لا يدري السبب في ذلك •

يمكن القول ان « التفرد » صفة ضرورية لتكوين شخصية العبقري أو النبي أو المصلح أو العالم أو أي شخص ينجز عملاً شاذاً عن المألوف • فلولا صفة « التفرد » في هؤلاء الاشخاص لما استطاعوا أن يفكروا بعملهم الشاذ أو يقوموا به •

ان الشخص « العامي » هو الذي تتمثل فيه الطبيعة البشرية بأجلى مظاهرها من حيث حبه لذاته وتحيزه العقلي ، وكل ما يهتم به هذا الشخص في أقواله وأفعاله هو أن ينال مديح الناس وارتفاع منزلته بينهم • وبعبارة أخرى : انه منهمك في ذاته لا يعرف غيرها • أما الشخص « المتفرد » فهو وان كان لا يخلو من هذه النزعة بوجه عام غير أنه قد ينسى ذاته أحياناً ، وينسى الناس حوله ، فيندفع في سبيل هدفه الشاذ كما يندفع العاشق

الولهان • وهذا هو السبب الذي جعل الناس يصفون « المتفرد » بأنه مجنون • فهم منهمكون في ذاتهم ويتوقعون من غيرهم أن يكون مثلهم في ذلك ، فاذا رأوا شخصاً يشذ عنهم استغربوا منه وألصقوا به تهمة الجنون •

تعجبني في هذا المقام كلمة للامام علي بن أبي طالب هي : « الناس ثلاث : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، والباقي همج رعاع ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح » •

الانانية والغيرية :

ان الانانية هي الصفة الاساسية في الانسان ، فهو يحب نفسه دائماً ويفضلها على الغير ، ولكننا مع ذلك قد نرى الانسان يضحي بنفسه أو بمصلحته في سبيل الغير أحياناً ، كما تفعل الأم تجاه ولدها ، أو البدوي تجاه قبيلته ، أو المؤمن تجاه دينه ••• الخ •

يمكن القول ان هذه الغيرية التي نراها في الانسان أحيانا ليست غيرية بمعناها الحقيقي ، بل هي أنانية تبدو كأنها غيرية • وبعبارة أخرى : ان الغيرية في الانسان ليست سوى صورة من صور الأنانية أو مستمدة منها •

خذ الأم مثلاً فهي حين تتفانى في سبيل ولدها انما تتفانى في سبيل نفسها من حيث لا تشعر ، ذلك أن ولدها ليس كائناً غريباً عنها بل هو جزء من ذاتها وامتداد لها ، اذ هي تفتخر بفخاره وتعتار بعاره ، وكثيراً ما يتعلق مصيرها بمصير ولدها ارتفاعاً أو انخفاضاً •

ومثل هذا يمكن أن نقول عن البدوي تجاه قبيلته ، ولو بدرجة أضعف ، فالبدوي يرمي بنفسه الى الموت في سبيل قبيلته لانه يدرك أن انتصارها انتصار له وهزيمتها هزيمة له ، واذا ذلت قبيلته أو أهينت فلابد أن يصيبه الذل والهوان عاجلاً أو آجلا •

أما المؤمن الذي يموت في سبيل دينه فهو يتوقع أن يلقى بعد الموت ما يعوّضه خير تعويض ، فهو بموته يفقد المنفعة القليلة العاجلة من أجل منفعة كثيرة آجلة • ولكن الملاحظ أن الشهداء في الدين قليلون نسبياً

ذلك لأن اكثر الناس غير مصدقين بالآخرة تصديقاً حقيقياً من أعماق نفوسهم ، ولو كانوا مصدقين بها حقاً لتهافتوا على الموت أكثر من تهافتهم على مناصب الدنيا ومغرياتها •

وهناك جانب آخر من هذا الموضوع هو ما نسميه بـ « الجزاء الاجتماعي »• فالانسان كثيراً ما يخدم الغير أو يضحي في سبيله لكي ينال التقدير من الناس وترتفع منزلته بينهم • خذ مثلاً ذلك الشخص الذي يسمع عن حدوث حريق في محلته وصوت استغاثة تنبعث منه ، فهو يسرع الى النجدة متلهفاً وقد يرمي بنفسه الى النار لينقذ أحداً منها ، وهو اذ يفعل ذلك يتوقع أن ينال التقدير من أبناء محلته بعدئذ ، فيتحدث الرجال في المقهى عن بطولته ، وتروي النساء القصص المثيرة عنه ، واذا مشى في الطريق أشار الناس اليه بالبنان وردوا له التحية بأحسن منها •

ان هذا الذي يفعله الفرد المحلي يفعله كل انسان ، غير أن الناس يختلفون من حيث المظهر الذي يظهرون به أو الوسيلة التي يستعملونها من أجل الحصول على « الجزاء الاجتماعي » • فالمكتشف الذي يرتاد القطب ، والعالم الذي يقضي أوقاته بين الكتب ، والبدوي الذي يغزو ، والشقي الذي يسطو على البيوت ، والشاعر الذي ينظم القصائد العصماء ، كل هؤلاء وغيرهم انما يطلبون « الجزاء الاجتماعي » ، ولكنهم اختلفوا في أعمالهم من جراء اختلاف الدوافع النفسية المسيطرة عليهم أو الظروف الاجتماعية المحيطة بهم •

الواقع أن للقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع أثراً كبيراً في توجيه أفراده نحو عمل ما • فاذا كان المجتمع يقدّر العلماء مثلاً اندفع أكثر أفراده نحو طلب العلم والتنافس عليه ، واذا كان يقدّر الشعراء صار كل فرد راغباً في حفظ الشعر وروايته أو التحدث فيه على أمل أن يكون في يوم من الايام شاعراً مشهوراً ، أو ناقدا للشعر على أقل تقدير •

عندما يفتح الطفل عينه للحياة يسمع الكبار حوله يتحدثون فيمدحون

شخصاً ويذمون آخر ، وهو يصغي الى أحاديثهم فتنغرز في نفسه القيم التي يجري تقدير الأشخاص عليها • فاذا كبر هذا الطفل اجتهد في أن يكون موضع تقدير الناس حسب القيم التي تلقنها في طفولته •

وفي بعض المجتمعات قد يكون هناك نظامان متناقضان من القيم : أحدهما واقعي وهو الذي يجرى تقدير الاشخاص به عملياً ، والآخر مثالي وهو الذي يتواعظ به الناس في خطبهم ومقالاتهم • فينشأ فيهم من جراء ذلك ما نسميه بـ « ازدواج الشخصية » ، حيث نجد الناس هنالك يترنمون بالمثل العليا في أقوالهم بينما هم في أفعالهم يسيرون على الضد منها •

اذا أردنا أن تعرف المستوى الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات وجب أن نغض النظر عما يتواعظ أفراده به من أقوال رنانة ونركز نظرنا على القيم الواقعية التي يجري تقدير الأشخاص بها فيه •

قال أحد علماء الاجتماع : « انظر الى الأشخاص الذين يقدرهم المجتمع تعرف الاتجاه الحضاري السائد في ذلك المجتمع ومصيره » •

الانسان والدين :

ان النفس البشرية تحتاج الى الدين كمثل ما يحتاج البدن الى الغذاء • فالانسان مهدد بالاخطار ومحاط بالمشاكل دائماً وهو اذن في حاجة الى عقائد وطقوس دينية تساعده على مواجهة تلك الاخطار والمشاكل وتبعث الطمأنينة في نفسه ازاءها •

ان الانسان الحديث بدأ يعالج مشاكله والأخطار التي تهدده بالعلم ، ولكنه خلال الدهور الطويلة التي عاشها قبل ظهور العلم الحديث كان يقف تجاه الطبيعة عاجزاً ، وكان مضطراً أن يلجأ الى الطقوس التعبدية على أمل أن تنقذه من الخطر • خذ مثلاً قرية بدائية يثور بقربها بركان مخيف ، فان أهل القرية لا يملكون تجاه البركان سوى القيام بالرقص الجماعي وعمل التعاويذ وتقديم القرابين حسبما تفهمه عقولهم • انهم يتصورون أن البركان شخص مثلهم تؤثر فيه التوسلات وابداء الخضوع والتزلف نحوه•

واذا شاءت الصدفة أن يهدأ البركان بعد قليل أيقنوا أن أفعالهم التعبدية هي التي أنقذتهم من غضب البركان ، وبذا تتحول تلك الأفعال الى طقوس تقليدية مقدسة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وكلما طال عليها الزمن ازدادوا لها تقديساً •

مهما يكن الحال فان الدين ليس كله على هذه الشاكلة ، ومن الممكن تصنيف الدين الى صنفين رئيسين هما : الدين الكهاني والدين النبوي • فالذي ذكرناه في أمر البركان ينطبق على الدين الكهاني وهو الدين الذي ليس له مؤسس بل هو ينشأ تلقائياً حيث يبتدعه العامة تدريجاً حسب تطور حاجاتهم النفسية والاجتماعية • أما الدين النبوي فأمره يختلف كل الاختلاف ، وقد يصح أن نصفه بأنه دين ثوري اذ هو يأتي به « نبي » من أجل اصلاح الأحوال السائدة في المجتمع على وجه من الوجوه •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن « النبي » حين يظهر بدين ثوري جديد لابد أن يقاومه المجتمع ، فليس يهون على الناس الذين ورثوا عقيدتهم القديمة عن الآباء ونشأوا عليها أن يروا شخصاً يسعى الى هدمها • انها عقيدة مقدسة في نظرهم ، وهم يعتبرونها أفضل العقائد وأقربها الى العقل ، ولذا فهم يستنكرون الدعوة الجديدة التي يأتي بها « النبي » كل الاستنكار ويتهمونه بشتى التهم ويضطهدونه ويسخرون منه ، وربما قتلوه •

وتظل الدعوة الجديدة التي يأتي بها « النبي » في حرب متصلة مع أعدائها فترة من الزمن قصيرة أو طويلة حسب اختلاف الظروف ، فاذا انتصر اعداؤها وقضوا عليها نساها الناس وصارت في حكم الموتى ، وما أكثر الدعوات التي ظهرت في التاريخ ثم ماتت • أما اذا انتصرت الدعوة على أعدائها كان ذلك عاملاً فعالاً في تكاثر أتباعها ، وكلما ازدادت انتصاراتها ازداد عدد الداخلين فيها واشتد تحمسهم لها وايمانا بها •

ان الذين يعتنقون الدعوة الجديدة في ايام محنتها قليلون جداً ، أما أكثر أتباعها فهم الذين يعتنقونها بعد انتصارها وهم فريقان : فريق

يعتنق الدعوة بدافع الانتهازية وطلباً للدنيا ، وفريق يعتنقها ايماناً بصحتها اذ هو يعتقد أنها لو لم تكن على حق لما انتصرت • ومما يلفت النظر أن هؤلاء الاتباع قد يضطهدون من يخالف الدعوة الجديدة كما كانوا من قبل يضطهدون أتباعها الأولين •

والمشكلة في كل دين نبوي أنه يتحول الى دين كهاني بمرور الأيام• فالتعاليم التي جاء بها « النبي » كثيراً ما تناقض العادات الاجتماعية السائدة بين الناس ، وهم انما رضخوا لتلك التعاليم في فترة الحماس الأولى عند دخولهم في الدين الجديد ، ولكنهم لا يستطيعون الاستمرار عليها طويلاً ، فهم لابد أن يتحرروا منها ليعودوا الى عاداتهم القديمة أو يطوروا لهم عادات أخرى تحت ضغط ظروفهم المتغيرة •

اعتاد العامة أن يأخذوا من الدين النبوي جوانبه الاعتقادية والتعبدية ، اما الجوانب الاجتماعية منـه ، وهي التي كافح « النبي » في سبيلها ، فهم لا يكترثون لها اذ هي تبقى مسجلة في الكتب يتواعظ الناس بها دون أن يعملوا بها •

ويستفحل هذا الاتجاه لدى العامة حين ينتشر بينهم مبدأ « الشفاعة » ، فتراهم يكذبون ويغشون وينهبون ويعتدون ، وهم في الوقت نفسه يشيدون المساجد والأضرحة ، ويتوسلون بقبور الأولياء ، ويقيمون الولائم والمواكب والمآتم ، اعتقاداً منهم ان الله سيغفر لهم ذنوبهم جميعاً بشفاعة أوليائه الكرام•

الواقع أن لرجال الدين دوراً لا يستهان به في هذا التحول نحو الدين الكهاني ، فهم بحكم وظيفتهم الاجتماعية يسايرون العامة فيما يعملون ، وقد يأتون بالأدلة « العقلية » و « النقلية » لتأييدهم عليه •

يجب أن لا ننسى أن رجل الدين بشر كسائر الناس ، وهو اتخذ الدين له حرفة كما يتخذ غيره أية حرفة أخرى ليرتزق منها • ان حرفة رجل الدين تفرض عليه أن يداري العامة لكي يرضوا عنه ، فرضاهم عنه هو الذي يرفع منزلته من جهة ، ويزيد في رزقه من الجهة الأخرى •

اننا نظلم رجل الدين حين نطالبه بأن يكون من دعاة الاصلاح في الدين ، ونحن في هذا كمن يطلب من صاحب دكان أن يقوم بعمل ينفّر الزبائن منه . ان كل دعوة اصلاحية لابد أن يقاومها العامة ويضطهدونها . وقد رأينا في « النبي » مثالاً على ذلك ، واذا أراد رجل الدين أن يقتدي بـ « النبي » في دعوته الاصلاحية فمعنى ذلك أنه يجب أن يسد دكانه ويبوء بالخسارة علاوة على هبوط منزلته بين الناس .

ذكرنا سابقاً أن أكثر الناس « عاميون » في تفكيرهم والنادر منهم من يكون « متفرداً » غير مندفع بتيارهم ، وهذا ينطبق على رجال الدين بشكل واضح ، فالمعروف عن معظم رجال الدين أنهم يجارون العامة في ما يبتدعون من عقائد وطقوس ، ولا نكاد نسمع عن أحدٍ منهم أنه دعا الى اصلاح الا مرة واحدة في كل جيل أو أقل من ذلك !

نلاحظ الكثير من رجال الدين يؤلفون الكتب في انتقاد عقائد الآخرين ، وهم يحسبون أنهم مصلحون . وهذا في الواقع ارتزاق لا اصلاح ، فهم في عملهم هذا انما يبتغون زيادة عدد الزبائن على دكاكينهم . ولو كانوا يقصدون الاصلاح حقاً لبحثوا عن عيوب قومهم ودعوا لاصلاحها بدلاً من البحث عن عيوب الآخرين .

خلاصة القول ان أنانية الانسان تظهر في مجال الدين على نحو ما تظهر في مجالات الحياة الأخرى . وللحسين بن علي كلمة جديرة بأن تُذكر في هذه المناسبة ، حيث قال : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فاذا مُحصوا بالبلاء قلّ الديانون » .

التنازع البشري :

التعاون والتنازع صفتان متلازمتان في البشر لا ينفصلان ، فلا يمكن أن يكون البشر متعاونين تعاوناً كلياً لا تنازع فيه ، أو متنازعين تنازعاً كلياً لا تعاون فيه . ان الانسان ليس حيواناً محضاً ولا انساناً محضاً ، بل هو

حيوان وانسان معا ، فهو يميل الى التعاون بدافع كونه انساناً ، ويميل الى التنازع بدافع كونه حيواناً .

الملاحظ في الطفل البشري أنه يميل الى التعاون والتنازع معاً منذ أوائل أيامه ، فهو اذا شاهد قريناً له من الأطفال ابتش له وأنس بصحبته وأخذ يتعاون معه في اللعب . غير أنه لا يستمر على ذلك سوى فترة قصيرة ، ومن ثم نراهما قد تشابكا بالأيدي وحاول أحدهما ضرب الآخر أو اختطاف ما في يده حيث يتركه يبكي دون أن يحس بأية شفقة عليه .

الانسان انما يتعاون مع غيره لانه مضطر الى ذلك ، فهو لا يستطيع أن يعيش منفرداً كالحيوان ولابد له من مجتمع يربيه ويساعده على تكوين طبيعته البشرية . فالانسان اذن يتعاون مع الجماعة التي ينشأ فيها وترتبط مصالحه وعواطفه بها ، ولكنه لا يكاد يلمح من بين جماعته أحداً ينافسه أو ينازعه على مصلحة له مادية أو معنوية حتى تنتفض من أعماقه نزعته الحيوانية الأصيلة ، فيكشر عن أنيابه وتبرز مخالبه المخفية .

ان الحياة الاجتماعية تجعل الانسان في اكثر الأحيان مضطراً أن يكتم غيظه ، ويداري خصمه أو يجامله ، فلا ينقض عليه كما ينقض الحيوان المفترس على فريسته ، انما هو يود أن يفعل ذلك من صميم قلبه ، وهو يتمنى أن يهاجم خصمه مباشرة لولا خوفه من كلام الناس أو عقاب الحكومة أو الثأر .

مزية الحيوان أنه حين يقوم بعمل يسير نحوه مباشرة ولا يبالي بمن حوله من أفراد نوعه . انه يجري على فطرته دون رياء أو تظاهر أو أية محاولة للتبرير . ولهذا نجد الذئب يهاجم الشاة فيأكلها ويقرمط عظامها ثم يضطجع هادئاً كأنه لم يفعل أمر منكراً . والواقع أن الانسان يحب أن يفعل بخصمه كما يفعل الذئب بالشاة ولكنه لا يقدر على ذلك في أكثر الأحيان لأن المجتمع قد وضع له قواعد وتقاليد وأعراف تمنعه من ذلك . واذا اضطر الانسان الى مهاجمة خصمه أو الانتقام منه فانه يبحث عن حجج

ومعاذير ليبرر بها فعله أمام الناس ، ونراه عند ذاك يصف خصمه بأبشع الصفات : يضخم معايبه وينكر محاسنه أو يتهمه بأنه خائن للوطن أو مارق عن الدين أو مضر بالمصلحة العامة • وهو يقصد من هذه التهم أن يجد له من بين الناس أعوانا يؤيدونه في ايذاء خصمه أو يسمحون له بايذائه على الأقل •

ان العقل البشري له مقدرة فائقة على ابتكار الحيل والوسائل بشتى أنواعها ، فهو يبتكر الأسلحة التي يقتل بها خصومه ، وهو كذلك يبتكر الحجج والمعاذير التي يبرر بها قتلهم •

يقال ان الانسان لديه « ضمير » يمنعه من أن يكون سبعاً ضارياً كالحيوان المفترس ، ويوصف « الضمير » بأنه الصوت الالهي في الانسان ، وهذا وصف مغلوط اذ المفروض في الله أنه لا يظلم الناس شيئاً بينما نجد « الضمير » كثيراً ما يدفع الانسان الى اقتراف الاعتداءات الفظيعة والمذابح •

ان « الضمير » في الواقع أمر نسبي وهو نتاج القيم الاجتماعية التي ينشأ عليها الانسان أو يؤمن بها بعدئذ • ولهذا رأينا الكثير من الأخيار والزهاد والصالحين يرتكبون أفدح الجرائم تجاه من يخالفهم في العقيدة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً •

سبب التنازع :

ان التنازع بين الحيوانات ظاهرة طبيعية ليست في حاجة الى تفسير أو تعليل ، فالحيوانات انما تتنازع على موارد الغذاء التي هي محدودة ، وهي بتنازعها يهلك منها الضعيف ويبقى القوي ، وبذا يتم التطور البيولوجي عبر ملايين السنين كما هو معروف •

ومن الممكن القول ان البشر انما يتنازعون لنفس السبب الذي تتنازع له الحيوانات • فموارد الطبيعة محدودة ، ولابد للبشر أن يتنازعوا عليها • ولنفرض أن تلك الموارد توفرت بقدرة قادر بحيث أصبحت تكفي البشر جميعاً ، فانهم يظلون يتنازعون على الرغم من ذلك •

مشكلة الانسان ان حاجاته غير محدودة ، وهو في ذلك يختلف عن الحيوان ، فهو كلما أشبع حاجة من حاجاته انبثقت فيه حاجة أخرى • أضف الى ذلك أن الانسان لا يكتفي بالحاجات المادية وحدها ، اذ هو يملك حاجات معنوية علاوة عليها ، وربما كانت حاجاته المعنوية أكثر أهمية من الحاجات المادية في بعض الاحيان • فهو لا يكاد يشبع من الطعام حتى يتطلع الى الغرام والهيام ، أو الى الجاه والرئاسة ، أو الى غير ذلك من المطاليب التي لا تحصى • وتراه لاهثاً وراءها لا يقف فيها عند حد ، فلا يهدأ الا عندما يدركه الموت فيستريح عندئذٍ ويريح •

مما يزيد في حدة التنازع البشري هو ما يتصف به الانسان من تحيز عقلي وتغلف ذاتي • فكل شخص يعتقد أنه أولى من غيره ، أو أفضل ، أو أذكى ، أو اكفأ ، أو أجمل ، ثم يأتي بالحجج التي تؤيده في ذلك • فاذا تنازع مع أحد أيقن أنه هو المحق وأن خصمه لابد أن يكون مبطلاً •

يتضح هذا في قاعات المحاكم وما يجري فيها من خصومات قضائية ، فكل فريق من المتخاصمين يعتقد أن الحق معه ، فاذا حكم القاضي الى جانبه قال عنه انه منصف ، والا فهو جائر غشوم •

وهذا أمر لا يقتصر على الأفراد بل هو موجود بين الجماعات أيضاً • نقد امتلأ التاريخ بأحداث النزاع العنيف فيما بين القبائل ، والمدن ، والاحزاب ، والطوائف ، والدول • وكل فئة من هذه الجماعات تؤمن بان الحق معها وأن الباطل مع خصمها •

قد يسأل سائل : هل يمكن أن يأتي يوم على البشر يزول التنازع عنهم ويسود بينهم التآخي والوئام ؟

الواقع اننا اختبرنا الانسان طيلة الدهور التي عاشها على وجه الأرض فلم نره قد تبدل في طبيعته ، بل بقي كما كان ، على الرغم من تبدل المراحل الاجتماعية التي مر بها • حين ننظر الى أعظم الدول الآن ، وأرقاها حضارة وعلماً ، نجدها تتنازع فيما بينها على منوال ما تتنازع القبائل البدائية • وقد

شهدنا الدول « الراقية » تخوض حربين عالميتين فكانت القسوة التي عاملت كل دولة بها أعداءها لا تقل فظاعة عن قسوة الهمج •

ان الحكومات استطاعت أن تحسم المنازعات التي تنشب بين رعاياها بوساطة أجهزة القضاء والشرطة وما أشبه ، وهذه الأجهزة قد تكون متفسخة أو جائرة ولكن وجودها على أي حال خير من عدمه ، فلولاها لتحوّل النزاع بين الأفراد الى قتال عنيف وأكل بعضهم بعضاً • ويصح أن نقول مثل هذا عن الحروب التي تنشب بين الدول ، فهذه الحروب ستظل مستمرة الى أن تظهر قوة عالمية قاهرة تحكم في منازعات الدول ، وتنفذ حكمها بالقوة ، على منوال ما تفعل الحكومات المحلية في منازعات الأفراد •

ان الدول الآن تعيش في نفس المرحلة التي عاش فيها الأفراد قبل ظهور الحكومات المحلية • فكل دولة تريد أن تأخذ حقها بحد السيف ، وهي تشحذ سلاحها استعداداً للحرب ، ومعنى هذا ان الحرب بين الدول لا تحتاج الا الى شرارة صغيرة لكي تنفجر كما ينفجر مخزن البارود !

ان العقل البشري استطاع أن يبتكر أعجب الاسلحة وأشدها فتكاً ، ولكنه لا يزال في منازعاته يفكر على نمط ما كان عليه الأسلاف الغابرون • وهنا يكمن الخطر الاكبر ! فطبيعة التنازع في الانسان لم تتغير انما تغيرت الاسلحة التي يستعملها الانسان في تنازعه • لقد تحوّل السيف والرمح والسهم في يد الانسان الى طائرات وصواريخ وقنابل نووية • ونحن نخشى أن يبتكر العقل البشري أسلحة أفظع من هذه ثم يظهر في احدى الدول زعيم من طراز هتلر فينسف الكرة الأرضية نسفاً !

لا يجوز أن نثق بالانسان حين نراه ينادي بالعدل أو الحق أو غيرهما من المثل العليا • فهو كما أشرنا اليه من قبل انما ينادي بتلك المثل حين تكون نافعة له ، وهو ينساها حين تكون نافعة لخصمه • فلو ترك البشر من غير قوة قاهرة تفرض السلم عليهم فرضاً لظلوا يتحاربون وهم يعتقدون أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل •

تركيب الشخصية :

جرى المفكرون القدماء على التصنيف الثنائي في حكمهم على الأشخاص ، وكانوا يضعون بين كل صنف ونقيضه حداً فاصلاً لا يجوز تعديه في نظرهم اذ هم يعتبرونه حداً طبيعياً ، فاذا حكموا على شخص بأنه عادل مثلاً وجب أن يكون الشخص عادلاً في جميع أفعاله وأقواله فلا يمكن أن تظهر عليه أية بادرة من الظلم مهما كانت ضئيلة •

ان هذا هو ما يعرف في المنطق القديم بقانون « الوسط المرفوع » أو « الثالث المرفوع » ، وهو قانون كان القدماء يعتقدون أنه من الضرورات العقلية التي لا يجوز الشك فيها • وقد تبين الآن خطأ هذا القانون ومخالفته لواقع الحياة ، فليس هناك صفة محضة في أي انسان بحيث تخلو من نقيضها، ولابد لكل انسان من أن يجتمع فيه النقيضان من كل صفة ، غير أن أحد النقيضين قد تزداد نسبته فيه من حيث تقل نسبة النقيض الآخر •

بطل استعمال قانون « الوسط المرفوع » في البحوث الحديثة وحل محله قانون « التدرج » ، ومعنى هذا القانون ان البشر يتفاوتون في صفاتهم درجياً لا نوعياً ، فاذا أردنا تصنيفهم وجب أن نضعهم على درجات متتابعة حسبما تكثر أو تقل نسبة احدى الصفات فيهم •

خذ مثلاً ما اعتاد الناس عليه من تصنيف الأفراد حسب طول قاماتهم، اذ يقولون : هذا طويل وذاك قصير ، ولكننا في الواقع لو جمعنا عدداً كبيراً من الأفراد ووضعناهم في صف واحد حسب الطول لوجدناهم قد انتظموا بشكل درجي لا يصح فيه التصنيف الثنائي ، ففي أقصى الطرفين نجد أطولهم ، وفي أقصى الطرف الآخر نجد أقصرهم ، أما الباقون فهم على درجات متفاوتة بين ذينك الطرفين •

ان هذا التدرج يصدق على جميع الصفات البشرية كمثل ما يصدق على طول القامة • وأوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو ما توصلت اليه البحوث النفسية في أمر قياس الذكاء ، فقد ثبت الآن أن

الافراد يتفاوتون في ذكائهم تفاوتاً درجياً كبيراً . فالأوساط من الناس هم الذين تتراوح درجة ذكاؤهم بين السبعين والمائة والأربعين. وهناك المفرطون في ذكائهم الذين قد يتجاوز بعضهم المائتين . وهناك في الطرف الآخر المتخلفون عقلياً وهم الذين تهبط درجة ذكائهم دون السبعين قليلاً أو كثيراً .

يجب ان لا ننسى ان البحوث الحديثة كثيراً ما تستعمل التصنيف الثنائي غير أنها تقصد منه معنى غير المعنى الذي يقصده القدماء ، فهي تقصد به تبيان النموذج من كل صفة ونقيضها ، مع العلم أن هذا النموذج ليس له وجود واقعي انما هو افتراض خيالي يراد تصوير الطرف الأقصى من الصفة أو نقيضها .

ان الصفات البشرية كثيرة يصعب حصرها ، وقد تطرقنا الى ذكر بعضها سابقاً عند دراسة الفرق بين الجنون والعقل ، وبين العامية والتفرد ، وبين الفطارة والنضوج . ونستطيع أن نضيف الى هذه صفات أخرى هي التي اعتاد الناس أن يشيروا اليها عند تصنيفهم الاشخاص حيث يميزون بين الطيب واللئيم ، والشجاع والجبان ، والرحيم والقاسي ، والانبساطي والانطوائي ، والكريم والبخيل ، والمتفائل والمتشائم ... الخ .

ان الصفات البشرية بشتى أنواعها اذ تتجمع في الفرد على نسب متفاوتة تؤدى الى تكوين « الشخصية » فيه . وهذا هو الذي جعل من النادر وجود اثنين من البشر يتماثلان في تكوين شخصيتهما تماثلاً تاماً . فكل فرد من البشر يحمل في شخصيته جميع الصفات كما رأينا ، ولكن الأفراد يختلفون فيما بينهم من جراء اختلاف النسبة الموجودة بين تلك الصفات في كل واحد منهم . ان الشخصية بهذا الاعتبار تشبه المركّب الكيمياوي المعقد ، فأقل تغير في النسبة بين محتوياتها يؤدي الى تغير واضح في طابعها العام .

مما يجدر ذكره أن تركيب الشخصية لا يخضع للمنطق ، بل ان له منطقاً خاصاً به . فقد يكون شخص ما مفرطاً في الذكاء ولكنه في الوقت

نفسه عامي التفكير فطير ، أو قد يكون انبساطياً جداً ومتفرداً • فالناس قد يتعجبون من مثل هذا الشخص اذ هم لا يستطيعون أن يفهموا كيف يجمع في شخصيته هذه الصفات التي هي متعارضة في زعمهم • والواقع أن عدداً لا يستهان به من رجال التاريخ العظام هم من هذا الطراز العجيب غير أن المؤرخين غربلوا أخبارهم ونسقوها بحيث جعلوا صفاتهم منسجمة كلها مع العقل والمنطق •

وهناك نقطة أخرى جديرة بالذكر أيضاً ، هي أن الكثير من الناس قد يقعون في الخطأ حين يفسرون سلوك غيرهم بما يفسرون به سلوكهم حيث يغفلون عن الفرق الكبير بينهم وبين الغير في تركيب الشخصية • فأحدهم مثلاً قد يكون انبساطياً جداً بحيث لا يستطيع أن يستقر بضعة دقائق من غير أن يكون معه صاحب ينادمه ، ولا يتحمل السفر أو التنزه أو تعاطي الخمرة الا برفقة أحد ، وهو يتصور أن الناس كلهم مثله وقد يقسرهم على مرافقته ظناً منه أنهم سيسعدون بذلك كما يسعد هو به مع العلم أن في الناس من هو على النقيض منه اذ لا يستطيع أن يتمتع بوقته الا منفرداً •

خلاصة القول ان شخصية كل انسان فريدة من نوعها لا تماثلها أية شخصية أخرى • وهذه حقيقة ينبغي أن نضعها نصب أعيننا عندما نريد أن نعامل الناس أو نصدر أحكامنا عليهم • وما أكثر الذين جهلوا هذه الحقيقة فاساؤوا الى الناس والى أنفسهم • وقد تتعضل المشكلة حين يكون أحدهم ذا سلطة على الناس ، فهو يشتهي أمراً ويحسب أن الناس كلهم يشتهونه مثله ، وهو قد يقسرهم عليه قسراً فيضرهم من حيث يظن أنه يريد نفعهم •

الخاتمـة :

قد يسأل سائل : لماذا نريد أن نعرف طبيعة الانسان على حقيقتها ، وما الفائدة العملية التي نجنيها من ذلك ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نصلح الانسان أو نعالج مشاكله ما لم نفهم طبيعته التي جُبل عليها • فقد أخطأ المفكرون القدماء حين تصوروا الطبيعة البشرية كأنها نتاج العقل ، وتصوروا العقل كأنه موهبة عليا وظيفتها الوصول الى الحقيقة ، وبذلك ظنوا أن في وسعهم اصلاح البشر عن طريق الموعظة والخطابة والنصيحة •

اصطنع اولئك المفكرون مثلا عليا للانسان ، كما فعل افلاطون في جمهوريته ، والفارابي في مدينته الفاضلة ، ثم صاروا يرشدون الناس الى تلك المثل ثقة منهم أن الانسان اذا عرفها واقتنع بها عقلياً أخذ يسعى نحوها ويحققها في نفسه ومجتمعه ، وبذا يتم الصفاء والهناء في العالم بزعمهم •

أخفقت كل المثل التي جاء بها المفكرون القدماء ، فلم يتأثر بها أحد فعلياً ، وظل الناس كما كانوا قديماً يسيرون على نمط ما اعتادوا عليه • واذا تعلم أحد المتحذلقين شيئاً من الفلسفة تعالى على الناس واتخذ تجاههم موقف الواعظ الفاهم وأخذ يلومهم على سوء أخلاقهم وينسب اليهم سبب المصائب التي تحل بهم ، مع العلم أنه في سلوكه الفعلي لا يختلف عنهم •

اذا رأينا فكرة مثالية عالية لا يتأثر بها البشر على توالي الأجيال فينبغي أن نضع اللوم عليها لا على البشر • فالبشر قد جُبلوا على طبيعة معينة لا يستطيعون التحول عنها ، ونحن يجب أن نجعل الفكرة ملائمة للطبيعة البشرية بدلاً من أن نجعل الطبيعة ملائمة للفكرة •

صوّر لنا الفارابي في كتابه « المدينة الفاضلة » مجتمعاً سعيداً يعيش في أتم الصفاء والهناء ، وكان رأيه أن من أهم خصائص هذا المجتمع وجود رئيس صالح فيه ينظم شؤونه ويحكم فيه بالعدل • وقد ذكر الفارابي الصفات المثالية التي يجب أن تتوفر في الرئيس حيث يكون تام الأعضاء فاهماً ذكياً فصيحاً معتدلاً صدوقاً عادلاً قوي العزيمة محباً للعلم معتزاً بكرامته • ان الفارابي لم يقف ليسأل : اين يمكن ان نجد مثل هذا الرئيس

الكامل ؟ واذا وجدناه فكيف يمكن أن نجعل الناس ينتخبونه رئيساً لهم ؟

لنفرض أننا بعد البحث الطويل عثرنا في احدى زوايا الأرض على الشخص الكامل حسبما تخيله الفارابي ، ثم جئنا به نزفه الى الناس اذ نقول لهم : هيا انتخبوه لتسعدوا ! فهل يا ترى سيوافق الناس على رأينا هذا ويسرعون الى انتخاب الشخص الذي رشحناه لهم ؟

ان البشر كما خبرناهم على توالي الازمان لا يمكن أن يتفقوا على رأي واحد ولو جاءهم هذا الرأي من السماء ، فهم لابد أن ينقسموا عليه وقد يتنازعون حوله أو يتقاتلون •

ان الشخص « الكامل » الذي جئنا به اليهم لا يكاد يصل اليهم حتى يظهر تجاهه منافسون يحسبون أنفسهم أفضل منه وأعدل وأذكى ، ثم يحاولون أن يجمعوا حولهم الانصار ، وعند هذا يبدأ الجدال بينهم وربما أدى ذلك الى التشاتم أو التشابك بالأيدي أو التضارب بالسيوف • وقد تنتهي المعمعة بسقوط الشخص « الكامل » على الأرض مضرجاً بدمائه •

ان الفارابي وأمثاله من المفكرين القدماء لا يهتمون بهذه الاحتمالات المتوقعة ، وكأنهم يعيشون في عالم غير العالم الذي يعيش فيه البشر • فهم يضعون الخطة الطوبائية لاصلاح المجتمع ويطلبون من الناس تحقيقها دون أن يقفوا لحظة ليتساءلوا : هل في مقدور البشر تحقيق تلك الخطة عملياً أم لا ؟ !

من المؤسف أن نرى بعض مفكرينا وكتابنا لا يزالون يسيرون في تفكيرهم على هذا النمط من التفكير المثالي ، فهم اذا أعجبتهم فكرة أخذوا يخطبون ويكتبون بحماس في الدعوة اليها ، ولا يبالون عندئذ أن تكون الفكرة منسجمة مع الطبيعة البشرية أم مخالفة لها •

اننا اليوم في أشد الحاجة الى اصلاح الأذهان قبل البدء في اصلاح البلاد !

الفهرس

الصفحة

حول الأخطاء المطبعية

وقعت في هـذا الجزء أخطاء مطبعية عـلى الرغم من شـدة العناية بالتصحيح ، وهي أخطاء نامل أن يفطن اليها القارىء ويصححها بنفسه .



SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**
EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD